

شخصیاتِ اسلامیہ



شخصيات أسنات

الأسناد المذكور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العامة
بجامعة دمشق

دار الكتب

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين الذي قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، المبعوث رحمة للعالمين ، ومعلم الناس الخير ، والقائل: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»^(١) ، وبعد:

فإن العلم نور ، والأنبياء والرسل والعلماء هم حملة النور ، ولذلك كان رسول الله ﷺ سراجاً وهاجاً للأمة ، وضياءً للبشر ، وأسوة للناس ، وقدوة للمسلمين ، وهو المثل الكامل ، والنبى المصطفى المختار ، والقائد الفذ ، والمعلم الفريد ، نزل عليه الوحي ، وبلغه للناس ، ودعا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وربى جيل الصحابة الذي لا يعرف التاريخ له مثيلاً ، ثم لحق بالرفيق الأعلى إلى جوار ربّه على سُنّة البشر ، ولكن سنة الله في الكون دائمة ، فكان العلماء ورثة الأنبياء ، وقام الصحابة رضوان الله عليهم بالخلافة الكاملة في حمل الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتبليغ الدعوة ، ونشر العلم والدين والإسلام في أرجاء المعمورة ، ثم لحقهم التابعون ومن بعدهم حتى يومنا هذا ، وإلى قيام

(١) سنن ابن ماجه ٨٣/١ .

الساعة ، يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

وأنجبت أمتنا العربية والإسلامية ملايين العلماء ، وتوفر في كل عصر ومكان وجود العلماء العاملين ، والأئمة المخلصين ، والدعاة الصادقين ، الذين يحملون العلم والدين ، ويبلغونه للناس ، وينفون عنه الخبث ، ويخلصونه من الشوائب التي تعلق به ، والأدران التي تلصق بجوانبه ، والشبهات التي تثار حوله ، والباطل الذي يقذف في طريقه أو يشوه جوهره ومعدنه ، أو يحاول أن يقلب قيمه ومبادئه ، أو يستغلها ويتاجر بها ، فقام العلماء الأعلام بهذه المهمة المقدسة ، وامتألت بهم صفحات التاريخ ، وخلدت ذكرهم المصنفات الكبيرة والصغيرة ، الخاصة والعامة ، الشاملة والمتفرعة ، فكانوا منارات الهدى لأمتهم ، ومبعث الرجال لشعوبهم ، وكانت أقوالهم وأفعالهم قد غيرت مجرى التاريخ ، وكانت مواقفهم السامية مفترق الطرق بين الذل والعزة ، والهزيمة والنصر ، والضعف والقوة ، والاستخذال للأعداء والاعتزاز بالله ودينه والدفاع عن مقدساته ، فكان التاريخ الإسلامي زاخراً بالعلماء الأعلام ، والأئمة الأفاضل ، لذلك وجب على الناس موالاتهم واتباعهم ، والوقوف خلفهم ، والسير بجانبهم ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « فيجب على المسلمين - بعد موالاته الله ورسوله - موالاته المؤمنين ، كما نطق به القرآن ، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماءؤها شرارها إلا المسلمين ، فإن علماءهم خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول في أمته ، والمحيون ما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا »^(١) .

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ٣ نشر المكتبة العلمية - المدينة المنورة .

وإن الاطلاع على حياة أهل العلم والورع يستنهض الهمم في اقتفاء آثارهم ، ويستنزل الرحمة من الله تعالى ، قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى : «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»^(١) ، لأن العلماء مشاعل نور تضيء للناس طريق الخير والصلاح والرشد والتقدم والرقى ، ويشع نورها على امتداد الأجيال ، وهم الموثل في الملمات ، والمرجع في المشكلات ، والمورد للارتداء ، والحجة على العباد .

وإن العلماء تمتد حياتهم بعد الموت ، ليقبوا أحياء في الذاكرة ، وفي المجالس ، وعلى الألسنة على مر التاريخ ، وتبقى شعلتهم مضاءة في الخافقين ، وينتفع الناس بهم إلى ما شاء الله تعالى ، ويبقى اسمهم يتردد في كل مكان ، ويبقى علمهم فياضاً وإراثاً خالداً ، وهم في قبورهم ، تصديقاً للحديث الشريف «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعوه له»^(٢) .

وإن الأمم الحية تفخر بماضيها وتاريخها ، وإن من مظاهر الحياة في الأمة أن تثير الهممة نحو تاريخها ، وتجدد الصفحات المشرقة فيه ، وتذكر الأعلام الذين كان لهم شأن في الحياة ، وتأثير في المجتمع ، وإذكاء للفكر ، وتجديد للعقل ، ولهم أياد بيضاء في العلم ، لتعترف بفضلهم ومآثرهم ، وتوجه الأجيال للنأسي بهم ليكونوا خير خلف لخير سلف ، وليعرف الجيل الحاضر والمستقبل جهاد الآباء والأجداد ، ومنهج حياتهم الذي وصلوا به إلى أطراف المعمورة ، وارتفع إلى عنان السماء ، وخلدوا بصماتهم في مختلف البلدان ، وحملوا مشعل الحضارة الإنسانية عدة

(١) كشف الخفا ٩١/٢ ط دار التراث - حلب .

(٢) هذا الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهذا لفظه (٨٥/١١) مع شرح النووي) ورواه أبو داود (١٠٦/٢ ط مصطفى الحلبي) والنسائي (٦/١٠ ط الحلبي) وغيرهم .

قرون ، وشاركوا في التراث الإنساني في جميع العلوم .

وهذا يوجب عرض سيرة العلماء ، وبيان مواقفهم ، وكشف الحقائق عنهم ، وتقديم الدراسات المتنوعة عنهم ، وهو ما قصدنا في هذه البحوث الموجزة عن بعض الشخصيات الإسلامية .

وهؤلاء كوكبة من مجرات كثيرة ، ونماذج لغيرهم ، ولعل كل واحد منهم يمثل فرعاً من جيله ونجماً من أترابه في العلم ، من مختلف الأجيال ، وفيهم الإمام ، والمصلح ، والداعية ، والفقيه ، والمجتهد ، والأديب ، والمفسر ، والمحدث ، والمؤلف ، عرضنا سيرة كل منهم بشكل مقتضب وموجز ، تذكيراً بفضلهم ، وتنويعاً بمآثرها ، وحثاً على التوسع في دراستهم ، والاستفادة منهم .

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد ، والاهتداء والاعتداء ، وحسن العمل والخاتمة ، وصلى الله وسلم على صفوة خلقه ، ورضي الله عن صحابته ، ورحم الله العلماء ، والحمد لله رب العالمين .

الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي

كلية الشريعة

- جامعة دمشق - جامعة الكويت

دمشق في ١٣/٦/١٤١٩هـ

١٩٩٨/٩/٤م

العزُّ بنُ عبدِ السَّلام ابن دمشق البار سلطان العلماء وبائع الملوك

أنجبت دمشق الفيحاء خلال تاريخها الطويل عامة ، وعصرها الإسلامي خاصة ، نخبة من العلماء الأعلام ، وكوكبة من الدعاة المخلصين ، والقادة الأبطال ، والمصلحين العاملين ، والأدباء والشعراء ، والأطباء والمفكرين ، وبرز فيها لمعة من الفقهاء والمجتهدين ، والأولياء الصالحين .

كما احتضنت دمشق بين جنباتها كثيراً من أبناء الأمة العربية العريقة ، وشعوب البلاد الإسلامية الماجدة ، منهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم طوال عهدها الزاهر ، فاستهوت أفئدتهم ، وجذبت قلوبهم ، فأقاموا فيها ، وسكنوا في غوطتها ، وتفيؤوا ظلالها ، فمنحتهم خيراتها ، وبادلوها عطاء بعطاء ، وحباً بحب ، وخيراً بخير .

وكان الفريقان السابقان أمثلة للعالم أجمع ، وتجاوزت شهرتهم دمشق وحدود بلاد الشام ، وبلغت الخافقين ، وانتشرت في العالم العربي والإسلامي ، وسجل التاريخ لهم صفحات من نور ، وجهاداً في سبيل الله ، وخلفوا للأمة والإنسانية تراثاً مشيراً ، وكتباً خالدة ، وكان كل منهم مضرب المثل في علمه وعمله وسلوكه ، وفي اختصاصه ومجال نشاطه .

ونأخذ مثلاً عنهم العز بن عبد السلام ، الإمام العالم العامل ، العلامة

المشهور ، ابن دمشق البار ، والقاضي العادل ، والمفتي الأمين ،
والباحث المجتهد ، إلى غير ذلك مما يكثر الحديث عنه ، ويتكرر ذكره
في مجالس العلم ومختلف المناسبات ، ويرد السؤال عن حياته
وشخصيته ، لذلك أردنا أن نلقي الأضواء على حياته الشخصية ، وسيرته
الذاتية ، بإيجاز واختصار ، لنذكر الأجيال الحاضرة والمستقبل بالأجداد
العظماء ، والتاريخ التليد ، ليقتفي الخلف سيرة ذلك السلف المجاهد
الصالح .

اسم العز ونسبه :

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن
مُهَذَّب ، وذلك باتفاق العلماء ، وإجماع المصادر المعتمدة .

أما نسبه فهو السُّلَمي نسبة إلى بني سُليم إحدى القبائل المشهورة من
قبائل مضر ؛ وهو المغربي الأصل ، ولعل أحد أجداده جاء من المغرب
وسكن الشام ، وهو الدمشقي نسبة إلى دمشق التي ولد بها ، وترعرع في
ربوعها ، وطلب العلم فيها ، وتولى المناصب والأعمال المختلفة بها ،
وقضى فيها معظم حياته ، وهو المصري ، نسبه إلى مصر التي انتقل إليها
بعد الستين من عمره ، واستقر بها إلى أن مات فيها ودفن ، وهو الشافعي
نسبة إلى مذهب الإمام الشافعي الذي تفقه العز على فروعه وأصوله ،
ودرس فقهه ، وأفتى به ، وتولى القضاء للحكم بموجبه ، وصنف الكتب
الفقهية على طريقته ومنهجه ، حتى بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب ، وكان
له بعض الآراء الخاصة ، وصنف كتابين مشهورين ، وهما «قواعد
الحكام» و«الإمام في بيان أدلة الأحكام» يشهدان بإمامته واجتهاده .

كنية العز ولقبه :

كنيته أبو محمد ، لأنه تزوج وأنجب عدة أولاد ، وكان أشهرهم في
العلم والفقه ولده عبد اللطيف ، ثم ولده إبراهيم .

أما لقبه فهو عز الدين جرياً على عادة العصر الذي انتشرت فيه الألقاب للحكام والعلماء ، ويختصر لقبه بالعز ، وهي التسمية الشائعة في الاستعمال عند الناس ، وفي كتب التاريخ والتراجم والفقه ، كما اشتهر بلقبه الثاني «سلطان العلماء» واللقب الثالث «بائع الملوك» لمواقفه المشهودة والمشهورة والخالدة في التاريخ ، ويعرف أيضاً بابن عبد السلام إشارة إليه في بعض الأحيان ، لكن يشاركه في هذه التسمية الأخيرة غيره من المالكية خاصة ، ومن الشافعية والحنابلة وغيرهم عامة .

ولقب العز أيضاً بالقاضي ، لتوليه منصب القضاء في دمشق والقاهرة ، كما لقب بقاضي القضاة ، لتعيينه مسؤولاً عن القضاة والقضاء في الفسطاط والوجه القبلي من مصر .

ولادة العز :

ولد العز بن عبد السلام بدمشق باتفاق المصادر والمراجع ، ولكن حصل اختلاف في تاريخ ولادته ، فذهب كثيرون إلى تحديده بسنة سبع وسبعين وخمسمئة للهجرة ، وقال آخرون : إنها سنة ثمان وسبعين وخمسمئة ، وتشكك فريق ثالث بين السنتين ، والراجح هو القول الأول ، وأنه ولد سنة ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١ م ، لوجود القول المعتمد عند أكثر المؤلفين والمؤرخين والباحثين ، أنه توفي سنة ٦٦٠ هـ ، وأن عمره في الراجح ثلاث وثمانون سنة ، مع الاعتماد على حكاية نقلها العلامة المؤرخ ، والفقيه الشافعي ، ابن السبكي ، وهو أقرب المؤرخين لحياة العز وسيرته .

نشأة العز وتعلمه :

نشأ العز بدمشق التي كانت حاضرة العلم والعلماء منذ العصر الأموي ، وكان يقطنها العلماء من كافة الفنون ، ويجتمع فيها أئمة الدين البارعين ، ويقصدها الطلبة من كافة الأصقاع ، ويلتقي فيها المتخصصون

من الشرق والغرب ، وكان المسجد الأموي يشع بالنور والعلم ليلاً ونهاراً ، وكان موئل العبادة والعباد ، والعلماء والصالحين .

وعاش العز في أسرة فقيرة مغمورة ، ولكنها كانت تربة صالحة للنبوغ والتفوق ، وجمع العز في مقتبل عمره بين العلم والسعي للرزق ، وبين سماع الدروس الدينية ، وحضور مجالس العلماء والمشايخ ، إلى أن حصلت معه قصة أثناء مبيتته في الكلاسة ، وهي الزاوية الشمالية للجامع الأموي ، فأغمي عليه ، وسمع من يناديه : يا بن عبد السلام ، أتريد العلم ، أم العمل ؟ فقال الشيخ عز الدين : العلم ، لأنه يهدي إلى العمل ، فأصبح ، وأخذ كتاب «التنبيه» للشيرازي ، وهو مختصر في الفقه الشافعي ، فحفظه في مدة يسيرة ، وأقبل على العلم ، حتى أصبح ، كما يقول ابن السبكي : «أعلم أهل زمانه ، ومن أعبد خلق الله تعالى» .

وهذا يدل على أن العز كان في أول أمره فقيراً جداً ، ولم يشتغل في العلم إلا على كبر السن ، وأنه نشأ في بيئة دينية ، ومجتمع إسلامي ، ومحيط ديني ، يقدر العلم ، ويجل شأنه ، ويلتزم بأحكام دين الله .

وتدل الأخبار أن العز رحمه الله تعالى نشأ في شبابه على التدين ، وكان يتحلى بالورع والتقوى ، والصرامة في أمور الدين ، وقوة الشكيمة في تنفيذ الأحكام ، والصبر على تحمل الصعاب والشدائد في سبيل الله ، وطلب مرضاته ، والتعرض للمخاطر في الحياة ، وحققت هذه الصفات الجسمية والنفسية والروحية ثمارها في مواقف العز ، وسلوكه في الحياة ، وتوليه للمناصب ، وجمعه بين العلم والعمل ، مع ما يتمتع به من حصافة الرأي ، ورجاحة العقل ، والفراسة في الأشخاص والأحوال .

وتوجه العز إلى طلب العلم بجهد واجتهاد ، وفهم وهمة عالية ، يساعده في ذلك ذكاؤه الخارق ، وملكاته الفطرية ، ومواهبه الإلهية ، ليعوض ما فاتته في طفولته وصباه .

وقصد العز مجالس العلماء والعلم ، وجلس في حلقاتهم ، ينهل من معينهم ، ويكب على الدراسة والحفظ ، والفهم والاستيعاب ، حتى حفظ «التنبيه» في فترة قصيرة ، واجتاز العلوم بمدة يسيرة ، وقال عن نفسه : «ما احتجت في علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه ، وما توسطته على شيخ من المشايخ الذين كنت أقرأ عليهم ، إلا وقال لي الشيخ : قد استغنيت عني ، فاشتغل مع نفسك ، ولم أقنع بذلك ، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذي أقرؤه في ذلك العلم» وكان يقول : «مضت لي ثلاثين سنة لا أنام حتى أمر أبواب الأحكام على خاطري» .

ولم يقتصر العز على تلقي العلم ، بل اختار فطاحل العلماء العاملين ، أو جهابذة العلم البارعين ، فأخذ علمهم أولاً ، وتأثر بأخلاقهم الفاضلة ، وسلوكهم الرفيع ، وتلقف توجيههم ، ورمق مواقفهم التي تركت أثرها الحميد عليه في جميع حياته ، حتى أصبح كما قال ابن السبكي عنه : «أعلم أهل زمانه ، ومن أعبد خلق الله تعالى» .

وجمع العز في تحصيله بين العلوم الشرعية والعلوم العربية ، التي تعتمد في محورها ومنطلقها ومبعثها على القرآن الكريم ، هداية ولغة وتشريعاً ، فدرس علم التفسير وسائر علوم القرآن ، وأتقن الفقه وأصوله ، والحديث وعلومه ، واللغة والنحو والبلاغة ، وشارك في علم الأخلاق والزهد والسلوك والتصوف وعلم الخلاف .

ولم يكتف العز بدراسة هذه العلوم ، بل بقر كنوزها ، وغاص إلى أغوارها ، وفهم حقائقها ودقائقها ، وتفوق في معرفتها والتأليف فيها ، لذلك وصفه ابن العماد الحنبلي بقوله : «وبرع في الفقه ، والأصول ، والعربية ، وفاق الأقران والأضراب ، وجمع بين فنون العلم من التفسير

والحديث والفقه ، واختلاف أقوال الناس ومآخذهم ، وبلغ رتبة الاجتهاد .

وأدرك العز رحمه الله تعالى أهمية الرحلة في طلب العلم التي أصبحت منقبة ومفخرة ومزية لصاحبها في الحضارة الإسلامية ، وقال فيها : «الرحلة نصف العلم» ، فرحل العز عن دمشق إلى بغداد ، حاضرة الخلافة العباسية ، وسمع الحديث الشريف عن علمائها ومحدثيها ، كما رحل إلى الحجاز بقصد الحج والعمرة ، والتقى بالعلماء من سائر الأقطار الإسلامية ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، وقصدوه بالفتوى ، ثم رحل أخيراً إلى مصر التي استقر فيها ، واستفاد من علمائها ، ونشر العلم فيها .

شيوخ العز ومعاصروه :

درس العز في البلاد الإسلامية على عدد من المشايخ والفقهاء والعلماء ، واستفاد منهم ، وتزود من علمهم ، وتأثر بسلوكهم ومواقفهم ، نذكر منهم :

١ - فخر الدين بن عساكر (٦٢٠ هـ) الذي كان شيخ الشافعية بالشام ، وفقه زمانه ، وكان محدثاً ، صالحاً ، زاهداً ، كثير التهجد ، حسن الخلق والخلق ، كثير الأدب ، منقطعاً للعلم والعبادة والعمل ، وكان قوياً في الحق ، لا يهاب سطوة ظالم ، ولا يسكت على منكر أو مخالفة للشرع ، وطلب للقضاء فامتنع ، وعرضت عليه عدة مناصب دينية فأبأها ، وأنكر على الملك المعظم بدمشق ما شاع في زمانه من كثرة بيع الخمر فمنعه من التدريس ، وأخذ عنه العز الفقه والحديث .

٢ - جمال الدين بن الحرستاني (٦١٤ هـ) قاضي دمشق ، وكان مُسَيِّد الشام ، وشيخ الإسلام في عصره . وكان إماماً ، فقيهاً ، عارفاً بالمذهب الشافعي ، ورعاً ، صالحاً ، محمود الأحكام ، حسن

السيرة ، كبير القدر ، زاهداً على طريقة السلف ، صارماً في القضاء ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وله حكايات عظيمة مع الملك المعظم عيسى في أحكامه وقضائه ، وتتلמד العز عليه ، وسمع منه الحديث ، وأخذ عنه الفقه ، وكان عليه ابتداء اشتغاله بالعلم ، وقال عنه : « ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستاني ، وكان يحفظ «الوسيط» للغزالي .

٣ - سيف الدين الأمدي (٦٣١ هـ) الفقيه الشافعي ، الأصولي المتكلم ، وكان حسن الأخلاق ، فصيح اللسان ، بارع البيان ، وصنف الكتب المحققة المفيدة ، وأخذ عنه الأذكياء العلم : أصولاً ، وكلاماً ، وخلافاً ، وتتلמד عليه الشيخ عبد العزيز ، واعترف بفضله ، وأثنى عليه ، وكان يعظمه ، ويقول : « ما تعلمنا قواعد البحث إلا منه » ويقول : « ما سمعت أحداً يلقي الدرس أحسن منه ، كأنه يخطب » ودرس العز عليه أصول الفقه خاصة .

٤ - القاسم بن عساكر الحافظ (٦٠٠ هـ) وهو ابن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، وتولى القاسم مشيخة دار الحديث النورية بدمشق ، ولم يتناول أجراً على ذلك ، بل يدفعه إلى الطلبة ، وكان ناصر السنة لإماتته البدعة ، شديد الورع ، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قليل الالتفات إلى الأمراء وأبناء الدنيا ، سمع العز منه الحديث ، وانتفع به في منهجه وسلوكه .

٥ - عمر بن طَبَرْزَد البغدادي (٦٠٧ هـ) ، وكان شيخ الحديث ببغداد ، وكان ظريفاً ، ورجل إلى الآفاق ، وقدم دمشق ، مع حنبل الرصافي (٦٠٤ هـ) ، وسمع العز منهما الحديث مع الجمع الغفير ، ثم عادا إلى بغداد .

ويمثل شيوخ العز مدرسة معنوية أثرت في العز حتى صار رمزاً لهذه

المدرسة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وفي كتب التراجم وسيرة العلماء ، لما اشتهر دأبه من المواقف الخالدة ، والسلوك الطيب ، والرجولة الكاملة ، والزهد في الدنيا ، والورع في السلوك ، والتقوى في العبادة والأحكام ، مع مجانبة السلطان في الوقت الذي يتولون فيه المناصب الرسمية في التدريس والإفتاء والقضاء ، مع الحرص على قول الحق ، والجرأة في الأمور ، والصلابة في الدين ، والوقوف عند حدود الله ، والدفاع عن شرعه ، والجهد باللسان ، والمشاركة في القتال ضد الأعداء عند اللزوم .

وعاصر العزّ عدد من فطاحل العلماء ، فلم يمنعه كبر السن وعلو الدرجة العلمية ، والمكانة الأدبية ، والمنزلة الاجتماعية الرفيعة أن يجالسهم ، ويستفيد منهم ، ويستفيدوا منه ، وينظرهم ، ويحضر دروسهم ، ويحضرون دروسه ، فيأخذ ويعطي ، ويستفيد ويفيد ، مما أدى إلى علو مكانة العز العلمية ، والإقرار له بالعلم والفضل ، والثناء عليه ، لأنه لا يعرف الفضل إلا ذووه ، منهم :

١ - ابن الحاجب ، الفقيه المالكي ، الأصولي ، النحوي ، الأديب ، الشاعر (٦٤٦ هـ) وهو مصري المولد ، كردي الأصل ، انتقل إلى دمشق واستوطنها ، ودرس بزاوية المالكية بالجامع الأموي ، وذاع صيته ، وأكب الناس على الاشتغال به ، وكان ركناً من أركان الدين في العمل والعلم ، ثقة ، حجة ، متواضعاً ، عفيفاً ، محباً للعلم ، صبوراً على البلوى ، محتملاً للأذى ، وكان ابن الحاجب محباً للعز ، ومقدراً لفضل العز وعلمه ، وقال فيه : «ابن عبد السلام أفقه من الغزالي» ، ووقف ابن الحاجب بجانب العز في أوقات الشدة والمحن ، وعاضد العز في وجه الانحراف والزيغ والظلم ، وأنكر على الملك الأشرف نيله من العز ، وحمل العلماء على كتابة فتوى بصحة كلام العز في العقيدة ، وأخذ خطوطهم بموافقتهم ، ورفعها للملك الأشرف ، ولما حبس الملك الصالح

إسماعيل العز ، لأنه أنكر عليه تحالفه مع الفرنج ، دخل ابن الحاجب السجن معه ، ليؤنسه ، ولما خرج العز من الشام إلى بيت المقدس ، وهاجر إلى مصر ، صاحبه ابن الحاجب وارتحل معه .

٢ - المنذري ، زكي الدين ، الفقيه الشافعي ، من حفاظ الحديث ، العالم بالعربية (٦٥٦ هـ) ، أصله من الشام ، لكنه ولد ومات بمصر ، وبرع في الحديث ، وفي معرفة أحكامه ومعانيه ، وكان زاهداً ، شديد الورع ، مفرط الذكاء ، أحفظ أهل زمانه ، وكانت صلته قوية بالعز ، مع صداقة حميمة ، واحترام متبادل ، واعترف كل منهما بفضل صاحبه ، وتفوقه في اختصاصه ، فامتنع العز عن التحديث بمصر احتراماً وإجلالاً للحافظ المنذري ، وتوقف المنذري عن الفتوى عند قدوم العز إلى مصر ، وقال : «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه» .

٣ - ومن معاصري العز الشيخ جمال الدين الحصري الذي انتهت إليه رئاسة الحنفية في عصره بدمشق ، وكان من العلماء العاملين ، كثير الصدقة ، غزير الدمعة ، عفيفاً ، ديناً وقوراً (٦٣٧ هـ) وكان يعرف مكانة العز ، وانتصر له في فتنة الحشوية عند الملك الأشرف ، ودافع عنه ، وأيده في آرائه ، وأنه «يُفتخر به على سائر الملوك» ، ومنهم أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦ هـ) ، وأبو العباس المرسي (٦٨٦ هـ) ، والشيخ ابن الصلاح ، الفقيه الشافعي ، والمحدث ، الأصولي اللغوي ، وغير هؤلاء ممن عاصر العز ، وشاركه في العلم ، وتبادلوا المعرفة ، مما كان له الأثر المحمود عليهم وعلى الأمة والعلم .

تلاميذ العز وكتبه :

مارس العز المناصب الرسمية والتدريس العام ، وشغل نفسه في العلم والإفادة ، وقام بالتصنيف والتأليف ، واستفاد من مناصبه وتدريسه

وتصنيفه تلاميذه وطلابه الذين يعتبرون الأثر المباشر له ، والامتداد لشخصيته ، والعنوان الدائم لمدرسته ومنهجه ، وقد اجتمع في حلقاته ودروسه الجموع الغفيرة من أهالي دمشق والقاهرة ، حتى ذاع صيته ، وقصده الطلبة من أصقاع العالم الإسلامي ، قال المؤرخ الحافظ ابن كثير عن العز: «وأفاد الطلبة ، ودرّس بعدة مدارس . . . وانتهت إليه رئاسة الشافعية ، وقصد بالفتاوى من الآفاق» وقال ابن العماد الحنبلي: «وبلغ رتبة الاجتهاد ، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد ، وقال الكتبي: «ودرس ، وصنف ، وأفتى ، وبرع في المذهب ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقصده الطلبة من البلاد ، وتخرج به أئمة» .

واستفاد من دروس الشيخ وعلمه عامة الشعب ، وسواء الناس ، وانتفع به عدد كبير من التلاميذ والطلاب ، وتخرج على يديه المتفوقون الذي نبغوا في العلم ، وصاروا أئمة ، ووصلوا إلى درجة الشهرة ، وفيهم الحكام والأمراء والقضاة ، وكان أثر الشيخ في هذه النخبة واضحاً وجلياً ، علمياً وسلوكياً وعملياً ، نذكر طرفاً منهم ، وأولهم ولده إبراهيم (٦١١ هـ) وابنه عبد اللطيف الذي تميز بالفقه والأصول ، وصار فقيهاً ، ويعرف تصانيف العز معرفة حسنة ، ويدرس كتبه .

ومن تلاميذ العز العلامة تقي الدين ابن دقيق العيد ، القاضي ، الفقيه ، الأصولي ، الأديب ، الشاعر ، الذي أتقن علم أصول الدين ، وأصول الفقه ، والنحو واللغة ، وبرع في الحديث واشتهر بالتقوى حتى لقب بتقي الدين ، وكان متأثراً بالعز ، لا يُحابي أحداً ، ولا يُداري حاكماً ، ويزيل الظلم ، ويرد الأوقاف ممن استغلها أو اختلسها من أصحاب النفوذ ، ويحارب البدع ، ويكتب إلى نوابه في القضاء يذكرهم بالواجب ، ويحذرهم من الظلم والجور ، وكان جواداً ينفق أمواله في شراء الكتب ، حتى توفي سنة (٧٠٢ هـ) ، وهو الذي أطلق على العز: سلطان العلماء .

ومنهم تاج الدين بن بنت الأعز (٦٨٠ هـ) قاضي القضاة ، الشافعي المصري ، ويقال له : آخر قضاة العدل ، تولي قضاء القضاة في الديار المصرية ، وتأسى بالعز في نصرة الحق ، والصلابة في الدين ، واتفق الناس على عدله وخيره ، والتثبت في الأحكام ، وتولية الأكفاء ، وله مواقف مشهورة في القضاء مع الملك الظاهر بيبرس ، وكان الشيخ العز يحبه ويقدره ، وينيبه في القضاء والتدريس ، وأسند إليه قضاء القضاة إثر عزله نفسه ، وكان أديباً ، ديناً ، أصولياً ، وجمع بين القضاء والوزارة وخطابة الجامع الأزهر ، وتدريس الشافعية والمشهد الحسيني بالقاهرة .

ومنهم أبو شامة ، شهاب الدين المقدسي الدمشقي (٦٦٥ هـ) المؤرخ ، المحدث ، القارىء ، الفقيه الشافعي ، النحوي ، ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية ، ومشيخة الإقراء بدمشق ، أخذ عن العز ، وتأثر به ، وكان متواضعاً ، تاركاً للتكلف ، وصنف في عدة علوم .

ومنهم الفزكاح الفزاري ، تاج الدين ، الدمشقي ، الفقيه الشافعي ، الأصولي ، الأديب ، الشاعر ، المؤرخ ، المفسر ، المحدث ، فقيه أهل الشام ، وتفقه على العز بن عبد السلام .

ومنهم القرافي المالكي ، شهاب الدين ، المصري ، الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، المحدث ، المتكلم ، النحوي ، انتهت إليه رئاسة المالكية بمصر في عصره ، وجمع بين العلوم النقلية والعقلية ، وصنف الكتب المفيدة ، ولازم الشيخ عز الدين بن عبد السلام زمناً طويلاً ، وأخذ عنه أكثر فنونه وخاصة في التدريس والتأليف في القواعد .

أما كتب العز فكثيرة ، لأنه نبغ في علوم عديدة ، وخاصة علوم الشريعة والعربية ، وملك ناصية البيان ، والملكة اللغوية ، والأدب الرفيع ، والقدرة الفكرية النيرة ، والمواهب الفطرية ، فجاءت مصنفاته في غاية الكمال والنفع ، نعدد أهمها :

- ١ - تفسير القرآن العظيم .
 - ٢ - مختصر تفسير الماوردي .
 - ٣ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .
 - ٤ - الفوائد في مشكل القرآن .
 - ٥ - مختصر صحيح مسلم .
 - ٦ - ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام .
 - ٧ - الملححة في الاعتقاد .
 - ٨ - أحوال الناس يوم القيامة .
 - ٩ - الغاية في اختصار النهاية لإمام الحرمين الجويني .
 - ١٠ - مقاصد الصلاة والصوم والحج .
 - ١١ - الفتاوى .
 - ١٢ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام .
 - ١٣ - الإمام في بيان أدلة الأحكام .
 - ١٤ - شجرة المعارف .
 - ١٥ - مختصر رعاية المحاسبي ، وغيرها .
- مناصب العز وأعماله :

تعددت أعمال العز التي قام بها ، والخدمات التي أداها ، فكان بعضها اختباراً وطوعياً وخاصاً ، وبعضها مناصب رسمية ، ووظائف في الدولة الأيوبية بدمشق ، والأيوبية والمملوكية في القاهرة ، والمهم أن العز مارس هذه المناصب والأعمال ، وهو يملك زمامها ، ويسخرها لمصلحة الدين والأمة ، والشرع والشعب ، واتخذ فيها المواقف الحاسمة ، وترك فيها بصماته المشهودة ، والمسجلة في التاريخ وكان فيها مضرب المثل في النزاهة والعدل ، والتجرد والإخلاص ، والصدق

والأمانة ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والسعي إلى مرضاة الله تعالى ، ولو سخط الناس ، ولو لقي في سبيل ذلك السجن والعزل ، والنيل من مكانته ، والمضايقة التي اضطرتته إلى الهجرة من دمشق الحبيبة له ، إلى القاهرة ومصر .

ومن أعماله التي نعددها فقط ، ويحتاج كل منها إلى بحث مستقل ، للإفاضة فيه ، وبيان أثر العرفية ، فمنها :

١ - الإفتاء .

٢ - التدريس .

٣ - الخطابة .

٤ - السفارة .

٥ - القضاء وكل ذلك في الشام ومصر ، ثم انفرد بمصر بعمل قاضي القضاة .

صفات العز :

امتاز العز بمجموعة من الصفات الحميدة والكريمة التي أضفت على شخصيته هالة من الاحترام والتقدير ، والتعظيم والمحبة ، حتى صار مضرب الأمثال على لسان الناس في عصره ، وحتى اليوم ، فمن صفاته الخلقية : الورع والزهد ، والحب للتصدق ، والتواضع ، وعدم التكلف ، والهيبة ، والجرأة في قول الحق ، دون أن يخشى في الله لومة لائم ، وإزالة البدع ، والنصح لله ، والأمانة على دين الله وشرعه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجميع الناس ، حكاماً ومحكومين ، والجهاد بلسانه وعلمه وماله ، ثم بالمشاركة في القتال ضد الصليبيين وقد بلغ من الكبر عتياً ، والمنزلة الاجتماعية الرفيعة ، والحظوة عند الخاصة والعامة ، واللفظ والأدب ، وكمال الأخلاق والصفات ، وثبتت له كرامات ، وكان محباً لدمشق وبلاد الشام ، وباراً لها ، وصنف كتابه

«ترغيب أهل الإسلام بسكنى بلاد الشام» وبين فضائلها ، وخصائصها ومزاياها ، وبادلته دمشق حباً بحب ، وبراً ببر ، وتقديراً له ووفاء في حياته وبعد وفاته .

وفاة العز:

رزق العز بن عبد السلام طول العمر ، وحسن العمل ، وعُمر حتى بلغ ثلاثاً وثمانين سنة ، وتوفي في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمئة بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر بيبرس ، وصلى عليه ، وشيعه الأمراء والجنود وعامة الشعب ، ونقل الخبر إلى دمشق فصلي عليه بجامع العقبة كما صلي عليه في جميع ديار مصر والبلاد الشامية إلى الفرات ، وفي مكة والمدينة واليمن ، رحمه الله رحمة واسعة ، ونفعنا الله بعلمه ، ورزقنا التأسى بمواقفه ، والحمد لله رب العالمين .



الباجوري شيخ جامع الأزهر

يمثل الجامع الأزهر صرحاً إسلامياً شامخاً في حمل الدعوة الإسلامية ، ورعاية العلوم الدينية ، ونشر أحكام الشريعة الغراء ، وتخريج الأئمة والعلماء والدعاة والمفكرين والقضاة وزعماء الإصلاح والنهضة في العالم العربي والإسلامي .

وكانت مشيخة الأزهر أعلى المناصب الدينية التي تحتل مركزاً مرموقاً في العالم الإسلامي عامة ، وفي الديار المصرية خاصة ، وكان تعيين شيخ الجامع الأزهر محصوراً بكبار العلماء ، ومنهم الشيخ الباجوري رحمه الله تعالى ، الذي تلقى الضوء على حياته وشخصيته ومكانته العلمية ومصنفاته العديدة .

أولاً: ترجمته: هو إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري المصري الشافعي ونسبته إلى الباجور ، وهي قرية بمديرية المنوفية بمصر ، وإليها نسبته .

ولد الشيخ الباجوري في الباجوري سنة ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م ، ونشأ بها في حجر والده الشيخ محمد ، وقرأ عليه القرآن الكريم في غاية الإتقان والتجويد ، ثم قدم إلى الأزهر لطلب العلم سنة ١٢١٢ هـ ، ومكث فيه حتى دخل الفرنسيون القاهرة سنة ١٢١٣ هـ ، فخرج منها إلى الجيزة ، وأقام بها مدة ، ولما خرج الفرنسيون رجع إلى الأزهر سنة ١٢١٦ هـ .

وأخذ بالاشتغال في العلم ، وفي مدة يسيرة ظهرت عليه آية النجابة ،

وتتميز بذلك على الأقران والأمثال ، وأدرك مشايخ الأزهر الجهابذة الأفاضل ، منهم : الشيخ محمد الأمير الكبير ، والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ داود القلعاوي ، ومن كان في عصرهم ، وتلقى عنهم ما تيسر من العلوم ولكن كانت أكثر تلمذته للشيخ محمد الفضالي ، والشيخ حسن القويسني شيخ الجامع الأزهر حتى سنة ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م ، وحصل الشيخ الباجوري العلوم الشرعية والعلوم العقلية والعلوم العربية ، وصار عمدة في المنطوق والمفهوم ، حتى توفي يوم الخميس ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م في الراجح ، وجاء في هدية العارفين ، و«إيضاح المكنون» ومؤلفهما واحد ، وفي «حلية البشر» للبيطار ، أنه توفي سنة ١٢٧٦ هـ ، ودفن الشيخ بترية المجاورين بالقاهرة .

ثانياً: نشاطه العلمي: ظهر نشاط الباجوري في مجالين أساسيين ، الأول في الناحية العلمية التدريس والتأليف ، والثاني في الناحية الإدارية وتولي مشيخة الأزهر .

أما التدريس فقد اشتغل الشيخ الباجوري في التدريس بالجامع الأزهر ، ولزم الإفادة والتعليم ، وكان ديدنه التعلم والاستفادة ، والمواظبة على مجالس التدريس ، حتى صار ذلك سجية له وعادة ، ولازم إعطاء الدروس بعد القيام بمشيخة الأزهر ، وكان عباس باشا ، خديوي مصر ، يزوره في درسه بالأزهر ، ولا يقوم له ، بل يهيه له كرسيّاً من جريد يجلس عليه خارج الدرس ، وكان الشيخ يدرس العلوم الشرعية والعقلية والعربية ، واستمر على ذلك إلى أن كبر سنّه ، ودرّس في آخر حياته التفسير من كتاب «الفخر الرازي في تفسير القرآن الكريم» ، وحضر دروسه أفاضل علماء الجامع الأزهر ، ولم يكمل قراءة هذا التفسير عليهم بسبب ضعف اعتراه ، وأعقبه الموت .

ونظراً لمكانة الشيخ العلمية ، وكفاءته الإدارية ، فقد أسندت إليه

رئاسة الجامع الأزهر ، وتقلدها في شهر شعبان سنة ١٢٦٣ هـ ، وكان من حقه أن يتولى مشيخة الجامع الأزهر قبل ذلك ، ويتقدم على الشيخ أحمد عبد الجواد الذي تولى هذا المنصب بعد وفاة الشيخ حسن القويسني سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م ، ولكن المقادير لم تساعد الشيخ الباجوري على ذلك ، وكانت نفسه تتشوف لهذا المنصب ، ويحس أنه جدير به ، وأهل له ، فلما تولاهما متأخراً ، وهناه الناس بالمشيخة نظم قصيدة ، وفيها :
يا دهر أعط القوس باريها فقد أفرطت في التقديم والتأخير
إلى أن قال في تاريخ توليته المشيخة :

وزعت بك العليا وقالت أرخوا أبهى إمام لها الشيخ باجوري
وبقي شيخاً للجامع الأزهر إلى أن توفاه الله تعالى ، وعمره خمس وسبعون سنة ، واستمر الشيخ قائماً على التدريس ومشيخة الأزهر مع كبر سنه ، وحصل في آخر عهده حوادث واضطرابات بالأزهر ، أوجبت إقامة أربعة وكلاء عنه للقيام بواجبات الوظيفة تحت رئاسة الشيخ مصطفى العمروسي ، مع الشيخ أحمد العدوي (مالكي) والشيخ أحمد الحلبي (حنفي) والشيخ خليفة الفشني (شافعي) والشيخ مصطفى الصاوي (شافعي) ، وقامت هذه اللجنة بعمل الشيخ الباجوري لتقدم سنه ، واستمرت في عملها حتى بعد وفاته إلى عام ١٢٨١ هـ / ١٩٦٤ م ، فعين رئيسها الشيخ مصطفى العمروسي شيخاً للجامع الأزهر .

ثالثاً : مؤلفاته : ألف الشيخ الباجوري الكتب الكثيرة ، والحواشي المتنوعة في عدة فنون ، وفي مختلف العلوم ، ومعظم مؤلفاته مطبوعة ، وانتفع الطلاب والناس بها في حياته ، وبعد وفاته ، وأعيد طبع كثير منها عدة مرات ، وهي :

١ - كتب التوحيد والعقيدة وعلم الكلام ، وكان الشيخ محللاً ومتعمقاً بهذا العلم ، وصنف فيه عدة كتب ، وهي :

- أ - تحفة المريد على جوهره التوحيد للقاني ، في علم الكلام .
- ب - تحقيق المقام على كفاية العوام ، فيما يجب عليهم من علم الكلام ، وهي حاشية على كتاب شيخه محمد الفضالي ، ألفها بإذن منه ، وفرغ من جمعها سنة ١٢٢٣ هـ ، وهو في ريعان الشباب ، وطبعت عدة مرات ، منها طبعة حبر سنة ١٢٧٩ هـ في ٨٨ صفحة .
- ج - الدرر الحسان على فتح الرحمن فيما يحصل به الإسلام والإيمان للزبيدي .
- د - حاشية على رسالة « لا إله إلا الله » لشيخه الفضالي ، مطبوعة في المطبعة الميمنية بمصر في ٤٠ صفحة .
- هـ - رسالة في علم التوحيد ، طبعت في مطبعة المدارس سنة ١٢٨٩ هـ ، وتقع في ١٦ صفحة .
- ٢ - كتب الفقه ، كان الشيخ الباجوري من فقهاء الشافعية ، ودرس فقه المذهب ، وصنف فيه :
- أ - التحفة الخيرية ، حاشية على « الفوائد الشنشورية » في أحكام الفرائض وعلم المواريث ، وتقع في مجلد .
- ب - حاشية على شرح ابن قاسم الغزي لمتن أبي شجاع في الفقه الشافعي ، وهي مجلدان ، وطبعت مرتين .
- ج - منح الغفار على ضوء المصباح في أحكام النكاح .
- ٣ - كتب اللغة ، كان الشيخ الباجوري ضليعاً في علوم اللغة ، وخاصة في النحو والصرف والبلاغة والبيان ، ودرس هذه العلوم ، وصنف فيها عدة كتب ، وهي :
- أ - فتح الخبير اللطيف بشرح متن ونظم الترصيف في علم التصريف لابن عيسى العمري المعروف بالمرشدي ، في الصرف ، مطبوع بمصر

عدة مرات ، منها في مطبعة مصر سنة ١٣١٣ هـ في ١١٤ صفحة ،
والمطبعة الميمنية في ٦٤ صفحة .

ب - فتح رب البرية على الدرة البهية في شرح «نظم الأجرومية» لشرف
الدين يحيى العمريطي ، في النحو ، مجلد ، مطبوع في ٦٠ صفحة ،
وبهامشها «الدرة البهية» المذكورة .

ج - حاشية على متن السمرقندية في الاستعارات ، في البلاغة وعلم
البيان .

٤ - كتب المنطق : كان الشيخ الباجوري متقناً لعلم المنطق الذي تدور
عليه علوم الآلة ، واشتغل الشيخ فيه تدريساً وتصنيفاً ، وله الكتب التالية
فيه :

أ - حاشية على «متن السلم المنورق» في المنطق ، مطبوعة ، ومعها
تقاريرات الشيخ شمس الدين الأنباري الشافعي شيخ الجامع الأزهر من
عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٧ م إلى عام ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ م ، وتولاها
مرتين ، وهو الذي أفتى بإدخال العلوم العصرية إلى الأزهر ، ويرى
عن الأنباري أنه لم يقم إلى اللورد كرومر عندما أتاه وصافحه ، وهو
جالس لدرجة أن كرومر قال له : «لو صافحك الخديوي هل ستقف
إليه؟ فأجابه الشيخ الأنباري قائلاً : لا أقف لك ، لأنك لست منا» ،
وكان الخديوي نفسه يهرب كرومر ، ويتملق له .

ب - حاشية الباجوري على شرح مختصر السنوسي ، وهي حاشية
مختصرة في فن الميزان من علم المنطق ، وطبعت ضمن مجموعة
كتب .

ج - حاشية على شرح متن السلم للأخضري في علم الميزان في المنطق .

٥ - كتب السيرة النبوية والمدائح ، كان للشيخ الباجوري وَلَهٌ عظيم ،
وَحَبُّ جسيم لآل بيت النبي ﷺ ، وكان يكثر من زيارة قبورهم بمصر ،
ويتردد على أبواب حضراتهم ، وصنف في ذلك عدة كتب وحواشٍ منها :

- أ - تحفة البشر على مولد المصطفى للعلامة ابن حجر الهيتمي .
ب - حاشية على قصيدة «بانث سعاد» لكعب بن زهير ، مطبوعة .
ج - حاشية على متن «البردة الشريفة للبوصيري» مطبوعة ، وعلى هامشها شرح الشيخ خالد الأزهرى على البردة في ٨٣ صفحة .
د - حاشية على مولد المصطفى للشيخ أحمد الدردير ، مطبوعة بالمطبعة الخيرية بمصر ، سنة ١٣٠٤ هـ .
هـ - المواهب اللدنية ، حاشية على «الشمال المحمدية للترمذي» مطبوعة وعلى هامشها «متن الشمال» .

٦ - كتب أخرى : كان الشيخ الباجوري منكباً على التأليف والتصنيف حتى آخر حياته ، وشرع في كتابة عدة كتب لم يكملها ، منها «حاشية على جمع الجوامع لابن السبكي» في أصول الفقه ، و«حاشية على شرح السعد التفتازاني لعقائد النسفي» في التوحيد والعقيدة ، و«حاشية على شرح المنهج» في الفقه ، وتعليق على تفسير الفخر الرازي .

وهكذا بقي الشيخ الباجوري طالب علم من المهد إلى اللحد ، واستمر على العطاء والإنتاج طوال الحياة ، وواظب على الإشراف على مشيخة الأزهر حتى لبي نداء ربه ، وترك لطلابه وأمتة ذخيرة علمية ، ونتاجاً وفيراً ، وذكرأ دائماً ، وشارك في قمة المناصب الدينية والتعليمية ، ليكون أنموذجاً لرجل العلم والعمل في الدين وخدمة الوطن والدين ، فجزاه الله خير الجزاء ، ورحمه الله تعالى في مستقر رحمته ، ونفعنا الله بعلمه . والحمد لله رب العالمين .

مراجع البحث :

- ١ - الأزهر في ألف عام ، للدكتور أحمد محمد عوف ، سلسلة البحوث الإسلامية في مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
٢ - الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ، بيروت .

- ٣ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، إسماعيل باشا البغدادي ، طبعة إستانبول ١٩٤٥م / ١٣٦٤ هـ .
- ٤ - حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، للشيخ عبد الرزاق البيطار (١٢٥٣ هـ / ١٣٣٥ هـ) ، حققه محمد بهجة البيطار ، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
- ٥ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، علي باشا مبارك ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، بولاق مصر ، سنة ١٣٠٥ هـ .
- ٦ - معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف اليان سركيس ، مطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م .
- ٧ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، إسماعيل باشا البغدادي . طبع إستانبول سنة ١٩٥١ م ، وأعيد طبعه بالأوفست - منشوات مكتبة المثنى - بغداد .



الأوزاعي

فقيه أهل الشام

يسود في العالم الإسلامي اليوم المذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، ويأخذ المسلمون منها الأحكام الشرعية ، والفقه الإسلامي ، ويتقيد الناس في كل قطر بأحدها أو بأكثر من واحد ، وقد نشأت هذه المذاهب في القرن الثاني الهجري وما بعده ، ويرجع المذهب الحنفي للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) ، ويعود المذهب المالكي للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) ، وينسب المذهب الشافعي للإمام محمد بن إدريس القرشي المطلبي (ت ٢٠٤ هـ) ، ويقوم المذهب الحنبلي في أصوله على الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١ هـ) ، وظهر هؤلاء الأئمة في الكوفة والمدينة ومكة وبغداد ومصر ، وكانوا على درجة عالية من العلم والفقه وملكة الاجتهاد والاستنباط ، مع التقوى والورع والعبادة والإخلاص ، وعكفوا على تقرير القواعد ووضع المناهج وتحديد أصول الاجتهاد ، وتحديد مصادر الأحكام ، وبيان مسائل الفقه منها ، وبذلوا الجهد الكبير في التعليم والتدريس ، ووصلوا الليل بالنهار ، فالتف حولهم التلاميذ والطلاب ، والفقهاء والعلماء ، وأخذوا عنهم علمهم ، ودونوه ، ثم نشره في الأقطار ، وقضى الله له البقاء والحفظ والاستمرار حتى يومنا هذا ، وينسب الفقه إليهم ، ويتقيد الناس بأقوالهم ، ويلتزمون باجتهاداتهم ،

ويسرون عليها في الفتوى والقضاء والتشريع والحكم .

ويوجد بجانب هذه المذاهب الأربعة نوعان من المذاهب الفقهية :

النوع الأول: المذاهب التي ترجع في أصلها إلى آراء سياسية في الخلافة والإمامة والحكم ، وحصل اختلاف فيها بين جماهير المسلمين المعتدلين من أهل السنة والجماعة ، وبين المتطرفين والمخالفين في ذلك كالشيعة والخوارج ، ثم تطورت هذه المذاهب السياسية ، وصار لها فقه مستقل أيضاً ، يرجعون إليه ، ويلتزمون به ، كالمذهب الجعفري الذي ينسب إلى الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) ويسير عليه الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ، والمذهب الزيدي الذي ينسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين (الذي استشهد عام ١٢٢ هـ) ، ويطبقه الزيدية في اليمن ، والمذهب الإباضي الذي ينسب إلى عبد الله بن إياض التميمي (٨٠ هـ) .

النوع الثاني: المذاهب المنقرضة التي ظهرت في التاريخ ، وخاصة في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة على أيدي أئمة عظماء ، وتابعين أجلاء ، ومجتهدين أفاضل ، وبعضها انقرض بموت الإمام مباشرة كمذهب الليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، وابن شهاب الزهري ، وربيعه الرأي ، وأبي ثور ، والطبري ، وكان أكثر هؤلاء الأئمة من التابعين ، ثم انضوت آراؤهم في الكتب والمراجع والمصادر المتنوعة ، وكانت حجر الأساس لظهور المذاهب الأربعة المشهورة ، والاعتماد عليها ، وبعضها عاشت في مجال التطبيق والحياة ، والفتوى والقضاء ، والتلقي والتعليم ، ثم انقرضت بعد ذلك ، كالمذهب الظاهري ، ومذهب الأوزاعي المنسوب للإمام الأوزاعي الذي ستحدث عنه .

اسم الأوزاعي ونسبه :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد بن عبد عمرو ، الأوزاعي ، أبو عمرو ، وإنما كانت كنيته أبا عمرو جرياً على العادات العربية ،

والآداب الإسلامية من التلقيب بالصغر لثلا يلحق به لقب آخر ، لأن الأوزاعي لم يتزوج إلا امرأة واحدة ، وكأنه لم ينجب منها ، أو لعله أنجب منها فتاة واحدة أو أكثر ، وضاع ذكرهن في غمرات التاريخ .

والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع ، واختلف العلماء والرواة والمؤرخون في المراد من الأوزاع ، ففي قول أن الأوزاع بطن من ذي الكلاع الحميري من قحطان اليمن ، سكنت دمشق في صدر الإسلام خارج باب الفرديس ، فسميت المنطقة بها ، وعرفت هذه المنطقة فيما بعد بالعقبة ، واتصل البناء بها قديماً ، وهي في قلب دمشق الآن ، وقيل الأوزاع بطن من همدان الحميري القحطاني ، والأوزاع لقب لمرثد بن زيد الحميري ، وإليه ينسب الأوزاعي في المشهور .

وفي قول آخر أن الأوزاعي ليس من حمير ، وإنما نسب إلى قرية الأوزاع التي سكنها ، والأوزاع لغة الجماعات ، والأوزاع بالشام من قبائل شتى ، ولم يكن الأوزاعي منهم ، وإنما نزل فيهم فنسب إليه ، وقيل : هو من سبي الهند ، وقيل من سبي اليمن ، ولعل القصد بالسبي هنا من جهة أمه ، أو المراد منه ربطه بمعنى الأوزاع أي الأخلاط المتفرقة ، والقبائل المجتمعة ، فكان الأوزاعي منهم ، ونسب إلى السبي^(١) .

ولا يضير الأوزاعي أن يكون عربياً حميراً قحطانياً أم هندية من الموالي ، فقيمة الإنسان بعمله وليس بنسبه ، ولو كان عربياً صميماً ، أو قرشياً مطلبياً لما نفعه ذلك في الدنيا والآخرة ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ورسول الله ﷺ يعلن ذلك ، ويحذر من الاتكال على

(١) مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٠ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦ ، تهذيب الأسماء للنووي ٢٩٩/١ ، الخلاصة ١٤٧/٢ ، وفيات الأعيان ٣١٠/٢ ، المعارف لابن قتيبة ص ٤٩٧ ، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٩ .

مجرد النسب ، ويدعو للعمل ، فيقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وأحمد والنسائي والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقال: يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً» ، وفي رواية أخرى: «لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتونني بأنسابكم»^(١).

وصار الأوزاعي إماماً جليلاً ، وفقهياً مشهوراً بعلمه واجتهاده ، وليس بأصله ونسبه .

ولادته ونشأته:

ولد الإمام الأوزاعي بمدينة بعلبك المشهورة سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، ونشأ بالبقيع في قرية «الكرك» وانتقل من قرية إلى أخرى ، وسكن في دمشق بعد طلبه للعلم وترحاله له ، واستقر في آخر عمره في بيروت مرابطاً للجهاد في سبيل الله ، إلى أن جاءت المنية عام ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م ، ودفن في ضاحية بيروت ، ثم اتصلت بالمدينة ، ويعرف الحي باسمه اليوم^(٢).

كان الأوزاعي يتيماً في صغره ، وربته أمه فقيراً في حجرها ، وكانت تربيته عالية وأخلاقه سامية ، وتكوينه قوياً سليماً ، يقول أحد تلاميذه

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠١٢ رقم ٢٦٠٢ ، سنن النسائي ٦/ ٢٠٨ واللفظ له ، سنن الدارمي ٢/ ٣٠٥ طبعة دهمان ، مسند أحمد ١/ ٢٠٦ ، الفتح الكبير ٣/ ٣٩٢ .

وفي صحيح مسلم «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» نزاهة المتقين ١/ ٢٥٨ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٨ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٩٤ .

الوليد بن مزيد: «وربي يتيماً فقيراً في حجر أمه ، تعجز الملوك أن تؤدب أولادها أدبه في نفسه ، ما سمعت منه كلمة فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه ، ولا رأيته ضاحكاً يقهقه ، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول: تُرى في المجلس قلب لم يبك ، ويكفي فخراً لأمه ، وتقديراً لتربيته ، واعترافاً بفضلها أن أرشدته للعلم ، ووجهته نحو طلبه ، ووضعت على الطريق السديد ليكمل الغاية بنفسه ، ويتابع المسيرة بذاته^(١) .

وتلقى الأوزاعي العلم - في أول حياته - على علماء الشام ، وخاصة في دمشق على يدي مكحول فقيه أهل الشام^(٢) ، وإمام أهل دمشق وتلميذ الصحابي أنس بن مالك ، ثم رحل الأوزاعي في طلب العلم إلى اليمامة ، وكان له فيها مكتب ، وسمع فيها من يحيى بن أبي كثير التابعي الجليل الذي أدرك عدداً من الصحابة ، وكان يدور عليه علم الآثار ، ثم رحل إلى العراق والحجاز ومصر ، وأخذ العلم عن علماء البصرة والمدينة ومكة وبيت المقدس والقاهرة ، وحدث عن عطاء بن أبي رباح والقاسم بن مَخِيمِرَة وقتادة ونافع مولى ابن عمر والزهري ومحمد بن المنكدر وشداد ابن عبد الله القرشي الأموي أبي عمار ، وربيع بن يزيد ، ومحمد بن إبراهيم التيمي وسفيان الثوري ومالك بن أنس وشعبة وعبد الله بن المبارك ومحمد بن سيرين ، وروى عنه خلق كثير وجماعة من التابعين وبعضهم من شيوخه كقتادة والزهري ويحيى بن أبي كثير وسفيان ومالك وشعبة وابن المبارك ، كما روى عنه هُقل بن زياد ويحيى بن حمزة ويحيى القطان

(١) قال الحاكم: «الأوزاعي إمام عصره عموماً ، وإمام أهل الشام خصوصاً» تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠ .

(٢) انظر مشاهير التابعين بالشام ، ومشاهير أتباع التابعين بالشام في (مشاهير علماء الأمصار ص ١١١ ، ١٧٨) .

والوليد بن مسلم وأبو المغيرة وأبو عاصم وجماعات كثيرة^(١).

مكانته العلمية:

لم يدرك الأوزاعي أحداً من صحابة رسول الله ﷺ ، وإنما التقى بكبار التابعين وأخذ عنهم ، فهو من تابعي التابعين ، ولكنه بلغ القمة في العلم والفقه والزهد والعبادة وصار إمام الديار الشامية بدون منازع ، واعترف له أهل عصره ، من الحكام والعلماء ، وكانت مكانته بين الناس أعز من أمر السلطان ، يقول النووي رحمه الله: «وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة ، مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه وشدة تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له ، واعترافهم بمرتبته»^(٢) ، وهذه شهادة عادلة جامعة من الإمام النووي للإمام الأوزاعي .

يقول هقل - وهو أثبت الناس بالرواية عن الأوزاعي -: أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها ، وقال أمية بن يزيد: «فإن فضل الأوزاعي في نفسه فقد جمع العبادة والورع والقول بالحق» ، وقال الحافظ عبد الرحمن بن مهدي: «الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري وحمام بن زيد» ، وقال أبو حاتم: «الأوزاعي إمام متبع لما سمع» ، وقال ابن حبان البستي عنه: «أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً

(١) وأخذ الأوزاعي العلم بالشام عن أخيه عبد الله بن عمرو بن يُحمد (تاريخ دمشق لابن عساكر ، المصور ص ٣٠٦).

(٢) تهذيب الأسماء ٢٩٨/١ ، وقال ابن سعد: «كان ثقة ، مأموناً ، فاضلاً ، خيراً ، كثير الحديث والعلم والفقه» (الخلاصة ١٤٦/٢) ، وقال الشعراني: «كان المنصور يصغي إليه» (الطبقات الكبرى للشعراني ٤٥/١) ، ونقل الحافظ الذهبي عن الأوزاعي أن صنّعه الكتابة (تذكرة الحفاظ ١٧٨/١).

وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادة وضبطاً مع زهادة» ، وكانوا يقولون في حياته : «الأوزاعي اليوم عالم الأمة» وكان أفضل أهل زمانه ، قال الذهبي : قلت وكان يصلح للخلافة ، قال أبو إسحاق الفزاري : لو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي ، وذلك لما يتصف من العلم والحلم ، وما يتمتع من المهابة والجلال ، وما يحوطه الناس من الاحترام والوقار ، وذكر الشيرازي في «طبقات الفقهاء» أن الأوزاعي سئل عن الفقه ، يعني استفتي ، وله ثلاث عشرة سنة^(١) .

مذهب الأوزاعي :

كان الأوزاعي رحمه الله مجتهداً مطلقاً ، وكان صاحب مذهب فقهي ، وله مدرسة فكرية ذات نهج محدد في الاجتهاد والاستنباط ، بينها للناس ، ولقنها لطلابه وتلاميذه ، وأفتى في سبعين ألف مسألة ، وحدد الأصول التي يرجع إليها ، وبين المبادئ والقواعد التي يسير عليها ، وقام طلابه من بعده بالتزام أقواله واجتهاداته ، والاعتماد على أصوله ، والتقيد بمنهجه ، ونشر مذهبه ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه بالتدليل والاحتجاج والمناظرة والمجادلة ، لكنهم لم يدونوا مذهبه ، وانتشر مذهب الأوزاعي بالشام عن طريقه مباشرة ، ثم أعان على شيوعه بعده الإمام المحدث محمد بن شعيب الدمشقي ، وسعيد بن عبد العزيز ، والحافظ العابد الفريابي ، وقاضي دمشق يحيى بن حمزة ، وكان القضاء والفتوى على مذهب الأوزاعي ، واستمر العمل على ذلك مع تدريسه

(١) تهذيب الأسماء ٣٠١/١ ، تذكرة الحفاظ ١٧٩/١ ، ١٨٠ ، الخلاصة ١٤٦/٢ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦ ، المدخل للتعريف بالفقه ، الشلبي ص ١٣٦ ، تاريخ التشريع للشهاوي ص ٢٤٥ ، حلية الأولياء ١٣٥/٦ ، الأوزاعي ، سيد الأهل ص ٧٥ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٠ ، وفيات الأعيان ٣١٠/٢ ، المعارف ص ٤٩٦ ، فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ١٨٩ .

حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، وعندما تولى قضاء دمشق أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي ، حكم بمذهب الشافعي وعمل على نشره ، فأخذ مذهب الأوزاعي ينكمش شيئاً شيئاً حتى انقرض أتباعه ، وأصبح مذهب الشافعي هو الغالب على أهل الشام ، كما انتشر مذهب الأوزاعي إلى طرابلس الغرب عن طريق تلميذه عقبة بن علقمة الطرابلسي ، ثم بلغ المغرب عن طريق رباح بن يزيد اللخمي المغربي ، وشاع وانتشر في الأندلس ، وعمل به أهل الأندلس نحواً من أربعين سنة حتى جاء زياد بن عبد الرحمن القرطبي تلميذ الإمام مالك إلى الأندلس زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ونشر مذهب الإمام مالك ، وتضاءل مذهب الأوزاعي في الأندلس ثم انقرض ، كما دخل مذهب الأوزاعي^(١) الحجاز ومصر والعراق ، ووصل شرقاً إلى خراسان ، لكنه لم تطل مدته لغلبة المذاهب الأخرى عليها .

وكان مذهب الأوزاعي على مدرسة أهل الحديث ، فيبني اجتهاده على النصوص من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار التابعين ، وكان يقول : «إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره ، فإنه كان مبلّغاً عن الله» ويقول : «عليك بآثار السلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول ، فإن الأمر ينجلي ، وأنت على طريق مستقيم» وقال أبو حاتم : «الأوزاعي إمام متبع لما سمع» ، وقال الأوزاعي : «اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم» كما كان الأوزاعي سلفي الاعتقاد ، كما يظهر من كلامه ، ويلتزم

(١) انظر: تاريخ التشريع ، للشهاوي ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ، الأوزاعي ، سيد الأهل ص ٧٥ وما بعدها ، المدخل للتعريف بالفقه ، شلبي ص ١٣٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠ ، ١٨٢ ، تهذيب الأسماء ١/ ٣٠٠ .

بما جاء في القرآن والسنة عن الصفات وغيرها ، ويقول : «كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة» ، ويقول : «خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المساجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيله» ، وقال إسحاق : «إذا اجتمع الأوزاعي ومالك والثوري على أمر فهو سنة»^(١).

سيرته ومناقبه :

كانت سيرة الأوزاعي عطرة ، وحياته قويمه ، وسلوكه تطبيق للشرع ، واتباع للسنة ، ومناقبه كثيرة ، يستحيل بيانها في هذا العرض الموجز ، كثير العبادة يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاء ، كثير الخوف من الله والخشوع له ، يقول بشر بن المنذر : رأيت الأوزاعي كأنه عمي من الخشوع ، يذكر الموت كثيراً ، ويستعد للحساب والسؤال عن كل ساعة في عمره ، كما كان كثير الموعظة ، شديد التأثير على سامعه ، يقول الحق لا يخاف سطوة العظماء والحكام ، وموقفه مع قواد السفاح مشهورة وخالدة ، وموعظته للخليفة المنصور جليلة ومؤثرة ، لا يخاف في الله لومة لائم كما كان زاهداً في الدنيا ، مترفعاً عن العطايا والهبات ، مات ولم يخلف إلا ستة دنانير أو سبعة ، بينما ترك ميراثاً علمياً ، وثروة فقهية ، وأعمالاً نافعة حتى يوم القيامة ، فجزاه الله خيراً ، وأجزل مثوبته ، ونفعنا بعلمه ، والحمد لله رب العالمين .



(١) قام الشيخ مروان محمد الشعار ، المحاضر في كلية الإمام الأوزاعي ببيروت بجمع الأحاديث التي رواها الأوزاعي رحمه الله تعالى ، في مجلد ضخيم بعنوان «سنن الأوزاعي ، أحاديث وآثار ، وفتاوى» في ٨٠٦ صفحات ، ونشرته دار النفائس ، بيروت - ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م .

البُهوتي

محقق المذهب الحنبلي وشيخ الحنابلة بمصر

هو الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، العالم العامل الورع .

اسمه ونسبه :

منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن إدريس ، البُهوتي ،
الحنبلي ثم المصري ، نسبته إلى بُهوت (في غربية مصر) .

ولادته ونشأته :

ولد سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م ببلدة بُهوت بمصر ، ورحل في طلب
العلم ، فأخذ عن جماعة من الأعيان ، منهم الشيخ يحيى بن الشرف
موسى الحجاوي الدمشقي مفتي الحنابلة بدمشق ، والشيخ عبد الله
الدنوشري الشافعي ، والجمال عبد القادر الدنوشري الحنبلي ، والنور
علي الحلبي ، والشهاب أحمد الوراثة .

علمه :

كان البُهوتي علامة في جميع العلوم الدينية ، فكان فقيهاً متبحراً ،
وأصولياً ، ومفسراً ، وتعمق في دراسة المذهب الحنبلي حتى صار شيخ
الحنابلة بمصر ، وخاتمة علمائها ، وذاع صيته واشتهر علمه ، ورحل
الناس إليه من الآفاق لأخذ مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، فإنه انفرد في
عصره بالفقه ، حتى رحل إليه الحنابلة من الديار الشامية ، والنواحي

البعيدة النجدية ، والأراضي المقدسية ، والضواحي البعيدة ، وتمثلوا بين يديه ، وأخذ عنه أكثر المتأخرين من الأصحاب الحنابلة ، منهم الجمال يوسف البهوتي ، وعبد الرحمن البهوتي ، ومحمد الشامي المرداوي ، والشيخ محمد البهوتي ، ومحمد بن أبي السرور البهوتي ، وإبراهيم بن أبي بكر الصالحي ، وعبد الباقي الدمشقي ، ومحمد الخلوئي ، وياسين اللبدي ، وعبد الحق اللبدي ، ويوسف الكرمي وغيرهم .

عمله وصفاته:

تولى البهوتي الإفتاء والتدريس بمصر ، وصرف أوقاته في تحرير المسائل الفقهية ، حتى صار أحد أعلام المذهب المتأخرين ، وكان كثير العبادة غزير الإفادة والاستفادة ، عالماً وعاملاً بعلمه ، ورعاً ، سخيّاً ، وله مكارم دارة ، وكان في كل ليلة جمعة يجعل ضيافة ، ويدعو جماعته من المقادسة ، وإذا مرض أحدهم عاده وأخذه إلى بيته ومرضه إلى أن يشفى ، وكانت الناس تأتيه بالصدقات فيفرقها على طلبة العلم بالمجلس ، ولا يأخذ منها شيئاً .

مؤلفاته:

اتجه البهوتي إلى تحقيق المذهب الحنبلي ، وتحرير مسائله ، وصنف فيه عدة كتب ، منها:

١ - الروض المربع شرح زاد المستقنع ، وهو كتاب مطبوع ، ومقرر للتدريس في المعاهد الدينية في السعودية ، وزاد المستقنع لشرف الدين أبي النجا الحجواي مفتي الحنابلة (ت ٩٦٠ هـ) اقتصر فيه على القول الراجح في المذهب ، فشرحه البهوتي باختصار أيضاً ، والتزم فيه القول الراجح في المذهب أيضاً .

٢ - كشف القناع: عن متن الإقناع للحجواي ، وهذا أفضل كتاب في

المذهب الحنبلي ، وعليه الفتوى والاعتماد في القضاء ، طبع قديماً بمصر في أربعة مجلدات ، ثم طبع بمكة المكرمة في ستة مجلدات ، وفرغ البهوتي من تأليفه سنة ١٠٤٦ هـ ، وعلى طبعته الأولى في الهامش «شرح منتهى الإرادات» الآتي للبهوتي نفسه .

٣ - دقائق أولي النهى لشرح المنتهى : ومنتهى الإرادات للشيخ محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار (٩٧٢ هـ) جمع فيه «المقنع مع التنقيح وزيادات» في فروع الفقه الحنبلي ، و«منتهى الإرادات» عمدة المتأخرين في المذهب ، وعليه الفتوى فيما بينهم ، وحرر الفتوحي مسأله على الراجح والمعتمد من المذهب ، واشتغل عليه عامة طلبة الحنابلة في عصره ، واقتصروا عليه ، وشرحه الفتوحي نفسه ، ثم شرحه وبين دقائقه البهوتي ، وطبع .

٤ - المنح الشافية : في شرح نظم المفردات للمقدسي محمد بن علي ، وهو في مسائل الفقه التي انفرد بها الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن غيره من الأئمة ، وطبع «شرح المفردات» بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ .

٥ - عمدة الطالب : في الفقه ، وقد شرحه العلامة الشيخ عثمان بن أحمد النجدي من علماء القرن الحادي عشر ، وسماه «هداية الراغب لشرح عمدة الطالب» فرغ من تأليفه سنة ١٠٩٥ هـ ، ثم قام الشيخ صالح بن حسن البهوتي الحنبلي من علماء القرن الحادي عشر أيضاً بنظم «عمدة الطالب» وسماه «وسيلة الراغب ، لعمدة الطالب ، لنيل المآرب» .

٦ - حاشية على الإقناع السابق .

٧ - حاشية على المنتهى المذكور ، وسماها «إرشاد أولي النهى لدقائق المنتهى» .

وفاته:

توفي البهوتي ضحى يوم الجمعة ، عاشر ربيع الآخر سنة
١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م ، بمصر القاهرة ، ودفن بتربة المجاورين رحمه الله
تعالى ، ونفعنا بعلمه وكتبه ، والحمد لله رب العالمين^(١).



(١) الأعلام ٢٤٩/٨ ، خلاصة الأثر ٤٢٦/٤ ، خطط مبارك ١٠٠/٩ ، فقه ابن حنبل
ص ٣ ، مختصر طبقات الحنابلة ص ١٠٤ .

السراج البلقيني

شيخ الإسلام ، مجدد القرن التاسع

هو الفقيه الشافعي ، الحافظ المحدث ، الأصولي المفسر ، المجتهد ، الذي جمع العلوم العربية والشرعية ، وفاق الأقران ، وانفرد في آخر حياته برياسة العلماء ، ولقب بشيخ الإسلام .
اسمه ونسبه :

هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح ، أبو حفص ، سراج الدين البلقيني ، العسقلاني الأصل ، الكناني القاهري المصري .
ولادته ونشأته :

ولد ليلة الجمعة سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م ببلدة بلقينة (من غربية مصر) ، وكان جده صالح أول من سكنها من آبائه ، ونسب إليها ، وتعلم فيها ، فحفظ القرآن الكريم ، وهو ابن سبع سنين ، ثم حفظ «المحرر» في الفقه ، و«الطافية» لابن مالك في النحو ، و«مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه ، و«الشاطبية» في القراءات ، ثم أقدمه أبوه إلى القاهرة ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، نعرض محافظه على جماعة كالتقي السبكي والجلال القزويني فبهرهم بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة فهمه ، ثم رجع به أبوه ، ثم عاد معه ، وقد ناهز الاحتلام ، فاستوطن القاهرة ، وقرأ على أعيان العلماء كالشيخين المتقدمين والعز بن جماعة وابن عدلان والنجم

ابن الأسواني والزين الكناني ، وكان جل انتفاعه في الفقه على شمس الدين بن عدلان ، وشمس الدين بن القماح ، وقرأ الأصول على شمس الدين الأصبهاني ، صاحب التفسير وأخذ عنه كثيراً من العقليات ، وأخذ العربية والصرف والأدب من الأستاذ أبي حيان ، ولازم البهاء بن عقیل وانتفع به كثيراً ، وتزوج ابنته ، وسمع الحديث من خلق ، منهم ابن القماح وابن غالي وأبي الفرج بن عبد الهادي والحسن بن السديد وغيرهم ، وأجاز له بالرواية حافظا دمشق الذهبي والمزي ، وأذن له بالفتيا وهو ابن خمس عشرة سنة ، وأثنى عليه شيوخه ، وهو شاب .

علومه :

كان أعجوبة زمانه حفظاً واستذكراً واستحضاراً ، وجد واجتهد حتى فاق الأقران ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد ، حتى قيل : إنه مجدد القرن التاسع ، ولقب بشيخ الإسلام ، فكان إماماً في فنون العربية ، وكان عالماً في أصول الفقه ، ويتكلم في التفسير بكلام فائق ، وكان عالماً بالقراءات ، وأصول الدين ، وفي الفرائض ، وكان يقول : ما أحد يقرئ الفرائض إلا وهو تلميذ أو تلميذ تلميذ ، وكان عالماً في معرفة الحديث لكن غيره أشهر منه ، قال البرهان الحلبي : « رأيت رجلاً فريد دهره لم تر عيناى أحفظ منه للفقه وأحاديث الأحكام ، وقد حضرت دروسه كثيراً ، وهو يقرئ في «مختصر مسلم للقرطبي» يقرأه عليه شخص مالكي ، ويحضر عنده فقهاء المذاهب الأربعة ، فيتكلم على الحديث الواحد بكرة إلى قريب الظهر ، وربما أذن الظهر ، ولم يفرغ من الحديث» ويعقب الشوكاني على ذلك فيقول : « وهذا تبحر عظيم ، وتوسع باهر ، فإن استغرق هذا الوقت الطويل في الكلام على حديث واحد يتحصل منه كرايس ، وقد وقع الاتفاق على أنه أحفظ أهل عصره ، وأوسعهم معارفاً ، وأكثرهم علوماً » ، وكان يتعانى نظم الشعر دون إتقان له .

عمله في الفتيا والتدريس :

أذن له الأئمة بالإفتاء والتدريس ، وعظمه أجلاء شيوخه ، وناب في الحكم عن صهره ابن عقيل ، واستقر في التدريس بجامعة عمرو بن العاص أكثر من ثلاثين سنة مع المنازعة فيها ، ودرس التفسير بجامعة طولون والبرقوقية ، كما درس في مدارس القاهرة بالبدرية والحجازية والخروبية البدرية والملكية وغيرها .

وكان أول ما ولي من المناصب إفتاء دار العدل سنة ٧٦٥ هـ ، ثم قدم دمشق قاضياً سنة ٧٦٩ هـ فباشر القضاء مدة يسيرة ثم عاد إلى القاهرة ، ثم سافر إلى حلب سنة ٧٩٣ هـ صحبة الظاهر برقوق ، ونشر العلم بها ، ثم عاد صحبة السلطان إلى مصر ، فعلا قدره في مجلسه فوق قضاة القضاة ، وحج في سنة أربعين ، وزار المسجد الأقصى ، ثم حج في سنة تسع وأربعين .

وتصدر البلقيني للإقراء ، فقرأ عليه خلق كثير ، وأكثر فقهاء الشافعية بمصر من تلاميذه وتلامذة تلامذته ، ومن تلاميذه ولداه الفقيه عبد الرحمن ، وصالح الذي صار من علماء الفقه والحديث ، وتولى قضاء الديار المصرية ، وجمع فتاوى والده .

واستمر متفرغاً للتدريس والفتوى إلى أن عمر وتفرد ، ولم يبق من يزاحمه ، وكان يحفظ الفقه سرداً ، ومع ذلك لا يحب أن يدرس إلا بعد المطالعة ، وقال عنه صهره ابن عقيل : «هو أحق الناس بالفتيا في زمانه» ، واشتهر اسمه في الآفاق ، وبعد صيته إلى أن صار يضرب به المثل في العلم ، ولا تركز النفس إلا إلى فتواه ، وكان موفقاً في الفتوى ، يجلس لها من بعد العصر إلى الغروب ، ويكتب عليها بالقلم والحفظ ، ولا يأنف من مراجعة الكتب إذا أشكل عليه شيء ، ولا من تأخير الفتوى حتى يحقق أمرها ، وكان الإسنوي يتوقى الإفتاء مهابة له لكثرة ما كان ينقب

عليه في ذلك ، ودارت الفتوى على البلقيني بحيث كانت تأتيه من أقطار الأرض البعيدة ، وكان السلطان يقتدي برأيه وإشارته ، ويعدل عليه الناس في المهمات الدينية ، ولا يستغنون عنه في الأمور الدنيوية ، ويفزع إليه في حل المشكلات وكشف المعضلات ، وأثنى عليه العلماء والناس كثيراً.

مؤلفاته :

صنف البلقيني كتباً كثيرة ، أغلبها لم يتم ، لأنه كما قال الشوكاني : «ولم يكمل من مصنفاته إلا القليل ، لأنه كان يشرع في الشيء فيسعه علمه ويطول عليه الأمر ، حتى إنه كتب من شرح البخاري على نحو عشرين حديثاً مجلدين ، وعلى الروضة عدة مجلدات تعقبات ، وعلى البدر للزركشي مجلداً ضخماً» .

وهذه الكتب هي :

١ - في الفقه الشافعي : «التدريب» لم يكمله ، «حواشي على الروضة» مجلدان ، «الأجوبة المرضية عن المسائل المكية» «تصحيح المنهاج» ستة مجلدات .

٢ - في الحديث : «محاسن الإصلاح» أتمه ، «مناسبات تراجم البخاري» «شرحان على الترمذي» «شرح البخاري» .

٣ - في التفسير : «حواشي الكشاف للزمخشري» .

٤ - في أصول الدين وأصول الفقه : «منهج الأصلين» لخص فيه مسائل أصول الدين وأصول الفقه .

وفاته :

توفي البلقيني بالقاهرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤١٣م ، ودفن بمدرسته التي أنشأها بحي الشعرية ، ورثاه الحافظ ابن حجر بقصيدة طويلة ، واعترف له بالاجتهاد ، وصلى عليه ولده جلال الدين عبد الرحمن ، فرحمه الله

تعالى ، وطيب ثراه ، ونفع الناس بعمله ، وعوض المسلمين في كل عصر خيراً^(١).



(١) الأعلام للزركلي ٢٠٥/٥ ، ٢٧٩/٣ البدر الطالع للشوكانى ٥٠٦/١ ، حسن المحاضرة للسيوطي ٣٢٩/١ ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٥١/٧ ، الضوء اللامع للسخاوي ٨٥/٦ ، ذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن الحسيني والسيوطي. ص ٢٠٦ ، ٣٦٩ ، الفتح المبين ١٠/٣ .

إمام الحرمين الجويني

وعلم أصول الدين

حياة إمام الحرمين :

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني ، النيسابوري ، ضياء الدين ، أبو المعالي ، إمام الحرمين ، الشافعي .

ولد بنيسابور في الثامن عشر من المحرم سنة ٤١٩ هـ ، الموافق للثاني والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٠٢٨ م ، وتوفي سنة ٤٧٨ هـ عن عمر يناهز التاسعة والخمسين سنة .

نشأ في نيسابور وترعرع فيها ، وطلب العلم فيها ، وإليها ينسب ، وهي من أعمال خراسان ، وأما نسبه إلى جوين فإنها منحدره له من والده الشيخ أبي محمد الجويني الذي ولد فيها ، وجوين من أعمال نيسابور ، ويذكر أكثر علماء التراجم والرجال أن الجويني عربي الأصل ، وهو من قبيلة بني سنس ، بطن من طيء ، وتربى إمام الحرمين على يد والديه ، ورضع لبان العلم والأدب في هذه الأسرة العريقة في العلم ، وسار على منهج القرآن والسنة ، وسلك طريق التربية الإسلامية القويمة ، وحفظ القرآن الكريم ، وتفقه في صباه على والديه ، واشتغل به مدة وسمع الحديث الشريف من علماء عصره ، واهتم بعلم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وجمع الفقه ودرس النحو والأدب والفلسفة وعلم الخلاف

والجدل والمناظرة وغيرها ، حتى قال فيه أستاذه أبو الحسن المجاشعي النحوي: ما رأيت عاشقاً للعلم في أي فن كان مثل هذا الإمام ، فإنه يطلب العلم للعلم» ، وتولى التدريس مكان والده ، ثم خرج من نيسابور عالماً ومتعلماً ، وقصد العراق والحجاز ، وحج ثم جاور في الحرمين أربع سنوات يؤم الناس ويعملهم وينظر العلماء حتى أطلق عليه إمام الحرمين ، ثم عاد إلى بلده ، وسلم له المنبر والمحراب والوعظ والتدريس وبنيت له نظامية نيسابور فاستلم التدريس فيها ، وبقي كذلك ثلاثين سنة حتى لبي نداء ربه ، وقد صنف الكتب الكثيرة التي تسير بها الركبان ، وقال ابن السبكي فيه: «ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه ، وأكثرهم تحقيقاً ، بل الكل من بحره يغترفون ، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً» وأهم كتبه «نهاية المطلب» في الفقه ، و«البرهان في أصول الفقه» وغيرها^(١).

تعريف علم أصول الدين:

عرف السيوطي علم أصول الدين فقال: «هو علم يبحث فيه عما يجب اعتقاده» ، وقال: «إنه أشرف العلوم مطلقاً ، لأنه يبحث عما يتوقف عليه صحة الإيمان وتتماته»^(٢) ، فهو العلم الذي يبين حقيقة الإيمان وأركانه ، مما جاء به الشرع في الكتاب والسنة ، وقد حدد رسول الله ﷺ الإيمان - فيما رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» ، ونزل القرآن الكريم داعياً إلى الإيمان ، ومبيناً حقيقته وأركانه ، في آيات كثيرة ، وسور متعددة ، وكان أكثر ما نزل في مكة

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكي ١٦٥/٥ ، العقد الثمين ٥٧/٥ ، وفيات الأعيان ٢٤١/١ ، المنتظم ١٨/٩ ، تبين كذب المفترى ص ٢٧٨ .

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية ، للسيوطي ص ٣ ، ٤ .

المكرمة خلال السنوات العشر الأولى من الدعوة يؤكد على أهمية الإيمان وضرورته ، ويزيل الشبهات والأوهام التي تعلق به ، ويناقش الكفار والمشركين في عقيدتهم ودينهم ، لينير أمامهم طريق النور والهداية ، ويفند مزاعم الضالة ، ويقدم الحجج والبراهين العقلية والواقعية للدين الحق ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، كما يلقنهم رسول الله ﷺ الدروس العملية في الدين والإيمان ، واستمر الأمر كذلك في عهد الصحابة ، وتميز هذا العلم باسم التفقه في الدين وفي عهد التابعين سمي الإمام أبو حنيفة كتابه في الدين والإيمان باسم الفقه الأكبر ، ثم أخذ هذا العلم اسماً جديداً وهو «علم أصول الدين» للدلالة على مكانته في الدين ، باعتباره يمثل أساس الدين وقواعده ، كما عرف بعلم التوحيد ، باعتباره يقوم على أهم مبدأ وهو توحيد الله تعالى ، ولما انتشرت الدعوة الإسلامية ، وتوسعت رقعة الإسلام ، وتمازجت الثقافة الإسلامية بالفلسفات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، واشتبكت العقائد والأفكار والأديان ، استعان العلماء المسلمون بالبراهين العقلية والحجج المنطقية والنظريات الفلسفية على إثبات العقيدة الإسلامية ، وتزييف العقائد الأخرى ، والرد على الفلسفة والأديان الباطلة ، فسمي علم أصول الدين بعلم الكلام ، وعرفوه بأنه «علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها»^(١) ، وظهرت في ذلك العصر الآراء والمذاهب والفرق الاعتقادية وسار على هذا المنهج أكثر العلماء ، بينما اعتمد بعض العلماء على النصوص الشرعية ، واقتصر على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة ، وتوقف فيما وراء ذلك ، وفي المقابل اكتفى بعض العلماء على الأدلة العقلية ، ونقل أقوال الفلاسفة وترجمتها ، وعرض الفلسفات

(١) انظر: مفتاح السعادة ١٥٠/٢ ، كشف الظنون ٣٢٦/٢ ، ضحى الإسلام ١/٣ ، وما بعدها.

المتنوعة لمقارنتها بأصول الدين الإسلامي ، ولقب هذا الفريق الأخير خطأ بفلاسفة الإسلام ، أو بالفلاسفة المسلمين ، والصواب أن يطلق هذا اللقب على علماء الفريق الأول والثاني فقط ممن عرفوا بأهل السنة والجماعة ، وتمثلوا بالأشعرية والماتريدية وأهل السلف ، واستمر الأمر على هذا المنوال أكثر من عشرة قرون ، وفي هذا العصر يبحث علم أصول الدين باسم «العقيدة الإسلامية» أو «الفكر الإسلامي» أو «علم العقيدة» ، ونخلص من ذلك أن الفقه الأكبر ، وأصول الدين وعلم الكلام ، وعلم العقيدة أسماء مترادفة ، مضمونها واحد ، وهدفها واحد ، ولكنها تختلف في الصورة ، والأساليب والطرق في عرض نفس الموضوعات بحسب العصر واختلاف الزمان .

المبحث الأول: في تحصيل إمام الحرمين لعلم أصول الدين

كان العصر العباسي مشحوناً بالعلوم والثقافات وازدهار الحضارة ، وكان المجتمع يموج بالمذاهب الاعتقادية والفرق الدينية ، وكان الصراع بين الآراء حاداً وشديداً ، ولم يقتصر على مواجهة الأديان الأخرى والأفكار الباطلة ، والنزعات الضالة ، داخلياً وخارجياً ، وإنما امتدّ هذا الصراع إلى الصدام القاسي بين أتباع المذاهب والفرق ، وسلط كثير من أئمة المذاهب الكلامية الأسنة نحو مخالفينهم من بقية المذاهب على المستوى العلمي والنظري والموضوعي ، وقد يصل أحياناً إلى مستوى الفتنة ، والإكراه على الرأي ، والاستعانة بالقوة الذاتية ، أو السلطة الرسمية ، وكان الجدل والمناظرة بين العلماء على أشده ، وكان كل فريق يسعى لجمع الحجج والأدلة والبراهين للتدليل على صحة قوله ، وإبطال حجج الآخرين ، والرد على اعتراضاتهم ، ومن هنا نشط العلماء في الدراسة والتأليف ، وخلفوا لنا ثروة علمية ضخمة لا يمكن حصرها .

ونشأ إمام الحرمين الجويني في هذا الجو المضطرب ، كما نشأ في نيسابور ، وكانت أكبر مراكز الثقافة بخراسان ، وكانت مجمع العلماء والفضلاء ، وملتقى الطلاب ، ومهد المدارس ، يقول المقرئزي : «إن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور»^(١) ، ويصفها ياقوت الحموي بأنها : «معدن الفضلاء ، ومنبت العلماء» ، ويقول : «وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى»^(٢) ، وكان يحيط بها عدد من المدن القريبة التي اشتهرت بالعلم والعلماء مثل مرو وسرخس .

ونشأ إمام الحرمين الجويني أيضاً في أسرة علم وفضل كائراً عن كابر ، وترعرع في أحضان الكتب والمؤلفات ، وفي محراب العبادة والتقوى والورع الذي اشتهر به والده ، وكان إمام الحرمين متمتعاً بالموهب الإلهية الواسعة ، والتفتح العقلي الوقاد ، وسعة الأفق والفكر ، والذكر الحاد ، والفهم العلمي .

ومع توفر هذه العناصر والظروف اتجه إمام الحرمين إلى طلب العلم وتحصيله من كل جانب فحفظ القرآن الكريم عن والده ، وأتى على تفسيره الكبير لفهم كتاب الله تعالى ، وتدبر آياته ، وتبع العلوم التي يحتويها ، والتعمق في أحكام القرآن الكريم ، ودلالات الألفاظ والمعاني ، واستمر على حضور مجالس القرآن عند الكبر ، فكان يبدأ يومه بالذهاب إلى درس القرآن في مسجد الشيخ أبي عبد الله الخبازي قبل الاشتغال بالتدريس ، ودرس الحديث وبقية العلوم الشرعية ، مما لا مجال لتفصيله ، وإنما نكتفي بتحصيله لعلم أصول الدين .

انصرف إمام الحرمين الجويني منذ نعومة أظفاره إلى دراسة علم

(١) المواعظ والاعتبار ١٩٢/٤ .

(٢) معجم البلدان ٨/٣٥٦ ، ٣٥٨ ، عن كبار الإعلام بمناقب الإسلام ص ٦ .

أصول الدين وأخذ في تعلمه طوال شبابه ، وواظب عليه حتى أتقنه وتفوق فيه ، ولما توفي أبوه ، وأقام مكانه للتدريس ، وهو دون العشرين من عمره ، كان يقوم بالتدريس ثم يخرج بعده إلى مدرسة الإمام البيهقي بنيسابور لتحصيل علم أصول الدين على الأستاذ أبي القاسم الإسكاف الإسفراييني ، وظل يواظب حضور مجلسه إلى أن توفي الأستاذ سنة ٤٥٢هـ ، وكان إمام الحرمين يقول : « كتبت عليه في الأصول أجزاء معدودة ، وطالعت بنفسي مئة مجلدة »^(١) وكان إمام الحرمين يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ من علم أصول الدين ، وكان يقول : « ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر [الباقلائي] وحده اثني عشر ألف ورقة »^(٢) ، وقد أتقن إمام الحرمين علم الكلام وأصول الدين ، وساعده على ذلك حفظه للقرآن الكريم ، وتدبره لآياته ومعانيه ، وقدرته على المناظرة والمحااجة والمجادلة ، وتفتح عقله على الأدلة والحجج والبراهين ، حتى فاق فيه جميع الأقران ، وتعمق في أغواره ، وأخذ عن كبار علماء عصره ، وصار أعلم الناس في زمانه بأصول الدين وعلم الكلام .

وكان الدافع لدراسة علم أصول الدين أصلاً ، وتأكيده بدراسة الفلسفات الأخرى والعلوم العقلية المتنوعة ، هو الحرص على الإسلام ، والدعوة إليه ، ورد شبهات الأعداء عنه ، وتنفيذ حجج الطاعنين به من الكفار والمشركين خارج الدولة الإسلامية ، ومن المنافقين والملحدون الذي انضوا تحت لواء المسلمين ، وتستروا بالباطنية وغيرها من الفرق الضالة ، للدس على الإسلام ، والتشكيك فيه ، وإثارة الشبه بين المسلمين ، وزرع البلبلة في العقيدة ، ومحاولة دس الأفكار الدخيلة

(١) انظر : مرآة الجنان ٣/ ١٢٥ .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨٥ .

والباطلة بين أفراد المسلمين وفرقهم ومذاهبهم ، والاستعانة بفلسفة اليونان ، ومنطق الرومان ، وأوهام المجوس والهنود ، وذلك بعد ترجمة ثقافات هؤلاء القوم إلى العربية ، حتى أمر المهدي في منتصف القرن الثاني الهجري علماء الجدل والكلام بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأهل الزيغ ، فنهض العلماء يدرسون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، ويتعمقون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعرفون أسرارها ليستخدموها في الرد على أصحابها ، وكشف زيفها ، ولجؤوا إلى أسلوب المناطقة ، واعتمدوا على الحجج المنطقية والأدلة العقلية ، وكان أول من حمل هذا اللواء المعتزلة الذين حققوا انتصارات حاسمة في وجه الفرق المنحرفة ، والتيارات الوافدة ، والآراء الدخيلة الضالة ، وكانوا يمجدون العقل ، ويرفعونه مكاناً عالياً لمواجهة الأعداء ، وإفحامهم ، لكنهم اعتمدوا على نفس السلاح العقلي في فهم القرآن ، وفي تجديد مفاهيم الإسلام ، مما أوقعهم في خبط شديد ، وانحرف كبير ، ثم سلطوا سلاحهم على نفس المسلمين ، واستطاعوا أن يقنعوا بعض الخلفاء والحكام بآرائهم ، لقوة حججهم العقلية ، وحاولوا حمل الناس بالقوة والسلطة والإكراه عليها ، وظهرت الفتنة بسببهم في خلافة المأمون والمعتصم والواثق ، وثبت العلماء والأئمة أمام هذا التيار ، وأظهر الإمام أحمد بن حنبل صموداً رائعاً في الثبات على الحق ، حتى رفع الخليفة المتوكل هذا الامتحان القسري ، ومنع المعتزلة من المناظرات والمجادلات ، لكن الصراع الفكري استمر على أشده ، مما دفع حماة الإسلام ، وعلماء الدين ، الذين يغارون على أمتهم ، ويحملون لواء الدعوة ، ويشعرون بثقل المسؤولية ، ويحسون بالأمانة الملقاة على عاتقهم ، أن يشمروا عن سواعدهم لتفنيد آراء المعتزلة ، والدفاع عن العقيدة والشريعة ، ونقض الفلسفات المادية ، والأوهام الوثنية ، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكشف الغطاء أمام

المسلمين بالتدريس والتعليم والتوجيه ، والدعوة والتأليف ، واعتمدوا على الحجج العقلية مع الأدلة النقلية للرد على أصحاب الأهوال والضلال ، ولإنقاذ المسلمين من سكير المعتزلة الذي صبوه عليهم ، وظهر في هذا الخصوص مذهب الأشعرية والماتريدية لبيان منهج الإسلام في العقيدة وأصول الدين بالأدلة العقلية والنقلية ، بالإضافة إلى العلماء الذين حافظوا على منهج السلف بالاقتصار على الحجج النقلية والوقوف عند النصوص اعتقاداً وسلوكاً ودعوة ، ومن خلف هؤلاء وقف الفقهاء والعلماء والدعاة ، يردون كيد الأعداء في نحورهم ، ويحملون راية الدعوة الإسلامية ، ويبلغونها للناس ، وينافحون عن الدين ، مما أدى إلى الحفاظ على العقيدة والشرعية صافية نقية من كل شائبة تطبيقاً لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك »^(١) ، وفي رواية : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس »^(٢) .

وهكذا صارت دراسة أصول الدين أو علم الكلام وتدريسه والتأليف فيه السبيل القويم أمام المسلمين ، فانكب العلماء على دراسته وتدريسه والتصنيف فيه ، وهو ما سلكه إمام الحرمين الجويني رحمه الله ، فدرس أصول الدين بتوسع ، وتعمق في جوانبه ، ثم واصل البحث بنفسه ، وطالع كتب الفلاسفة وعلماء الكلام والمنطق ، وحصل المعلومات الكثيرة ، وهضمها بشكل كامل ، ثم صنف عدة كتب في أصول الدين

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ثوبان مرفوعاً (صحيح مسلم ١٥/١٣ رقم ١٩٢٠ ، الفتح الكبير ٣/٣٢١) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعاً (صحيح البخاري ١٣٣١/٣ رقم ٣٤٤١ ، ٣٤٤٢ ، صحيح بشرح النووي ٦٦/٣ رقم ١٩٢٣ ، الفتح الكبير ٣/٣٢١ ، مسند أحمد ٩٧/٤ ، ١٠٤ ، ٣٦٩ ، ٤٢٩) .

والعقيدة وعلم الكلام والتوحيد ، وهذه أسماء واحدة في الحقيقة والجوهر ، وفي الهدف والغاية ، كما سبق ، ولكنها تختلف في العرض والأسلوب ، وهو ما صرح به إمام الحرمين في مقدمة كتابه «الإرشاد» فقال : «وصادفنا المعتقدات عَرِيَّة عن قواطع البرهان ، رأينا أن نسلك مسلكاً يشتمل على الأدلة القطعية ، والقضايا العقلية»^(١) ، ويريد بذلك البراهين القاطعة بحسب عصره التي تعتمد على العقل والمنطق والفلسفة . وهي المطالب العقلية التي تخص أهل ذلك العصر .

وقد حظيت كتب إمام الحرمين في أصول الدين بالإقبال عليها ، والرجوع إليها من العلماء ، ومعظم دور العلم والمدارس ، وتناولها الكثيرون بالعناية والرعاية والشرح والاختصار ، وفي هذا العصر تفتحت عليها الأنظار ، وتم طبع أربعة كتب منها ، مع التحقيق والدراسة وهي : لمع الأدلة ، الإرشاد ، الشامل ، العقيدة النظامية ، كما سنفصله ، وبقي سائرهما مخطوطاً لم ير النور ، وقد ضاع بعضها ، أو لم يتم العثور عليه حتى الآن .

كتب إمام الحرمين في أصول الدين :

ألف إمام الحرمين عدة كتب في العقيدة وأصول الدين وعلم الكلام ، وتدرج في تصنيف هذه الكتب ، فكتب بعض كتبه في مطلع حياته ، وأثناء معترك النشاط والدعوة والتدريس والمناظرة ، وكان يتبع المدرسة الأشعرية في أغلب ما كتب ، وكلما نضج عقله ، واتسع فكره ، وتوسعت مداركه ، وازدادت معارفه ، كان يسطر ذلك في مصنفاته ، ولعله بدأ باختصار كتاب الإرشاد للباقلاني ، ثم ألف رسالته المختصرة «لمع الأدلة» ، ثم توسع بذلك وشرحها في كتابه الكبير «الشامل» الذي

(١) الإرشاد ص ١ .

يعتبر موسوعة علمية في علم أصول الدين ، وفي آخر حياته كتب «العقيدة النظامية» التي تمثل آخر الآراء التي استقر رأيه عليها ، وأن ما ورد فيها ينسخ ما ورد في كتابيه السابقين «الشامل» و«الإرشاد» مما صرح به فيهما ، كراهيه في الصفات ، أو مما فهم خطأ عنه في مسألة عدم علم الله تعالى بالجزئيات ، ثم التصريح بعلم الله تعالى في ذلك ، وتعتبر بعض هذه الكتب مختصراً وبعضها شرحاً ، لمراعاة المستويات المختلفة فيها ، كما أن بعض كتبه تتناول جميع مسائل علم الكلام وأصول الدين ، بينما تضمن بعضها الآخر جانباً معيناً من العقيدة أو أصول الدين ، مثل «مدارك العقول» و«أسماء الله الحسنى» و«شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل» و«الكرامات» ، وسوف نقدم نبذة مختصرة عن كل كتاب .

١ - لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة :

وهذا الكتاب عبارة عن رسالة مختصرة في العقيدة الإسلامية التي يؤمن بها المسلم ، عرضها إمام الحرمين لبيان حقيقة المذهب السني في أصول الدين ، مدعمة بالأدلة الموجزة ، والبراهين العقلية المقتضبة ، كتبها في الغالب في أول حياته تلبية لدعوة أصحابه وتلاميذه وطلابه الذين كانوا يحيطون به ، ويجلسون إليه ، واقتصر على مسائل العقيدة التي رآها أجدر من غيرها بالذكر ، ويشتمل حولها الخلاف بين المتكلمين والمعتزلة وغيرهم .

وبدأ الرسالة بالكلام عن العالم وحدوثه للوصول إلى وجود الله تعالى وقدمه ، ثم بين صفات الله تعالى الواجبة والجائزة ، ومنها صفة الكلام ، فقال : «فصل : وكلام الله تعالى مقروء بالسنة القراء ، محفوظ بحفظ الحفظة ، مكتوب بالمصاحف على الحقيقة ، والقراءات أصوات القارئ ونغماتهم» (ص ٩٢) ، وهذه المسألة أهم مسائل علم الكلام التي أدت

إلى فتنة المأمون في «خلق القرآن»، ثم انتقل للحديث عن الرسل والنبوات والمعجزات ، وأن المعجزة تثبت صدق مدعي النبوة ، وختم الرسالة بفصل عن إمامة المسلمين ، وأن أمير المؤمنين بعد النبي ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ، وأن النبي ﷺ لم ينص على إمامة أحد بعده ، إذ لو نص على ذلك لظهر وانتشر ، ثم قال: «والخلفاء الراشدون لما ترتبوا في الإمامة فالظاهر ترتيبهم في الفضيلة كذلك» (ص ١١٦).

وهذا الكتاب نشرته المؤسسة المصرية العامة بالقاهرة عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م عن نسخة خطية بدار الكتب المصرية وأخرى من مكتبة برلين ، بتحقيق الدكتورة فوية حسين محمود ، مدرسة الفلسفة بكلية البنات بجامعة عين شمس ، ومراجعة الدكتور محمود الخضيري ، مع تقديم عن سيرة إمام الحرمين ، ومصنفاته ، ومكانته ، وتعليق على التحقيق ، وفهارس شاملة له .

وللكتاب شروح كثيرة منها: «شرح لمع الأدلة» لأبي محمد عبد الله شرف الدين بن محمد بن علي الفهري ، الشهير بابن التلمساني ، المتوفى سنة ٦٤٤هـ ، ويوجد لهذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ونسخة أخرى بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، ولها فيلم بمعهد المخطوطات العربية^(١).

٢- الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد:

نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي لوسيان عام ١٩٣٠م بخط مغربي معتمداً على ثلاث نسخ خطية من الجزائر وتونس وباريس ، مع ترجمة بالفرنسية ، ثم حققه الدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ علي عبد

(١) انظر مقدمة لمع الأدلة ، للجويني ص ٨٧.

المنعم عبد الحميد على ثلاث نسخ أخرى بدار الكتب المصرية والمكتبة الأحمدية بحلب ، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م وبين الدكتور محمد يوسف موسى القصد من الكتاب بأنه بيان العقائد الدينية والاستدلال لها ، ثم الدفاع عنها ، ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب المخالفين للدين ، وذلك «في أسلوب قوي واضح ومركز ، من غير تعقيد ، فليس بالمطول الذي يدعو للملل والسآمة ولا بالموجز في مبالغة ، وهو إلى هذا فيه من أصالة الرأي ، واستقلال الفكر ما يجعله أحق بأن يدرس رسمياً في الأزهر من الكتب التي بيد الطلاب» (صفحة ص من المقدمة).

وبين إمام الحرمين في مقدمته البواعث لتأليف الكتاب ، وهي الاختصار ، والاعتماد على الأدلة النقلية والعقلية ، وقواطع البرهان ، ورتب الكتاب على أبواب وفصول تغطي موضوعات علم أصول الدين ، مع مناقشة الشبه ، والرد على المعتزلة وبقية الفرق المنحرفة ، ومهّد لذلك ببعض الفصول عن أحكام النظر ووجوبه وحقيقته وحصول العلم به ، وشرح المصطلحات الكلامية التي يستعملها ، ثم بدأ باستعراض مسائل علم الكلام ، كما جاء في كتابه «لمع الأدلة» فعرض إثبات حدوث العالم ، للتدرج بالقارئ إلى وجود المحدث ، وهو الله تعالى ، وشرح صفات الله تعالى ، ورد على دعاة التجسيم والتشبيه ، وناقش أقوال النصارى ، وتعرض لمسألة الاستواء على العرش ، وفسره بمعنى القهر والغلبة والعلو ، كما تعرض بالتفصيل لمسألة كلام الله تعالى ، وشرح كلام النفس ، ورد على الجهمية ، وناقش أقوال المعتزلة ، وشرح معاني أسماء الله الحسنى ، وذكر بعض الصفات التي وردت في القرآن الكريم كاليد والعين والوجه ، واختار قول المتأخرين أن الصحيح حملها على التأويل بالقدرة والبصر والوجود ، وناقش أقوال المخالفين ، واحتج لآرائه بالنقل والعقل ، وكشف آراء القدرية وردّها وذم القائلين بها ،

واستطرد لمسألة التكليف بما لا يطاق ، والتحسين والتقبيح ، والصلاح والأصلح على الله تعالى ، وبين إسراف المعتزلة في تمجيد العقل وتقديسه ، ومحاولته تطويع النصوص له ، مما يأباه الشرع ومنهج السنة والسلف .

ثم تناول إثبات النبوة وتأيدها بالمعجزات ، وفصل القول في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ومعجزاته ووجوه إعجاز القرآن ، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه «جرى رسم المتكلمين بذكر هذا الباب في الأصول وهو بمجال الفقهاء أجدر» ، ثم تحدث عن السمعيات والآجال والرزق والإعادة بعد الموت وأحوال الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب والشفاعة والتوبة ، وانتهى إلى القول في الإمامة ، كما سبق في «لمع الأدلة» مع التفصيل ، ومحذراً من الطعن بالصحابة والافتراء عليهم .

وقد تناول العلماء هذا الكتاب بالشرح ، فتعددت شروحه ، منها «شرح الإرشاد» لتلمذ إمام الحرمين سليمان الأنصاري (٥١٢هـ) ، ويوجد منه نسخة بخزانة القرويين بفاس ، ومنها «نكت الإرشاد في الاعتقاد» لأبي إسحاق المعروف بابن المرأة ، في خمسة مجلدات ، ويوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، ومنها «الإسعاد على الإرشاد» لأبي فارس عبد العزيز بن إبراهيم ، ويوجد منه نسختان مخطوطتان بفاس ، وشرح أبي بكر بن ميمون بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، ومنها «المقترح» لعز الدين ابن المظفر الشافعي ، ويوجد منه نسخة مخطوطة بالجزائر^(١) .

(١) انظر: كشف الظنون ١/٨٦ ، الكافية في الجدل ص ١٩ ، الإرشاد صفحة ق ، الجويني ص ٨٠ .

٣- الشامل في أصول الدين :

وهذا أكبر كتاب في أصول الدين لإمام الحرمين ، وقد وصفه حاجي خليفة بأنه يتكون من «خمس مجلدات» ووصفه المعاصرون بأنه «يعد بحق - دائرة معارف كبرى ، طرق فيها الجويني شتى فروع العلم والمعرفة»^(١) ، ويتجه الظن إلى أن هذا الكتاب هو شرح للكتاب السابق «لمع الأدلة» لأنه عرض نفس الموضوعات بتوسع وإفاضة وتفصيل وأدلة ومناقشة مستفيضة لمسائل علم الكلام ، واستعراض الآراء إما صراحة وإما إشارة ، مع الرد على المخالفين ، وقد لقي هذا الكتاب قبولاً عظيماً من العلماء ، وأقبل عليه الأشعرية وغيرهم ، وأصبح معتمداً في الرجوع إليه ، وكان فخر الدين الرازي يحفظه عن ظهر غيب^(٢) .

وهذا الكتاب العظيم لم يظهر للنور حتى اليوم بشكل كامل ، ويظن أن أكثره قد ضاع مع ما فقد من تراث الإسلام والمسلمين ، أو أنه لا يزال في مكتبات مجهولة لم تعرف حتى الآن ، وقد بادر المستشرق الألماني هلموت كلوبفر إلى نشر جزء منه عن نسخة ناقصة بإستانبول ، وقال إنه اكتشفه بعدما ظل مجهولاً مدة قرون طويلة ، وطبع هذا الجزء طبعة غير دقيقة سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

ثم قام الدكتور علي سامي النشار والأستاذ فيصل عُون والسيدة سهير محمد مختار بتحقيق الجزء الأول من الشامل ، وقدموا له مقدمة مطولة استهلوها عن المدرسة الأشعرية في العقيدة ، وقالوا «إن ظهور الأشعرية أعظم حادثة فكرية في تاريخ الفكر الإسلامي» (ص ٥) ثم عرضوا للبواكير الأولى لحركة العقلية الإسلامية والمذاهب الكلامية ونشوء الفرق ، وتمّ نشر الكتاب عام ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م بالإسكندرية .

(١) انظر: كشف الظنون ٤٥/٢ ، الشامل ص ٧٩ .

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٨١ ، ٨٦ .

ويحتوي الشامل على جميع بحوث أصول الدين ، لكن الجزء الأول المطبوع يقتصر على ثلاثة كتب وهي «كتاب النظر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب العلل» مع نقص الأوراق الأولى من أوله .

ويبحث في كتاب التوحيد عن الواحد وحقيقته ومعانيه ، ليصل إلى فكرة التوحيد في الألوهية موضحاً التوحيد الحق ، ومميزاً له عما سواه ، مع التعرض للتجسيم الذي يتنافى مع العقيدة والواقع ، ورد على مطاعن الخصوم ، وشرح آراء النظام وغيره من المعتزلة وآراء الكرامية وغيرهم من الفرق المنحرفة ، وكشف مزاعمهم ، ورد أباطيلهم ، وفند حججهم ، ثم عرض آراء النصاري في فهم الألوهية ، وذكر آراء فرقهم المختلفة من النسطورية واليعقوبية والملكانية وغيرهم في الاتحاد ، واللاهوت والناسوت والأقانيم وصلب المسح ، وناقشهم في كل ذلك ، مبيناً الحق والصواب ، معتمداً على نصوص كثيرة من كتابهم الإنجيل ، وأنهم فهموا بعض كلماته خطأ ، وعقب على كل ذلك بباب يتضمن صفات الله تعالى .

وإن موضوعات «الشامل» تتفق مع موضوعات ومسائل «الإرشاد» مع التوسع الكبير ، والأدلة والمناقشة ، ويظهر ذلك بشكل جلي في الكتب الثلاثة السابقة التي تم العثور عليها ، وتم تحقيقها ونشرها .

وللشامل مختصر كبير ومفيد بعنوان «الكامل في اختصار الشامل» لابن الأمير أو ابن أمير الحج ، المتوفى في القرن الثامن الهجري ، ويوجد لهذا المختصر نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا ، وهي بخط المؤلف ، وقد وعد محققو كتاب «الشامل» أن يقوموا بتحقيق ونشر هذا المختصر .

٤ - العقيدة النظامية :

وهذا الكتاب جزء من مصنف كبير لإمام الحرمين ، اسمه «الرسالة

النظامية في الأركان الإسلامية» ويعرف بالنظامي ، ويحتوي على العقيدة وأحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج ، لكن بعض النساخ أفرد قسم العقيدة عن باقي الأقسام ، وسموه «العقيدة النظامية» ، وباقي الكتاب في أحكام الفقه على المذهب الشافعي بالخصوص ، أما قسم العقيدة فعام لجميع المسلمين ، وهذا ما صرح به القاضي أبو بكر بن العربي في نسخته المخطوطة التي رواها عن الغزالي عن المؤلف نفسه ، وتمّ نشر الكتاب عليها مع نسخة أخرى .

وكتاب العقيدة النظامية مطبوع ثلاث مرات ، الأولى صححها وعلق عليها صاحب الفضيلة العلامة الأستاذ محمد زاهد الكوثري ، ونشرها صاحب مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ثم قام المستشرق الألماني كلوبفر بنشر هذا الكتاب بمطابع شركة الإعلانات بمصر مع ترجمة ألمانية له ، وأخيراً صدرت الطبعة الثالثة بتحقيق الدكتور أحمد السقا ، بمكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

ويقع الكتاب في طبعته الأولى مع مقدمته وفهرسه في ٧١ صفحة ، بين الشيخ الكوثري رحمه الله في المقدمة فضل علم أصول الدين أو علم الكلام ، وبين شرفه وجدواه ، لأن معلمه يتعلق بالإيمان واليقين ، وصون عقائد المسلمين من الشكوك ، وحدد منهج السلف فيه «بالاقتصاد في المعقول والاقتصار على ما في الكتاب والسنة من الأدلة» وجرياً مع الزمن رد العلماء على أهل الأهواء «بطرق عقلية يعترفون بها ، ويخضعون لأحكامها» (ص ٣) ، وهو ما فعله الخلف في هذا العلم ، ثم ذكر الكوثري مكانة إمام الحرمين في هذا المضمار ، وأن له القدح المعلى فيه ، وأن مؤلفاته همزة وصل بين منهجي السلف والخلف .

وهذا الكتاب مختصر وجيز في بيان عقيدة الإسلام والمسلمين ، بأسلوب فريد ، مع جودة في البيان ، واحتوائه على أشياء لم يدونها إمام

الحرمين في موضع آخر ، وصرح في مقدمته فقال : «وقد صدرتها بقواعد في العقائد على أساليب لم أسبق إليها ، ثم اتبعتها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام» (ص ٨) ، وبين أهمية موضوعاته فقال : «وأنا الآن أبدي سرّاً من أسرار التوحيد ، لو قبل بكل ما يدخل في مقدور البشر ميسوراً لما كان له كفاء» (ص ٤٤) ، وقال : «وها أنا أذكر نكتة يسعد من يعيها ، ويفوز الفوز الأكبر من يديرها ، فيا سعادة من أنعم فكره في هذا قليلاً ، ولم يتجاوزه حتى تنضجه الفكرة ، وتنقده يد السبر» (ص ٢٩) .

ويمتاز هذا الكتاب بأنه آخر كتب إمام الحرمين في العقيدة وأصول الدين ، وفيه خلاصة آراء إمام الحرمين ، وما استقر عليه ، وأنه ذكر كثيراً من الآراء المخالفة لما ذكر في «الشامل» و«الإرشاد» مما يدل على رجوعه إلى ما جاء في «العقيدة النظامية» .

وجاءت تسمية الكتاب «بالنظامية» تسمية باسم الوزير نظام الملك في العهد السلجوقي الأول ، تقديرًا له ، واعترافاً بفضله على المسلمين ، وتخليداً لذكره على الأعمال المجيدة التي قام بها من فتح المدارس النظامية في كل مدينة ، وتعيين كبار العلماء والفقهاء للتدريس فيها .

ويحتوي كتاب العقيدة النظامية على تمهيد من نقطتين : القول فيما تجب معرفته في قاعدة الدين ، وحدوث العالم ، ثم يبين إمام الحرمين خطة الكتاب بعنوان «فصل في ترتيب تراجم العقائد» وحصره في ثلاثة أبواب ، الأول في العلم بأحكام الإله وصفاته الجائزة والواجبة ، والباب الثاني في مناط التكليف من صفات العباد ، والباب الثالث في النبوات التي تتصل بها الأوامر التكليفية بالعباد ، وبها ترتبط الأمور السمعية والغيبات في الحشر والنشر ، والوعد والوعيد المشعرين بالثواب والعقاب ، وغير ذلك «مما أنبأ به المرسلون ، وأخبر به الصادقون» ثم قال : «وتجتاز قواعد الدين مجاز هذه الأبواب ، ثم الإمامة ليست من

العقائد ، ولو غفل عنها المرء لم تضره ، ولكن جرى الرسم باختتام علم التوحيد بها ، ونحن نذكر طرفاً منها» (ص ١٣) ، ويظهر أنه عدل عن هذا الوعد ، وخصص هذا الموضوع بكتاب مستقل ، وهو كتابه القيم العظيم ، الفريد في نوعه ، الذي طبع حديثاً ولأول مرة «غياث الأمم في التياث الظلم» .

٥ - كتاب أسماء الله الحسنى :

وهو كتاب يدل اسمه وعنوانه على مضمونه ، ويتناول بالتفصيل أسماء الله التي ذكرها باختصار في الكتب السابقة ، وهي الأسماء التي تثبت سماعاً بالنص ، مع بيان معنى كل اسم ، وهذا الكتاب يغطي أحد موضوعات العقيدة وأصول الدين ، ولكنه ينحصر في الجانب النقلي والسماعي ، ولا مجال فيه للعقل والاجتهاد .

ويوجد نسخة خطية لهذا الكتاب بالخزانة الملكية بالرباط ، برقم ٨٠٩٨ ، وتقع في ١٨٩ صفحة ، مع بياض في عدد من الأسطر في الصفحات الأولى والأخيرة .

ويظن أن هذا الكتاب ليس لإمام الحرمين ، وإنما هو لوالده الشيخ أبي محمد الجويني ، وهذا لا يستبعد ، ولكن إمام الحرمين جاء على جميع كتب والده ، وأعاد النظر فيها ، وعدلها ونقحها ، فنسبت إليه .

٦ - مسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها :

وتتضمن هذه المسائل أجوبة إمام الحرمين عن حدوث العالم ، وذهول بعض العوام عن وجه الدلالة على صدق الأنبياء ، وعن المثليين والأعراض ، والمنجمين والمعجزات ، ومعنى تمثيل جبريل ، وقدرة الله تعالى على كل شيء .

ويوجد لهذه المسائل نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١١ فقه مالك ، واهتم بدراستها الأستاذ الإيطالي الدكتور امبرتو ريزيتانو

الأستاذ بجامعة روما بإيطاليا وعين شمس بمصر سنة ١٩٥٣ م .

٧ - شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل :

ويتضمن هذا الكتاب النصوص التي وردت في التوراة والإنجيل بإثبات البشارة بالرسول محمد بن عبد الله ﷺ ، وما وقع في هذه النصوص ، وفي غيرها من نصوص التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل ، وهو ما ذكره القرآن الكريم بنص قطعي .

ويوجد لهذا الكتاب نسختان مخطوطتان بمكتبة آيا صوفيا برقم ٢٢٤٦ ، ٢٢٤٧ ، ويوجد له نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٥٩ فيلم .

٨ - مختصر الإرشاد للباقلاني : اختصره إمام الحرمين ، ولعله أول كتبه في أصول الدين ، ويوجد منه نسخة مخطوطة بجامعة الدول العربية برقم ٢١١ علم الكلام ، ونسخة بالميكرو فيلم أيضاً ويشكك بعض العلماء بنسبة هذا الكتاب لإمام الحرمين ، لأن الباقلاني اختصر كتابه الإرشاد بنفسه ، ويحتمل أن يكون إمام الحرمين قد اختصره أيضاً بعد الباقلاني .

١٠ - رسالة في أصول الدين ، ويوجد منها نسخة مخطوطة في باريس برقم ٦٧٢ ، ضمن مجموعة رسائل ، كما يوجد نسخة مخطوطة بعنوان «رسالة في التوحيد» بدار الكتب المصرية برقم ٩٤٠ لإمام الحرمين .

١١ - مدارك العقول ، وهو كتاب في المعرفة وأصول الدين ، ويظهر أن إمام الحرمين شرع فيه في نهاية حياته ، كما أشار إليه بنفسه في كتابه «غياث الأمم» (ص ٣٧٩) ، الذي كتبه في أخريات حياته ، ووعد فيه أنه سيكتب كتاباً مفصلاً عن «مدارك العقول» ولكنه لم يتمه كما صرح به

حاجي خليفة ، وابن خلكان^(١) ، ولا يوجد لهذا الكتاب ذكر في الفهارس العامة والمخطوطات والمكتبات .

١٢ - الكرامات ، وهو كتاب ذكره إمام الحرمين في كتابه «العقيدة النظامية» (ص ٥٢) في فصل الكرامات : «وقد كثر خبط الناس في إثباتها ونفيها ، وقد ألفت في إثباتها والرد على منكريها كتاباً ، وأنا الآن أذكر لبابه» ، ولم يعثر على أثر لهذا الكتاب حتى اليوم .

١٣ - رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ، وتنزيه الباري جل وعلا عن الحصر والتمثيل والكيفية ، ويوجد لهذه الرسالة نسخة مخطوطة بالموصل برقم ١٠٣٥ ، والثابت أن هذه الرسالة لوالده الشيخ أبي محمد الجويني ، وقد نشرها الشيخ المرحوم منير الدمشقي في رسائله المعروفة ، وقد يكون نسبتها لإمام الحرمين ، لما قام من تعديل وتنقيح لجميع كتب والده^(٢) .

تقييم آراء إمام الحرمين في أصول الدين

كان إمام الحرمين من أعلام القرن الخامس الهجري ، وقد حمل على عاتقه واجب الأمانة العلمية والتبليغ والدعوة والتدريس ، وكرس حياته في دراسة العلوم الشرعية والمعارف السائدة في زمانه ، وبالغ في دراسة علم الكلام وأصول الدين ، وصنف فيه الكتب الكثيرة ، وخاض المناظرات الدائمة ، وكان يقول : «لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها ، وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم ، وخضت في الذي نهى أهل الإسلام عنها ، كل ذلك في طلب الحق ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن

(١) انظر : كشف الظنون ١/ ٨٧ ، ٢/ ٤٠٩ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣٤٢ ، الكافية ص

٢٣ ، الجويني ص ٨٥ .

(٢) الرسائل المنيرية ١/ ١٧٤ وما بعدها .

رجعت عن الكل إلى كلمة الحق : عليكم بدين العجائز»^(١).

وكان الأشاعرة يحملون لواء الدفاع عن الإسلام ، وعقائد المسلمين في ذلك العصر ويمثلون مذهب أهل السنة والجماعة ، وتوسطوا في الأسلوب والوسائل بين تطرف المعتزلة وبين أهل الظاهر وبعض العلماء الذين آثروا السلامة في الصراع الفكري ، والتزموا جادة النصوص والأدلة النقلية ، ورفضوا الخوض في الجدال والمناظرة ، بينما حمل الأشاعرة الدعوة الرشيدة ، وتصدوا لشطط المعتزلة ، ووقفوا في وجه الفلسفات الوافدة ، والانحرافات المتعمدة ، والشبه المنتشرة ، وانخرط إمام الحرمين في مدرسة الأشاعرة ، وسار في كتبه وتدريسه على طريقتهم ، حتى صار شيخ الأشعرية وإمام المتكلمين في عصره ، وأصبح علم الكلام عند الجويني بحراً لا ساحل له ، وبلغ فيه المرتبة العليا ، والمكانة السامية دراسة وبحثاً وتأليفاً ومناظرة وتديساً ، ثم انتقل هذا العلم عن طريقه إلى تلميذه النابغة المشهور ، فيلسوف المسلمين ، وحجة الإسلام ، الإمام الغزالي الذي نقل آراء إمام الحرمين ونشرها بأقواله وكتابات.

ولم يكن إمام الحرمين مجرد ناقل لآراء المذهب الأشعري ، بل كان يتمتع بشخصية مستقلة ، واجتهادات كثيرة فيما لم يرد فيه نص ، وكان يحلل الآراء وينقدها ، ليقبل ما يراه حقاً ، ويرفض ما يراه باطلاً ، مما يعتبر تجديداً في المذهب ، لا تقليداً فيه ، ويستخدم الجدال في المناقشة ، ويرجع إلى العقل في فهم النصوص القرآنية ، فاعتبرت كتبه بداية عصر جديد في علم الكلام من ناحية الأسلوب والعرض والتحليل والاستنباط ، والجمع بين المنقول والمعقول ، وتقديم النصوص النقلية مقرونة بالحجج العقلية مما أوصله إلى آراء مستقلة ، واجتهادات فريدة ، وأقوال مبتكرة ، وهو ما دعاه لمخالفة بعض الآراء والأقوال لمذهب

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٨٥/٥ .

الأشاعرة ، وخاصة لإمام المذهب أبي الحسن الأشعري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني وبين ضعفها ، وقدم البديل الصحيح لها ، وحاول تأويلها بما يتفق مع منهجه في الدراسة والاستدلال ، وهذا ما دعا بعض العلماء إلى وصف إمام الحرمين بأنه «لم يكن أشعرياً ، لأنه يقول: فعل العبد بقدرة العبد مستقلة ، ولا كسب ، فلهذا كانت نسبته إليهم دعوى ، وله كلام في إثبات القدرة ، وتضعيف قول الأشعرية^(١)» .

والواقع أن إمام الحرمين من أئمة الأشعرية ، مع الشخصية المستقلة ، والتجديد في الأسلوب والعرض ، والاجتهاد في الآراء والأقوال ، مما أوصله إلى مخالفتهم في بعض الأحيان دون أن يخرج عنهم .

وكانت شخصية إمام الحرمين الواعية ، الفذة ، المتحررة ، الناقدة ، المجتهدة ، سمة له في حياته العلمية ، وفي تأليفه وببحثه ، وفي تدريسه وتعليمه ، وله آراء خاصة واجتهادات مستقلة في الفقه وأصول الفقه خالف فيها الإمام الشافعي أحياناً ، وأبا الحسن الأشعري أحياناً أخرى ، والقاضي أبي بكر الباقلاني في أحيان كثيرة^(٢) .

وهذه الشخصية الفريدة لإمام الحرمين أدت إلى إقبال العلماء على كتبه وآثاره ، وتمحيص آرائه وأقواله واجتهاداته ، سواء من قبل الموافقين له والمخالفين على حد سواء ، وتتبع العلماء آراءه ، وأحصوا عليه بعض الأخطاء والآراء الشاذة التي خالف فيها النصوص الشرعية ، أو خالف فيها المذهب الأشعري أو خرج فيها ظاهراً على إجماع المسلمين ، وحرص آخرون على التقاط الأخطاء ، أو تصيد العيوب ، مما حملهم على تأويل بعض نصوصه ، أو فهمها فهماً معيناً ، ومن أشهر المسائل التي أثرت على إمام الحرمين مسألة الاسترسال ، وتعني عدم علم الله تعالى في

(١) انظر: تراجم الرجال ، الجنداري ص ١٩ ، الجويني ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر فهرس هذه المسائل في آخر كتابه البرهان ١٤٤٣/٢ .

الجزئيات والتفاصيل ، وأن علمه ينحصر في الكليات والعموميات ، وقد وردت هذه المسألة في كتابه «البرهان في أصول الفقه» (ص ١٤٥) وتمسك بها شارح «البرهان» الإمام المازري الملكي ، وشنع على إمام الحرمين ، ثم شاع هذا الاتهام عليه ، لكن أكثر العلماء ردوا هذه الاتهامات ، وخاصة مسألة الاسترسال ، وأفردوا ابن السبكي بالمناقشة ، وكشف أن المازري وغيره لم يفهموا كلام إمام الحرمين في البرهان ، وأنهم حملوه على غير حقيقته ويلخص ابن السبكي وغيره الجواب : إن إمام الحرمين بحث هذا الموضوع بوضوح تام في كتبه في علم الكلام وأصول الدين كالشامل والإرشاد والعقيدة النظامية ، وأن رأيه صريح فيها ، بأن علم الله يحيط بالجزئيات ، وهذا أمر مفروغ منه ، وأصل مقرر في العقيدة ، ويكفر من يخالفه ، فقال في «الشامل» : «إن الرب سبحانه وتعالى عالم بالمعلومات على تفاصيلها ، متعال عن العلم بها على الجملة ، إذا العلم بالجملة يقارن الجهل بالتفصيل ويقول : «الدلالة دلت على وجوب كون القديم عالماً بجميع المعلومات» (ص ١٤٧).

ومن الآراء التي أثبتت على إمام الحرمين قوله في صفات الله تعالى التي وردت في القرآن ، كاليد والعين والاستواء ، بالتأويل ، ثم رجع عن هذا الرأي في آخر كتبه إلى قول السلف بالتفويض ، وهذا ما صرح به في «العقيدة النظامية ص ٢٣» ، فقال : «قد اختلفت مسالك العلماء في الظاهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها ، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في كل الكتاب ، وفيما صح من سنن النبي ﷺ وذوهاب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب ، والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع ، وترك الابتداع ، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ،

وقد درج صحب النبي ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة .

ومما ينقله كثير من العلماء أن الجويني رجع عن رأيه في علم الكلام ، وأنه ندم على اشتغاله به ، وأنه قال عند تناثر أسنانه في مرض موته : « هذه عقوبة اشتغالي بالكلام ، فاحذروه » ، وأنه قال : « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو علمت أن الكلام يبلغ إلى ما بلغ ما اشتغلت به » ، وأنه قال أيضاً : « والآن رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف بره ، وإلا فالويل لابن الجويني ، يريد نفسه »^(١) .

ويحاول بعض العلماء استغلال هذه الأقوال للهجوم على علم الكلام والتحذير من تعلمه ودراسته ، وتحريم الاطلاع عليه ، واعتباره من العلوم الضارة الدخيلة على المسلمين ، وهذا مبالغة في القول ، والمسألة محتملة ، وقال ابن السبكي : « يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة »^(٢) .

ونختم الكلام عن كتب إمام الحرمين في أصول الدين وعلم الكلام بالملاحظتين التاليتين :

١ - إن علم الكلام عامة ، وكتب إمام الحرمين خاصة ، تصور لنا الحركة العلمية والفكرية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وتشرح لنا المعركة المحتدمة بين أهل السنة والجماعة ودعاة الإسلام عامة وأئمة الدين من جهة ، وبين المعتزلة وبقية المذاهب الكلامية والفرق الدينية والتيارات الفلسفية الهدامة من جهة أخرى ، وأن علماء الكلام من الأشعرية والماتريدية وغيرهم دونوا لنا حجج الدفاع عن العقيدة والدين ،

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي ١٩/٩ وما بعدها ، النجوم الزاهرة ١٢١/٥ ، وطبقات الشافعية الكبرى ١٨٥/٥ .

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ١٨٦/٥ .

بالاعتماد على الأدلة العقلية من الكتاب والسنة وأقوال السلف ، مع الأدلة العقلية والأساليب الفلسفية والطرق المنطقية لمقابلة الخصوم بنفس الأسلحة التي يحارب بها الإسلام والمسلمون ، وأما علم الكلام والفلسفة المقتصر على البحث النظري ، والمنطق اليوناني ، والفلسفة الرومانية فهو مرفوض ، وصرح السيوطي بتحريمه ، فقال : «ولست أعني علم الكلام ، وهو ما ينصب فيه الأدلة العقلية ، وتنقل فيه أقوال الفلاسفة ، فذاك حرام بإجماع السلف ، نص عليه الشافعي رحمه الله تعالى»^(١).

وأما الآراء التي تتبعها العلماء على إمام الحرمين فهي قليلة ومحصورة ، وإن سلمنا جدلاً بخطئه فهي في مجال الاجتهاد الذي يؤجر صاحبه ، ولو أخطأ ، وإن إمام الحرمين لم يكن معصوماً ، ولم يدع العصمة لنفسه ، ولا دعاها له أحد ، ولكن يقال فيها : «كفى المرء فضلاً أن تعدّ معاييه».

٢ - إن علم الكلام كان مجرد سلاح ووسيلة في أيدي العلماء والدعاة في ذلك العصر ، وقد أحسنوا استخدامه ، وحققوا النصر والظفر به على أعداء الدين ، وهو علم مشحون بالأدلة والوسائل والأساليب التي يمكن الاطلاع عليها في عصرنا الحاضر ، مع الاستفادة منها ، بشرط عدم الوقوف عندها وبشرط التخلي عن مصطلحاتها الفلسفية القديمة كالجوهر والعرض والجرم والجزئي إلا لمختص ، ويجب تجاوز ذلك إلى الأسلحة العصرية ، والوسائل المتقدمة ، للقيام بنفس الواجب ، وتحمل العبء والمسؤولية والثبات على المبدأ الإسلامي ، وأداء أمانة الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، ففي مجال العقيدة والإيمان مثلاً ، يمكن ، بل يجب ، استخدام العلم الحديث ، والمكتشفات والاختراعات ، للاستدلال به

(١) انظر: إتمام الدراية لقراء النفاية ، للسيوطي ص ٣ على هامش مفتاح العلوم للسكاكي.

على صحة العقائد الإسلامية أمام أعدائها، وتثبيت الإيمان بين المسلمين، وفي مجال الفقه والتشريع والأحكام، يمكن، بل يجب، دراسة الأنظمة المعاصرة، والقوانين السائدة في العالم، بل والمفروض، على أعناق المسلمين، والمطبقة في بلادهم، شاؤوا أم أبوا، طوعاً أو كرهاً، للوصول إلى مقارنتها - ولو بالتزل - مع الشريعة الغراء، والأحكام الإلهية، لبيان التفوق السامي للفقه الإسلامي، والنجاح المحقق لأحكامه، والميزات والخصائص التي يمتاز بها على بقية الشرائع والقوانين الوضعية، لدعوة الناس إلى تطبيق شريعة الله، والرجوع إليها، والالتزام فيها.

وإن تراجع إمام الحرمين وغيره عن علم الكلام في ذلك العصر لا يعني فساد هذا العلم وفشله، وإنما يؤكد أمراً واقعياً ومحتملاً، وهو أنه مجرد وسيلة وسلاح، لا يعتمد عليه إلا أثناء المعركة الفكرية، ومواجهة الأعداء، والمجادلة والمناظرة، والمحاجة والصدام، وكل من تقدم في السن، وبلغ الشيخوخة، فلا بد أن ينسحب من المعركة، ويسقط السلاح من يده، ويتخلى عن السهام والأسنة، ويرجع إلى الهدف المقصود، ويقف عند الغاية، وهي العقيدة الدينية الصافية التي تقوم على السماحة والبساطة، والوضوح واليقين، مما لا تحتاج إلى أدلة وحجج أو استدلال ومنطق، أو فلسفة وبيان، هذه العقيدة التي يدركها الأمي، ويتثبت بها الكبير والصغير، ويقف عندها كل من اختلى إلى نفسه، وفكر في ذاته، واستأنس بكتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ، لترسخ في القلب كالجبال الراسيات، لا تحركها رياح، ولا تزعزعها عواصف، وهي العقيدة التي سماها إمام الحرمين وغيره: «دين العجائز» وهي عقيدة تحمل النور في طياتها، وتهدي العاقل إلى صفائها، وتشق الطريق إلى القلب والنفس بذاتها متى سلم السائر من غوايات الإنس والجن، وتجنب الوعر، ونجا من شباك الشياطين، ودعامة الضلال والانحراف، وهي التي

وصفها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ^(١) وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والحمد لله رب العالمين .



(١) انظر كلام الشوكاني في مذهب السلف في (الرسائل المنيرية ٢/ ٨٤) .

أبو عبيد القاسم بن سلام

- الإمام في الشرع واللغة -

العلم نور يضيء للبشرية الطريق ، وهو التراث القيم الذي يورثه السلف للخلف ، والعلم نسب بين أهله ، كما أن العلماء منارات للهدى ، ويضعون كتبهم مشاعل للنور ، فيستضيء بها الناس ، ويتعرفون من خلالها على المؤلفين ، فتحيي ذكراهم ، وتصوّر حياتهم ، وترسم الصورة لشخصيتهم .

وقد أنجبت أمتنا في عصرها الزاهر عدداً من الأئمة والعلماء ، تركوا آثاراً خالدة في تاريخ أمتهم ، وفي تاريخ البشرية ، وكانت بصماتهم ماثلة في كل مكان ، ونهل من علمهم ومعينهم كثيرون وكثيرون .

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام أبو عبيد القاسم بن سلام ، الذي وصفه ابن حبان في الثقات ، فقال : «كان أحد أئمة الدنيا ، صاحب حديث وفقه ودين وورع ، ومعرفة بالأدب وأيام الناس ، جمع وصنف واختار ، وذبح عن الحديث ، ونصره ، وقمع من خالفه»^(١) .

اسمه ونسبه :

هو أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكين بن زيد ، الرومي الأصل ،

(١) تهذيب التهذيب ٣١٨/٨ .

الخراساني المولد ، الأزدي بالولاء ، البغدادي المسكن ، المكي وفاة .
وهو الإمام المجتهد ، الفقيه المحدث ، اللغوي النحوي ، الأديب
العالم بالقراءات ، القاضي .
ولادته وتعلمه :

ولد أبو عبيد في هرة بخراسان عام ١٥٤هـ / ٧٧٠م ، وكان أبوه رومي
الأصل ، وكان مولى لقبيلة الأزدي .

طلب أبو عبيد العلم في مسقط رأسه ، ثم ارتحل في طلب العلم إلى
الكوفة والبصرة وبغداد ، فسمع الحديث عن عدد من المحدثين ، وقرأ
القرآن ، ودرس الفقه ، وتعلم التفسير ، وتلقى القراءات وأخذ اللغة
والنحو والتاريخ والشعر ، وجمع صنوفاً من العلم على أيدي كبار
العلماء ، وسمعها من أفواههم ، وتفقه على الشافعي في بغداد وتناظر
معه ، وجالس أحمد بن حنبل ، وبرع في العلوم ، كما قال الذهبي :
« وكان حافظاً للحديث وعلمه ، ومعرفة متوسطة ، عارفاً بالفقه
والاختلاف ، رأساً في اللغة ، إماماً في القراءات ، له فيها مصنف »^(١) ،
وقال ابن درستويه عنه : « من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب
الكوفيين ، ورواة اللغة والغريب عن البصريين والكوفيين ، والعلماء
بالقراءات ، ومن جمع صنوفاً من العلم ، وصنف الكتب في كل فن من
العلوم والأدب فأكثر وشهره - أبو عبيد القاسم بن سلام »^(٢) .

التأديب والتعليم :

ولما انتهى أبو عبيد من طلب العلم عاد إلى خراسان ، واشتغل
بالتعليم والتأديب الذي كان في ذلك الوقت عملاً علمياً رفيعاً ، ولا يتولاه

(١) تذكرة الحفاظ ٤١٧/٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٠٤/١٢ .

إلا العالم الضليع باللغة والأدب ، وعمل في تأديب الأسر ذات النفوذ ، كأولاد هرثمة بن أعين الذي كان من كبار القوّاد على عهد الرشيد والمأمون ، وانتقل في عمله إلى مرو مواصلاً تأديب الأولاد وتعليمهم ، إلى أن مرّ بتلك المدينة رجل من كبار القوّاد والوزراء ، وهو طاهر بن الحسين ، وكان في طريقه إلى خراسان لبعض الحروب ، فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقبل : ما هاهنا إلا رجل مؤدب ، فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له : من الظلم تركك بهذا البلد ، ودفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب ، لست أحب استصحابك خوفاً عليك ، فأنفق هذا المال إلى أن أعود إليك ، واشتغل بالتصنيف إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان ، فحمله معه إلى «سر من رأى» وهناك واصل التأليف والتدريس والتحديث^(١).

ثم ذهب أبو عبيد إلى بغداد ، وهناك جمعه القدر بثابت بن نصر بن مالك الخزاعي ، فانتدبه لتأديب ولده.

ولايته للقضاء :

كان ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي يتولى إمارة الثغور ، فلما ولي طرسوس وليّ أبا عبيد القضاء فيها سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م ، وظل في القضاء ثماني عشرة سنة ، وكان ذا هيبة ووقار ، لكنه ضاق بالقضاء ذرعاً ، لأنه قطعه عن التأليف ، فترك القضاء سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ، وألف كتاب «أدب القاضي» مستفيداً من علمه وخبرته وتجربته .

رحلاته :

ولما ترك أبو عبيد القضاء قام ببعض الأسفار ، فرحل إلى مصر سنة

(١) إنباه الرواة ١٥/٣ .

٢١٣هـ/ ٨٢٨م وقدم دمشق ، ثم اتجه إلى بغداد ، واستقر فيها ، ودرس الحديث والأدب ، وبدأ يُفسر غريب الحديث ، ويسمعه عنه الناس ، وصار أستاذاً يقصده الطلاب والعلماء للإفادة منه والأخذ عنه ، ونبغ تلامذته في العلم ، واشتهر ذكرهم ، وتصدوا للإفادة .

وكان أبو عبيد إذا ألف كتاباً أهذاه إلى عبد الله بن طاهر الذي أظله برعايته مدة مقامه ببغداد ، وكافأه على كتبه بالمال الجزيل استحساناً ، وأجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم ، ولما صنف أبو عبيد كتابه «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر ، فاستحسنه وقال : «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لتحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش»^(١) .

شيوخه وعلومه :

جمع أبو عبيد علوماً كثيرة ، ونهل العلم عن عدد كبير من العلماء في مختلف البلاد التي زارها أو وصل إليها ، وأخذ عن مشاهير العلماء ، فدرس الفقه في بلده ، وفي البلاد التي رحل إليها وأخذ عن الإمام الشافعي ببغداد ، وناظره في بعض المسائل ، وجالس الإمام أحمد ، لكن أبا عبيد كان مجتهداً ولم يتبع مذهباً معيناً ، وكان له مذهب حسن ، ويتبع السنة ، وكان يقول : «المتبع للسنة كالقابض على الجمر ، وهذا اليوم أفضل عندي من ضرب السيف في سبيل الله عز وجل»^(٢) ، وأخذ القراءات عرضاً وسماعاً عن الكسائي وغيره ، وروى عنه القراءة كثيرون ، وله اختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر ، وسمع الحديث من الحفاظ ، ومنهم أبو عبيد إسماعيل بن جعفر ، وشريك ، ويحيى

(١) إنباه الرواة ١٩/٣ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/٢٦٠ .

القطان ، وحجاج بن محمد ، ويزيد بن هارون وهشيم وسفيان بن عيينة ، وغيرهم ، ثم حدث أبو عبيد ، لكنه كان قليل الرواية ، ذكره البخاري في جزء القراءة خلف الإمام ، وحكى عنه في كتاب الأدب ، وفي كتاب أفعال العباد ، وذكره أبو داود في تفسير أسنان الإبل في كتاب الزكاة ، وذكره الترمذي في «الجامع» في غير موضع في القراءات ، وروى الحديث عن أبي عبيد جماعة منهم محمد بن إسحاق الصاغانى وابن أبي الدنيا وعبد الله الدارمي والحارث بن أبي أسامة وعلي بن عبد العزيز البغوي ، وآخرون ، وقال أبو داود عنه : «ثقة مأمون» وقال الذهبي : «من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانه من الحفاظ والعلم»^(١) ، وروى أبو عبيد في اللغة والأدب عن علماء البصرة والكوفة كأبي عبيدة معمر بن المثنى والكسائي والفراء .

أخلاقه وشمائله :

كان أبو عبيد ورعاً جواداً ربانياً ، ذا فضل ودين ، وكان يقسم الليل ثلاثاً ، فيصلّي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويضع الكتب ثلثه ، وكان يُخضب بالحناء ، أحمر الرأس واللحية ، ومما يذكرني كرمه وجوده أنه كان مع عبد الله بن طاهر ، فبعث أبو دلف إلى ابن طاهر يستهديه أبا عبيد مدة شهرين ، فبعثه ، فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها ، وقال : أنا في ناحية رجل ما يُحوجني إلى صلة غيره ، فلا آخذ ما علي فيه نقص ، فلما عاد ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار عوضاً عنها ، فقال له أبو عبيد : «قد قبلتها ، ولكن أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً ، وأبعثها إلى

(١) تذكرة الحفاظ ٤١٧/٢ ، وانظر تهذيب الأسماء ٢٥٧/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٥٤/٢ .

الشجر ليكون الثواب متوافراً على الأمير ، ففعل»^(١).

ثناء العلماء عليه :

كان أبو عبيد فاضلاً ، حسن السيرة ، ثقة في دينه وعلمه وروايته ، معظماً عند العامة والخاصة ، يقرن اسمه مع الأئمة الكبار ، مشهوراً في الآفاق ، أثنى عليه العلماء خيراً ، فقال الحاكم : «هو الإمام المقبول عند الكل رحمه الله» ، وسئل عنه يحيى بن معين ، فقال : أبو عبيد يسأل عن الناس ، وقال الهلال بن العلاء الرقي : «من الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم ، بالشافعي تفقه في حديث رسول الله ﷺ ، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة ، لولا ذلك كفر الناس ، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ ، وبأبي عبيد القاسم بن سلام ، فسر الغريب من حديث رسول الله ﷺ ، لولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ» ، وقال اسحاق بن راهويه : «والحق يُحبّه الله ، أبو عبيد أفقه مني ، وأعلم مني ، وهو أوسعنا علماً ، وأكثرنا أدباً ، إنا نحتاج إليه ، ولا يحتاج إلينا» ، وقال ثعلب : «لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجباً» وقال عبد الله بن طاهر : «علماء الإسلام أربعة : عبد الله بن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معن في زمانه ، والقاسم بن سلام في زمانه» ، وقال إبراهيم الحربي : «ما مثلت أبا عبيد إلا بحبل نفخ فيه الروح» ، وقال الداني عنه : «إمام أهل دهره في جميع العلوم ، صاحب سنة ، ثقة» ، وقال محمد بن أبي بشر : أتيت أحمد بن حنبل في مسألة ، فقال لي : ائت أبا عبيد ، فإن له بياناً لا تسمعه من غيره ، قال : فأتيته فشفاني جوابه ، وقال ابن درستويه : «كان أبو عبيد من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب الكوفيين ، ومن أداة اللغة والغريب

(١) تهذيب الأسماء ٢/٢٥٧ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/١٥٥ ، طبقات الحنابلة

وعلماء القرآن» وقال القاضي أحمد بن كامل: «كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وعلمه ، متقناً في أصناف علوم الإسلام من القرآن والفقه والعربية والأخبار ، حسن الرواية ، صحيح النقل ، لا أعلم أحداً من الناس طعن عليه في شيء من أمره ودينه» ، وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أبو عبيد أستاذ ، وهو يزداد كل يوم خيراً» ، وقال الجاحظ: «لم يكتب الناس أصح من كتبه ، ولا أكثر فائدة» ، وقال أبو الطيب اللغوي: «أبو عبيد مصنف حسن التأليف ، إلا أنه قليل الرواية» .

كتب أبي عبيد:

صنف أبو عبيد في كل فن ، وله كتب كثيرة تزيد على العشرين في العلوم المختلفة ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان وغيرهما ، وكتبه مستحسنة ، لكنه اعتمد على البحوث والكتب التي وضعها العلماء قبله ، وسبقوه إلى أكثرها ، فهدبها ورتبها ونسقها ، وصاغها بأسلوب رفيع ، وأجاد في التصنيف حتى فاق أسلافه ، وأفاد منه المتأخرون ، وأكبوا عليها ، واعتمدوا على ما فيها ، وأكثروا من الاستشهاد بها .

فمن كتبه الفقهية كتاب: «الطهارة» ، وكتاب: «الحيض» ، و«أدب القاضي» ، و«الأحداث» ، و«الأيمان والندور» ، و«الحجر والتفليس» ، وأهمها كتاب: «الأموال» الذي طبع عدة مرات ويعتبر مرجعاً مهماً في بابها ، وهو أحسن ما صنف في الفقه المالي .

ومن كتبه في القرآن وعلومه كتاب «معاني القرآن» ، و«غريب القرآن» ، و«الناسخ والمنسوخ» ، و«فضائل القرآن» ، و«عدد أي القرآن» ، و«المقصود والممدود» في القراءات .

ومن كتبه في الأدب واللغة «الشعراء أو معاني الشعر» ، و«الأمثال» وهو مطبوع ، و«النسب» ، و«المذكر والمؤنث» ، وأهمها كتاب «الغريب المصنّف» الذي في تصنيفه أربعين سنة ، وهو أجل كتبه في اللغة .

ومن كتبه في الحديث كتاب: «غريب الحديث» الذي جمع فيه غاية ما في كتب سابقيه ، وأجاد تصنيفه ، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة ، لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه^(١).

وفاته:

وفي سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م ذهب أبو عبيد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، وزار المدينة المنورة ، ولما عزم على العودة إلى العراق رأى رسول الله ﷺ في المنام ، وعلى رأسه ناس يحجبونه ، فمنعوه من الدخول ، لأنه يريد السفر إلى العراق ، فوعدهم بعدم الخروج ، وأخذوا عليه العهد بذلك ، وخلوا بينه وبين رسول الله ﷺ فدخل عليه وصافحه ، وسلم عليه ، ثم استقر في مكة ، وسكن بها حتى وافته المنية سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م ، ودفن بدار جعفر بن أبي طالب ، وقد خلف وراءه ذكراً عطراً ، وعلماً نافعاً ، وكتباً قيمة ، وأثراً خالداً ينتفع به الناس إلى ما شاء الله ، ليبقى حياً في النفوس والقلوب وعلماً يقتفى ذكره.



(١) غاية النهاية ١٨/٢ ، الأعلام ١٠/٦ ، وفيات الأعيان ٢٢٥/٣ ، تذكرة الحفاظ ٤١٧/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٥٩/٢ ، تهذيب الأسماء ٢٥٨/٢ .

أبو إدريس الخولاني التابعي عالم أهل الشام

اقتضت النواميس الإلهية في حياة البشرية أن يقدم السابق للاحق ، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم ، وأن تنتقل المعارف والعلوم ، والمدنية والحضارة من جيل إلى آخر ، ومن أمة إلى أمة ، ومن منطقة إلى ثانية ، وأن يتفضل الله تعالى على جماعة أو فئة أو أفراد بالمواهب الكثيرة ليكونوا قادة وأئمة ، وقدوة وأسوة ، وينعم بفضلهم الآخرون .

وتحقق هذا الناموس في الصحابة الذين نقلوا الشريعة الغراء عن النبي ﷺ ، بعد أن وضعها في أعناقهم في حجة الوداع ، وأشهدهم أنه بلغ الرسالة وأدّى الأمانة ، وأشهد الله تعالى على إقرارهم ، وأمرهم بالتبليغ ، وحمل الصحابة هذه الأمانة بحماسة وقوة ، وصدق وإخلاص ، وكانوا خلفاء الرسول ﷺ في جميع أعماله إلا النبوة والوحي ، وقاموا برئاسة الدولة وتبليغ الدعوة ، ونشر الإسلام ، وتوجيه الأمة ، وتعليم التابعين ومن دخل الإسلام بعد الفتوحات المظفرة ، وتفرق الصحابة في مختلف الأمصار لهذه الغايات ، وسلّموا الأمانة إلى التابعين الذين وصل إليهم الإسلام صافياً نقياً كما نزل من السماء ، وقام التابعون بواجبهم خير قيام ، وشمروا عن ساعد الجد والنشاط ليخلفوا الصحابة في مهامهم ، وتولوا قيادة الأمة في السياسة والإرادة والحكم ، والجهاد والفتح ، والعلم والاجتهاد ، والدعوة والتبليغ ، وحفظوا القرآن والسنة الشريفة ،

كما حفظوا آراء الصحابة واجتهاداتهم ، ونَعِمَ التابعون بالخيرية التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عمران بن حصين مرفوعاً: «خيرُ أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم يأتي من بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وَيَنْذِرُونَ ولا يُوفُونَ ، ويظهر فيهم السِّمْنُ»^(١).

وأصبح التابعون حلقة الوصل بين الصحابة وبين أئمة المذاهب المعروفين في العالم الإسلامي اليوم ، الذين ظهوروا في القرن الثاني للهجرة ، كما صار التابعون شيوخ الأئمة ، أساتذة الأئمة ، وسادة القوم ، وأهل الحل والعقد ، وظهر فيهم العلماء والفقهاء ، والأئمة والمجتهدون ، والقضاة والمفتون.

ومن هؤلاء فقيه أهل الشام وعالمهم ، وأحد الأعلام ، أبو إدريس الخَوْلاني.

اسمه ونسبه:

اسمه عائذ الله بن عبد الله بن عمرو والخَوْلاني العَوَذي ، والخَوْلاني نسبة إلى خَوْلان قبيلة يمنية نزلت بالشام ، وخَوْلان هو أَفْكَلُ بن مالك ، وينتهي نسبه إلى سبأ ، ومنهم أبو مسلم الخَوْلاني ، وأبو إدريس الخَوْلاني ، والعَوَذي نسبة إلى عَوَذ بن سُودٍ^(٢) ، وينتهي نسبه إلى عامر بن ماء السماء ، وهم بطن من الأزد التي تتصل بسبأ ، ويرجع إلى

(١) رواه البخاري (٩٣٨/٢) رقم ٢٥٠٨ ، ومسلم (٨٤/١٦) ، وأبو داود (٥١٨/٢) ، والترمذي (٥٨٧/٦) ، والنسائي (١٧/٧) ، والبيهقي (١٦٠/٣٠) ، وانظر: معالم السنن للخطابي ٤٠٩/٢ ، نيل الأوطار ٣٠٧/٨ ، سبل السلام ١٢٦/٤ .

(٢) عجلة المبتدي ص ١٠ ، ٥٦ ، لب الألباب في الأنساب ص ٩٩ ، سنن أبي داود ٢٦٠/٢ ط قديمة ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة .

الأزد جَمَاع الأنصار في المدينة ، وكان أنس بن مالك ، رضي الله عنه يفتخر بذلك فيقول: إن لم تكن من الأزد فلسنا من الناس ، وأثنى عليهم رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً: «الأزد أسد الله في الأرض»^(١) ، وفي حديث آخر: «الأزد جُرثومة العرب» وجُرثومة الشيء: أصله ، فأبو إدريس من أصل عربي خالص ، ويكنى بأبي إدريس ، وعرف في كتب التاريخ والأعلام والتراجم بكنيته ونسبه: أبو إدريس الخولاني.

ولد أبو إدريس الخولاني عام حنين في حياة الرسول ﷺ عام ٦٣٠هـ/ ٦٣٠م ، ولا صحبة له ، فلم ير الرسول ﷺ ، ولم يلتق به في صغره ، وسكن أبو إدريس الشام ، وبقي فيها ، ومات بدمشق سنة ٨٠هـ/ ٧٠٠م ، لذلك ينسب أيضاً إلى دمشق والشام ، وهو تابعي ، بل من كبار التابعين ، وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من التابعين بالشام^(٢) .
أساتذته وشيوخه:

تلقى أبو إدريس الخولاني القرآن والحديث وعلوم الشريعة عن الصحابة وكبار التابعين ، فأخذ عن أبي الدرداء وجالسه ، وعن عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وشَدَّاد بن أوس ، وأبي ذر ، وعوف بن مالك ، وأبي ثعلبة ، وأبي هريرة ، وحذيفة ، وعبد الله بن حوالة ، وعن عمر بن الخطاب ومعاوية وأبي بلال وغيرهم ، كما درس وحدث عن

(١) الفتح الكبير ٥٠٦/١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤٤٧/٧ ، تذكرة الحفاظ ٥٦/١ ، الخلاصة ٢٦/٢ ، حلية الأولياء ١٢٢/٥ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٤ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١١٢ ، المستطرف ١٣٧/١ ، مفتاح السعادة ٥٩٥/٢ ، يحيى بن معين وكتابه التاريخ ٢٩٠/٢ ، الأعلام للزركلي ٤/٤ ، حلية الأولياء ١٢٢/٥ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السائس والسبكي والبربري ص ١٩٨ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخضري ص ١٦١ .

عدد من التابعين ، منهم أبو مسلم الخولاني ويزيد بن عَمِيرَةَ .

ونقل يحيى بن معين أن أبا إدريس لم يرو عن معاذ بن جبل ، وأنه قال : وفاتني معاذ بن جبل ، فحدثني عنه يزيد بن عَمِيرَةَ ، لكنَّ الذهبي وغيره أكد رواية أبي إدريس عن معاذ ، وقال الحافظ ابن عبد البر : «سماعه منه صحيح» .

واتفق العلماء على توثيق أبي إدريس ، وأن روايته صحيحة ، ولذلك خرَّج أحاديثه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم .

ولم يقتصر أبو إدريس على رواية الأحاديث ، بل صار له ملكة فقهية ، وقدرة على فهم كتاب الله تعالى ، واستنباط الأحكام منه ، فكان عالماً فقيهاً ، قال الزهري : أبو إدريس كان من فقهاء الشام ، وقال سعيد بن عبد العزيز : كان عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء ، وقال مكحول : ما علمت أعلم من أبي إدريس ، وذكره الشيرازي في «طبقات الفقهاء» وعدّه أول فقهاء التابعين بالشام ، وقال الذهبي : «عالم أهل الشام عائذ الله بن عبد الله الدمشقي الفقيه ، أحد من جمع بين العلم والعمل» .

تلامذته :

تلقى أبو إدريس الخولاني علوم الشريعة ليبلغها إلى غيره ، ويعطيها لتلامذته ، ويقوم بنشرها بين الناس ، ويعمم نفعها إلى الجميع ، فجلس للتعليم والتدريس ، وتخرج به كثير من فقهاء الشام وعلماء الأمة ، منهم الزهري ومكحول ، ويحيى بن يحيى الغساني وبشر بن عبيد ، وربيع بن يزيد القصير ، ويونس بن ميسرة ، والوليد بن عبد الرحمن الجرشي ، وأبو حازم بن دينار والحسن البصري ومحمد بن سيرين ، وغيرهم .

عبادته وسيرته :

كان أبو إدريس الخولاني ذا سيرة حسنة ، وعبادة دائمة ، وصلة بالله تعالى مستمرة ، وكان شديد الخوف من الله عظيم الرجاء له ، كثير القراءة والتلاوة لكتاب الله تعالى ، لذلك وصفه الإمام أبو حاتم فقال : « وكان من عباد الشام وقرائهم » ، وكان أبو إدريس دائم التفكير في آلاء الله تعالى ، كثير الاعتبار والنظر في شؤون الكون والخلق ، وسماه أبو نعيم «المعتبر النظار ، والمتفكر الذكار» .

يقول أبو إدريس : «اللهم اجعل نظري عبراً ، وصمتي تفكراً ، ومنطقي ذكراً» ، ويقول أيضاً : «من جعل همومه همأً واحداً كفاه الله همومه ، ومن كان له في كل وإدٍ همٌ لم يبال الله في أيها هلك» ، وكان يحرص على العبادة في المساجد والجلوس فيها ، ويقول : «المساجد مجالس الكرام» ، ويقول : «ليعقبن الله الذين يمشون إلى المساجد في الظلم نوراً تاماً يوم القيامة» ويدعو إلى الجوهر الحقيقي للصلاة والعبادة ، وهو الخشوع ، وأن قلة الخشوع تنذر الأمة بالهلاك ، فيقول : «يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى خاشعاً» ، وكان يتدبر كتاب الله تعالى ، ويقرؤه بفهم ووعي ، وتمعن وفقه ، واستذكار واتعاظ ، ويقول : «إنما القرآن آية مبشرة ، وآية منذرة ، وآية فريضة ، أو قصص أو أخبار ، وآية تأمرك ، وآية تنهاك» ، ويقوم أبو إدريس بجميع هذه الأعمال والعبادات والطاعات مع الخوف من الله تعالى ، والرجاء أن يشبه عليها ، وأن يثبت عليه الإيمان ، وأن يختم له بالإيمان ، ويحذر من ذلك فيقول : «ما على ظهرها من بشر ، لا يخاف على إيمانه أن يذهب ، إلا ذهب ، والله أعلم» .

توليه القضاء :

لم يقف أبو إدريس الخولاني عند التعليم والتدريس فحسب ، بل كان

إيجابياً أكثر ، فشارك في الحياة العامة ، والوظائف الكبرى ، والولايات الدينية المهمة ، ومارس علم القضاء الذي يعتبر من أجل العلوم قدراً ، وأعزها مكاناً ، وأشرفها مركزاً ، لأنه يحفظ الحقوق والأنفس ، ويبين الحلال والحرام ، وهو من وظائف الأنبياء والمرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] ، واعتبر رسول الله ﷺ القضاء بالعدل من النعم التي يُباح الحسد عليها ، فروى البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه الله على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعمل بها »^(١) ، كما يقدم القاضي خدمة جليلة للمجتمع والحياة والدولة ، لأنه يحقق العدل وقيم القسط ، ويحفظ الحقوق ، ويمنع الظلم والطغيان ، و يقيم الحدود ، ويطبق الأحكام الشرعية التي أنزلها رب العالمين ، ويأخذ على يد الجناة والمجرمين ، ويعاقبهم على ما جنت أيديهم ، لزجرهم عن الأعمال المحرمة ، ومنع غيرهم من الإقدام عليها ، والقضاء ركن من أركان الدولة ، وجزء هام من مقومات المجتمع ، والقضاء أفضل مظهر يتمثل فيه العدل الذي جعله أرسطو قوام العالم ، وهو أساس الملك ، وأقوى دعامة لاستتباب الأمن ، واستقرار الحكم ورفي المجتمع وتقدم الأمة ، وخاصة إذا حكم القاضي بشريعة السماء ، وتمثل الآداب الإسلامية التي رسمها الرسول الكريم ، وسار عليها السلف الصالح ، والتزمها القضاة المسلمون ، فصاروا مثلاً أعلى للقضاة في العالم .

(١) رواه البخاري (٣٩/١) ، ومسلم (٩٧/٦) ، وأحمد (٣٨٥/١) ، ٤٣٢ ، ٣٦/٢ ، ٨٨ ، ١٥٢ ، ٤٥٩) ، وابن ماجه (١٤٠٨/٢) ، والبيهقي (١٨٨/٤) ، وانظر : الفتح الكبير ٣/٣٤٣ ، وأخبار القضاة لوكيع (٣٧/١) .

كما أن القضاء مهمة صعبة ، ومنصب خطير ، لذلك يتهيب منه الرجال ، ويتورع عنه العظماء ، خشية أن يفتنوا به ، ويقعوا في أوضاره ومثالبه .

وقد تولى أبو إدريس الخولاني قضاء دمشق من قبل عبد الملك بن مروان^(١) ، وكان من قضاة العدل والاستقامة ، وأقره عبد الملك على القضاء حتى آخر عمره ، مع رهبته من القضاء ورغبته في تركه والتخلي عنه ، وهو الراوي عن أبي ذر الحديث القدسي الصحيح : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٢) .

قيامه بالوعظ :

الأصل في الوعظ أنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة لله ولرسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم ، والوعظ واجب إسلامي عظيم ، وخاصة على الأئمة والعلماء ، ليرشدوا الناس إلى الخير ، ويحذروهم من الغي والشر ، والضلال والفساد ، ويعلموهم سبل البر ، ويرغبوهم بالعمل الصالح ، ويزجروهم عن منافذ الشيطان ومكائده .

واتفق علماء التاريخ والتراجم أن أبا إدريس الخولاني كان واعظ دمشق وقاصها ، وكان حكيماً في موعظته ، مؤثراً في إرشاده ، بليغاً في كلامه ، فصيحاً في عباراته ، لكن الخليفة عبد الملك عزل أبا إدريس عن

(١) تولى أبو إدريس القضاء بعد عزل بلال بن أبي رباح (تاريخ التشريع الإسلامي ، السائس ص ١٩٨) ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عيّن أبا إدريس الخولاني في قضاء المظالم (مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٢ ، تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ٩٧ ، ١٤٢ ، ١٩٩) .

(٢) هذا طرف من حديث رواه مسلم (١٣٢/١٦) ، وأحمد (١٦٠/٥) ، وابن حبان ، والحاكم ، وأبو عوانة عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : (الأربعين النووية للحديث ٢٤ ص ٥٩ ، الإتحافات السننية في الأحاديث القدسية ص ٤١) .

القصص ، وأقرّه على القضاء ، فقال أبو إدريس : عزلوني عن رغبتني ، وتركوني في رهبتني^(١) .

والسبب في ذلك ملاحقة الخلفاء والحكام للقصاص والقصاصين ، ومنعهم من ذلك في المساجد وغيرها ، لأنه مهنة محدثة في عهد التابعين ، ولم تعرف في عهد الصحابة ، وكان ظهورها في أول الأمر طيباً ، وغايتها نبيلة ، ولأنها باب من أبواب الوعظ ، يعتمد فيه الواعظ على ما يُناسب طباع العوام والناس عامة من الإنصات للقصص والحكايات ، فلجؤوا إلى حكايات الأمم ، وقصص التاريخ التي تحمل على الأعمال المرضية ، والأخلاق المشكورة ، وتحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل ، وتهذيب السلوك لما يرضي الله تعالى ، وبدأت من الأحاديث المروية إلى القصص التاريخية ثم انتقلت إلى الأخبار الإسرائيلية ، والروايات المكذوبة ، والقصص المنحولة ، والسخافات والأوهام ، ولعب الخيال أثره بها ، وسمح القاص لنفسه بالكذب واختلاق الأحداث في سبيل الغاية النبيلة التي يقصدها ، ويأتي بحكايات عن الأشرار والمبتلين ، ليبين سوء أفعالهم ، ويحذر من أخلاقهم ، لأن الأخيار يتأدّبون بصنيع الأشرار^(٢) .

ولم يكن أبو إدريس الخولاني من هذا الطراز من القصاص ، بل كان واعظاً مسلماً ، وفقهاً تقياً ، بل كان يحذر من القاص الجاهل ، ويقول : «لأن أرى في طائفة المسجد ناراً تقدر أحب إليّ من أن أرى فيها رجلاً يقص ليس بفقيه» وكان يجانب البدع ويحذر منها ويخاف على الأمة منها ، فيقول : «لأن أرى في جانب المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها ، أحب إليّ

(١) انظر قصصه في (المستطرف ١/١٣٧ ، مفتاح السعادة ٢/٥٩٥) .

(٢) كان أبو إدريس شديد المحبة لإخوته في الله ، وله قصة طريفة ، مع معاذ بن جبل ، رضي الله عنه (حلية الأولياء ٥/١٢٧) .

من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها» ، ومن مواعظه وحكمه قوله :
«قلب نقي في ثياب دنسة ، خير من قلب دنس في ثياب نقية» ، وقال ابن
عمر رضي الله عنهما : لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد
أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وإنما كانت القصص حين
كانت الفتنة ، ولذلك منع الخلفاء والحكام القصاصين ، لما وصلوا
إليه ، ولأن الغاية لا تبرر الوسيلة ، والفساد لا يؤدي إلى صلاح ، والشر
لا ينتج إلا شراً ، وهذه الأمور بعيدة عن الإمام العابد ، القارئ الفقيه ،
الحافظ المحدث ، الذي يتصف بالضبط والثقة والعدالة ، القاضي
أبي إدريس الخولاني ، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه ،
ووفقنا الله للاستفادة من علمه ، والافتداء بسيرته ، والحمد لله رب
العالمين .



مكحول الشامي

التابعي ، العابد ، فقيه أهل الشام

قام الصحابة بخلافة الرسول ﷺ في مختلف جوانب الحياة ، وخاصة في تولي الخلافة الراشدة ، وبيان الأحكام الشرعية للناس ، وكان كثير من الصحابة يحفظ كتاب الله تعالى عن ظهر قلب ، كما كان كثير منهم يحفظ شطراً عظيماً من الأحاديث الشريفة ، مع التفاوت بينهم في ذلك ، فمنهم المكثرون ، ومنهم المقلون ، كما تفاوتوا في الفهم والفقه ومعرفة الأحكام وملكة الاجتهاد والاستنباط من الكتاب والسنة ، وحرص الصحابة على ذلك بقصد الوصول إلى المرتبة التي بينها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعاً : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» .

وقام كبار الصحابة وعلمائهم بالتدبر في كتاب الله تعالى ، والبحث في سنة رسول الله ﷺ والاجتهاد فيما لم يرد به نص ، فإن اتفقوا على رأي كان إجماعاً ، والتزم به الصحابة والمسلمون عموماً حتى تقوم الساعة ، وإن اختلفوا ، وتعددت الآراء ، وتباينت الاجتهادات تقابلوا وتناظروا ، وتجادلوا لبيان وجهة نظر كل واحد ، وعرض الدليل الذي اعتمدوا عليه ، وتحديد المناط الذي بنوا عليه الاجتهاد ، ووجه الدلالة منه ، ونتج عن ذلك ظهور مناهج اجتهادية مستقلة لكل مجموعة من الصحابة ، ثم انتقلت هذه الاجتهادات والمناهج إلى التابعين ، وتبلورت بشكل واضح ، فأخذت طابعاً مميزاً ، ثم انحصرت مناهج الاجتهاد تقريباً

بنزعتين إحداهما بالعراق ، وتسمى مدرسة الرأي ، ويعرف أصحابها بأهل الرأي ، والثانية بالحجاز ، وسميت مدرسة الحديث ، ويعرف أصحابها بأهل الحديث .

وكان لكن مدرسة أتباع وتلاميذ بين علماء الأمصار ، وكان كل قطر ينتمي إلى هؤلاء أو أولئك ، وكانت بلاد الشام تتبع مدرسة الحديث في المدينة ، تؤيد آراءها ، وتسير على منوالها ، وتتبع منها منهاجها ، وتتقيد باجتهادات علمائها وأقوالهم .

وكان من أعلام التابعين بالشام ، وأئمة الفقه المشهورين ، الإمام العالم ، العابد الحافظ ، مكحول الشامي ، فقيه أهل الشام وإمامهم .

اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله مكحول بن عبد الله ، والغالب أن أباه هو أبو مسلم شهراب بن شاذان^(١) ، وقيل أبو مسلم كنية مكحول ، وهو من سبي كابل ، قال الخطيب البغدادي : « كان جده من أهل هراة ، فتزوج ابنة لملك من ملوك كابل ، ثم هلك عنها وهي حامل ، فانصرفت إلى أهلها ، فولدت شهراب أوسهرارز ، فلم يزل في أخواله بكابل حتى ولد له مكحول ، فلما ترعرع سبي » ، وكان مولى لسعيد بن العاص فوهبته لامرأة من هذيل أو من قيس ، فأعتقه ، ثم أقام بدمشق ، وبقي فيها حتى توفي سنة ١١٢ هـ أو ١١٣ هـ ، ولذلك يقال له : مكحول الدمشقي ، ومكحول الشامي ، وقال المؤرخون : كان سندياً لا يفصح ، وكان في لسانه عجمة ظاهرة ، ويبدل بعض الحروف بغيره في النطق ، فيجعل الحاء هاءً ، والسين شيناً ، والجيم زايًا^(٢) .

(١) وقيل : شاذل ، وقيل : ساول (وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، أعلام الموقعين ١/ ٢٢) .

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٧ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥ ، المعارف ص ٤٥٢ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١١٤ ، =

وليس غريباً أن يكون هذا الإمام الفقيه من الموالي^(١) ، لأن حملة العلم والفقه والفتوى في صدر الإسلام والعهد الراشدي كانوا من العرب ، أما في العهد الأموي والتابعين فقد ظهر الموالي من غير العرب ، ممن دخل في الإسلام بصدق وإيمان ، وأخذ القرآن والحديث ، والعلم والفقه عن الصحابة ، ثم قام التابعون وأكثرهم من الموالي ؛ بحمل لواء العلم ، ورفع راية الإسلام ، وممارسة التدريس والاجتهاد ، وصار أئمة الدين والفتوى في معظم البلاد الإسلامية من الموالي ، مثل عطاء في مكة ، وطاووس في اليمن ، ويحيى بن أبي كثير في اليمامة ، والحسن البصري في البصرة ، وعطاء الخراساني في خراسان ، ومكحول في دمشق ، ولا ضير في ذلك فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وقد تجاوز الإسلام القبلية والعنصرية ، تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

رحلته في طلب العلم :

تفرق صحابة رسول الله ﷺ في البلدان ، ونشروا العلم في الأماكن التي استقروا فيها ، كما ظهر في كل قطر في الأقطار الإسلامية علماء وفقهاء ، وأئمة ومجتهدون ، ومحدثون ومفسرون ، وقراء ومفتون ، فشاعت الرحلة في طلب العلم ، ووجب على طالب العلم أن يسافر من قطر إلى آخر ، ومن مدينة إلى ثانية ليحصل العلم منها ، ويقصد العلماء ليأخذ عنهم ، ولأن طالب العلم منهوم لا يشبع ، وأنه يطلب العلم من المهدي إلى اللحد ، وأن العلم بحر واسع لا تدرك شواطئه ، ولا يعرف

= تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٦٢ ، حلية الأولياء ١٧٧/٥ .

(١) أعلام الموقعين ٢٢/١ ، المعارف ص ٤٥٢ .

غوره ، فصارت الرحلة في طلب العلم منقبة وميزة وفضيلة^(١) ، وهذا ما حققه الإمام مكحول رحمه الله ، فاتجه إلى مختلف الأصقاع الإسلامية يجمع منها العلم ، ويأخذه من أفواه الصحابة وكبار التابعين ، ويتمرن على أيدي الفقهاء والمجتهدين .

ويحدثنا مكحول بذلك عن نفسه فيقول : عتقت بمصر فلم أدع بها علماً إلا حويته فيما أرى ثم أتيت العراق ثم المدينة ، فلم أدع بهما علماً إلا حويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت الشام فغربلتها .

وأخذ العلم والأحاديث عن عدد من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك ووائل بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي ، وأبو هند الداري وأبو ثعلبة الخشني وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو أيوب الأنصاري وأبو الدرداء وشداد بن أوس ، وأبو هريرة ، كما تفقه بعدد من كبار التابعين كالشعبي وعبد الرحمن بن غنم وأبي إدريس الخولاني ، وأبي سلام ممتور وخلق غيرهم ، وقال مكحول أيضاً : طفت الأرض في طلب العلم .

وقد نال مكحول من العلم حظاً وافراً ، وكان قوي الحافظة ، شديد الذكاء ، يستحضر ما تعلمه بسرعة ، يقول مكحول : ما استودعت صدري شيئاً إلا وجدته حين أريد .

ولم يسمع مكحول من كبار الصحابة ، فكان يروي عنهم دون أن يبين الوساطة بينه وبينهم ، فقال العلماء عنه : كان يدلس على الكبار كأبي بن كعب ، وعبادة بن الصامت وعائشة ، كما عرف بإرسال الأحاديث إلى

(١) وهذا تطبيق للحديث الشريف «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» رواه أحمد والترمذي عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة (فيض القدير ٢٤٢/٦) وهو طرف من حديث البخاري ومسلم وأحمد (الفتح الكبير ٢٤٧/٣) .

الرسول ﷺ دون أن يذكر السند ، أو الصحابي الذي رواها عنه^(١) .

مكانته العلمية :

بلغ مكحول مرتبة عليا في العلم وفهم كتاب الله تعالى ومعرفة الأحكام الشرعية ، وصار فقيهاً بارزاً ، حتى أصبح بحق إمام أهل الشام ، وفقهه الشام بلا منازع ، يقول الزهري :

«العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن بن أبي الحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام» وقال أبو حاتم الرازي : «ما أعلم بالشام أفقه من مكحول» ، وقال سعيد بن عبد العزيز : «كان مكحول أفقه من الزهري» ، وقيل : لم يكن في زمانه أبصر منه بالفتيا .

وقام مكحول بالدعوة ونشر العلم والتدريس والفتيا لبيان الأحكام الشرعية ، وتجمع الناس عليه ينهلون من علمه ، ويستفيدون من فضله ، كما قابله عدد من العلماء في مذاكرة العلم ومناظرته في سبيل الوصول إلى الحق ، ومعرفة الراجح من الأدلة والأقوال ، وتخرج به عدد كبير من العلماء والفقهاء ، وأخذ عنه أهل الشام والبلاد التي رحل إليها ، ومن هؤلاء أيوب بن موسى والعلاء بن الحارث وزيد بن واقد وثور بن يزيد والحجاج بن أرطاة والإمام الأوزاعي والفقهاء المجتهدين سعيد بن عبد العزيز وخلق كثير ، وكان أكثر حياته وتلامذته وتدرسه في الشام ، ولذلك قال ابن عمار : «كان مكحول إمام أهل الشام» .

وكان مكحول لا يفتي حتى يقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هذا رأيي ، والرأي يخطئ ويصيب» فكان يتورع من الفتوى ،

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السائس والسبكي والبربري ص ١٧٢ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخصري ص ١٦٢ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ .

ويستعين بالله فيها ، ويتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ، ويتواضع في الاجتهاد والرأي ، وأنه يحتمل الصواب والخطأ ، وكان يرشد الناس إلى الاحتياط والبحث عما يتعلمون منهم ، ويقول : « لا يؤخذ العلم إلا عمّن شهد له بالطلب » ، وكان رحمه الله يهاب القضاء ، ويتحرز من الدخول فيه وتولي منصة القضاء ، ويقول : « لأن تضرب عنقي أحب إليّ من أن ألي القضاء ، ولأن ألي القضاء أحب إليّ من بيت المال » .

ولكن مكحولاً اتهم بالقدر ، ونسب له ذلك من المصادر والمراجع ، وأنه كان من القدرية الذين ظهروا في العصر الأموي ، وكانوا يقولون بالقدر أي ينفون القدر عن الله تعالى ، وأن الإنسان مطلق الحرية في أقواله وأفعاله ، وهذه التسمية جاءتهم من خصومهم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، لينطبق عليهم الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »^(١) ، وكان القول بالقدر أحد أسباب الطعن بالشخص والجرح في عدالته للتطرف في تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ومخالفته للعقيدة الصحيحة التي بينها القرآن والسنة ، وقام العلماء بتوضيحها للمسلمين عامة ، وللدرد على قائلها خاصة ، وكشف منابعها الخارجية ثالثاً ، كما قام الحكام بملاحقة أصحابها .

وكان مكحول ينكر هذا الاتهام ، ويرأى من القول بالقدر ، ويعتبر القول به سحراً ، فقد سأله بعض الأمراء عن القدر؟ فقال : أسأهر أنا ، يريد ساحراً ، وأكد ذلك طلابه ومعاصروه ، فقال سعيد بن عبد العزيز : « وكان بريئاً من القدر » ، وقال الأوزاعي : « ما نسب إليه من التكلم في القدر باطل » ، وقال يحيى بن معين : « كان قدرياً ، ثم رجع » .

(١) فيض القدير ٥٣٤/٤ .

وباختصار فقد وثق أكثر العلماء برواية مكحول وعلمه وحديثه ، مع التنبيه إلى تدليسه وروايته بالإرسال ، وروى له الإمام مسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم^(١).

عبادته وزهده :

كان السلف الصالح يقرنون القول بالعمل ، ويطبّقون علمهم على أنفسهم قبل أن يعلموه للناس ، ويخشون الله تعالى ، ويستعدون للقاءه ومحاسبته وسؤاله ، ومن هنا عكفوا على الطاعة والعبادة ، ومهروا بأصناف التقريب لربهم ، فقاموا الليل وصاموا النهار ، كما حرصوا على الجهاد والمشاركة فيه ، مع دوام الذكر والتسبيح والدعاء والاستغفار .

ويعتبر مكحول مثلاً فذاً للسلف الصالح في هذه النواحي ، فقد كان كثير العبادة ، يحرص عليها في جميع الأوقات ، ويحرص على السنن كما يحرص على الفرائض ، ويتقرب إلى الله تعالى بالنوافل طمعاً في محبته ورضاه ، ولذلك سماه الحافظ أبو نعيم : «الصائم المهزول» من كثرة صيامه ، وكان يصوم يوم الإثنين والخميس ، ويقول : «ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، وبعث يوم الإثنين ، وتوفي يوم الإثنين ، وترفع أعمال بني آدم يوم الإثنين والخميس» ، وكان إذا توضأ لا يمسح وجهه بالمنديل ، بل يمسحه بطرف ثوبه ويقول : «الوضوء بركة ، وأنا أحب ألا تعدو ثوبي» ، وكان رحمه الله تعالى يرغب بالجهاد ، ويأمر به

(١) وكان مكحول معلماً للأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن وزيد ابني يزيد بن جابر ، (طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٥ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨ ، الخلاصة ٣/ ٥٤ ، ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٨ ، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٨ ، المعارف ص ٤٥٣ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السائس ص ١٩٧ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخصري ص ١٦٢ ، يحيى بن معين وكتابه التاريخ ٢/ ٥٨٤ ، حلية الأولياء ٥/ ١٧٨ .

الناس ، ولو ضعف حالهم ، فيطلب منهم المراقبة ونية الجهاد ، فقد عاد حكيم بن حزام بن حكيم ، وهو مريض عاجز ، فقال له : «أتراك مرابطاً هذا العام؟ فأجابه : كيف تسألني عن هذا ، وأنا على ذي الحال؟ فقال له : وما عليك أن تنوي ذلك ، فإن شفاك الله مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه أجل كتب لك نيتك» ، وهذا تطبيق للحديث الصحيح الذي رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً : «من مات ولم يغز ولم يُحَدِّث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من نفاق»^(١) ، وكان مكحول يكثر من التسييح والدعاء والاستغفار ، ويذكر به ، ويدعو الناس إليه ، فيقول : «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، غفرت له ذنوبه ، ولو كان فاراً من الزحف ، ويقول : «أربع من كن فيه كن له : الشكر والإيمان والدعاء والاستغفار» ، ويقول : «إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة» ، وكان يردد حديث رسول الله ﷺ : «من كان سهلاً هيناً ، ليناً ، حرمه الله على النار»^(٢) .

شمائله ومواعظه :

كان مكحول على جانب عظيم من الخلق الرفيع ، والمعاملة الحسنة ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وسعة الصدر مع السفه ، والتواضع لغيره ، ودعوة الناس إليه ، ولا يسع هذا المجال لتعداد مواقفه وشمائله ومواعظه ، وإنما نذكر جانباً منها .

يقول سعيد بن عبد العزيز : كنت جالساً عند مكحول فاستطال عليه رجل ، فقال مكحول : ذل من لا سفية له» ولم يجاب هذا السفه ، ولم

(١) الفتح الكبير ٢٤٠/٣ .

(٢) رواه الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو صحيح (فيض القدير ٢٠٧/٦ ، الفتح الكبير ٢٢٩/٣) .

ينزل إلى درجته ، وأخذه بالحلم وسعة الصدر ، لكنه كان يحذر من معاشرة السفهاء والمنافقين ويقول : « لا تعاهدوا السفية ولا المنافق ، فما نقضوا من عهد الله أكبر من عهدكم » بينما كان يعتز بالعلم والعلماء ويعرف مكانتهم ، ولا يلين أو يذل لحاكم ، فمرة أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان إلى مكحول وأصحابه ، فلما رأيته هممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول : مكانكم ، دعوه يجلس حيث أدرك ، يتعلم التواضع » ، ويقول : « لا يأتي على الناس ما يوعدون به حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة الحمار » .

ومن مواعظه الكثيرة ، وحكمه البليغة ، قوله : « أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ ، وكان يقال : الجائع الظمآن أفهم للموعظة ، وقلبه إلى الرقة أسرع ، ويقول أيضاً : كثرة الطعام تدفع كثيراً من الخير » ويقول مكحول : « المؤمنون هينون لينون ، مثل الجمل الأنف ، إن قدته انقاد ، وإن أنخته على صخرة استناخ » ويقول مكحول : « إن كان الفضل في الجماعة ، فإن السلامة في العزلة » ويقول : « أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً » ، ويقول مكحول : « من أحب رجلاً صالحاً فإنما أحب الله ، ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو في طريق الجنة حتى يرجع »^(١) .

وبعد : فهذه صورة للعالم المسلم ، العامل بعلمه ، العابد الواعظ ، الذي يعتبر منارة للأمة ، تهتدي بضياءه ، وتستفيد من علمه ، وتفتخر بأمثاله ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ورحمه برحمته ، ونفعنا بأقواله ومواعظه ، والحمد لله رب العالمين .



(١) انظر تفصيل شمائل مكحول ومواعظه بتوسع في (حلية الأولياء ١٧٨/٥ وما بعدها ، الطبقات الكبرى ، للشعراني ٤٥/١ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١١٢) .

أم المؤمنين:

خديجة بنت خويلد سيدة النساء

تمهيد عن مكانة المرأة المسلمة:

ليس هناك حاجة لشرح نظرة الإسلام الواقعية والمثالية للمرأة ، وأن النساء شقائق الرجال ، وأن الشريعة الغراء قررت - منذ أربعة عشر قرناً ، وعند نزول الوحي - أن المرأة كالرجل في الأهلية والحقوق والتكاليف والواجبات والمسؤولية ، ولها ميزات على الرجل في أشياء ، وللرجل ميزات عليها في أشياء ، بحسب التكوين الفطري لكل منهما ، وبحسب الوظيفة التي منحها الإسلام لهما .

ويكفي التذكير بجانب من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التي تصرح بذلك ، قال الله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْتُي ﴿آل عمران: ١٩٤﴾ ، وروى البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»^(١).

وقد أدت المرأة في صدر الإسلام دوراً عظيماً ، يكاد أن يكون خيلاً وأسطورة إذا قورن مع نساء العصر ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كنَّ من جيل الصحابة الفريد الذي رباه رسول الله ﷺ فأحسن التربية ، وسلك معه الطريق القويم ، والمنهج الرباني التربوي المثالي في القرآن الكريم ، فخلد الدهر أسماء الصحابيات وأمهات المؤمنين بأحرف من نور في إنتاج المرأة العالمي والإنساني ، ولم يقتصر الأمر على الصحابيات ، فتاريخ الإسلام مليء بالنساء الفضليات .

سيدة الإسلام الأولى:

ولنترك الكلام الخيالي ، والجدل النظري العاثر ، لنلتقي مع الحقيقة الواقعة ، ولنأخذ قبساً عملياً تطبيقياً ، وبرهاناً ساطعاً عن مكانة المرأة المسلمة ، المتمثلة في سيدة الإسلام الأولى ، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي ، وهي زوجة رسول الله ﷺ ، وأم المؤمنين .

يقول ابن هشام: «وأمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقته بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء فيه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ: لا يسمع شيئاً يكرهه من رَدِّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه إذا رجع إليها: تشبهه وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون أمر الناس ، رحمها الله»^(٢).

(١) هذا طرف من حديث صحيح ، (فيض القدير ١/٥٠٣).

(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ١/٢٥٩ د. عبد الحميد.

وبهذه الكلمات القليلة صور ابن هشام حياة السيدة خديجة الكبرى التي تمثل أروع الأثر في تاريخ المرأة المسلمة ، وتعتبر أنموذجاً مشرفاً في مواقفها مع رسول الله ﷺ .

الزوجة المثالية :

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تتمتع بجمال أخاذ ، مع الخلق الرضي ، والصفات الحميدة ، وتقدم لخطبتها في صباها أفاضل قريش من بني هاشم وعبد شمس وبني مخزوم وبني أسد ، فردت الكثيرين ، وبعد الخامسة عشرة من عمرها خطبها أبو هالة بن زرارة التميمي ، وكان رجلاً كبيراً في قومه ، موفور النعمة ، ذا بأس وشهامة ، فقبلت الزواج منه ، وأمهرها مالاً ضخماً ، تكريماً لها ، وإعجاباً بها ، وبما يتناسب مع ثرائه ومكانته ، وعاشا زوجين سعيدين ، لمدة قصيرة ، لأن يد المنون اختطف زوجها المخلص بعد ثلاث سنوات فقط ، وأنجبت له طفلين ، وهما هالة وهند ، وهما ولدان ذكران وإن كان يظهر على الاسم أنهما بنتان ، وترملت السيدة خديجة شهوراً ، فتقدم لخطبتها ثري آخر من أشرف مكة ، وهو عتيق بن عائذ المخزومي ، وولدت له بنتاً ، سميت هنداً بنت عتيق ، وكان عمر الزواج الثاني قصيراً أيضاً ، فمات عتيق ، وأعرضت خديجة عن الزواج بعد فقد هذين الرجلين الكريمين برغم تهافت الرجال عليها ، واتجهت إلى تربية أولادها ، والاشتغال بالتجارة واستثمار أموالها^(١) .

وكانت السيدة خديجة تعرف برجاحة العقل ، وحسن التدبير ، وكانت بصيرة في عواقب الأمور ، ومحذكة في الحياة ، صقلتها التجربة ، ونضجت في خبرة الناس ، وتفرست بمحمد بن عبد الله ،

(١) أم الاشتراكية ، خديجة بنت خويلد ص ٢٥ وما بعدها .

وأرسلته في تجارتها ، وقالت له لما أرادت أن يتوجه في تجارتها : «إنه قد دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك»^(١) ، ثم انقذ ذهنها وعقلها فيه ، وتقدمت لخطبته ، لما وصلها من تقارير تصف أمانته وصدقه ، وإخلاصه في العمل ، وبركة التجارة في يديه ، وقالت له في حفل الخطبة : «إني قد رغبت فيك لحسن خلقك ، وصدق حديثك»^(٢) ، وتمّ العقد ليكون أسعد زواج في التاريخ ، وأبرك عمل في الدنيا والآخرة ، وقامت الحياة الزوجية المثالية ، لتكون السيدة خديجة قدوة نساء العالمين في الاقتداء بها في معاملة الرجل ، والوفاء له ، والإخلاص إليه ، وتوفير جميع وسائل السعادة والراحة في البيت ، وللتخفيف عنه في المصاعب التي يلاقيها الزوج في الحياة العامة ، ومعاملة الناس ، وعقبات الدعوة ، وما يلاقيه من الفشل أو الصدمات في شؤونه وأحواله وسائر أعماله ، وأنجبت السيدة خديجة لرسول الله ﷺ ابنه القاسم ، ثم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة الزهراء ، ثم عبد الله الملقب بالطاهر ، وكانت السيدة خديجة أمّاً مثالية وخير المربيات لأولادها ، فجعلت منهم مدارس للفضائل والبطولة^(٣) .

ولم يتزوج رسول الله ﷺ قبل خديجة غيرها ، ولا تزوج في حياتها غيرها ، وبقيت معه ﷺ أربعاً وعشرين سنة وأشهرًا ، وتوفيت في العام العاشر للبعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنوات على الأرجح^(٤) ، وذلك في رمضان ، وبعد أيام قلائل من وفاة أبي طالب .

(١) الإصابة ٢٨٢/٤ .

(٢) الإصابة ٢٨٢/٤ .

(٣) أم الاشتراكية ، ص ٨٣ .

(٤) تهذيب الأسماء ٣٤١/٢ ، أم الاشتراكية ص ١٢٨ زاد المعاد ١/٧٧ ط دمشق

١٠٥/ .

خديجة أول الناس إسلاماً:

وكان للسيدة خديجة مواقف مشهورة مع رسول الله ﷺ قبل البعثة ، فقد واسته بمالها ، ومنحته السلطة والولاية بالتصرف فيه ، كما يشاء ، وكانت تدعى قبل النبوة بالطاهرة^(١) ، وكانت تقف مع زوجها محمد بن عبد الله في كل شيء ، وتراعي مشاعره ، وتعبّد الطريق أمامه في التفكير والتحنّث في غار حراء ، وتهيئ له وسائل الراحة ، وتمده بالطعام والشراب إلى الغار ، كما كانت تعظم رسول الله ﷺ ، وتصدق حديثه قبل البعثة وبعدها^(٢).

وعندما نزل الوحي كانت السيدة خديجة أول الناس إيماناً بالله ، وتصديقاً برسول الله ﷺ ، وكانت المواسية له ، والمؤانسة لوحشته ، ولم تقف موقفاً سلبياً في مجال الدعوة ، بل تخطت ذلك إلى العمل الإيجابي ، فقالت لرسول الله ﷺ - عندما بدأه الوحي في غار حراء ، ورجع يرجف فؤاده ، فدخل عليها ، وأخبرها الخبر ، وقال : لقد خشيت على نفسي - قالت خديجة : كلا ، والله ، لا يخزيك الله أبداً وذكّرت خصاله الحميدة ، كأدلة على قناعتها ، فقالت : «إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق» ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ، وكان ابن عم خديجة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، وكان عالماً حكيماً ، وله خبرة واسعة في الديانات ، ودراية شاملة بأمر النبوات ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، ويكتب الكتاب العبراني . . . ، فقالت له خديجة : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة :

(١) الإصابة ٤/ ٢٨١.

(٢) الإصابة ٤/ ٢٨٢.

«هذا الناموس الذي نزل على موسى . .»^(١).

وهكذا كانت السيدة خديجة أول من أسلم ، وأول الناس إيماناً برسول الله ، كما قال الزهري وخلائق من العلماء^(٢) ، وسارعت بالدخول في الإسلام ، وهي أعرف الناس بشؤون الرسول ﷺ الخاصة والعامة ، وأكثر الناس معرفة لمعدنه وأخلاقه وصدقه وأمانته ، فأمنت بالله وبالإسلام وبالرسول ، وبرهنت على رجحان العقل ، وبعد النظر ، ودقة الوعي والإدراك ، وقدمت أملاكها في سبيل الله والدعوة .

فضائل خديجة ومناقبها :

تركت مواقف خديجة الخالدة أثراً عظماً في نفس رسول الله ﷺ ، فكان يحترمها ويقدرها حق قدرها ، وكان عليه الصلاة والسلام يمنحها الثقة والوفاء والتقدير والإخلاص ، وكان يرجع إليها في النائبات والملمات ، فيستشيرها ، ويسمع رأيها ، وكلما اعترضته المصائب والأحداث عاد إلى بيتها ليجد السلوى والطمأنينة والراحة النفسية وطيب الكلام ، ليخفف عن نفسه ، ويستريح قليلاً ، ثم يعود إلى الدعوة والجهد من جديد ، ويشهرها رسول الله ﷺ بالجنة ، فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب» ، وفي حديث آخر أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : «أقرئ خديجة السلام من ربها» فقال لها رسول الله ﷺ : «يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك» فقالت

(١) رواه البخاري ومسلم في حديث بدء الوحي ، الفتح ١٨/١ - ٢١ ، النووي على مسلم ٢٠٠/٢ ، زاد المعاد ١١٤/٢ انظر كلام وتعليق ابن القيم على ذلك في زاد المعاد ١٤/٣ .

(٢) ونقل الثعلبي الإجماع عليه ، (تهذيب الأسماء ٣٤١/٢) .

خديجة: «الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام»^(١) ، وروى الإمام مسلم عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران»^(٢) وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة ، خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»^(٣).

ولما توفيت خديجة رضي الله عنها تركت فراغاً كبيراً وراءها ، وأحدثت شرخاً في بيت النبوة والرسالة ، وسمي العام الذي توفيت فيه ، هي وأبو طالب عم النبي ﷺ ، بعام الحزن ، لأنها كانت وزير صدق على الإسلام^(٤) ، وقد وجد رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشي عليه ، حتى تزوج بعائشة^(٥).

وكان رسول الله ﷺ يذكرها بعد وفاتها ، ويصل صوحيباتها ، ويحسن إلى معارفها^(٦) ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة» وقد ذكرت له يوماً ، فقال: «إني لأحب حبيها» ، وتشاء الأقدار أن تعاتب السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ على كثرة ذكره

(١) رواه مسلم والبخاري والنسائي والحاكم عن أبي هريرة .
البخاري في المناقب ١٠٥/٧ ، زاد المعاد هامش ١/٧٧ ط دمشق ، الإصابة ٢٨٢/٤ ، ابن هشام ٢٥٩/١ ، تهذيب الأسماء ٣٤١/٢ .

(٢) تهذيب الأسماء ٣٤١/٢ - ٣٤٢ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٥/٢ .

(٤) الإصابة ٢٨٢/٤ .

(٥) الاستيعاب ، ابن عبد البر ١٨٢٣/٤ .

(٦) قال ابن حجر: إسناده قوي مع إرساله ، الإصابة ، له ٢٨٢/٤ .

خديجة ، مما أثار الغيرة في نفسها ، فأعلن عليه الصلاة والسلام الوفاء لها ، ومنحها وسام الفخر والعزة ، وبَيَّن مناقبها وفضائلها ، قالت عائشة : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، وما بي أن أكون أدركتها ، ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها ، وقالت في حديث آخر : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ، قد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب ، ثم قال : لا ، والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذا كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبتني الناس ، وواستني بمالها إذا حرمني الناس ، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء » ، وروى ابن سعد أن خولة بنت حكيم جاءت فقالت : يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة! قال : « أجل ، كانت أم العيال ، وربة البيت »^(١) .

ومن مناقب السيدة خديجة أن الوحي هبط في بيتها الذي سمي منزل الوحي ، ومهبط النبوة ، وقد انحصر النسب الشريف ، وفروع الشجرة النبوية في ابنتها فاطمة الزهراء ، وهي سيدة نساء العالمين ، والسيدة البتول ، وأم الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة^(٢) .

وبعد :

هذه قبسات من سيرة أم المؤمنين ، خديجة بنت خويلد ، التي يغض المرء طرفه حياءً من مناقبها وأخلاقها ، وصفاتها ، وبتيه إعزازاً وفخاراً وتقديراً لها ، ويتمنى أن تلد النساء مثلها ، ليسير الآباء والأمهات على منهج خديجة في تربية بناتهم ، ولتضع المرأة العاقلة في عصرنا الحاضر

(١) أم الاشتراكية ص ٨٣ ، ١٠٩ .

(٢) رواه البخاري ١٦٤/٢ ط العثمانية ، كتاب الأنبياء ، باب ٤٥ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَعْزِمُ ﴾ .

سيرة خديجة الكبرى أمام عينيها ، لتقتدي بها ، وتعمل على منوالها ، ولتقدم لدينها وآخرتها نماذج من التضحية والجهاد الذي سلكته هذه المرأة العظيمة ، رضي الله عنها وأرضاها .

وحري بهذه الأمة أن تضع خديجة الكبرى في المكانة العليا ، وأن تتخذ منها المثل الأعلى للمرأة العربية المسلمة ، وقد شهد الأجانب بذلك ، فقال الكاتب العالمي ويلز في كتابه : «ملاحم تاريخ الإنسانية» : «إن خديجة أولى سيدات التاريخ عظمة ومكانة» .

وقال المستشرق در منغم في كتابه «حياة محمد» : «خديجة تلك السيدة الكاملة التي فطرت على تفريج الغم ، وترويح النفس ، وإلهام الأمن والسلام ، السيدة التي كانت جامعة لمكارم الزوجات الصالحات ، وحنان الأمهات العطوفات ، تثبت زوجها ، وتأخذ بيده في منطق رائع ، وحكمة بالغة ، وتقدير حاسم...»^(١) .

ومناقب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد كثيرة ، جزاها الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، والحمد لله رب العالمين .



(١) أم الاشتراكية ص ١٣٣ وما بعدها .

إبراهيم الحربي الفقيه ، المحدث ، الأديب ، الزاهد

قال الخطيب البغدادي عنه : «وكان إماماً في العلم ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، مميزاً لعلله ، قيماً بالأدب ، جَماعاً للغة ، وصنف كتباً كثيرة»^(١).

اسمه ونسبه :

هو إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير بن عبد الله بن ديسم ، أبو إسحاق البغدادي ، الحربي ، المروزي .

واتفق علماء التراجم والتاريخ على اسمه واسم أبيه ، وكنيته ، ونسبه ، فهو بغدادي لأنه نشأ في بغداد واشتهر فيها ، ومات بها ، والحربي نسبة إلى الحربية وهي محلة كبيرة بغربي بغداد^(٢) ، والمروزي ، لأن أصله من مرو^(٣) .

(١) تاريخ بغداد ٢٨/٦ .

(٢) نقل الخطيب البغدادي عن إبراهيم أنه سئل : لم سميت الحربي؟ فقال : صحبت قوماً من الكرخ ، على الحديث ، وعندهم ما جاز قنطرة العتقة : من الحربية ، فسموني الحربي بذلك . (تاريخ بغداد ٢٨/٦) وانظر : نزهة الألباء ص ٢١٣ . وقال ياقوت الحموي : والحربية محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب ، تنسب إلى حرب البلخي أحد قواد أبي جعفر المنصور ، وقتل سنة ١٤٧هـ (معجم البلدان ٢/٢٣٧) .

(٣) مرو أشهر مدن خرمان وقصبتها ، وهي العظمى بينها (مراسد الاطلاع ١٢٦٢/٣) ، وقال الحربي : قطائعنا في المراوزة (يعني عندنا الكابلية ببغداد) كان=

واختلفت كتب التراجم في اسم جده وما علاه ، فقال بعضهم : أن جده بشير^(١) بن عبد الله بن ديسم^(٢) الحربي^(٣) ، وقال آخرون : أن جده بشير بن عبد الله البغدادي^(٤) ، وقال فريق ثالث : أن جده إبراهيم بن بشير ابن عبد الله بن ديسم^(٥) ، وهو ما رجحناه ، لأنه قول الأكثر ، وأن قائله أقرب عهداً منه ، وعنهم نقلت ترجمته وأخباره ، ونقله الخطيب البغدادي عن تلميذ الحربي وهو ابن حبيش .

= لي فيها اثنان وعشرون داراً أو بستاناً ، قال ابن حبيش (تلميذه) : وكان يصف لنا نخلة نخلة ، وداراً داراً ، قال : فبعتها وأنفقتها على الحديث (تاريخ بغداد ٢٨/٦) .

والمراوذة في بغداد نسبة إلى المروزيين ، محلة كانت متصلة بالحربية ، وخربت ، وكان يسكنها أهل مرو ، فنسبت إليهم (مراصد الاطلاع ٣/١٢٥١) . وقال الحربي : أُمِّي تغلبية ، وكان أخوالي نصارى أكثرهم (تاريخ بغداد ٢٨/٦ ، إنباء الرواة ١/١٥٥ ، معجم الأدباء ١/١١٢ ، المنتظم ٤/٦) .

(١) قال ابن السبكي وابن أبي يعلى : بشر ، وهو والد جده . (طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٦ ، طبقات الحنابلة ١/٨٦) .

(٢) قال ابن كثير : ابن رستم (البداية والنهاية ١١/٧٩) ولعله تصحيف .

(٣) وهو قول السيوطي في (بغية الوعاة ١/٤٠٨) وابن كثير في (البداية والنهاية ١١/٧٩) وياقوت الحموي في (معجم الأدباء ١/١١٢) .

(٤) وهو قول الزركلي في (الأعلام ١/٢٤) .

(٥) وهو قول الخطيب في (تاريخ بغداد ٦/٢٧ ، ٢٨) وابن النديم في (الفهرست ص ٣٢٣) ، وابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٦) وابن الجوزي في (المنتظم ٦/٣) والقفطي في (إنباء الرواة ١/١٥٥) والعلمي في (المنهج الأحمد ١/١٦٦) والذهبي في (سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٦) والأنباري في (نزهة الألباء ص ٢١٣) .

وانظر ترجمته أيضاً في (المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٢٠٦ ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٤ ، النجوم الزاهرة ٣/١١٨ ، طبقات الفقهاء ص ١٧١ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٤) المطلاع ص ٤٢٢) .

ولادته ووفاته :

اتفقت المصادر على أن إبراهيم الحربي ولد سنة ١٩٨هـ/ ٨١٥م ،
واتفقوا على أنه مات سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م ، وله ٨٧ عاماً ، قال إسماعيل
الخطمي : مات أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي يوم الإثنين لتسع
بقيّن من ذي الحجة ، ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقيّن من ذي الحجة سنة
خمس وثمانين ومئتين ، وصلى عليه يوسف بن يعقوب القاضي في شارع
باب الأنبار ، وكان الجمع كثيراً جداً ، وكان يوماً عقب مطر ووحل ،
ودفن في بيته رحمه الله تعالى^(١) ، في بغداد .

نشأته وتعلمه :

نشأ إبراهيم الحربي في بغداد ، وانصرف إلى طلب العلم وهو
حدث ، وكان يملك في بغداد اثنتين وعشرين داراً وبستاناً فباعها وأنفقها
في طلب العلم^(٢) ، ولم يذكر أحد أنه رحل عن بغداد ، وإنما أخذ العلم
عن كبار العلماء فيها فسمع الحديث عن الحفاظ والمحدثين ، منهم أبو
نعم الفضل بن دكيه ، وأحمد بن حنبل ، وعثمان بن أبي شيبة ، وعلي بن
المديني ، وعبيد الله القواريري ، ومسدد بن مسرهد ، وغيرهم ، ودرس
اللغة والأدب على أبي عبيد القاسم بن سلام وثعلب وغيرهما ، وتفقه
على الإمام أحمد بن حنبل ، وصحبه عشرين سنة ، وتخرج به ، فكان من

(١) طبقات الحنابلة ٩١/١ ، المنهج لأحمد ١٥٢/١ ، المنتظم ٧/٦ ، معجم الأدباء
١١٢/١ . وجاء في (البداية والنهاية ٧٩/١٢ ، وإنباه الرواة ١٥٨/١) : «وكانت
وفاته لسبع» ولعل ذلك تصحيف ، لأن القفطي ذكر بعد ذلك أنه دفن يوم الثلاثاء
لثمان بقيّن من ذي الحجة .

كما ذكر الذهبي في (سير أعلام النبلاء ٣٦٤/١٣) ، أنه دفن في داره يوم الإثنين
لسبع بقيّن من ذي الحجة . . في أيام المعتضد «ولعله أراد أنه توفي يوم الإثنين
لتسع بقيّن ، وانظر المراجع السابقة .

(٢) تاريخ بغداد ٢٨/٦ ، إنباه الرواة ١٥٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٦/١٣ .

جلة أصحابه ، وروى عنه كثيراً ، وهو أحد الناقلين لمذهب أحمد عنه^(١) .

وكان إبراهيم الحربي يجل العلم ، ويحترم العلماء ، ويقدر مشايخه ، ويعترف بالفضل لأهله ، لأنه لا يعرف الفضل إلا ذووه ، ولذلك كان يثني على الأئمة والفقهاء والمحدثين ، ويسجل خصائصهم وفضائلهم بأحرف من نور .

قال إبراهيم : «لقد رأيت رجالات الدنيا ، فلم أرَ مثل ثلاثة : أحمد بن حنبل وتعجز النساء أن تلد مثله ، ورأيت بشر بن الحارث من قرنه إلى قدمه مملوءاً عقلاً ، ورأيت أبا عبيد القاسم بن سلام كأنه جبل نفخ فيه علم»^(٢) .

وقال إبراهيم : « الشافعي أستاذ الأستاذين ، أليس هو أستاذ أحمد؟ »^(٣) .

وقال إبراهيم الحربي : «التابعون كلهم خير ، وخيرهم أحمد بن حنبل ، وهو عندي من أجلهم»^(٤) ، وقال : «يقول الناس : أحمد بن حنبل

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٦/١٣ ، طبقات الحنابلة ٨٦/١ ، المنهج الأحمد ١٩٧/١ ، معجم الأدباء ١١٢/١ ، بغية الوعاة ٤٠٨/١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٦/٢ ، تذكرة الحفاظ ٥٨٤/٢ ، تاريخ بغداد ٢٧/٦ ، المدخل إلى مذهب أحمد ص ٢٠٦ ، المطلع ص ٤٢٢ ، البداية والنهاية ٧٩/١١ ، شذرات الذهب ١٩٠/٢ ، إنباء الرواة ١٥٥/١ ، نزهة الألباء ص ٢١٣ .

(٢) طبقات الحنابلة ٨٦/١ ، المطلع ص ٤٢٣ ، المنهج الأحمد ١٩٧/١ ، طبقات الفقهاء ص ٩٢ ، وزاد الأنباري في نقله قول الحربي عن أحمد : «كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما شاء ، ويمسك ما شاء» (نزهة الألباء ص ١٤١) .

(٣) طبقات الفقهاء ص ٩٢ .

(٤) طبقات الحنابلة ٩٢/١ ، المنهج لأحمد ١٩٩/١ ، قلت : والإمام أحمد ليس تابعياً بالاصطلاح الدقيق للتابعي ، وهو من رأى صحابياً فأكثر ، وإنما هو تابعي بالمعنى الأعم للتابعين ، وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة .

بالتوهم ، والله ما أعرف لأحد من التابعين عليه مزية ، ولا أعرف أحداً يقدره قدره ، ولا نعرف من الإسلام محله ، ولقد صحبته عشرين سنة ، صيفاً وشتاء ، وحرّاً وبرداً ، وليلاً ونهاراً ، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس ، ولقد كان يقدم أئمة العلماء من كل بلد ، وإمام كل مصر ، فهم بجلالتهم ما دام خارجاً عن المسجد ، فإذا دخل المسجد صار غلاماً متعلماً^(١).

وكان إبراهيم الحربي مواظباً على طلب العلم ، وحضور مجالس أساتذته ، فاستمر على صحبة الإمام أحمد عشرين سنة حتى مات ، ولزم دروس النحو واللغة خمسين سنة ، فقد حدث أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي ، المعروف بغلام ثعلب ، وهو تلميذ الحربي ، قال: سمعت ثعلباً مراراً يقول: «ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة أو نحو خمسين سنة»^(٢) ، وقال عن نفسه: «لي مذ أجالس أهل العلم سبعين سنة»^(٣).

تلاميذ الحربي:

تولى إبراهيم الحربي منصة التدريس والتعليم والإفادة والتحديث ، وروى عنه الحديث خلق كثير في بغداد ، منهم: موسى بن هارون الحافظ ، ويحيى بن صاعد ، وأبو بكر بن أبي داود ، والحسين المحاملي ، وأبو بكر الأنباري ، وأبو عمر الزاهد اللغوي ، وأبو بكر الشافعي ، وأبو بكر أحمد بن جعفر القطيعي ، وغيرهم ، وكان يجتمع

(١) طبقات الحنابلة ٩٢/١ ، المطلع ص ٤٢٣.

(٢) بغية الوعاة ٤٠٨/١ ، إنباء الرواة ١٥٨/١ ، تذكرة الحفاظ ٥٨٥/٢ ، طبقات الحنابلة ٨٩/١ ، المنهج الأحمد ١٩٨/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٣ ، تاريخ بغداد ٣٣/٦ ، نزهة الألباء ص ٢١٤ ، المنتظم ٤/٦ ، معجم الأدباء ١١٨/١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٥٩/١٣.

في مجلسه ثلاثون ألف محبرة ، وكان يملئ عليهم في المسجد ، ومن غرفته التي يشرف منها على الناس في داره^(١) .

وكان إبراهيم الحربي يقدم علمه بدون أجر ، ولا مقابل ، ويرفض الهبات والعطايا ، وقال : « ما انتفعت من علمي قط إلا بنصف حبة ، وقفت على إنسان ، فدفعت إليه قطعة اشترى حاجة ، فأصاب منها دانقاً إلا حبة ، فسألني عن مسألة ، فأجبتة ، ثم قال للغلام : أعط أبا إسحاق بدانق ، ولا تحطه بنصف حبة »^(٢) ، وقال له رجل ، وقد رأى كتبه : كيف قويت على جمع هذه الكتب ؟ فغضب إبراهيم وقال : « بلحمي ودمي ، بلحمي ودمي »^(٣) .

كتبه ومصنفاته :

عكف إبراهيم الحربي على التأليف ، مع اشتغاله بالتدريس والتحديث ، وصنف كتباً كثيرة ، ذكر المؤرخون بعضها ، وهي :

١ - غريب الحديث .

٢ - مناسك الحج .

٣ - سجود القرآن .

٤ - الهدايا والسنة فيها .

٥ - الحمام وآدابه .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٧ ، طبقات الحنابلة ١/٨٦ ، المنهج الأحمد ١٩٧/١ ، بغية الوعاة ١/٤٠٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٦ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٤ ، تاريخ بغداد ٦/٢٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦١ ، وقال : ما أخذت على علم قط أجراً إلا مرة واحدة ، وذكر القصة ، تاريخ بغداد ٦/٣٤ ، طبقات الحنابلة ١/٨٩ ، معجم الأدباء ١/١١٩ .

(٣) تاريخ بغداد ٦/٣٣ ، إنباه الرواة ١/١٥٨ ، المنتظم ٦/٤ .

٦ - دلائل النبوة .

٧ - كتاب الأدب .

٨ - كتاب المغازي .

٩ - كتاب التيمم .

١٠ - ذم الغيبة .

١١ - النهي عن الكذب .

١٢ - ناسخ القرآن ومنسوخه .

وكان عنده اثنا عشر ألف جزء في اللغة وغريب الحديث ، كتبها بيده^(١) .

مكانته العلمية :

كان إبراهيم الحربي أحد العلماء الأعلام الذين تصدروا مجالس العلم في بغداد وقصدهم الناس في طلب العلم ، وبرز تفوقه خاصة في ثلاثة علوم ، فكان جماعاً للغة ، قيماً بالأدب ، وكان عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام ، وكان حافظاً للحديث ومن أعلام المحدثين ، وسنفرد كل جانب نبذة مختصرة :

١ - الحربي لغوياً وأديباً : صرف إبراهيم الحربي همه إلى اللغة والأدب ، وتلمذ على يدي أبي عبيد القاسم بن سلام ، وواظب على حضور مجالس ثعلب ، وأصبح متمكناً في اللغة والأدب ، وروى عنه الشعر ، وأخذ عنه من الأدباء أبو بكر بن الأنباري النحوي ، وأبو عمر الزاهد

(١) الفهرست ص ٣٢٣ ، المنهج الأحمد ١/١٩٧ ، إنباء الرواة ١/١٥٥ ، كشف الظنون ١/٤٩٥ ، ٢/١٥٦ ، ٥٢٣ ، طبقات الحفاظ ص ٨٦ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٥ ، معجم الأدباء ١/١١٨ ، ١٢٨ ، طبقات المفسرين ١/٥ ، وانفرد الداودي بذكر كتاب له «ناسخ القرآن ومنسوخه» .

صاحب ثعلب ، وعده علماء التراجم والطبقات والتاريخ من أئمة الأدب واللغة والنحو ، وترجموا له في «إنباه الرواة على أنباء النحاة» و«البلغة في تاريخ أئمة اللغة» و«نزهة الألباء في طبقات الأدبا» وغيرها .

وصنف الحربي في اللغة ، وكان عنده اثنا عشر ألف جزء في اللغة وغريب الحديث ، كتبها بخطه^(١) .

وكان الحربي ينشد الشعر في كل مناسبة ، ويتغنى بالأبيات والحكم ، ويستشهد بها في المجال العلمي ، وفي الحياة العملية ، ويحسن الاختيار ، وله ذوق رفيع في انتقاء الأشعار ، ويحظى بالاحترام والتقدير من أئمة اللغة في عصره كالمبرد وثعلب وغيرهما ، فمن ذلك قوله لمن دخل عليه يعود في مرضه ، وقد سأله : كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ قال : أجدني كما قال الشاعر :

دب في البلاء سفلاً وعلواً وأجدني أذوب عضواً فعضوا
بليت جدتي بطاعة نفسي فتذكرت طاعة الله نضوا
وكان له طبيب يعالجه في مرضه ، فمات الطبيب ، فبكى عليه ، ثم أنشأ يقول :

إذا مات المعالج من سقام فيوشك المعالج أن يموت
وكان إبراهيم الحربي يقول : ما أنشدت بيتاً من الشعر ألا قرأت بعده «قل هو الله أحد» ثلاث مرات^(٢) ، وإن كتابه «غريب الحديث» أكبر دليل

(١) الأعلام ٢٥/١ ، وانظر : طبقات الحنابلة ٨٨/١ ، المنهج الأحمد ١٩٨/١ ، نزهة الألباء ص ٢٢٩ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٩/١٣ ، تاريخ بغداد ٣٣/٦ ، معجم الأدباء ١١٨/١ ، المنتظم ٦/٦ ، صفة الصفوة ٤٠٧/٢ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٣٧/٦ - ٣٨ ، طبقات الحنابلة ٩٠/١ ، المنهج الأحمد ٣٠٠/١ ، إنباه الرواة ١٥٥/١ ، البلغة ص ٤ ، المنتظم ٦/٦ ، معجم الأدباء ١٢٢/١ - ١٢٤ ، صفة الصفوة ٤١٠/١ .

على تمكنه في اللغة والأدب كما سنرى .

٢ - الحربي فقيهاً :

درس إبراهيم الحربي الفقه على علماء بغداد وفقهائها في المذهب الشافعي والمذهب الحنبلي ، ولكن أخذه للفقه الشافعي كان قليلاً ، لذلك ترجم له ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى «ثم قال : «وذكره في الحنبلة أولى من ذكره في الشافعية»^(١) ، وتفقه الحربي على الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى مباشرة ، وصحبه عشرين سنة ، وصار من جلة أصحابه ، ونقل عنه مسائل في المذهب ، منها : الدعاء في الصلاة قائماً بعد الختمة ، وبغير ما في القرآن ، الاقتداء بمن كان مؤتماً بإمام سابق ، القراءة خلف الإمام ، ميراث حمل الحرة المتزوجة من مملوك ، اليمين بالطلاق^(٢) .

وصنف إبراهيم الحربي عدة كتب في الفقه ، منها : مناسك الحج ، وسجود القرآن ، والهدايا والسنة فيها ، والحمّام وآدابه ، وكتاب التيمم ، وكتاب المغازي .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي يقول لي : امض إلى إبراهيم الحربي حتى يلقي عليك الفرائض^(٣) ، وكان عبد الله يحترم إبراهيم الحربي كثيراً لعلمه وفقهه ، ولما مات سعيد بن أحمد بن حنبل جاء إبراهيم الحربي إلى عبد الله بن أحمد يعزيه ، فقام إليه عبد الله ، فقال :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٧ .

(٢) طبقات الحنبلة ١/٨٦ ، ٩١ وما بعدها ، المنهج الأحمد ١/١٩٩ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٤ ، شذرات الذهب ٢/١٩٠ .

(٣) طبقات الحنبلة ١/٨٩ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٥ .

تقوم إلي؟ فقال عبد الله: والله لو رأيك أبي لقام إليك؟ قال الحربي: والله لو رأي ابن عيينة أباك لقام إليه^(١).

وكان إبراهيم الحربي ملتزماً بمذهب الامام بمذهب الإمام أحمد ، ومتوقفاً عند اجتهاده وآرائه وأحكامه ، ولما نقل رأي الإمام أحمد في القراءة خلف الإمام: «يقرأ فيما خافت ، وينصت فيما جهر ، سأله السامع: أيش ترى أنت؟ قال: أنا ذاك علمني ، وعنه أخذت ، وصحبته وأنا غلام ، وكل شيء يليقه إلينا أخذته عنه ، وتمسك به قلبي ، فأنا عليه ، أقرأ إذا لم أسمع ، وإذا جهر سمعت ، ومن خالفني أهونت به»^(٢).

وقال إبراهيم الحربي: كل شيء أقول لكم: هذا قول أصحاب الحديث ، فهو قول أحمد بن حنبل ، هو ألقى في قلوبنا منذ كنا غلمانا أتباع حديث النبي ﷺ وأقاويل الصحابة والافتداء بالتابعين^(٣).

وكان إبراهيم الحربي ملتزماً بالفقه بمدرسة أهل الحديث ، ومنهجهم ، وكان يثني عليهم ، ويدعو لذلك ، فيقول: «لا أعلم عصابة خيراً من أصحاب الحديث ، إنما يغدو أحدهم ، ومعه محبرة ، فيقول: كيف فعل النبي ﷺ ، وكيف صلى ، إياكم أن تجلسوا إلى أهل البدع ، فإن الرجل إذا قبل بدعة ليس يفلح» وقال إبراهيم الحربي أيضاً: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من أدب رسول الله ﷺ أن يتمسك به» ونقل الحربي قال: خرج أبو يوسف القاضي يوماً ، وأصحاب الحديث على الباب ،

(١) المنهج الأحمد ١/١٩٨ ، طبقات الحنابلة ١/٨٩ ، معجم الأدباء ١/١٢٠ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/٩٣ ، المنهج الأحمد ١/٢٠٠ .

(٣) طبقات الحنابلة ١/٩٢ ، المنهج الأحمد ١/١٩٩ .

فقال: «ما على الأرض خير منكم ، قد جئتم أو بكرتم تسمعون حديث رسول الله ﷺ»^(١).

وكان إبراهيم الحربي يعرف مكانة الإمام أحمد في العلم والفضل ، ويعترف باتباعه وتلمذته ، فنقل ابن عتاب قال: كان إبراهيم الحربي رجلاً صالحاً من أهل العلم ، بلغه أن قوماً من الذين كانوا يجالسونه يفضلونه على أحمد بن حنبل ، فوقفهم على ذلك ، فأقروا به ، فقال: «ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشبهه ، ولا ألحق به في حال من أحواله ، فأقسم بالله ، لا أسمعكم شيئاً من العلم أبداً ، فلا تأتونني بعد يومكم»^(٢).

٣ - الحربي حافظاً ومحدثاً:

كان إبراهيم الحربي من أعلام المحدثين ، فكان حافظاً للحديث إماماً فيه ، سمعه من الإمام أحمد وآخرين ، ثم روى الحديث ، وأخذ عنه خلق كثير ، وكان خبيراً بعلم الحديث ومصطلحه ، مميزاً لعلله وأسانيده وقواعده ، وكان ملتزماً بالحديث ، كما سبق ، متقيداً بأصول التحديث وأهل الحديث ، مثنياً على طريقتهم.

قال أحمد بن مروان الدينوري: أتينا إبراهيم الحربي ، وهو جالس على باب داره ، فسلمنا وجلسنا ، فجعل يقبل علينا ، فلما أكثرنا عليه ، حدثنا حديثين ، ثم قال لنا: «مثل أصحاب الحديث مثل الصياد الذي يلقي شبكته في الماء ، فيجتهد ، فإن أخرج سمكة ، وإلا أخرج صخرة»^(٣) ، وقال الحاكم: سمعت محمد بن عبد الله الصفار ، سمعت إبراهيم الحربي - وحدث عن حميد بن زنجويه ، عن عبد الله بن صالح العجلي بحديث - فقال: اللهم لك الحمد ، ورفع يديه فحمد الله ، ثم

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٢.

قال: عندي عن عبد الله بن صالح قمطر ، وليس عندي عن حميد غير هذا الطبق ، وأنا أحمد الله على الصدق ، ثم قال الحاكم: زادني فيه بعض أصحابنا: عن الصفار ، فقال رجل: يا أبا إسحاق ، لو قلت فيما لم تسمع: سمعت ، لما أقبل الله بهذه الوجوه عليك^(١).

وقال إبراهيم الحربي: «كان إسحاق الموصلي (٢٣٥هـ) ثقة صدوقاً عالماً ، وما سمعت منه شيئاً ، ولوددت أني سمعت منه»^(٢).

وقد عدّه الذهبي من الحفاظ ، فقال عنه: «الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام...»^(٣) وقال عنه ابن النديم: «من جلة المحدثين ، العارفين بالحديث... وكان من الحفاظ»^(٤).

وبرز تفوق الحربي في الحديث ، واضطلاعه به ، وتعمقه فيه ، وخبرته في مصطلحه وعلومه ، في تصنيف كتابه «غريب الحديث» الذي يدل على حفظه ورواياته ، وعلى معرفته باللغة والأدب ، فكان هذا الكتاب أهم كتبه وأعلاها ، وهو آخر ما عمله ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب ، وجمعه بين الحديث واللغة والفقه والأحكام ومصطلح الحديث وعلله ، نفرد به بشيء من التوسع لإلقاء الضوء عليه .

قال القفطي: «غريب الحديث ، وهو أجل كتاب ، وأكبر ما صنف في هذا النوع»^(٥).

(١) تاريخ بغداد ٦/٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٨ ، ٣٦٢ ، وانظر قصته مع علي ابن المديني في تاريخ بغداد ١/٣٧ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٧ .

(٢) نزهة الألباء ص ١٧١ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٤ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٦ .

(٤) الفهرست ص ٣٢٣ ، وعده السيوطي من الحفاظ ، انظر طبقات الحفاظ ص ٢٥٩ .

(٥) إنباه الرواة ١/١٥٥ ، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٦ ، تذكرة... =

وقال الذهبي «يروى: أن إبراهيم لما صنف «غريب الحديث» وهو كتاب نفيس كامل في معناه ، قال ثعلب: ما لإبراهيم وغريب الحديث؟! رجل محدث ، ثم حضر مجلسه ، فلما حضر المجلس سجد ثعلب ، وقال: ما ظننت أن على وجه الأرض مثل هذا الرجل»^(١).

ووصف حاجي خليفة هذا الكتاب ، فقال: «غريب الحديث للإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي الحافظ...» وجمع كتابه في غريب الحديث ، وهو كبير في خمس مجلدات ، بسط القول فيه ، واستقصى الأحاديث بطرق أسانيدھا ، وأطاله بذكر متونها ، وإن لم يكن فيها إلا كلمة واحدة غريبة ، فطال لذلك كتابه ، فترك وهجر ، وإن كان كثير الفوائد»^(٢).

وبين ابن النديم مضمون الكتاب ، فقال: «وله كتاب غريب الحديث ، والذي خرج منه: مسند أبي بكر ، مسند عمر ، مسند عثمان ، مسند علي ، مسند الزبير ، مسند طلحة ، مسند سعد بن أبي وقاص ، مسند عبد الرحمن بن عوف ، مسند العباس ، مسند شيبه بن عثمان ، مسند عبد الله بن جعفر ، مسند المسور بن مخرمة الزهري ، مسند المطلب بن ربيعة ، مسند السائب المخزومي ، مسند خالد بن الوليد ،

= الحفاظ ٥٨٥/٢ ، بغية الوعاة ٤٠٨/١ .

ولم يصل إلينا من هذا الكتاب العظيم إلا المجلدة الخامسة منه ، وقد حققها الدكتور سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد ، وحصل بها على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها - من شعبة اللغويات من كلية اللغة العربية «جامعة أم القرى» بمكة المكرمة سنة ١٤٠٢هـ ، وطبعها مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى في ثلاثة أجزاء كبيرة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ولا تزال المجلدات الأربع من الكتاب مفقودة.

(١) سير أعلام النبلاء ٣٦٦/١٣ .

(٢) كشف الظنون ١٥٦/٢ .

مسند أبي عبيدة بن الجراح ، مسند معاوية وغيره^(١) ، مسند عمرو بن العاص مسند عبد الله بن عباس ، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب ، مسند الموالى ، وهو آخر ما عمل^(٢) .

وكان إبراهيم الحربي يستدرك على غيره؛ ويصحح ويدقق ، ويتعقب ما سبقه ، ولو كان من أساتذته وشيوخه لأن الحق أحق أن يتبع ، ومنهم أستاذه أبو عبيد ، قال أبو أيوب سليمان البزاز: سمعت إبراهيم الحربي يقول: في كتاب أبي عبيد «غريب الحديث» ثلاثة وخمسون حديثاً ليس لها أصل ، قد علمت عليها في كتاب السروي . . وذكرها^(٣) .

ثناء العلماء على الحربي :

وإظهاراً لمكانة الحربي العلمية ، فقد اعترف الناس له بذلك ، وأكثروا من الثناء عليه ، وإطرائه ، ونقل صورته إلى كل مكان ، ونذكر طرفاً من ذلك .

قال أبو علي الحسين بن فهم ، وذكر إبراهيم الحربي لصديقه : والله يا أبا محمد ، لا ترى عينك مثل أبي إسحاق أيام الدنيا ، ولقد رأيت وجالست الناس من صنوف أهل العلم والحدق بكل فن منه ، فما رأيت

(١) زاد ياقوت الحموي فقال: مسند ماروي عن معاوية ، مسند ماروي عن عاصم ابن عمر ، مسند صفوان بن أمية ، مسند جبلة بن هبيرة ، مسند عمران بن حصين ، مسند حكيم بن حزام ، مسند عبد الله بن زمعة ، مسند عبد الله بن سمرة ، مسند عبد الله بن عمرو . ولم يذكر مسند عبد الله بن عباس . انظر: معجم الأدباء ١٢٨/١ .

(٢) الفهرست ص ٣٢٣ ، وانظر معجم الأدباء ١٢٨/١ ، البلغة ص ٥ ، المدخل إلى مذهب أحمد ص ٢٠٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٦/٣٥ ، معجم الأدباء ١٢١/١ ، ونقل الأنباري عنه أنه قال: «مئة وخمسة وعشرون حديثاً ليس لها أصل قد علمت عليها في كتابي» (نزهة الألباء ص ٢١٤) .

رجلاً أكمل في ذلك كله من أبي إسحاق رحمه الله تعالى^(١).

وقال محمد بن صالح القاضي: لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم الحربي في الأدب والفقه والحديث والزهد^(٢).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سألت الدارقطني عن إبراهيم الحربي، فقال: كان إبراهيم الحربي إماماً، يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلم وورعه، وقال الدارقطني أيضاً: وإبراهيم إمام عالم بكل شيء، بارع في كل علم، صدوق، وعن الدارقطني قال: إبراهيم الحربي ثقة^(٣).

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يشتهي أن يلتقي إبراهيم الحربي، فالتقيا، وتذكرا، فلما افترقا، سئل إبراهيم عن إسماعيل، فقال: إسماعيل جبل نفخ فيه الروح، وقال إسماعيل: ما رأيت مثل إبراهيم...، ولما دخل الحربي على إسماعيل الفاضي بادر أبو عمر بن يوسف القاضي إلى نعله، فأخذها، فمسحها من الغبار، ولفها، فدعا له الحربي، وقال: أعزك الله في الدنيا والآخرة، وغفر الله لك كما أكرمت العلم، فلما مات أبو عمر، روي في النوم، فقيل: ما فعل الله

(١) تاريخ بغداد ٣٥/٦، ونقل الخطيب أيضاً عن أبي بكر أحمد بن يعقوب قال: «وما رأيت بعيني مثله»، وانظر: سير أعلام النبلاء ٣٦٨/١٣.

(٢) طبقات الحنابلة ٨٩/١، المنهج الأحمد ١٩٩/١، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٧/٢، تذكرة الحفاظ ٥٨٥/٢، سير أعلام النبلاء ٣٥٩/١٣، ٣٦٨، نزهة الألباء ص ٢١٤، تاريخ بغداد ٣٥/٦.

(٣) تاريخ بغداد ٤٠/٦، سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٣، طبقات الحنابلة ٩١/١، المنهج الأحمد ١٩٩/١، طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٧/٢، تذكرة الحفاظ ٥٨٥/٢، نزهة الألباء ص ٢١٤، معجم الأدباء ١٢٥/١، بغية الوعاة ٤٠٨/١، المنتظم ٤/٦، البداية والنهاية ٧٩/١١، سير أعلام النبلاء ٣٦٨/١٣.

بك؟ قال: أعزني الله في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح ، أو قال: أصيبت فيه دعوة إبراهيم الحربي^(١).

الحربي زاهداً:

كان الإمام أحمد بن حنبل من أزهّد الناس في الدنيا ، ويضرب به المثل في الزهد والورع ، وكان إبراهيم الحربي تلميذاً للإمام أحمد ، وصحبه عشرين سنة ، فسار على شاكلته في الزهد والورع ، حتى صار يقاس به فيهما ، وعرف الحربي في زمانه ، وفي جميع المصادر وكتب التراجم بأنه إمام في الزهد ، وكان كذلك ، مع تواضعه الجم في علمه وسلوكه وتعامله مع أهله وبقية الناس .

فقد ورث دوراً ويسانين كثيرة فباعها لطلب العلم والحديث ، وورث من خاله مالاً كثيراً فلم يفرغ له ، ولا ذهب إلى أخذه ، وعاش مقلداً في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، لا يهتم إلا طلب العلم ، وتحصيل المعارف ، ورضاء الله تعالى ، والطمع بما عنده في الدار الآخرة ، وكانت نفسه أبية ، وينعم بغنى النفس الكامل ، فلا يطمع بمال أحد ، ولا يتطلع إلى جمع المال ، ومكث ثلاثين سنة يكتفي برغيفين في كل يوم ، تقدمهما له أمه أو أخته ، وبقي ثلاثين سنة أخرى مكتفياً برغيف واحد تقدمه له زوجته أو ابنته ، فإن غابتا عنه بقي بدون طعام إلى الغد ، وصنف الكتب الكثيرة كما سبق ، وجلس للتعليم والتدريس أكثر من خمسين سنة ، ولم يأخذ أجراً على ذلك ، ولم ينتفع من كتبه مالاً ، وترفع عن هدايا الخليفة وعطاياه ، وقد أرسل له المعتضد مرة عشرة آلاف درهم فردها ، وأرسل له مرة أخرى ألف دينار في مرض موته فردها أيضاً ، وكان بيته يخلو حتى من الملح للطعام ، وهو صابر على كل ذلك ، ولا

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٧ ، معجم الأدباء ١/١٢٦ .

يشكو فقراً ، ولا مرضاً ، ولا حاجة لأهله وأقاربه ومن حوله^(١) ، وهذه بعض طرائفه :

قال إبراهيم الحربي : قطائعنا في المراوزة يعني عندنا في الكابلية ببغداد - كان لي فيها اثنتان وعشرون داراً وبستاناً ، قال ابن حبيش (تلميذه) : وكان يصف لنا نخلة نخلة ، وداراً داراً ، قال : فبعتها وأنفقتها على الحديد ، وورثت من خال بحولاي (في العراق) عشرين ومئة جريب فيها رطبة ، فلم أفرغ لها ، ولا ذهبت أخذت منها ، لا أصلاً ، ولا فرعاً فذهبت إلى الآن^(٢) .

وقال الحربي : أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يجر مع القدر لم يتهنأ بعيشه ، وقال : كان قميصي أنظف قميص ، وإزاري أوسخ إزار ، ما حدثت نفسي بأيهما يستويان قط ، وفرد عقبي صحيح ، والآخر مقطوع ، ولا حدثت نفسي أنني أصلحها ، ولا شكوت لأمي وأقاربي حمى أجدها ، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ، ما أخبرت به أحداً ، وأفنيت عمري ثلاثين سنة برغيفين ، إن جاءني بهما أُمي أو أختي ، وإلا بقيت جائعاً إلى الليلة التالية ، وأفنيت ثلاثين سنة برغيف في اليوم واللييلة ، إن جاءني به امرأتي أو بناتي ، وإلا بقيت جائعاً ، والآن آكل نصف رغيف ، وأربع عشرة تمرّة ، وقام إفطاري في رمضان هذا بدرهم ودانقين ونصف^(٣) .

وقال إبراهيم الحربي : الرجل كل الرجل الذي يدخل غمه على نفسه ،

(١) إنباه الرواة ١٥٧/١ ، البداية والنهاية ٧٩/١١ ، المنتظم ٦/٦ ، معجم الأدباء ١١٧/١ ، صفة الصفوة ٤٠٧/٢ ، تاريخ بغداد ٣١/٦ ، طبقات الحنابلة ٨٧/١ - ٨٩ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٣/١٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٨/٦ ، وانظر : إنباه الرواة ١٥٦/١ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٦/٢ ، وانظر : معجم الأدباء ١١٣/١ ، صفة الصفوة ٤٠٥/٢ ، المنتظم ٤/٦ ، تاريخ بغداد ٣٠/٦ ، المنهج الأحمد ١٩٧/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٣ .

ولا يدخله على عياله ، وقد كانت بي شقيقة منذ أربعين سنة ما أخبرت بها أحداً قط ، ولي عشرون سنة أبصر بفرد عين ما أخبرت بها أحداً قط ، وذكر أنه مكث نيافاً وسبعين سنة من عمره ما يسأل أهله غداء ولا عشاء ، بل إن جاءه شيء أكله ، وإلا طوى إلى الليلة القابلة^(١) .

ونقل الخطيب البغدادي عن أبي عثمان الرازي قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد ، يسأله عن أمر أمير المؤمنين تفرقة ذلك ، فرده ، فانصرف الرسول ، ثم عاد فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك ، فقال : عافاك الله ، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمر المؤمنين : إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك^(٢) ، وزاد الذهبي : «فرده عليه أوحش رد ، وقال : ردها إلى من أخذتها منه ، وهو محتاج إلى فلس»^(٣) .

وجاء في طبقات الحنابلة :^(٤) «قال أبو القاسم الختلي : اعتل إبراهيم الحربي علة أشرف فيها على الموت ، فدخلت عليه يوماً ، فقال لي : يا أبا القاسم ، أنا في أمر عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي إلى عمك ، فخرجت ، فألقت على وجهها خمارها ، فقال لها إبراهيم : هذا

(١) البداية والنهاية ٧٩/١١ ، وانظر : تاريخ بغداد ٣١/٦ ، ولا تعارض بين القولين في عدد السنين ، لأنه قد يكون قال ذلك مرتين في فترتين متلاحقتين .

(٢) تاريخ بغداد ٣٢/٦ ، وانظر : طبقات الحنابلة ٨٨/١ ، المنهج الأحمد ١٩٨/١ ، إنباه الرواة ١٥٧/١ ، معجم الأدباء ١١٧/١ ، صفوة الصفوة ٤٠٦/٢ ، المنتظم ٥/٦ ، البداية والنهاية ٧٩/١١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٦٢/١٣ ، وانظر : تذكرة الحفاظ ٥٨٥/٢ .

(٤) طبقات الحنابلة ٨٨/١ ، المنهج الأحمد ١٩٨/١ ، تاريخ بغداد ٣٣/٦ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٣٦٠/١٣ ، إنباه الرواة ١٥٧/١ ، البداية والنهاية ٧٩/١١ ، المنتظم ٦/٦ ، معجم الأدباء ١١٨/١ .

عمك كلميه ، فقالت لي: نحن في أمر عظيم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، الشهر والدرهم مالنا طعام إلا كسراً يابسة وملحاً ، وربما عدمننا الملح ، وبالأمس قد وجه إليه المعتضد مع بدر ألف دينار ، فلم يأخذها ، ووجه إلي فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئاً ، وهو عليل ، فالتفت الحربي إليها وتبسم ، وقال: يابنيه ، إنما خفت الفقر؟ قالت نعم قال لها: انظري إلى تلك الزاوية ، فنظرت ، فإذا كتب ، فقال: هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب ، كتبته بخطي ، إذا مت فوجهي في كل يوم بجزء تبعينه بدرهم ، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ليس هو بفقر.

ونقل الخطيب البغدادي^(١) عن إبراهيم الحربي قال: «ما كنا نعرف من هذه الأطنخة شيئاً ، كنت أجيء من عشي إلى عشي ، وقد هيأت لي أمني بأذنجانة مشوية ، أو لعقة بن (من الشحم والسمن) أو باقة فجل . وقال أبو علي الخياط: «كنت يوماً جالساً مع إبراهيم على باب داره ، فلما أن أصبحنا قال لي: يا أبا علي قم إلى شغلِكَ ، فإن عندي فجلة قد أكلت البارحة خضرها ، أقوم أتغدي بجزرتها. وكان الحربي يقول: «ما تروحت ولا رocht قط ، ولا أكلت من شيء واحد في يوم مرتين».

ونقل الخطيب البغدادي عن أحمد بن سلمان القطيعي قال: «ضقت إضاقة ، فمضيت إلى إبراهيم الحربي لأبث ما أنا فيه ، فقال لي: لا يضيق صدرك ، فإن الله من وراء المعونة ، وإنني ضقت مرة حتى انتهى أمري في الإضاقة إلى أن عدم عيالي قوتهم ، فقالت لي زوجتي: هب أني وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصبيتين؟ فهات شيئاً من كتبك حتى نبيعه ، أو نرهنه ، فضننت بذلك ، وقلت: اقترضي لهما شيئاً ، وأنظريني بقية اليوم والليلة ، وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتبتي ، فكنيت أجلس فيه للنسخ وللنظر ، فما كان في تلك الليلة إذا داق يدق الباب ، فقلت: من

(١) تاريخ بغداد ٣١/٦ ، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٧.

هَذَا؟ فقال: رجل من الجيران ، فقلت: ادخل! فقال: أطفئ السراج حتى أدخل ، فكبيت على السراج شيئاً ، وقلت: ادخل ، فدخل وترك إلى جانبي شيئاً ، وانصرف ، فكشفت عن السراج ونظرت ، فإذا منديل له قيمة ، وفيه أنواع من الطعام ، وكاغد فيه خمسمئة درهم ، فدعوت الزوجة ، وقلت : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا ، ولما كان من الغد قضينا ديناً كان علينا من تلك الدراهم ، وكان وقت مجيء الحاج من خراسان ، فجلست على بابي من عند تلك الليلة ، وإذا جمال يقود جملين عليهما حملان ورقاً ، وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربي ، فأنتهى إلي ، فقلت: أنا إبراهيم الحربي ، فحط الحملين ، وقال: هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت: من هو؟ فقال: قد استحلقتني ألا أقول من هو»^(١).

أقوال الحربي المأثورة:

ونذكر هنا طرفاً من أقوال إبراهيم الحربي المأثورة عنه ، لتكون عبرة لغيره .

اجتمع إبراهيم الحربي ، وأحمد بن يحيى ثعلب ، فقال ثعلب لإبراهيم: متى يستغني الرجل عن ملاقة العلماء؟ فقال له إبراهيم: إذا علم ما قالوا ، وإلى أي شيء ذهبوا فيما قالوا^(٢).

وحضر بنان العكي مع ابنين له عند أبي إسحاق الحربي ، فقال له إبراهيم: هؤلاء أولادك؟ قال: نعم! قال: احذر لا يرونك حيث نهاك الله ، فتسقط من أعينهم^(٣).

(١) تاريخ بغداد ٣٢/٦ ، وانظر سير أعلام النبلاء ، ٣٦٨/١٣ ، إنباه الرواة ١٥٧/١ ، معجم الأدباء ١١٥/١ - ١١٦ ، صفوة الصفوة ٤٠٨/٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٦/٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٧/٦ ، صفوة الصفوة ٤٠٩/٢ .

قال سليمان بن إسحاق الجلاب : سمعت الحربي يقول : الأبواب تبنى على أربع طبقات : طبقة المسند ، وطبقة الصحابة ، وطبقة التابعين ، فيقدم كبارهم ، كعلقمة والأسود ، وبعدهم من هو أصغر منهم ، وبعدهم تابع التابعين ، مثل سفيان ، ومالك ، والحسن بن صالح ، وعبيد الله بن الحسن ، وابن أبي ليلى ، وابن شبرمة ، والأوزاعي . وروي عنه قال : الناس على أربع طبقات : مליح يتملح ، ومليح يتبغض ، وبغيض يتملح ، وبغيض يتبغض ، فالأول هو المني ، والثاني : يتحمل ، وأما بغيض يتملح فإني أرحمه ، وأما البغيض الذي يتبغض ، فأفر منه^(١).

وقال إبراهيم الحربي لجماعة عنده : من تعدون الغريب في زمانكم هذا؟ فقال واحد منهم : الغريب من نأى عن وطنه ، وقال آخر : الغريب من فارق أحبائه ، وقال كل واحد منهم شيئاً ، فقال إبراهيم : الغريب في زماننا رجل عاش بين قوم صالحين ، إن أمر بالمعروف أزروه ، وإن نهى عن المنكر أعانوه ، وإن احتاج إلى سبب من الدنيا مانوه ، ثم ماتوا وتركوه!^(٢).

وقال محمد بن خلف وكيع : كان لإبراهيم الحربي ابن ، وكان له إحدى عشرة سنة ، قد حفظ القرآن ، ولقنه من الفقه شيئاً كثيراً ، قال : فمات ، فجئت أعزيه ، قال : فقال لي : كنت أشتهي موت ابني هذا ، قال : قلت : يا أبا إسحاق ، أنت عالم الدنيا ، تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ، ولقنته الحديث والفقه؟ قال : نعم ، رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت ، وكأن صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء ، يستقبلون الناس يسقونهم ، وكأن اليوم يوم حار ، شديد حره ، فقلت لأحدهم : اسقني من هذا الماء ، قال : فنظر إلي ، وقال : لست أبي ، فقلت : فأيش أنتم؟ فقال : نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا ، فخلفنا آباءنا ، نستقبلهم

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٤.

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٦ ، طبقات الحنابلة ١/٨٩ ، صفة الصفوة ٢/٤٠٩.

فنسقيهم الماء ، قال : فلهذا تمنيت موته^(١) .

وسبق قوله : «الرجل كل الرجل الذي يدخل غمه على نفسه ، ولا يدخله على عياله» وقوله : «أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يجز مع القدر لم يتهنأ بعيشه» .

وصف الحربي في الكتب :

ذكر علماء التراجم والرجال والتاريخ شيخنا الحربي بصفات الكمال ، ونعتوه بكامل الأوصاف والسجايا والأخلاق ، وذكروا له الألقاب الحميدة ، ونحن نقتطف جانباً من أقوالهم باختصار .

قال ابن النديم : «أبو اسحاق من جلة المحدثين ، العارفين بالحديث ، وكان عالماً ورعاً ، عارفاً باللغة ، وكان من الحفاظ» ، وقال الخطيب البغدادي : «وكان إماماً في العلم ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، مميزاً لعلله ، قيماً بالأدب ، جماعاً للغة ، وصنف كتباً كثيرة «وهي عبارة جامعة ، وجمل مشهودة ، افتتحنا بها هذا البحث ، وتناقلها عنه معظم العلماء والمصنفين والكتاب ، وقال الشيرازي : «إمام في الحديث ، وله مصنفات كثيرة» ، وقال ابن الجوزي : «وكان إماماً في جميع العلوم ، وله التصانيف الحسان ، وكان زاهداً في الدنيا» ، وقال أيضاً : «وكان إماماً في العلم ، غاية في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً في الأحكام ، ماهراً في علم الحديث...» وقال ياقوت الحموي : «الإمام الزاهد ، العالم ، النحوي ، اللغوي الفقيه» ، وقال القفطي : «العالم ، الكامل ، الفاضل ، اللغوي ، المحدث» ، وقال الذهبي : «الإمام الحافظ شيخ الإسلام» ، وقال أيضاً : «هو الشيخ الإمام ، الحافظ ، العلامة ، شيخ الإسلام صاحب التصانيف» ، وقال ابن السبكي : «الفقيه ، الحافظ» ،

(١) تاريخ بغداد ٣٧/٦ ، طبقات الحنابلة ٨٩/١ ، صفة الصفوة ٤٠٩/٢ .

وقال ابن كثير: «أحد الأئمة في الفقه والحديث وغير ذلك ، وكان زاهداً عابداً تخرج بأحمد بن حنبل ، وروى عنه كثيراً» وقال الفيروزابادي: «كان قيماً بالأدب ، جماعاً للغة ، حافظاً للحديث ، له تصانيف» ، وقال السيوطي: «الحربي الإمام ، الحافظ ، شيخ الإسلام» ، وقال ابن العماد الحنبلي: «الحبر ، أحد أركان الدين ، والأئمة الأعلام وبرع في العلم والعمل ، وصنف التصانيف الكثيرة ، وكان يشبه بأحمد بن حنبل في وقته» ثم نقل ابن العماد مقالة المرداوي فيه ، فقال: «كان إماماً في جميع العلوم ، متقناً ، مصنفأ ، محتسبأ ، عابداً ، زاهداً» ، وقال الزركلي: «من أعلام المحدثين...» ، كان حافظاً للحديث ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، قيماً بالأدب ، زاهداً^(١).

الخاتمة:

وبعد فهذه صورة مصغرة عن أحد علمائنا الأعلام ، وأحد السلف الصالحين ، والعلماء العاملين ، والزهاد الورعين ، الذين يعدون بالآلاف والملايين ، مما حفلت بهم كتب التاريخ والتراجم ، وحملوا مشعل الحضارة العربية والإسلامية ، وأناروا سبل الخير والفلاح والهدى للبشرية ، فكانوا مصابيح النور والضياء ، ومشاعل العلم والحق ، ونحن نلتبس صفاتهم ، ونتقرب أعمالهم وآثارهم ، ونقدمهم للأجيال الحاضرة والمستقبلية ، ليقفوا أثرهم ، وينهلوا من معينهم ، ويتابعوا طريقهم ، فيكونوا خير خلف لخير سلف إن شاء الله تعالى ، وعلى الله قصد السبيل ، والحمد لله رب العالمين.

(١) الفهرست ص ٣٢٣ ، تاريخ بغداد ٢٨/٦ ، طبقات الفقهاء ص ١٧١ ، صفة الصفوة ٢/٤٠٥ ، المنتظم ٤/٦ ، معجم البلدان ٢/٢٣٧ ، إنباه الرواة ١/١٥٥ ، تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٥ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٥٦ ، البداية والنهاية ١١/٧٩ ، طبقات الحفاظ ٢٥٩ ، شذرات الذهب ٢/١٩٠ ، الأعلام ١/٢٤.

مراجع البحث

- ١ - الأعلام ، خير الدين الزركلي . الطبعة الثالثة - بيروت - ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- ٢ - إنباء الرواة على أنباء النحاة ، للوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي ٦٤٦هـ . مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- ٣ - البداية والنهاية ، لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي ٧٧٤هـ . الطبعة الأولى ، تصوير عام ١٩٦٦م - مكتبة المعارف - بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض .
- ٤ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للحافظ جمال الدين عبد الرحمن السيوطي ٩١١هـ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- ٥ - البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ٨١٧هـ . تحقيق محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ٦ - تاريخ بغداد ، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ٤٦٣هـ . تصوير الناشر دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- ٧ - تذكرة الحفاظ ، للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م . طبع وزارة معارف الحكومة العالية الهندية - تصوير دار إحياء التراث العربي - بدون تاريخ .
- ٨ - سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م . مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ٩ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ١٠٨٩هـ. تصوير دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ١٠ - صفة الصفوة ، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ٥٩٧هـ. دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ١١ - طبقات الحفاظ ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٩١١هـ. تحقيق علي محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- ١٢ - طبقات الحنابلة ، للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى الحنبلي ٢٥٦هـ. مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- ١٣ - طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ٧٧١هـ. الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
- ١٤ - طبقات الفقهاء ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي ٤٧٦هـ. حققه إحسان عباس ، الناشر دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٧٠م.
- ١٥ - طبقات المفسرين ، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ٩٤٥هـ. تحقيق علي محمد عمر ، نشر مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- ١٦ - الفهرست ، لابن النديم ٤٣٨هـ. تصوير ونشر دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- ١٧ - كشف الظنون ، ملا كاتب جلبي ١٠٦٧هـ. الطبعة الأولى - دار سعادات - بدون تاريخ.
- ١٨ - المدخل إلى مذهب أحمد ، للشيخ عبد القادر بن أحمد ، المعروف

- بابن بدران ١٣٤٦/١٩٢٧م . المطبعة المنيرية - بمصر - بدون تاريخ .
- ١٩ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد القوي البغدادي ٧٣٩هـ . طبع عيسى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ٢٠ - المطلع على أبواب المقنع ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلبي الحنبلي ٧٠٩هـ . طبع المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الأولى - ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ٢١ - معجم الأدباء ، لياقوت بن عبد الله الحموي ٦٢٦هـ . تصوير دار إحياء التراث العربي - بيروت - عن طبعة دار المأمون .
- ٢٢ - معجم البلدان ، لياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي ٦٢٦هـ . دار صادر ، دار بيروت - بيروت - الجزء الثاني - بدون تاريخ .
- ٢٣ - المتنظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ٥٩٧هـ . الطبعة الأولى - مطبعة دار المعارف العثمانية - حيدرآباد الدكن - الهند - ١٣٥٧هـ .
- ٢٤ - المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، لعبد الرحمن العليمي ٩٢٨هـ . مطبعة المدني - مصر - الطبعة الأولى - ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- ٢٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٨٧٤هـ . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - وزارة الثقافة - مصر - ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- ٢٦ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري ٥٧٧هـ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر - القاهرة - ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .



مُسَاهَمَةُ السُّيُوطِيِّ بِالْإِفْتَاءِ

مقدمة:

يعتبر السيوطي رحمه الله تعالى من العلماء الأعلام الذين انتشر ذكرهم في الآفاق ، وتعطر أسماؤهم المجالس ، وخلف جلال الدين السيوطي ثروة علمية كبيرة ، وذكرى خالدة على مر الأجيال .

وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ، الأسيوطي ، الخُصَيري ، الملقب جلال الدين ، الشهير بالسيوطي العلامة ، الفقيه الشافعي ، الحافظ ، المؤرخ ، الأصولي ، الأديب ، النحوي ، المفسر ، المفتي ، صاحب المؤلفات النافعة .

ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥ م ، ومات بها سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥ م . وكان السيوطي موسوعة في ثقافته وعلمه ، ونابغة في تصانيفه ومؤلفاته ، ولامعاً في حياته ، فكان مالىء الدنيا وشاغل الناس في عصره ، وانتشرت كتبه ومصنفاته في جميع مناهل العلم ، وفي مختلف العلوم العربية والإسلامية والتاريخ والتراجم ، ولا يزال اسمه يتردد في ردهات العلم والعلماء ، وفي جميع البلاد ، وله شخصيته الفذة في مختلف المجالات .

ونحصر حديثنا عنه في أحد جوانب حياته ، مما لم يلق الاهتمام الكثير في الدراسة عنه ، وكان أقل شأناً من غيره في حياته ، ولكنه ذو أثر

باهر ، ومكانة رفيعة ، ومجال رحب في عصرنا الحاضر ، وهو اشتغال
السيوطي بالإفتاء ، وممارسته للفتوى ، ومساهمته في تصنيف الفتاوى
التي صدرت عنه .

خطة البحث :

وقسمت الدراسة في هذا الخصوص إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : لمحة موجزة عن الفتوى والإفتاء .

المبحث الثاني : أهلية السيوطي للفتوى .

المبحث الثالث : فتاوى السيوطي الفقهية .

خاتمة عن النتائج وخلاصة البحث ، وأهم مصادره .

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد ، وعليه الاعتماد والتكلان .

المبحث الأول : لمحة موجزة عن الفتوى والإفتاء

تعريف الفتوى والإفتاء والمفتي :

الفتوى لغة: من أفتى إفتاءً في المسألة ، أي : أبان الحكم فيها ،
والاسم الفُتْيُ بالياء وضم الفاء ، والفتوى بالواو وفتح الفاء وضمها ، من
أفتى العالم أي بيّن الحكم ، والجمع الفتاوى والفتاوي ، واستفتاه : سأله
أن يُفتي ، وفي الحديث الشريف : «الإثم ما حاك في صدرك ، وإن أفتاك
الناسُ وأفتوك»^(١) ، أي : وإن جعلوا لك فيه رخصة ، وجوازاً .

والإفتاء مصدر ، وهو بيان حكم المسألة ، والمفتي : من يتصدى
للفتوى بين الناس ، وهو الفقيه الذي يعطي الفتوى ، ويجيب عما ألقى
عليه من المسائل المتعلقة بالشرعية ، والمفتي عند علماء الأصول هو

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد والدارمي عن وابصة ، مسند أحمد
٢٤٦/٢ ، سنن الدرامي ٢٤٦/٢ .

المجتهد ، والمفتي في الشرع: هو المجيب في الأمور الشرعية والنوازل الفرعية.

والفتوى عند الحنفية بيان حكم المسألة ، وعند المالكية: الإخبار بالحكم الشرعي على غير وجه الإلزام ، والقاضي يخبر بالحكم الشرعي على وجه الإلزام^(١).

وعلم الفتوى أحد فروع علم الفقه الذي يعرفه العلماء بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية» ، وجمع العلماء الفتاوى التي أصدروها في كتب خاصة ، تسمى كتب الفتاوى ، وصار لهذه الكتب مرتبة عند الحنفية باسم الفتاوى والواقعات ، وهي مسائل استنبطها المجتهدون وأتباعهم مما سئلوا عنها ، ولم يجدوا رواية عن أهل المذهب المتقدمين ، وهم أصحاب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد ، وأصحاب أصحابهما^(٢).

وعرف طاش كبرى زاده علم الفتاوى فقال: «وهو علم تروى فيه الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية ، ليسهل الأمر على القاصرين من بعدهم ، والكتب المؤلفة في هذا العلم أكثر من أن تحصى»^(٣).

أهمية الفتوى:

وتظهر أهمية الفتوى من وظيفة المفتي ، بأنه المخبر عن حكم الله تعالى لمعرفته بدليله ، وقيل: هو المخبر عن الله بحكمه ، وقيل: هو

(١) انظر: القاموس المحيط ٣٧٣/٤ ، مختار الصحاح في ٤٩١ ، المصباح المنير ٦٣١/٢ ، القاموس الفقهي ص ٢٨١ ، دستور العلماء ١٤/٣ .

(٢) القاموس الفقهي ص ٢٨١ ، دستور العلماء ١٤/٣ ، كشف الظنون ١٦٤/٢ ، غرنوس ص ١٥٧ .

(٣) مفتاح السعادة ٦٠١/٢ .

المتمكن من معرفة أحكام الوقائع شرعاً بالدليل مع حفظه لأكثر الفقه ، لذلك كان أمر الفتوى عظيماً ، وخطرها جسيماً ، ويتوقف عندها العلماء والأتقياء والورعون خوفاً من إثمها وخطرها^(١) .

قال النووي رحمه الله : «اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر ، كبير الموقع ، كثير الفضل ؛ لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقائم بفرض الكفاية ، لكنه معرض للخطأ ، ولهذا قالوا : «المفتي مُوقَّع عن الله تعالى»^(٢) .

وأكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عند النووي ، مبيناً صفات المبلغين عن الله ، وعن رسول الله ، فقال : «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ ، والصدق فيه ، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق ، فيكون عالماً بما يُبلغ ، صادقاً فيه ، ويكون مع ذلك حسن الطريقة ، مَرْضِي السيرة ، عدلاً في أقواله وأفعاله . . . ، وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله ، ولا يُجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السَّنِيَّات ، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ، فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يُعَدَّ له عُدَّتُهُ ، وأن يتأَهَّبَ له أَهْبَتُهُ ، وأن يعلم قَدْرَ المقام الذي أقيم فيه . . . وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه ربُّ الأرباب ، فقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء : ١٢٧] ، وكفى بما تولاه الله بنفسه شرفاً وجلالة ، إذ يقول في كتابه : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وليعلم المفتي

(١) انظر : صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، لابن حمدان ص ٤ ، عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، للمرادي ص ٤ وما بعدها ، سنن الدارمي ٤٦/١ ، ٥٠ وما بعدها .

(٢) المجموع ٦٧/١ .

عمن ينوب في فتواه ، وليوقن أنه مسؤول عنها ، وموقوف بين يدي الله^(١).

ويؤكد ابن القيم رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ هو أول من قام بالتبليغ والإفتاء ، فيقول: «وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، عبد الله ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، فكان يفتي عن الله بوحيه المبين... فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ، ومشملة على فصل الخطاب ، وهي في وجوب إثباتها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب ، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً»^(٢) ، ثم بين أن الصحابة قاموا بالفتوى بعده ، فقال: «ثم قام بالفتوى بعده برك الإسلام ، وعصاة الإيمان ، وعسكر القرآن ، وجند الرحمن ، أولئك أصحابه ﷺ ألين قلوب الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأحسنها بياناً ، وأصدقها إيماناً ، وأعمقها نصيحةً ، وأقربها إلى الله وسيلة ، وكانوا بين مكثري منها ، ومقل ، ومتوسط»^(٣).

حكم الفتوى:

الفتيا فرض عين إذا كان في البلد مفتي واحد ، وتصبح فرض كفاية إذا كان في البلد مفتيان فأكثر^(٤) ، وذلك أنه يجب على العالم أن يبين للناس حكم الله تعالى ، ولا يجوز له كتمان العلم ، أو إغفال حكم الله تعالى ، لأن الله تعالى أمر نبيه أمراً جازماً بالتبليغ ، فقال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الرُّسُلُ

(١) أعلام الموقعين ١١/١ ، وانظر صفات المفتي في المجموع ٦٩/١ ، عرف الشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ص ٧.

(٢) أعلام الموقعين ١١/١ وما بعدها.

(٣) أعلام الموقعين ١٢/١.

(٤) المجموع ٧٥/١ ، صفة الفتوى ص ٦.

بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» [المائدة: ٦٧] ، وقام رسول الله ﷺ بالأمر
 فبَلِّغَ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ثم حَمَلَ أصحابه ، والأمة جمعاء ، التبليغ
 والقيام بهذا الواجب المقدس ، فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلِّغُوا عَنِّي
 وَلَوْ آيَةً»^(١) ، ورَغَّبَ رسول الله ﷺ بتبليغ أحكام الله تعالى ، فقال عليه
 الصلاة والسلام: «نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا ، سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَحَفِظَهَا ، ثُمَّ
 أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرَبَّ حَامِلٍ فَقِهِ غَيْرُ فَقِهِ ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى
 مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(٢) ، لذلك يجب على المسلمين عامة ، والعلماء
 والفقهاء خاصة ، أَنْ يُبَيِّنُوا ذَلِكَ عِنْدَ السُّؤَالِ وَالِاسْتِثْنَاءِ ، اقتداء
 برسول الله ﷺ ، وتحصيلًا للشواب والنفع والخير في قوله ﷺ:
 «مَا تَصَدَّقَ النَّاسُ بِصَدَقَةٍ مِثْلَ عِلْمٍ يُنْشَرُ»^(٣) ، وقوله: «نِعْمَ الْعَطِيَّةُ كَلِمَةُ
 حَقٍّ تَسْمَعُهَا ، ثُمَّ تَحْمِلُهَا إِلَى أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ فَتَعْلَمُهَا إِيَّاهُ»^(٤) ، وقوله عليه
 الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ
 جَارِيَةٌ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(٥).

كما يجب على العلماء والفقهاء بيان الأحكام الشرعية ليسلموا من
 الوعيد الشديد ، والترهيب الصريح عن كتم العلم ، فقال رسول الله ﷺ:

-
- (١) هذا حديث صحيح رواه البخاري والإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمر
 رضي الله عنهما. (صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ ، الفتح الكبير ٩/ ٢).
- (٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان عن ابن مسعود ، وأحمد وابن ماجه عن
 أنس ، وأحمد وابن ماجه والحاكم عن جبير بن مطعم ، وأبو داود وابن ماجه عن
 زيد بن ثابت ، بألفاظ متقاربة (الفتح الكبير ٣/ ٢٦٢ ، ٢٦٣).
- (٣) رواه الطبراني عن سمرة بن جندب (الترغيب والترهيب ١/ ١١٩).
- (٤) رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً (الترغيب والترهيب ١/ ١١٩).
- (٥) رواه مسلم عن أبي هريرة (صحيح مسلم بشرح النووي ١١/ ٨٥).

«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١).

لذلك قام العلماء والفقهاء من الصحابة فمن بعدهم بواجب الفتوى ،
ولبيان الأحكام الشرعية ، بعد تحصيل العلم ، ومعرفة الأدلة ، وكان
الأستاذ أو الشيخ يجيز الطالب بالإفتاء والفتوى متى أنس منه الحد الكافي
واللازم في حفظ الأحكام الشرعية ، وتنزيلها على الأسئلة والتطبيق
العملي .

والأصل أن الإفتاء واجب ديني ، ولم يصبح وظيفة مرسومة ، ومنصباً
رسمياً في الدولة الإسلامية إلا في الخلافة العثمانية ، وكان العلماء
والفقهاء ، يقومون بهذا المنصب الجليل من تلقاء أنفسهم ، امتثالاً لأمر
الله تعالى ، والتزاماً بوصية رسوله ﷺ ، وأداءً للواجب المقدس الملقى
على عاتقهم بتبليغ الشرع وبيان الأحكام ، وطمعاً بالثواب الدائم والأجر
العميم .

شروط المفتي :

ونظراً لأهمية الفتوى وخُطورتها في أنها إظهار لحكم الله تعالى في
المسألة ، وتبليغ عن رسول الله في دين الله ، وتوقيع عن رب العالمين في
بيان شرعه فقد بين العلماء صفات المفتي ، وذكروا الشروط التي يجب أن
تتوافر فيه ليقوم بهذا العمل الجليل^(٢) .

فقالوا: ينبغي أن يكون المفتي ظاهر الورع ، مشهوراً بالديانة
الظاهرة ، والصيانة الباهرة ، ويشترط فيه أن يكون مسلماً ، ومُكلفاً ،

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عند أبي هريرة (مسند أحمد
٢٦٢/٢ ، سنن أبي داود ، ٢٨٨/٢ ، جامع الترمذي ٤٠٧/٧ ، سنن ابن ماجه
٩٧/١ ، المستدرك ١٠١/١) .

(٢) انظر: المجموع ٦٩/١ - ٧٥ ، صفة الفتوى ص ١٣ ، شرح الكوكب المنير
٥٥٧/٤ ، عرف البشام ص ٧ .

عَدْلًا ، ثَقَّةً ، مَأْمُونًا ، مَتَنَزِّهًا عَنِ أَسْبَابِ الْفُسْقِ وَخَوَارِمِ الْمَرْوَةِ ، فَفِيهِ
النَّفْسُ ، سَلِيمُ الذَّهْنِ ، رَصِينُ الْفِكْرِ ، صَحِيحُ التَّصَرُّفِ وَالِاسْتِنْبَاطِ ،
مَتَّقِظًا ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَالرَّائِي وَالْقَاضِي لَا يُوْثِّرُ فِيهِ قَرَابَةُ وَعَدَاوَةُ ،
وَجَرُ مَنْفَعَةٍ وَدَفْعُ ضَرَرٍ ، لِأَنَّ الْمَفْتِيَّ فِي حُكْمِ الْمَخْبَرِ عَنِ الشَّرْعِ بِمَا
لَا اخْتِصَاصَ لَهُ بِشَخْصٍ ، فَكَانَ كَالرَّائِي ، وَلَكِنْ فَتَوَاهُ لَا يَرْتَبِطُ بِهَا التَّزَامُ
بِخِلَافِ حُكْمِ الْقَاضِي ، وَتُقْبَلُ الْفَتَوَى مِنَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ ، وَالْمَرْأَةِ
وَالرَّجُلِ ، وَالْأَعْمَى وَالْأَخْرَسُ إِذَا كَتَبَ أَوْ فُهِمَتْ إِشَارَتُهُ .

وَإِذَا كَانَ الْمَفْتِيُّ مُجْتَهِدًا مُسْتَقِلًّا - وَهُوَ قَلِيلٌ - فَيَشْتَرِطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ
قِيمًا بِمَعْرِفَةِ أَدْلَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَمَتَوَفَّرًا فِيهِ شُرُوطُ الْجَاهِدِ الْمَعْرُوفَةِ
فِي عِلْمِ أَصُولِ الْفَقْهِ .

أَمَّا إِنْ كَانَ الْمَفْتِيُّ غَيْرَ مُسْتَقِلٍّ بِالْجَاهِدِ ، وَهُوَ الْأَعْمُ الْأَغْلَبُ فَيَشْتَرِطُ
أَنْ يَكُونَ فَفِيهِ النَّفْسُ ، حَافِظًا مَذْهَبَ إِمَامِهِ ، عَارِفًا بِأَدْلَتِهِ ، قَائِمًا
بِتَقْرِيرِهَا ، وَأَنْ يَحْسُنَ نَقْلَ الْأَحْكَامِ فِي الْأُمُورِ الْوَاضِحَةِ ، وَالْمَسَائِلِ
الْمَشْكَلَةِ ، وَأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نصوصِ الْمَذْهَبِ ، وَالْكَتَبِ الْمَعْتَمَدَةِ فِيهِ ،
وَالْأَرَاءِ الرَّاجِحَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الصَّحِيحَةِ^(١) ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ حُكْمَ الْمَسْأَلَةِ
مَنْصُوصًا فِي الْكَتَبِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَدْرِكَ أَوْجُهَ الشُّبْهِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ
الْأَشْيَاءِ ، وَيُلْحِقَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ ، وَالْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالَ ، فَإِنْ أَعْجَزَهُ كُلُّ
ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَمْسُكَ عَنِ الْفَتَوَى تَجَنُّبًا لِلْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَحَرُّزًا
مِنَ الْكُذْبِ ، وَوَرَعًا مِّنَ الْقَوْلِ بِمَا لَا يَعْلَمُ ، وَقَدْ بَرَهَنَ الْعُلَمَاءُ الثَّقَاتُ ،
وَالْفُقَهَاءُ الْأَعْلَامُ ، وَالْمَفْتُونَ الْوَرَعُونَ عَلَى صَدَقِ ذَلِكَ ، وَالتَّزَامِهِ ،
وَتَوَاتَرِ عَنْهُمْ كَرَاهِيَةِ الْفَتَا ، وَالتَّهْيِيبِ مِنْهَا ، وَالتَّثَبُّتِ فِي الْأَحْكَامِ ،
وَالْتَّصَرُّحِ بِعَدَمِ الْعِلْمِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَالِإِحَالَةِ عَلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى
مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ يَضْعُونَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ ، وَنَصَبَ

(١) انظر: المجموع ٧٨/١ ، انظر القضاء في الإسلام ، عرنوس ١٥٥ .

وجوهم ، قال : «أجرؤكم على الفتيا ، أجرؤكم على النار»^(١) ، ولذلك تحرم الفتوى على الجاهل باتفاق العلماء ، ولهم أقوال مأثورة في الفتوى^(٢) .

آداب الفتوى :

إن للفتوى أحكاماً كثيرة ، وآداباً جمّة ، تضمن سلامتها وصحتها ، وتعمل على تحقيق الهدف منها في معرفة حكم الله تعالى بشكل صحيح وسليم ، وهذا ما خصّه العلماء بكتب وأبواب وفصول ، نشير إلى بعضها .

يحرم التساهل في الفتوى ، وأن تكون حسب الأغراض الفاسدة ، والمطامع الشخصية ، وأن تدور الفتوى على تتبع الحيل المحرمة ، أو المكروهة ، والتمسك بالشبه طلباً للترخيص لمن يريده ، أو التغلظ لمن يكرهه ، ولذلك يجب على المفتي أن يتثبت في الواقعة والسؤال ولا يُسرع بالفتوى قبل النظر الكافي ، والتفكير الشافي إلا إذا كان المسؤول عنه مما تقدمت معرفته ، ونقل السيوطي عن سفيان بن عيينة قال : «إن العالم لا يماري ولا يداري ، ينشر حكمة الله ، فإن قُبِلت حمد الله ، وإن رُدّت حمد الله»^(٣) .

وينبغي أن يكون المفتي في حالة اعتدال ، ولا يُفتي في حال تغير خُلُقهِ ، وشغل قلبه ، واضطراب نفسه ، والمختار أن يتبرع بالعمل ، ولا يأخذ عليه أجراً ، إلا إذا تعيّن رسمياً لذلك فيجب على الدولة أن تفرض له رزقاً يغنيه عن الاحتراف والحاجة والطلب .

(١) هذا الحديث رواه الدارمي (سنن الدارمي ٥٧/١) .

(٢) انظر : المجموع ٦٧ ، صفة الفتوى ٦ وما بعدها ، أعلام الموقعين ٣٤/١ ، وما بعدها ، الموافقات للشاطبي ١٦٤/٤ وما بعدها .

(٣) الحاوي للفتاوي ١١٤/١ .

ويلزم المفتي أن يُبين الجواب بياناً يزيل الإشكال ، وله أن يستفصل السائل ، ويستفسر عن الواقعة ، ويسأل عن أطراف الحادثة ، وصيغة اليمين أو الطلاق أو الإقرار ، أو الإبراء ، فإن لم يجد المفتي من يسأله فصل الأقسام واجتهد في بيانها واستيفائها ، كقوله : إذا كان الأمر كذلك . . . فكذا ، وإن كان غيره . . . فالحكم كذا ، ولذلك يجب على المفتي أن يكون حليماً رقيقاً يترقّق بالناس على اختلاف مستوياتهم ، ويصبر على تفهم السؤال ، وتفهم الجواب ، ليقع الحكم والهدف موقعه ، وإن كان السؤال مكتوباً يجب أن يقرأه كاملاً ، ويتأمّله ، ويتفحص القيود والشروط الواردة فيه ، ثم يكتب الجواب بخط واضح ، وعبرة دقيقة وصحيحة تفهمها العامة ، ولا يزدريها الخاصة .

ويستحب أن يُشاور المفتي في المسألة ، وأن يُباحث غيره فيها ، ولو كانوا دونه من تلاميذ وطلاب للاقتداء بالسلف في ذلك ، وأن يستعين الله تعالى في ذلك ، ويدعوه للتوفيق والسداد والرشد ، ويستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ، وأن يحمّد الله تعالى ، ويُصلي على النبي ﷺ ، ويقول : «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» ، ونحو ذلك ، ويختم جوابه بقوله : «وبالله التوفيق» أو «والله أعلم» أو «والله الموفق» ، ثم يكتب اسمه الكامل المعروف به ، ولا يشترط ذكر الدليل والحجة في الفتوى إلا إذا كانت موجّهة إلى فقيه أو عالم ، ويمتنع عن الفتوى في المسائل الافتراضية التي لم تقع ، ويُحاول أن يمنع السائل والمستفتي عن إثارة الفتن ، والخوض في المسائل الكلامية والغيبية .

ويجب على كل مسلم أن يسأل عن أحكام دينه ، ويعرف ما يخصّه ، وما يعتريه ، وأن يبحث عن المفتي الذي يتمتع بأهلية الإفتاء ، ويجوز له استفتاء من استفاض كونه أهلاً للفتوى ، وعليه أن يلتزم الأدب في السؤال ، والصراحة فيه ، إلى غير ذلك من آداب الاستفتاء الكثيرة

المطلوبة شرعاً وعقلاً وأدباً وتربية^(١).

ويصف ابن القيم الموقعين عن الله تعالى بالأحكام بأنهم «فقهاء الإسلام ، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام ، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام ، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام ، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء ، بهم يهتدي الحيران في الظلماء ، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء ، بنص الكتاب ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾ [النساء : ٥٩] ، وأولو الأمر هم العلماء»^(٢).

وقام العلماء والفقهاء بهذا العمل المقدس طوال التاريخ الإسلامي ، في كل زمان ومكان ، ولا شك أنهم على درجات ، بحسب درجاتهم في العلم والفقه والتحصيل ، والذكاء والورع والتقوى ، والمكانة الاجتماعية والظروف المحيطة .

ومتى كان العالم متضلعا بعلم الفقه ، وقادراً على إدراك الأحكام ، وفطناً وذكياً لاستنباط أحكام الشرع للمسائل الجديدة ، استطاع أن يبرز غيره في الفتوى ، وأن يشتهر في البلاد والآفاق ، ويقصده الناس بالفتوى والاستفتاء ، وخاصة في بيان الأحكام التي تخص الأمة ومصيرها ومصالحها العليا وشؤونها العامة في وقت الأزمت والنكبات ، وقد تتعلق الفتوى بالحكام بما يخالف ميولهم وتوجيهاتهم ، ومن هنا تنبع خطورة منصب الإفتاء وأهميته ومسؤوليته ، لينطق العالم والمفتي بحكم

(١) انظر : المجموع ٧٥/١ وما بعدها ، شرح الكوكب المنير ٥٤١/٤ وما بعدها ، صفة الفتوى ص ٢٩ وما بعدها .

(٢) أعلام الموقعين : ١٠/١ .

الله تعالى الذي يحقق العدل ، و يقيم الحق ، و يمنع الظلم ، و يكبح جماح المعتدين والمنحرفين .

و ظهر في التاريخ الإسلامي عدد لا يُحصى من العلماء الأعلام ، والمفتون البارزون ، منهم كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، ومن التابعين سعيد بن جبير ، ثم الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، ثم أصحابهم كأبي يوسف ومحمد والمزني وإسحاق الحربي وابن القاسم ، ثم ابن سريج وأبو حامد الإسفراييني ، ثم النووي والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، والسبكي والسيوطي ، وحتى عصرنا الحاضر .

المبحث الثاني : أهلية السيوطي للفتوى

عرفنا سابقاً أن الفتوى فرع من علم الفقه ، وأنها تقوم على بيان الأحكام الشرعية ، وأن دراسة علم الفقه هو نقطة البداية في علم الفتوى ، وأن إتقان علم الفقه ، والتعمق في تحصيله ، والتوسع في معرفته ، هو الركن الرئيس للفتوى ، والأساس القويم لحسن القيام بها ، والنبوغ فيها ، ومتى أصبح الإنسان فقيهاً ، وبلغ شأوه ، اشتهر في الآفاق ، والتف حوله الطلاب ، وقصده الناس بالسؤال ، وعظمت سمعته بين العلماء ، ليكون مفتياً باستحقاق وجدارة ، ويثبت كفاءته العالية .

لذلك نبين صلة السيوطي بالفقه ، ودراسته له ، ومصنفاته فيه ، وبلوغه المرتبة العليا في تحصيله بالاجتهاد ، وتوفر أهلية الفتوى وشروطها فيه .

السيوطي يدرس الفقه :

نشأ السيوطي في جو علمي ، يفوح الفقه منه من كل قطر وجانب ، ابتداءً من البيت والأسرة ، إلى رحاب مجالس الفقه في القاهرة ، وهي

موئل العلم ، ومجمع الفقهاء ، ثم في بقية المدن العربية والإسلامية كما سيأتي .

واتجه السيوطي رحمه الله تعالى بهمة ونشاط إلى علم الفقه ، معترفاً بفضل ومكانته وأهميته ، فدرسه على كبار علماء عصره ، وأخذ عنه جماعة من الشيوخ ، ولازم شيخ الإسلام علم الدين البلقيني في الفقه حتى مات (سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م)^(١) ، فلازم ولده ، وقرأ عليه عدة كتب في الفقه إلى أن أجازه بالتدريس والإفتاء سنة ست وسبعين وثمانمئة ، وبعد وفاته لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، وأخذ الفرائض ، وهو أحد فروع الفقه ، وأهم مباحثه ، وأكثر مسائله صلة بالفتوى والاستفتاء ، عن فرضي زمانه العلامة الشيخ شهاب الدين الشارح مساحي ، وحفظ السيوطي كتاب «العمدة» في الفقه ، ثم حفظ «المنهاج» للنووي في الفقه ، و«المنهاج» في أصول الفقه للبيضاوي^(٢) .

وكان السيوطي يحب الفقه ، ويطمع أن يبلغ فيه أقصاه ، فيقول عن

(١) هو شيخ الإسلام صالح بن عمر بن رُسلان البلقيني ، القاضي ، من علماء الحديث والفقه الشافعي ، وهو ابن شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني المشهور (ت ٨٠٥هـ) ، وجمع فتاوى والده ، وتصدر للإفتاء والتدريس ، وولي قضاء الديار المصرية ، وتوفي وهو على القضاء ، ودرس عليه السيوطي الفقه ، وأجازه بالتدريس ، ثم درس على ولده . (الأعلام ٣/ ٢٧٩ . حسن المحاضرة ١/ ٤٤٤ ، ٤٤٥) .

(٢) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ويكثر اسم كتاب «عمدة الأحكام» في الفروع الفقهية ، وهو للشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد ، موفق الدين بن قدامة الحنبلي المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠هـ ، وهو مختصر في العبادات الخمس وسائر أبواب الفقه (كشف الظنون ١/ ١٣١) وللشيخ عبد القاهر الجرجاني «العمدة» في التصريف ، وللشيخ أبي بكر الشاشي الشافعي «العمدة» في الفقه ، وهذا هو المراد في كلام السيوطي ، لأنه صرح بالنقل عنه في فتاويه ، (انظر: الحاوي للفتاوى ص ٢٢٩) .

نفسه: «فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ...» ثم يقول: «وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمر منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر (العسقلاني) ، وأفيت من مستهل سنة إحدى وسبعين»^(١).

ويقول السيوطي عن نفسه: «ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبدیع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة»^(٢).

ويعترف السيوطي أنه حلق في معظم هذه العلوم ، وفاق فيها الأقران والأشياخ ، ولكنه لم يبلغ نفس المرتبة في الفقه والفرائض ، فيقول: «والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليها ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلاً عن دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي أوسع نظراً ، وأطول باعاً» ثم يقول: «ودون هذه السبعة في معرفة أصول الفقه والجدل... ، ودونها الفرائض»^(٣).

السيوطي يصنف في الفقه:

ومما يدل على المكانة الفقهية التي يتمتع بها السيوطي ، والساحة الواسعة التي جال فيها أنه اشتغل في الفقه مدة طويلة ، وعاش في أجوائه ، ومارس العمل فيه ، وصار له باع كبير فيه تدريساً وإفتاءً ، واختصاراً لأشهر كتب الفقه وأهمها ، وأوسعها في المذهب الشافعي ،

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٨ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨ .

(٣) المرجع السابق .

ثم صنف فيه استقلالاً وتقعيداً ، ولذلك نذكر أهم آثاره الفقهية ، وهي :

١ - مختصر «الحاوي الكبير للماوردي» وتوجد منه نسخة مخطوطة كاملة في المغرب .

٢ - مختصر «الروضة للنووي» ويُسمى «القنية» .

٣ - مختصر «التنبيه للشيرازي» ويُسمى «الوافي» .

٤ - مختصر «الأحكام السلطانية للماوردي» وهو في نظام الحكم ، وأجهزة الدولة ، والسياسة الشرعية .

٥ - الحاوي للفتاوي ، وسوف نقدم له دراسة وتحليلاً إن شاء الله تعالى .

٦ - الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية^(١) ، وقدمت له دراسة مستقلة في بحث خاص .

وإذا أردنا التأكد من معرفة الجهد الفقهي الذي بذله السيوطي ، والممارسة العملية الطويلة له في الفقه ، فإننا نشير باختصار إلى هذه الكتب المصنفة ، فالحاوي الكبير للماوردي من أهم كتب الفقه في المذهب الشافعي وأوسعها ، مع المقارنة ببقية المذاهب ، ولا يزال مخطوطاً حتى الآن ، لعجز المهتمين بالتراث عن تحقيقه وطباعته ونشره ، ويقع في ٢٤ مجلداً كبيراً مخطوطاً ، وحقق بعض طلاب الدراسات العليا باباً من أبوابه للحصول على الدرجات العلمية في الماجستير والدكتوراه ، و«روضة الطالبين» للنووي من أهم الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي ، وخاصاً فيه دون مقارنة ، وطبع في ١٢ مجلداً كبيراً ، و«التنبيه للشيرازي» أشهر مختصر في الفقه الشافعي ، وكان الكتاب الأساسي الذي يعول عليه الطلاب والعلماء حتى القرن

(١) كشف الظنون ١/١٠٦ .

السابع الهجري عند ظهور المنهاج للنووي ، وكان الفقهاء والطلاب والعلماء يتنافسون في حفظ «التنبيه» وله شروح وتعليقات كثيرة ، و«الأحكام السلطانية» للماوردي أشهر كتاب في الأنظمة الإسلامية ، وخاصة في نظام الحكم ، والخلافة ، والقضاء ، والحسبة ، والمظالم ، والسياسة الشرعية ، ومعظم المؤلفين عالة عليه في موضوعه ، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي أشهر كتبه الفقهية على الإطلاق ، وقد بلغ فيه القمة ، وتوّج الكتب النظرية له عند علماء الشافعية قبل السيوطي ، ثم صار مثلاً للاحتذاء به والافتداء فيه ، والسير على منواله ، كما صرح ابن نجيم الحنفي ، وسوف نخص كتاب الفتاوى الفقهية بدراسة خاصة .

السيوطي يبلغ درجة الاجتهاد:

ومما يعزز مكانة السيوطي الفقهية ، وامتلاكه ناصية الفقه أنه لم يقف في طلبه ودراسته والتدريس فيه ، والإفتاء ، والتصنيف عند حد معين ، بل قصد فيه الذروة ، وسعى إلى القمة ، وحرص على الوصول إلى ينابيع الفقه ومعينه ، وليلبغ درجة الاجتهاد التي وصلها الأئمة الفقهاء ، ولا يدركها إلا القليل النادر ، وخاصة في القرون الأخيرة .

والاجتهاد أعظم درجات الفقه في الدين ، والتفقه في الشرع ، والإحاطة بفهم النصوص ، والقدرة على الاستنباط منها ، وبذل الجهد في معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية^(١) ، وله شروط معينة ، وصفات محددة ، ويعتمد على إتقان عدة علوم وفنون متنوعة .

والسيوطي رحمه الله تعالى توفرت فيه شروط الاجتهاد ، وكملت فيه صفاته ، وحصل العلوم المطلوبة ، وخاصة العلوم الشرعية ، والعلوم

(١) هذا ما يبيته العلماء في كتب علم أصول الفقه الإسلامي ، انظر على سبيل المثال: نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول للبيضاوي ، والشرح للإستوي . ٥٢٤/٤ .

العربية ، وعلوم الآلة ، حتى أدرك مناط البحث والاستنباط ، وعرف بنفسه ذلك ، فلم يتوارَ عن الأنظار ، ولم يخس نفسه حقها ، ولم يتواضع تقيّة ، فأعلن الاجتهاد ، وادعى وصوله إليه ، وأنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ، وكسر القيد الوهمي الذي شاع في غلق باب الاجتهاد ، وطلب السيوطي فتحه لمن توفرت فيه شروطه ، وأثبت أن الاجتهاد باق في الشرع ، وأنه موجود في كل زمان ومكان ، وأقام الحجة الشرعية على ذلك ، وقَدَّم الأدلة التاريخية ، والأمثلة العملية من كبار العلماء والفقهاء في مختلف المذاهب على توالي الأزمان ، وصنف كتاباً في الاجتهاد وشروطه ، والدعوة إليه ، ووجوب إحيائه وممارسته ، وشنّ الهجوم على دعوى إغلاق باب الاجتهاد ، ونعى على الداعين لتركه أو التخلي عنه ، أو التواضع في إخفائه ، وأشار إلى ذلك في عنوان كتابه: «الرَّدُّ على من أخْلَدَ إلى الأرض ، وجَهِل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»^(١).

ويصف السيوطي نفسه هذا الكتاب بقوله: «وهو كتاب جميل حافل ، فيه نفائس متعلقة بالاجتهاد»^(٢) ، وعرض في الباب الأول نصوص العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات ، وأنه لا يجوز شرعاً إخلاء العصر منه^(٣) ، وصرح في سيرته الشخصية ، فقال: «وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى ، لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها

(١) طبع الكتاب عدة مرات ، منها طبعة دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٣هـ/١٦٨٣ م بتقديم وتحقيق الشيخ خليل الميسر ، ومنها طبعة مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم .

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ، مقدمة المحقق فؤاد عبد المنعم ص ١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١ .

بالفخر ، وقد أذف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيه لقدرتُ على ذلك من فضل الله»^(١) .

ويقول السيوطي أيضاً: «فقد بلغت - والحمد لله والمنة - رتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية ، وفي الحديث النبوي ، وفي العربية»^(٢) ، ويقول في دعوى الاجتهاد: «فإني لم أقله في الابتداء صريحاً بلساني ، وإنما ذكرت ذلك في بعض الكتب... فنقله من قصد التشنيع ، لا الشهرة ، فلما روجعت فيه صرت أقرر لمن راجعني فيه أمره... مع أنني عدت تصدي هذا العدو لإشهاره فضلاً من الله أجراه على يديه ، فلا أستطيع القيام بشكر عشر معشاره»^(٣) .

ولكن العلماء لم يسلموا له هذه الدعوى ، لأنه لم يبتكر أصولاً للاجتهاد ، وقواعد للاستنباط مستقلة عن غيره ، ليعتمد عليها في اجتهاده ، دون أن يقلد غيره ، كما هو شأن المجتهد المطلق كإمام لمذهب ، وأنه اعترف أنه لم يصل في الفقه والفرائض درجة بقية العلوم التي تبحر بها ، وأنه دون ذلك في أصول الفقه^(٤) ، وهذا يحتاج لبحث مستقل عن «اجتهاد السيوطي» .

توفر شروط الفتوى عند السيوطي :

إن المفتي يخبر عن حكم الشرع ، ويبين حكم الله تعالى الذي عرفه

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٩ .

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ، مقدمة المحقق خليل الميس ص ١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣ .

(٤) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨ ، الرد على من أخلد إلى الأرض ، مقدمة خليل الميس ص ١٣ .

ووصله إليه إما باجتهاده ، كالأئمة ، والمجتهد المطلق ، وإما بما وصل إليه إمام مذهبه الذي يتفق معه فيه ، أو يقلده به .

والكلام السابق يدل على أن السيوطي بلغ رتبة الاجتهاد عند تقدم السن ، ولذلك لم يمارسه بتوسع كبقية الأئمة ، نازعه فيه غيره في هذه الدعوى ، ولكن ظهر أثر اجتهاده في عدة جوانب وكتب ، وهي :

١ - كتاب الاجتهاد «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» .

٢ - تعديد القواعد الفقهية في كتابه : «الأشباه والنظائر» .

٣ - تفرد السيوطي بخمسة وثلاثين رأياً ، صنف فيها كتاباً سماه «التحدث بنعمة الله» ، وختمه بهذه المسائل والآراء التي أثبت فيها اختياراته .

ويظهر من ذلك أن السيوطي مجتهد مطلق ، «وهو الذي لم يقلد إمامه ، ولكن سلك طريقه في الاجتهاد» ، بخلاف المجتهد المستقل «الذي استقل بقواعده لنفسه ، يبني عليها الفقه خارجاً عن قواعد المذاهب المقررة»^(١) .

فالسويطي بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ، ولكنه تابع للإمام الشافعي ، وهذا ما يصرح به فيقول : «والذي ادعيناه هو الاجتهاد المطلق ، لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للإمام الشافعي رضي الله عنه ، وسالكون طريقه في الاجتهاد ، امتثالاً لأمره ، ومعدودون من أصحابه»^(٢) .

ويُضاف إلى ذلك خبرة السيوطي الواسعة في الفقه عامة ، وفي فقه المذهب الشافعي خاصة ، واختصاره أمهات كتب الشافعية السابقة ، كل

(١) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١١٢ ، ١١٥ ، تحقيق الميسر .

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١١٦ ت الميسر ، ص ٩٨ ت عبد المنعم .

ذلك يُؤهله لمنصب الإفتاء والفتوى ، وتكشف قدرته الكاملة على بيان الأحكام الشرعية ، مع التذكير والتركيز على كتابه العظيم «الأشباه والنظائر» الذي يتضمن القواعد الفقهية في فقه الشافعية ، والتي تعتبر إحدى وسائل الفتوى ، والاستشهار فيها .

يقول ابن النجار الفتوحي عن القواعد الفقهية ، وأنها أحد أبواب الاستدلال للأحكام الشرعية ، «قواعد الفقه تشبه الأدلة ، وليست بأدلة ، ولكن ثبت مضمونها بالدليل ، وصارت يقضى بها في جزئياتها ، كأنها دليل على ذلك الجزئي ، فلما كانت كذلك ناسب ذكرها في باب الاستدلال»^(١) .

وهذا يقودنا إلى بيان ممارسة السيوطي للفتوى والإفتاء ، ودراسة فتاويه التي دونها بنفسه .

المبحث الثالث : في فتاوى السيوطي

ممارسة السيوطي للفتوى :

بلغ السيوطي الأوج في علم الفقه ، وذاع صيته بين العلماء ، وانتشر اسمه في الآفاق واتسعت شهرته في البلاد ، والتف حوله الطلاب ليأخذوا عنه ، فدرسهم الفقه ، وحلق في أجوائه وكتبه ، ثم مارس الإفتاء ، وقصده الناس بالفتوى من القاهرة ومدن مصر وغيرها ، لبيان الأحكام الشرعية في المسائل والأسئلة - المعروضة عليه - .

وذكر السيوطي ذلك عن نفسه ، فقال : «وأفتيت من مستهل سنة إحدى سبعين»^(٢) أي وثمانمئة للهجرة ، أي كان عمره إحدى وعشرين سنة ، وقال أيضاً : إنه لازم وَلَدَ علم الدين البُلْقيني ، وقرأ عليه عدة كتب

(١) شرح الكوكب المنير ٤/٤٣٩ .

(٢) حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .

في الفقه ، وأجازه بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين وثمانمئة^(١) ،
أي جاوز عمره ستاً وعشرين سنة .

واستمر السيوطي على ممارسة الفتوى والإفتاء طوال حياته ،
وصدرت عنه فتاوى كثيرة جداً في مختلف العلوم والفنون التي أتقنها
واشتهر بها ، وجمع السيوطي نفسه أهم هذه الفتاوى في كتابه المشهور
«الحاوي للفتاوي»^(٢) ، في الفقه وعلوم التفسير والحديث وأصول الفقه
وأصول الدين ، والنحو والإعراب ، وسائر الفنون ، وقال في مقدمته :
«فقد استخرت الله تعالى في جمع نبذ من مهمات الفتاوى التي أفتيت بها
على كثرتها جداً ، مقتصراً على المهم والعويص ، وما في تدوينه نفع
وإجداء ، وتركت غالب الواضحات ، وما لا يخص على ذوي الأذهان
القادحات ، وبدأ بالفقهيات ، مرتبة على الأبواب ، ثم بالتفسير ، ثم
بالحديث ، ثم بالأصول ، ثم بالنحو والإعراب ، ثم بسائر الفنون ، إفادة
للطلاب ، وسميت هذا المجموع «الحاوي للفتاوي»»^(٣) .

ويظهر من هذه المقدمة أن المجموع يشتمل على الفتاوى في مختلف
العلوم ، ولكن إذا أطلقت كلمة الفتوى ، أو الإفتاء ، أو الفتاوى ، فإنها
تنصرف إلى الفتاوى الفقهية لبيان الأحكام الشرعية ، وهي محل البحث ،
ولذلك تقتصر على دراسة الفتاوى الفقهيات من هذا الكتاب دون غيرها ،
وتقع في مئتين وتسعين صفحة من الحجم الكبير (٥ - ٢٩٤) ، من المجلد
الأول .

(١) انظر: حسن المحاضرة ١/ ٣٣٧ .

(٢) طبع كتاب «الحاوي للفتاوي» عدة مرات ، أحسنها وأجودها الطبعة المنيرية
بالقاهرة ، سنة ١٣٥٢هـ ، ويقع الكتاب في مجلدين كبيرين ، جاء الأول في
٤٠٠ صفحة ، والثاني في ٣٥٤ صفحة مع الفهارس .

(٣) الحاوي للفتاوي ص ٥ .

أهمية كتب الفتاوى:

ونحب هنا أن نشير إلى أن كتب الفتاوى تعتبر من الكتب الفقهية ، وتصنف مع كتب الفقه ، ولكنها تمتاز عن بقية كتب الفقه بميزة خاصة تنفرد بها ، وقد يشاركها بها كتب أدب القضاء ، أو أدب القاضي ، أو كتب الفقه القضائية ، وتبرز هذه الميزة أهمية كتب الفتاوى والقضاء ، وتتجلى في أمرين أساسيين :

١ - إنها أحكام واقعية ، تتصل بالواقع ومجريات الحياة ، وما يعترض طريق الناس عملياً ، وخاصة عند تطبيق أحكام الشرع والفقه في الحياة والواقع ، وما ينتج عنها من مشكلات ، واختلافات في وجهات النظر ، فتأتي الفتوى لتزيل الإشكال ، وتكشف الطريق السوي لتطبيق الحكم عملياً ، ولا تقتصر على مجرد ذكر الأحكام وأدلتها ، وهذا ما نلاحظه بكثرة في فتاوى السيوطي الفقهية .

٢ - إن الفتاوى الفقهية ، وأحكام القضاء تعالج المسائل المستجدة التي لم يسبق عرضها في كتب الفقه ، ولم تقع في الماضي ، وكثيراً ما تكون غير مطروقة لدى الأئمة الأوائل ، والمشتغلين في الفقه ، والتأليف ، والتصنيف ، والتفريع في كتب المذاهب .

الفتاوى الفقهية للسيوطي:

ذكر السيوطي أهم فتاويه في كتابه «الحاوي للفتاوى» وقسمها إلى الفقهيات ، والفتاوى المتعلقة بالتفسير ، والفتاوى المتعلقة بالحديث ، والفتاوى المتعلقة بأصول الفقه ، والفتاوى المتعلقة بأصول الدين والعقيدة والتوحيد ، والفتاوى النحوية ، وفي الإعراب ، والتصوف .

وإن هذه الفتاوى وإن كانت مقسمة إلى هذه العلوم والفنون ، ولكن يوجد كثير من الفتاوى الفقهية في العلوم الأخرى ، ولكننا نقصر الدراسة والتحليل للفتاوى الفقهية دون غيرها مع الإشارة إلى بقية الفتاوى في

العلوم الأخرى مما له صلة بالفقه والأحكام الشرعية .

منهج السيوطي في الفتاوى الفقهية :

إن القارئ لهذه الفتاوى الفقهية ، والمطلع عليها ، يستطيع أن يستخرج منهج السيوطي فيها ، ويمكننا تلخيص ذلك بما يلي :

١ - الاعتماد على المذهب الشافعي :

اعتمد السيوطي في بيان الأجوبة ، وإصدار الفتاوى ، على المذهب الشافعي ، الذي درسه وحفظه ، وأتقنه ، ودّرّسه ، وصنّف فيه ، وصرح بالالتزام به في الغالب ، إلا في حالات نادرة وصلها باجتهاده الخاص ، كما أن السيوطي في الحالتين لم يخرج على أصول المذهب الشافعي ، فقال : «ولما بلغت درجة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الشافعي رضي الله عنه ، كما كان القفال ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد ، يفتي بمذهب الشافعي لا باختياره»^(١) . وقال أيضاً : «والذي ادّعيناه هو الاجتهاد المطلق لا الاستقلال ، بل نحن تابعون للإمام الشافعي رضي الله عنه ، وسالكون طريقة في الاجتهاد ، امتثالاً لأمره ، ومعدودون من أصحابه»^(٢) .

وبين العلامة النووي أقسام المفتين ، ووصف الحالة الثانية التي تنطبق على السيوطي ، فقال : «والمفتون في الشرع قسمان ، مستقل ، وهو المجتهد المستقل في أصوله واجتهاده كأئمة المذاهب ، والمفتي غير المستقل ، وهو المنتسب إلى أئمة المذاهب المتبوعة ، وهذا القسم الثاني على أربعة أحوال ، أحدها المفتي غير المقلد لإمامه ، لا في المذهب ، ولا في دليله ، لاتصافه بصفة المستقل ، وإن لم يستقل عملياً ، وهو يتبع

(١) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٤ تحقيق خليل الميس .

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ .

مذهب إمامه لا تقليداً ، بل لما وجد أن اجتهاده وقياسه أحد الطرق ،
والحالة الثانية أن يكون المجتهد مقيداً في مذهب إمامه مستقلاً بتقرير
أصوله بالدليل ، غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول إمامه وقواعده ،
وشرطه أن يكون عالماً بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلاً ، بصيراً
بمسالك الأقيسة والمعاني ، تام الارتياض في التخريج والاستنباط ، قيماً
بالحاق ما ليس منصوصاً عليه لإمامه بأصوله ، ولا يعرئ عن شوب تقليد
له . . . ثم يتخذ نصوص إمامه أصولاً يستنبط منها كفعل المستقل بنصوص
الشرع ، وربما اكتفى في الحكم بدليل إمامه ، ولا يبحث عن
معارض . . . وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه ، وعليها كان أئمة
أصحابنا أو أكثرهم ، والعامل بفتوى هذا مقلد لإمامه لا له»^(١) .

وهذه الصورة والأوصاف تنطبق على السيوطي ، وعلى فتاويه
الفقهية ، فإنه ملتزم بمذهب الشافعي ، ولا مانع أن نقول كما قال النووي
إنه : «مقلد لإمامه» ، فيأخذ الأحكام من كتب الشافعية ونصوصهم - كما
سنرى - ويخرج المسائل الجديدة على أصولهم وقواعدهم ، وكانت ترد
عليه الأسئلة مع طلب الاجتهاد فيها ، فمن ذلك قوله : «ورد سؤال صورته
ما قول مولانا شيخ الإسلام ، حافظ العصر ، مجتهد الوقت ، عالم أهل
الأرض ، المبعوث في المئة التاسعة . . . ولسنا نسألكم عن مشهور
مذهب الشافعي . . . بل نسألكم عما يقتضيه الدليل والنظر من حيث
الاجتهاد ، والمسؤول أن يكون الجواب على طريقة الاجتهاد»^(٢) .

(١) المجموع ٧٠/١ - ٧٢ باختصار وتصرف ، ونقل هذا النص السيوطي نفسه عن
النوي في أقسام المجتهد المطلق في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض» ص
١١٤ - ١١٢ .

(٢) الحاوي للفتاوي ١١/١ - ١٢ .

٢ - نقل النصوص من كتب الشافعية :

وهذا فرع عن منهجه السابق ، فالسيوطي يعتمد على المذهب الشافعي ، وعلى أقوال الإمام الشافعي وعلى كتب الأصحاب في المذهب الشافعي ، ولكن نقله للنصوص ليس دائماً ، فإن كانت الفتوى قصيرة ، وعبرة عن جواب لحكم فقهي جزئي أجاب عن السؤال ، وذكر الحكم فقط دون إيراد نص ، أما إن كانت المسألة كبيرة ، والجواب طويلاً ، ويشكل بحثاً أو موضوعاً فإنه يلجأ إلى إيراد النصوص .

فمن أمثلة ذلك بحثه عن «الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر ص ١٣٣ ، فبين أنه لا يحل التعرض في البيوت القديمة الباقية على أصولها ، وأما البروز الحادث ، وما يراد إحداثه فلا يحل ذلك باتفاق المذاهب ، وأن بعض الناس يظن في المذهب الشافعي جواز البروز مطلقاً ، وليس كذلك بل شرطه أن لا يكون في الشارع ، ولا في حريم نهر ، ولا نحو ذلك مما هو مبين في كتب الفقه ، ثم يقول : «ذكر نقول مذهبننا : قال الرافعي في «الشرح» والنووي في «الروضة» . . . ص ١٣٤ ، وقال الشيخ تقي الدين السبكي في «شرح المنهاج» وقال ابن الرفعة في «الكفاية» . . . ص ١٣٦ ، وفي «فتاوى ابن الصلاح» . . . ص ١٣٧ ، وقال الزركشي في «شرح المنهاج» . . . ص ١٣٥ .

ويقول في موضوع «كشف الضبابية في مسألة الاستنابة في الوظائف» وقد أفتيت بجوازها بما نقله الدميري في «شرح المنهاج» عن السبكي وغيره ، ثم قال : «ونبدأ بنقل كلام السبكي وغيره في ذلك ، قال السبكي في «شرح المنهاج» ص ١٥٨ . . . ونقله الشيخ كمال الدين الدميري في «شرح المنهاج وأثره» ص ١٥٨ .

ويقول في مسألة الوقف : «ولنسق عبارة السبكي» ص ١٦٩ . . . ، وسئل الشيخ ولي الدين العراقي فأجاب . . . ص ١٧٣ .

ولا بدّ من التنبيه هنا أن السيوطي ينقل نصوص الشافعية من الكتب المعتمدة في المذهب ، وعن أشهر علماء المذهب وأصحابه الذين تقبل آراؤهم وتعدّ وجوهاً في المذهب .

٣- بيان أسماء الكتب التي ينقل منها :

ويظهر منهج السيوطي في الفتاوى الفقهية بالأمانة العلمية ، والحرص على نقل النصوص أولاً ، وتحديد اسم الكتب والمراجع والمصادر التي يعتمد عليها ، سواء كانت كتباً فقهية أم غير فقهية ، وهذه أمثلة لذلك إضافة لما ورد من أسماء الكتب في النصوص السابقة :

- قال العماد الكاتب في كتاب «فتح بيت المقدس والبلاد الشامية ، واستخلاصها من يد الفرنج على يد السلطان صلاح الدين أيوب» ص ٢٧١ .

- قال القاضي عياض في خطبة كتابه «الشفاء» ص ٢٧١ .

- قال عبد المؤمن الأصفهاني صاحب «أطباق الذهب» في الوعظ ص ٢٧١ .

- ذكر ما استعمله الشيخ تاج الدين السبكي في خطبة كتاب «الأشباه والنظائر» من تضمين الآيات والأحاديث ص ٢٦٨ .

- ذكر ما استعمله الشيخ بهاء الدين السبكي في خطبة كتاب «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح» ص ٢٦٩ .

- قال الغزالي في أول كتابه «الانتصار لما في الإجناس من الأسرار»^(١) ص ٢٦٦ .

(١) ورد اسم الكتاب خطأ في «الفتاوى» بعنوان «الانتصار لما في الأحياء من الأسرار» والصواب من كشف الظنون ١/ ١٥٣ .

- رأيت في «تاريخ من دخل مصر» للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ص ٢٦٦ .

- قال ابن السبكي في كتابه «الترشيح» ص ٢٣٨ .

- قال ابن الأثير في «النهاية» ص ٢٣٦ .

- وقد صرح النووي في «الروضة» ص ٢٢٧ .

- وعبارة ابن أبي عصرون في «المرشد» ص ٢٢٨ .

- وعبارة صاحب «البيان» ص ٢٢٨ .

- وعبارة الشاشي في «العمدة» ص ٢٢٩ ، قال ابن الأثير في «المثل السائر» ص ٢٦٧ .

- قال الجوهري في «الصحاح» . . . ص ١٠٤ ، قال العسكري في «الأوائل» . . . ص ١٠٥ ، قال النووي في «شرح المذهب» . . . ص ١٠٣ .

ونستدل من ذلك أن السيوطي رحمه الله تعالى المعتمد على مصادر كثيرة ، ومراجع عديدة ، يكون قائمة كبيرة ، ويجب استخراجها في «فهرس خاص للمصادر والمراجع والكتب التي وردت في الفتاوى» .

٤ - الإشارة إلى كتب السيوطي :

كان السيوطي أيضاً يُشير إلى كتبه ورسائله الأخرى ، ويحيل القارئ إليها إذا أراد التوسع ، أو كانت خارجة عن محل السؤال ، فمن ذلك قوله : «وسألت أن أبين لك أمر هيئة السموات والأرض بدلائل القرآن والحديث ، الجواب أن لي في ذلك تأليفاً كاملاً يُسمّى «الهيئة السنية في الهيئة السنية» وسأرسل لكم منه نسخة لي» ص ٢٩٣ ، وقال : «وسألت عن الرسالة التي لي في حروف التهجي» وسأرسل لكم منها نسخة» ص ٢٩٣ .

٥ - عرض آراء المذاهب :

كان السيوطي رحمه الله تعالى يذكر في المسائل الكبيرة ، والفتاوى

المهمة ، آراء المذاهب الأخرى ، كالحنفية والمالكية والحنابلة ، وفي بعض الأحيان ينقل نصوصاً حرفية من كتبهم .

فقال في مسألة «الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر» : «لا يحل ذلك باتفاق المذاهب الأربعة» . . . وهذا هو منقول المذهب نص عليه إمامنا الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وسائر أصحابه ، ولا نعلم في ذلك خلافاً في المذهب وله في بقية المذاهب الأربعة وأتباعهم ، متفقون على هذا الحكم . . . » وذكر السيوطي نقول علماء المذهب الشافعي ص ١٣٤ ، ثم ذكر نقول المالكية ، فقال : «قال ابن الحاج : في «المدخل» ص ١٣٧ ، ثم ذكر نقول الحنفية ، فقال : «قال : في «الهداية» ص ١٣٨ . . . وقال القدوري . . . ص ١٣٩ ، وقال صاحب «النافع» وهو الإمام أبو المفاخر السويدي الزرزني . . . ، «وفي فتاوى قاضي خان» . . ص ١٤٠ ، وفي «فتاوى البزازي» . . وقال صاحب «الكافي» . . ص ١٤١ ، وفي «خلاصة الفتاوى» . . ص ١٤٢ ، ثم ذكر نقول الحنابلة ، قال في «المغني» وهو أجل كتب الحنابلة . . . ص ١٤٣ .

وقال السيوطي في مسألة الاستنابة في الوظائف : «فأفتى جماعة بجواز ذلك ، واستناب منهم . . . كلهم من الشافعية ، ومن الحنفية ، والمالكية ، والحنابلة آخرون» ص ١٥٨ .

وقال السيوطي في مسألة في الإرث : «بأن الصواب مع من أفتى بعدم إرثه . . . وأنه لا خلاف فيه في مذهب الشافعي ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وهو أصح الروايتين في مذهب أحمد بن حنبل» ص ١٧٧ ، وذكر السيوطي الدليل ونصوص الأصحاب في المذهب ، ثم نقل نصوص بقية المذاهب ، فقال : «قال صاحب «المحيط» من الحنفية ما نصه . . . ص ١٧٩ ، وقال صاحب «المغني» من الحنابلة . . . وحكى الحنابلة . . . ص ١٨٠ ، وبعد ذلك قال : «عود على بدء في نقول أخرى مصرحة من كتب

سائر المذاهب: قال الحيري من أصحابنا في كتاب «التلخيص في الفرائض»... وفي الأصل لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة مانصه... ، وفي «المدونة»... وفي كتاب «الرابض في خلاصة الفرائض» تأليف أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد السلام المالكي مانصه... ص ١٨٤ ، وفي «المغني» لابن قدامة الحنبلي مانصه... ص ١٨٥ .

٦- الاستطراد:

كان السيوطي رحمه الله تعالى يستطرد أثناء ذكر الفتاوى والأحكام الشرعية ، لبيان فوائد عارضة ، أو ترجمة لبعض الأعلام .

ففي صفحة ١٠٠ يختم فتاوى كتاب البيع بعنوان «فوائد نختم بها الكتاب» ويذكر اثنتي عشرة فائدة في أحكام البيع . وفي صفحة ١٤٣ يضع عنواناً خاصاً «فائدة لطيفة» أثناء بيانه حكم البناء على حافة النهر ، ويقول: «قال ابن الحاج في «المدخل» ليس للإنسان في المسجد إلا موضع قيامه وسجوده وجلوسه ، وما زاد على ذلك فلسائر المسلمين...» .

وفي صفحة ١٩٠ يتحدث عن حكم عمل المولد ، ويستطرد إلى ترجمة أحد الأشخاص ، فيقول: «وقال ابن خلكان في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية: ...» .

وفي صفحة ٢٠٥ بحث حكم الطلاق... ثم قال عدة مرات: تنبيه ص ٢٠٧ ، تنبيه ص ٢٠٨ ، تنبيه أربع مرات ص ٢٠٩ ، وهي تنبيهات عظيمة تتعلق بالطلاق ، وفي ص ٢١٦ ذكر فروعاً مهمة تتعلق بالطلاق .

وفي صفحة ١٤٥ ذكر خاتمة للفتوى بمنع البروز على حافة النهر ، وأنه أرسل ذلك إلى قاضي القضاة الشافعي ، فأذعن للحق ، ومنع نوابه من الحكم بذلك ، ثم أرشده أن يصدر حكماً عاماً بالمنع من غير تعيين خصم ودعوى .

٧- الاحتجاج بالأحاديث النبوية:

كان السيوطي رحمه الله تعالى يعتمد كثيراً على الاحتجاج بالسنة النبوية ، ويرجع إلى كتب الحديث الشريف ، وينقل نصوصها ورواياتها ، وهذا أمر بدهي بالنسبة له ، وهو المحلق في علم الحديث ، والجامع لأشئاته ، والمصنف فيه عدة كتب ، وقد بلغ الغاية القصوى فيه ، وكان من درجة الحفاظ ، ونكتفي ببعض الأمثلة:

في صفحة ١٤٤ ذكر الأحاديث الواردة في إثم من ظلم شيئاً من الأرض وطريق المسلمين ، ونقل الأحاديث عن «صحيح البخاري» وعن «الأدب المفرد» للبخاري ، و«المستدرک» للحاكم ، و«ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا ، و«شعب الإيمان» للبيهقي ، و«السنن الكبرى» للبيهقي ، و«مسند البزار» وعن أحمد وابن حبان والطبراني رحمهم الله تعالى .

وفي مسألة عصابة المعتق في الإرث ص ١٧٧ ذكر الحكم ، ثم قال : «وها أنا أسوق ما أورده البيهقي ثم أرتقي إلى جميع ما ورد في ذلك عن الصحابة فمن بعدهم ، مسنداً مخرجاً ليستفاد» ص ١٨١ .

وفي مسألة براءة الذمة ص ١٠٩ يستطرد إلى حديث كفارة الاغتياب بالاستغفار فيبين أنه لا يحتج به ، وقواعد الفقه تأباه ، ثم يذكر الآثار في ذلك عن ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» والطبراني في «الأوسط» والأصبهاني في «الترغيب» . . . ، ويذكر عدة أحاديث ، ويبين وجه الاحتجاج بها ، وفي مسألة قراءة القرآن بالألحان يبين الحكم ثم يستدل على كل شطر فيه بالأحاديث الشريفة ص ٢٥١ .

وفي صفحة ١١ يذكر الحديث المسلسل بالتشبيك (أي تشبيك الأصابع).

٨ - تقسيم الفتاوى على أبواب الفقه :

رتب السيوطي فتاويه الفقهية على أبواب الفقه ، وصرح ذلك في المقدمة ، ويضع عناوين كتب الفقه الرئيسة ، ويذكر بعدها عدداً من الأبواب ، وجاءت كما يلي مع الاختصار: كتاب الطهارة ص ٥ ، وفيه أبواب الآنية ، أسباب الحدث ، الوضوء ، مسح الخف ، الغسل ، النجاسة ، التيمم ، الحيض ص ٢٥ .

كتاب الصلاة ص ٢٧ ، وتحت أبواب ومسائل ، كتاب الجنائز ص ٨٣ ، كتاب الزكاة ص ٨٧ ، كتاب الصوم ص ٩١ ، كتاب الحج ص ٩١ .

كتاب البيع ص ٩١ وتحت سائر أبواب المعاملات .

باب إحياء الموات ص ١٢٧ ، باب الوقف ص ١٩٤ ، الفرائض ص ١٧٦ ، الوصايا ص ١٨٥ ، كتاب النكاح ص ١٨٧ ، كتاب الصداق ص ١٨٨ ، باب الخلع ص ١٩٧ ، باب الطلاق ص ١٩٨ ، باب اللعان ص ٢٢٢ .

كتاب النفقات ص ٢٢٣ ، باب الجهاد ٢٤٣ ، كتاب الصيد والذبائح ص ٢٤٦ ، باب الأطعمة ص ٢٤٧ ، كتاب الإيمان ص ٢٤٧ ، كتاب الأضحية ص ٢٤٨ ، باب الدعوة والبينات ص ٢٤٩ ، باب الشهادات ص ٢٥١ ، قراءة القرآن بالألحان ص ٢٥١ ، باب جامع ص ٢٥٣ عن الاشتغال بالمنطق وضرب المثل من القرآن .

وختم السيوطي الفتاوى الفقهية بأسئلة واردة من التكرور ، وأجاب عنها ووضع لها عنواناً مستقلاً ص ٢٨٤ - ٢٩٤ ، وهذا ينقلنا إلى المسائل الخاصة .

٩ - المسائل الخاصة والتأليف المفردة :

أفرد السيوطي بعض المسائل بالبحث والدراسة ، والتمحيص والاستدلال ، ووشحها بالنصوص الفقهية ، والأحاديث النبوية ، ووضع لها عنواناً مستقلاً ، لكنه وضعها ضمن أبوابها الفقهية .

وهذه المسائل الخاصة مهمة ، لذلك أفردتها بالتأليف ، ولذلك يحسن أن نعدّها وقد جاوزت الأربعين مسألة ، وهي :

- ١ - تحفة الأنجاب بمسألة السنجاب ص ١١ .
- ٢ - الخط الوافر من المغنم في استدراك الكافر إذا أسلم ص ٢٧ .
- ٣ - ذكر التشنيع في مسألة التسميع ص ٣٥ .
- ٤ - بسط الكف في إتمام الصف ص ٥١ .
- ٥ - اللعة في تحرير الركعة لإدراك الجمعة ص ٦٢ .
- ٦ - ضوء الشمعة في عدد الجمعة ص ٦٦ .
- ٧ - الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم ص ٧٥ .
- ٨ - ثلج الفؤاد في أحاديث لبس السواد ص ٧٦ .
- ٩ - فصول الأمانى بأصول التهاني ص ٧٩ .
- ١٠ - الفوائد الممتازة في صلاة الجنّازة ص ٨٣ .
- ١١ - بذل العَسجد لسؤال المسجد ص ٨٨ .
- ١٢ - قدح الزند في السَّلَم في القُنْد ص ٩٤ .
- ١٣ - قطع المجادلة عند تغيير المعاملة ص ٩٥ .
- ١٤ - بذل الهمة في طلب براءة الذمة ص ١٠٩ .
- ١٥ - هدم الجاني على الباني (لخبرة بجوار المسجد) ص ١١٣ .

- ١٦ - البارع في إقطاع الشارع ص ١٢٧ .
 - ١٧ - الجبر بمنع البروز على شاطئ النهر ص ١٣٣ .
 - ١٨ - الإنصاف في تمييز الأوقات ص ١٥٥ .
 - ١٩ - كشف الضباب في مسألة الاستنابة ص ١٥٨ .
 - ٢٠ - المباحث الزكية في المسألة المدروكية (الوقف) ص ١٦٣ .
 - ٢١ - القول المشيد في الوقف المؤبد ص ١٦٦ .
 - ٢٢ - البدر الذي انجلى في مسألة الولا ص ١٧٧ .
 - ٢٣ - حسن المقصد في عمل المولد ص ١٨٩ .
 - ٢٤ - القول المضي في الحنث في المضي ص ٢٠٨ .
 - ٢٥ - فتح المغالِق من أنت تالق ص ٢١٦ .
 - ٢٦ - المنجلي في تطور الولي ص ٢١٧ .
 - ٢٧ - النقول المشرقة في مسألة النفقة ص ٢٢٥ .
 - ٢٨ - تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء ص ٢٣٢ .
 - ٢٩ - حسن التصريف في عدم التحليف ص ٢٤٩ .
 - ٣٠ - القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق ص ٢٥٥ .
 - ٣١ - رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس ص ٢٥٩ .
 - ٣٢ - فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور ص ٢٩١ .
- هذه هي المسائل والرسائل التي وردت في قسم الفتاوى الفقهية ،
وورد عدد آخر في الفتاوى القرآنية والأصولية والحديثية ، نشير إلى بعضها ، اثنتان في تمة الجزء الأول ، والباقي في الجزء الثاني .

١ - القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة ص ٢٩٧ .

٢ - القول الفصيح في تعيين الذبيح ص ٣١٨ .

٣ - المحنة في السبحة ص ٢ .

٤ - حسن التسليك في حكم التشبيك ص ٩ .

٥ - شد الأثواب في سدّ الأبواب (على المسجد) ص ١٢ .

٦ - رفع الحذر عن قطع السدّر ص ٥٤ .

٧ - العرف الوردي في أخبار المهدي ص ٥٧ .

٨ - كشف الريب عن الجيب ص ٩٣ ، إلى غير ذلك من الرسائل .

ونلاحظ أهمية هذه الرسائل والمسائل من عناوينها ، وأن السيوطي استعمل فيها السجع في العنوان ، وهي عادة المؤلفين والأدباء والكتاب في تلك العصور ، مع قدرة السيوطي اللغوية .

١٠ - الإطالة والاختصار في الأجوبة :

نلاحظ أن السيوطي رحمه الله تعالى يذكر في هذه الرسائل - بعد السؤال والحمدلة - يذكر الحكم الفقهي ، والجواب الصريح والمختصر للمسألة ، ثم يتوسع بذكر الأدلة من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، وآثار الصحابة ، وأقوال العلماء ، ونصوص الفقهاء ، مع المناقشة والتعليل ، والترجيح ، وتوجيه الأقوال والعبارات ، ثم يختم المسألة غالباً بالتذكير بالحكم الراجح الذي بدأ به كلامه .

أما أكثر الفتاوى الأخرى فكانت مختصرة وموجزة ، وجاء بعضها بكلمة كالجواب عن مسألة في باب الفرائض عن إرث البنت مع ابن ابن ، فهل يكون إرثها بالفرض أو بالتعصيب ، فقال السيوطي : « بالفرض » ص ١٧٦ ، وجاء بعض الفتاوى بسطر وسطرين ، وجاء كثيراً منها في بضعة أسطر ، وقد يسهب في بعضها بمقدار صفحة وأكثر ، وفي هذه الحالة

الأخيرة يلتزم منهجه في الرسائل بذكر الحكم موجزاً مختصراً ، ثم يفصل ويوسع ويستدل ، ويذكر النصوص والآراء والأدلة .

١١ - التأريخ والدعاء :

كان السيوطي يؤرخ بعض الأسئلة ، ويذكر تاريخ الفتوى ، فمن ذلك قوله : «وكانت هذه الفتوى والتأليف في صفر سنة ست وسبعين وثمانمئة» ص ٥٩ ، ومنها تأريخه للأسئلة الواردة في بلاد التكرور بإفريقية في شوال سنة ثمان وتسعين وثمانمئة» ص ٢٨٤ ، وجاءت هذه الأسئلة بكتاب اسمه «مطلب الجواب بفصل الخطاب» وفي آخرها اسم السائل محمد بن محمد بن علي اللمتوني ، مع إبداء محبته للسيوطي وشوقه للقاءه ، وطلب الدعاء منه ص ٢٩١ .

وكان السيوطي في الغالب يدعو لنفسه وللوسائل في نهاية الفتوى ، فقال في ختم فتاويه عن الأسئلة التكرورية دعاء ، ونصه : «وإني أحبك في الله ، كما أحببتي ، ونرجو من فضل الله أن يجمعنا في الجنة من غير عذاب سبق ، ولا تنسني من دعائك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ص ٢٩٤ ، وهذا يدل على أنه يمارس الإفتاء وهو في أوج مكانته العلمية ، وشيوع شهرته في الآفاق . وقال في فتوى منظومة في الفرائض : «وناظمه ابن السيوطي يرجو من الرحمن عفواً في المآب» وقال في فتوى في الرهن ص ١٠٦ :

«قد خط معتمداً أحكام مذهبه هذا جواب ابن السيوطي مستطراً» وهذا ينقلنا للنقطة الأخيرة في منهجه .

١٢ - النظم والأشعار :

كانت بعض الأسئلة ترد على السيوطي نظماً ، فكان يجيب عليها بالنظم (ص ١٧٦) ص ١٠٦ ، ص ٢٥ ، ص ١٠٨ ولم تزد على بعض الحالات الأخرى ، وفي مسألة حكم البناء على حافة النهر أجاب عنها

مطولاً ، ثم ختم الحكم بقصيدة ص ١٤٥ ، قال : «وقد ختمت هذا المؤلف بقصيدة نظمت فيها المسألة لأن النظم أيسر للحفظ ، وأيسر على الألسنة ، وسميتها «النهر لمن برز على شاطئ النهر» ، وجاءت في ٦٧ بيتاً ، وتكرر مثل ذلك في الفتاوى القرآنية ٣١٦ ، ٣١٧ ، والفتاوى الحديثية ص ٣٧٣ .

كما كان السيوطي ، وهو اللغوي البارِع ، والأديب اللامع ، يستشهد في بعض الفتاوى بأبيات من الشعر ، وينسبها إلى أصحابها الشعراء (ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) ولكنه أكثر من ذلك في مسألة «رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاعتباس» ص ٢٥٩ ، ونقل الشواهد الشعرية الكثيرة عن العلماء بجواز ذلك .

الخاتمة:

ونخلص من هذا البحث إلى بيان النتائج التالية :

١ - الفتوى والإفتاء علم شرعي ، وهو فرع من علم الفقه لبيان حكم الله تعالى ؛ وأن المفتي هو العالم بالشرع وأحكام الدين ليعينها للناس ، ولها أحكام خاصة ، وآداب رفيعة ، وقواعد محددة ، وهي في الأصل ليست منصباً رسمياً ، بل هي وظيفة كل عالم وفقهه في الشرع ، وبرز في التاريخ الإسلامي أعلام في الفتوى ، كما ظهر فيها كتب عديدة ، أصبحت أحد المصادر الفقهية ، ومن أهم المراجع للعلماء طوال التاريخ الإسلامي وحتى يومنا الحاضر .

٢ - كان السيوطي من كبار الفقهاء في المذهب الشافعي ، فدرسه مبكراً على عدد من العلماء ، ثم قام بتدريسه ، ثم مارس الفتوى والإفتاء طوال أربعين سنة من عمره ، وأنه كان يتلقى الفتاوى من مختلف البلاد ، وقد صنف الكتب العديدة في الفقه على المذهب الشافعي ، وعاش أمهات

كتب الشافعية ، واختصر أهمها ، واعتمد على باقيها في تصانيفه وفتاويه .

٢ - إن فتاوى السيوطي عامة ، والفتاوى الفقهية له خاصة ذات أهمية كبيرة من الناحية الموضوعية والعلمية والفقهية ، وهي مرجع فقهي ممتاز ، ومصدر أصيل ، كما تحتل نفس الأهمية في عرض المسائل الواقعية في الحياة ، وما يتكرر وقوعه من الناس ، وما يشيع في التعامل ، مما تساعد الطالب والفقيه والعالم والمفتي في عصرنا الحاضر من الاعتماد عليها ، والرجوع إليها ، والاستفادة منها ، لغة وأدباً ، وفقهاً وحديثاً ، وحكمة وفوائد متنوعة ، وجاءت بأسلوب مشرق ، وعبارة رصينة ، وأدب رفيع ، وتنوع في الصياغة والأسلوب والعرض بما يشوق القارئ إليها ، ويأسى لقراءتها ، ويستمتع بمعرفة ما جاء فيها ، ويحرص على الاستمرار والدوام في مطالعتها .

٤ - وأخيراً نقدم توصية بأن تطبع فتاوى السيوطي مجدداً ، وتخدم بالفهارس ، ليتم الانتفاع بها ، والاستفادة منها . رحم الله السيوطي رحمة واسعة ، وجزاه الله خير الجزاء ، ونفعنا الله بعلمه الذي يزيد في حسناته ، ويستمر في صحائفه ، وأكثر الله من أمثاله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



أهم مصادر البحث

- ١ - الأعلام ، خير الدين الزركلي - الطبعة الثالثة ، بيروت .
- ٢ - أعلام الموقعين ، ابن قيم الجوزية ٧٥١هـ - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- ٣ - الترغيب والترهيب ، الحافظ المنذري ٦٥٦هـ ، مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ٤ - الحاوي للفتاوي ، جلال الدين السيوطي ٩١١هـ - إدارة الطباعة المنبرية - القاهرة - ١٣٥٢هـ .
- ٥ - حسن المحاضرة ، جلال الدين السيوطي ٩١١هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ٦ - دستور العلماء = جامع العلوم ، عبد النبي عبد الرسول الأحمد نكري - الطبعة الأولى - الهند .
- ٧ - الرد على من أخلد إلى الأرض ، جلال الدين السيوطي ٩١١هـ - ت خليل الميس - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ت . الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ، نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ٨ - شرح الكوكب المنير ، لابن النجار الفتوحي الحنبلي ٩٧٢هـ - نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٩ - صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ٢٥٦هـ - دار القلم - دمشق - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١٠ - صحيح مسلم بشرح النووي ، مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١هـ - المطبعة المصرية - القاهرة .

- ١١ - صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، ابن حمدان الحراني الحنبلي ٦٩٥هـ - المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٩٤هـ .
- ١٢ - عَزَف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام - المرادي ١٢٠٦هـ - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - مطبعة زيد بن ثابت - ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ١٣ - الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الصغير للسيوطي ، ترتيب النبهاني ١٣٥٠هـ ، عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٠هـ .
- ١٤ - القاموس الفقهي - المستشار سعدي أبو جيب - دار الفكر - دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ١٥ - كشف الظنون ، كاتب جلبي حاجي خليفة ١٠٦٧هـ - طبعة إستانبول - ١٣٥١هـ .
- ١٦ - المجموع شرح المذهب ، للنووي ٦٧٦هـ - مطبعة العاصمة - القاهرة - بدون تاريخ .
- ١٧ - المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم ٤٠٥هـ - طبع حيدرآباد - الهند - ١٣٣٥هـ .
- ١٨ - مسند أحمد ، الإمام أحمد بن حنبل ٢٤٢هـ - تصوير المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- ١٩ - الموافقات في أصول الأحكام ، الشاطبي ٧٩٠هـ - مطبعة المدني ، نشر مكتبة صبيح - القاهرة - ١٩٧٠م .
- ٢٠ - نهاية السؤل شرح منهاج الأصول للبيضاوي ٦٨٥هـ ، جمال الدين الإسنوي ٧٧٢هـ ، تصوير عالم الكتب - بيروت ١٩٨٢م عن المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٥هـ .



السُّيُوطِيُّ والقَوَاعِدُ الفِقْهِيَّةُ

الحمد لله رب العالمين ، القائل في محكم التنزيل : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، المبعوث رحمة للعالمين ، معلم الناس الخير ، والداعي إلى التفقه بالدين بقوله : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفْقِهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، وَاللَّهُ يُعْطِي ، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»^(١).

وبعد : فقد كان السيوطي رحمه الله تعالى في مطلع القرن العاشر الهجري مالئ الدنيا ، وشاغل الناس ، بعد أن نضج فكره ، واكتمل عقله ، وشاع ذكره ، وانتشرت كتبه ، وطار اسمه في الآفاق ، فصار ملء السمع والبصر في محافل العلم والعلماء ، وفي أندية الدراسة والتعليم ، وفي ردهات المكاتب العلمية والمكتبات العامة والخاصة ، حتى توفاه الله تعالى سنة ٩١١ هـ ، فبقي ذكره خالداً ، وشهرته تفوح في مختلف العلوم الإسلامية ، والفنون العربية ، والدراسات الشرعية ، وبحوث التاريخ والتراجم ، ولا تزال مجالس العلم والعلماء ترشف من علومه ، وتعتمد

(١) رواه البخاري (٣٩/١) وهذا لفظه ، ومسلم (١٢٧/٧) والإمام أحمد عن معاوية ابن أبي سفيان ، ورواه الترمذي وأحمد عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة (فيض القدير ٢٤٢/٦).

على كتبه ومصنفاته ، وتناول مساهمته في الثقافة الإسلامية ، والحضارة العربية .

وبمناسبة مرور خمسة قرون على وفاة السيوطي ، فإن حياته العلمية تعرض على بساط البحث والدراسة ، ليتناولها الكتاب والعلماء والمفكرون والباحثون بالإكبار والتمحيص والإجلال ، لإحياء ذكرى الخالدين ، وتكوين باقة زهر تنشر شذاها رحمة على روحه ، والاعتراف بفضله ، وتجديد الصلة بعلومه وكتبه .

وأحصر مساهمتي في هذا الخصوص بأحد الأركان المهمة في حياة السيوطي الفقهية ، وأحد الجوانب الناصعة في القواعد الفقهية ، وعلى الخصوص كتاب السيوطي الشهير «الأشباه والنظائر» في قواعد وفروع فقه الشافعية» ، وذلك في تمهيد وقسمين وخاتمة .

- التمهيد: وفيه تعريف موجز بشخصية السيوطي عامة ، ومكانته الفقهية خاصة .

- القسم الأول: وفيه دراسة موضوعية وتاريخية عن القواعد الفقهية .

- القسم الثاني: وفيه دراسة تحليلية لكتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي .

- الخاتمة: في تلخيص نتائج البحث .

ونسأل الله التوفيق والعون والسداد .

تمهيد: عن حياة السيوطي ومكانته الفقهية :

نبذة مختصرة للتعريف بالسيوطي :

هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين ، الأسويطي ، الخضير ، الملقب بجلال الدين ، الشهير بالسيوطي ، العلامة ، الفقيه الشافعي ، الحافظ ، المؤرخ ، الأصولي ، النحوي ، المفسر ، الأديب ، صاحب المؤلفات النافعة الكثيرة .

ولد في القاهرة (سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م) ونشأ يتيماً ، مات والده وعمره خمس سنوات ، وحفظ القرآن وعمره ثماني سنوات ، ورزق التبحر في سبعة علوم ، وهي : التفسير والفقه ، والحديث والنحو ، والمعاني والبدیع والبيان ، ودرس أصول الفقه والفرائض ، والجدل والصرف ، والإنشاء والترسل ، والقراءات ، كما درس الطب والحساب .

سافر السيوطي في طلب العلم والاستزادة منه إلى الفيوم ودمياط والمحلة ، ومكة المكرمة ، وبلاد الشام واليمن ، والمغرب والتكرور ، حتى بلغ رتبة الاجتهاد ، وقال : «كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى» ، وأذن له عدد من شيوخه بالتدريس والإفتاء وإملاء الحديث ، وبدأ بالتصنيف والتأليف ، واختصر كثيراً من الكتب المهمة ، فنقحها وعدلها ، حتى بلغت مصنفاته ستمئة مصنف ، في التفسير والقراءات وعلم القرآن ، وفي الحديث والفقه ، والنحو والعربية ، والأصول والبيان ، والتصوف والتاريخ ، والتراجم والأدب ، ويفرد لها بحث خاص .

ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل في القاهرة ، وانزوى عن أصحابه ، وعن الحكام والأمراء ، وكانوا يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها ، وبقي كذلك حتى توفاه الله تعالى (سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م) .

وكان السيوطي آية في سرعة الجمع والتأليف ، وخلف المؤلفات الحافلة النافعة الجامعة المتقنة التي تداولها الناس في البلدان ، وتلقاها العلماء بالقبول ، واشتهرت في مختلف الأرجاء ، وعمّ النفع بها .

قال الشوكاني عنه : «برز في جميع الفنون ، وفاق الأقران ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وصنف الكتب المفيدة» إلى أن قال : «وتصانيفه في

كل فن من الفنون مقبولة ، وقد سارت في الأقطار مسيرة النهار»^(١) .
مكانة السيوطي الفقهية :

اتجه السيوطي رحمه الله تعالى إلى علم الفقه ، فدرسه على كبار علماء عصره ، وحفظ كتاب «عمدة الأحكام»^(٢) و«المنهاج» للنووي ، و«المنهاج» في أصول الفقه للبيضاوي ، وزاد في أخذ الفقه عن جماعة من الشيوخ ، ثم لازم شيخ الإسلام علم الدين البلقيني في الفقه حتى مات^(٣) (سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م) فلزم ولده ، وقرأ عليه عدة كتب في الفقه ، إلى أن أجازته بالتدريس والإفتاء سنة ست وسبعين وثمانمئة ، وبعد وفاته لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوي ، وأخذ الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي^(٤) .

وكان السيوطي يحب الفقه ، ويطمع أن يبلغ فيه مداه ، فيقول عن نفسه : «فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ» ثم يقول : «وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمر؛ منها أن أصل في

(١) البدر الطالع ١/٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وانظر: حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣٣٥ ، الضوء اللامع للسخاوي ٤/٦٥ ، الفتح المبين ٣/٦٥ ، شذرات الذهب لابن العماد ٨/٥١ ، معجم المطبوعات لسركيس ص ١٠٧٣ ، الأعلام للزركلي ٧١/٤ .

(٢) الغالب أنها «عمدة الأحكام» في الفروع للشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد ، موفق الدين بن قدامة الحنبلي المقدسي ، المتوفى سنة ٦٢٠هـ ، وهو مختصر في العبادات الخمس . (كشف الظنون ١/١٣١) .

(٣) هو شيخ الإسلام صالح بن عمر بن رُشلان البلقيني ، القاضي ، من علماء الحديث والفقه الشافعي وهو ابن شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني (٨٠٥هـ) ، وجمع فتاوى والده ، وتصدر للإفتاء والتدريس ، وولي قضاء الديار المصرية ، وتوفي وهو على القضاء (الأعلام ٣/٢٧٩) .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣٣٦ ، ٣٣٧ .

الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين»^(١).

ويقول السيوطي عن نفسه أيضاً: «ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة»^(٢).

ولكن السيوطي يعترف أنه حلق في معظم هذه العلوم ، وفاق فيها أقرانه وأشياخه ، ولكنه لم يبلغ نفس المرتبة في الفقه والفرائض ، فيقول: «والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليها ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلاً عما دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي أوسع نظراً ، وأطول باعاً» ثم يقول: «ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل . . ، ودونها الفرائض»^(٣).

مصنفات السيوطي في الفقه:

ومما يدل على المكانة الفقهية التي يتمتع بها السيوطي ، أنه اشتغل بالفقه مدة طويلة ، وعاش في أجوائه ، ومارس العمل فيه ، وصار له باع كبير فيه إفتاء وتدريساً واختصاراً لأشهر كتب الفقه وأهمها ، وأوسعها في المذهب الشافعي ثم صنف استقلالاً ، ولذلك نذكر أهم آثاره الفقهية .

١ - مختصر «الحاوي الكبير للماوردي» وتوجد منه نسخة كاملة في المغرب .

٢ - مختصر «الروضة للنووي» ويسمى «الفتية» .

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٨ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨ .

(٣) المرجع السابق .

٣ - مختصر «التنبية للشيرازي» ويسمى «الوافي» .

٤ - مختصر «الأحكام السلطانية للماوردي» .

٥ - الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون ، ويقول السيوطي في مقدمته : «وبعد فقد استخرت الله تعالى في جمع نبذ من مهمات الفتاوى التي أفتيت بها على كثرتها جداً ، مفتصراً على المهم والعويص ، وما في تدوينه نفع واجداء ، وتركت غالب الواضحات وبدأت بالفقهيات ، مرتبة على الأبواب»^(١) ، وجاءت الفتاوى الفقهية من ص ٥ حتى ص ٢٩٤ .

٦ - الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية ، وسوف نفرده بالبحث في القسم الثاني .

وإذا أراد القارئ الكريم معرفة الجهد الفقهي الذي بذله السيوطي ، فإننا نشير باختصار إلى الكتب الخمسة الأولى ، فالحاوي الكبير للماوردي من أهم كتب الفقه في المذهب الشافعي وأوسعها ولا يزال مخطوطاً حتى الآن ، ويقع في ٢٤ مجلداً كبيراً وروضة الطالبين للنووي من أهم الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي ، وطبعت في ١٢ مجلداً كبيراً ، والتنبية للشيرازي أشهر مختصر في الفقه ، بل هو الكتاب المدرسي الأساسي الذي يعول عليه الطلاب حتى القرن السابع الهجري ، ويتنافس في حفظه العلماء ، وله أكثر من سبعين شرحاً وتعليقاً ، والأحكام السلطانية للماوردي أشهر كتاب في الأنظمة الإسلامية ، وخاصة في نظام الحكم والخلافة والقضاء والحسبة والمظالم ، ومعظم العلماء عالة عليه في هذا الخصوص .

(١) الحاوي للفتاوي ٥/١ ، والكتاب طبع عدة مرات ، أحسنها طبعة إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ .

وهذا يدل على أن السيوطي رحمه الله خلق في علم الفقه دراسة وتدريساً ، وإفتاء وتصنيفاً ، وبحثاً واختصاراً واجتهاداً ، وسوف نرى نموذجاً عملياً لذلك ، وبرهاناً ساطعاً في دراسة كتابه الشهير «الأشباه والنظائر» .

السيوطي مجتهداً:

ومما يعزز مكانة السيوطي الفقهية أنه لم يقف في طلب الفقه ودراسته ومدارسته وتدريسه والتصنيف فيه عند حد معين ، بل قصد فيه الذروة ، وسعى إلى القمة ، وحرص للوصول إلى ينابيع الفقه ومعينه ، ليلبغ درجة الاجتهاد .

والاجتهاد لغة: عبارة عن بذل المجهود ، واستفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور التي فيها كلفة ومشقة ، وعرفه القاضي البيضاوي بأنه «استفراغ الجهد في دَرْك الأحكام الشرعية»^(١) .

والاجتهاد أعظم درجات الفقه في الدين ، والتفقه في الشرع ، والإحاطة بفهم النصوص ، والقدرة على الاستنباط منها ، وبذل الجهد في معرفة الأحكام الشرعية العلمية من أدلتها التفصيلية ، وله شروط معينة ، وصفات محددة ، ويعتمد على علوم متنوعة^(٢) .

والسيوطي توفرت فيه شروط الاجتهاد ، وكملت فيه صفاته ، وحصل العلوم المطلوبة فيه ، وخاصة العلوم الشرعية ، والعلوم العربية ، وعلوم الآلة ، حتى أدرك مناط البحث والاستنباط ، وعرف بنفسه ذلك ، فلم يتوار عن الأنظار ، ولم يبخس نفسه حقها ، وادعى رتبة الاجتهاد ، وأنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق ، وكسر القيد الوهمي الذي كان شائعاً في

(١) نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول ٥٢٤/٤ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتب أصول الفقه ، ومنها: نهاية السؤل ٥٤٧/٤ .

إغلاق باب الاجتهاد ، وطلب فتحه لمن توفرت فيه شروطه ، وأثبت أن الاجتهاد باق في الشرع ، وأنه موجود في كل زمان ومكان ، وأقام الحجة الشرعية على ذلك ، وقَدَّم الأدلة التاريخية ، والأمثلة العملية من كبار العلماء والفقهاء في مختلف المذاهب والأزمان ، وصنف كتاباً في الدعوة إلى الاجتهاد ، ووجوب إحيائه وممارسته ، والنعي على تركه أو التخلي عنه ، أو التواضع فيه ، وأشار إلى ذلك في عنوان الكتاب :

«الرد على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»^(١).

ولكن السيوطي اعترف أنه لم يخرج في اجتهاده عن أصول المذهب الشافعي ، فقال : «ولما بلغت درجة الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي ، وإن كان الراجح عندي خلافه ، ولما بلغت درجة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي ، كما كان القفال ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد ، يفتي بمذهب الشافعي ، لا باختياره»^(٢).

ويقول السيوطي أيضاً : «فقد بلغت والله الحمد والمنة - رتبة الاجتهاد المطلق في : الأحكام الشرعية ، وفي الحديث النبوي ، وفي العربية»^(٣).

وقد تفرد السيوطي بخمسة وثلاثين رأياً ، وكتب بذلك كتاباً ، سماه

(١) طبع الكتاب عدة مرات ، منها طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م بتقديم وتحقيق الشيخ خليل الميس ، ومنها طبعة مؤسسة شباب الجامعة ، بالإسكندرية سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥ .

«التحدث بنعمة الله» وختمه بهذه المسائل والآراء التي أثبت فيها اختياراته^(١).

ولكن العلماء لم يسلموا له هذه الدعوى ، لأنه لم يبتكر أصولاً للاجتهاد ، وقواعد للاستنباط ، ليعتمد عليها في اجتهاده ، دون أن يقلد غيره ، كما هو شأن المجتهد المطلق ، وهذا يحتاج لمزيد بحث ، ويخصص له مقال مستقل .

ويكفي أن نكرر عبارته ، متحدثاً فيها عن فضل الله ونعمته عليه ، فيقول : «وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى ، لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب أطيب العمر ! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ، ولا بقوتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله»^(٢).

وهذا كلام صريح أنه بلغ رتبة الاجتهاد عندما تقدم في السن ، ولذلك لم يمارس الاجتهاد بتوسع كبقية الأئمة ، ونازعه غيره في هذه الدعوى .

القسم الأول : دراسة تاريخية وموضوعية للقواعد الفقهية :

تمثل القواعد الفقهية مرحلة متطورة ومتقدمة في تاريخ الفقه الإسلامي ونموه وتدرجه وتدوينه ، وهذا يقتضي منا أن نعرض على تعريف الفقه وأهميته وسيرته التاريخية .

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٩ .

تعريف الفقه وأهميته:

الفقه لغة: الفهم^(١) ، واصطلاحاً: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية^(٢).

والفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية ، وهو من أكثر العلوم شهرة ومعرفة واتساعاً وصلة بالحياة ، وتطبيقاً عملياً بين الناس ؛ لأنه يبين حكم الله تعالى فيما يخص الفرد والمجتمع ، وينظم التعامل بينهم ، وهو الطريق لمعرفة الحلال والحرام ، ورسم المنهج القويم للإنسان في جميع المجالات للالتزام به ، والتقيد فيه ، والسير على منواله .

ويبين لنا السيوطي أهمية الفقه في الحياة ، وحاجة الأمة إليه ، وفضله بين العلوم ، فيقول: «فعلم الفقه بحوره زاخرة ، ورياضه ناضرة ، ونجومه زاهرة ، وأصوله ثابتة مقررة ، وفروعه ثابتة محررة ، لا يفنى بكثرة الإنفاق كنزه ، ولا يبلى على طول الزمان عزّه ، أهله قوام الدين وقوامه ، وبهم ائتلافه وانتظامه ، هم ورثة الأنبياء ، وبهم يستضاء في الداهم ، ويستغاث في الشدة والرخاء ، ويهتدى كنجوم السماء ، وإليهم المفزع في الآخرة والدنيا ، والمرجع في التدريس والفتيا»^(٣).

فالفقه يبين للناس أحكام الله تعالى في كل ما يصدر منهم ، ويقع بينهم ، ويغطي كل ما يجد من أحوال ، وخاصة أن الحياة في تطور مستمر ، وأحداث متجددة ، ولذلك يتوجب على الفقهاء والعلماء - في كل وقت وعصر ومكان - أن يبينوا حكم الله تعالى للناس ، ليعرفوا الحلال والجائز والمشروع فيلتزموا به ، ويسعوا بتحقيقه ، وقيموا العدل في

(١) المصباح المنير ٦٥٦/١ ، القاموس المحيط ٢٨٩/٤ مادة فقه .

(٢) وهو تعريف أصحاب الشافعي ، انظر: نهاية السؤل ٢٢/١ ، أصول الفقه الإسلامي ، لنا ص ٩ .

(٣) . الأشباه والنظائر ص ٣ .

تطبيقه ، فيحصل رضا الله تعالى بذلك ، ويعطي الفاعل الأجر والثواب ، ويمنحه التوفيق والسداد ، كما يعرف المسلمون في الفقه الحرام والممنوع ليجتنبوه ، ويجتثوا فسادهم ، ويتبرؤوا من ضرره ، وينجوا من إثمهم وعقابه ، وعندئذ يهتدون إلى الصراط المستقيم .

نظرة في تاريخ الفقه :

بدأ الفقه - أي معرفة الحلال والحرام - منذ عصر النبوة والوحي ، وكان القرآن الكريم ينزل من السماء لبيان الأحكام الشرعية للبشرية ، وكان رسول الله ﷺ يبلغ هذه الأحكام للناس ، ويبين لهم كيفية تطبيقها وتنفيذها ، ويشرح لهم تفاصيلها ، ويحدد لهم شروطها ، ويرسم الطريق القويم لسلوكها ، سواء كان ذلك بالسنة القولية ، أم السنة العملية ، أم بإقراره لأقوال الصحابة وأفعالهم التي تتفق مع دين الله وشرعه .

وكان الصحابة يرجعون إلى رسول الله ﷺ للتعلم أولاً ، والاستفتاء عن كل ما نزل بهم ثانياً ، وفصل المنازعات بينهم بالحق والعدل وحكم الله تعالى ثالثاً ، بل كانوا يتنافسون في هذا الأمر ، ويتسارعون إليه سماعاً وتطبيقاً .

وجاءت الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة الشريفة إما بطريقة إجمالية ، عامة ، كلية ، شاملة ، وإما بطريقة تفصيلية ، جزئية ، فرعية .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ قام فقهاء الصحابة بواجبهم خير قيام ، معتمدين على الأحكام الشرعية التي تلقوها من رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة ، ومستفيدين من التجربة الحية التي شاهدوها أثناء التنزيل ، والملكة الناصعة التي اكتسبوا من مدرسة النبوة ، ومعرفة حكمة التشريع وإدراك مقاصد الشريعة .

وانتقلت هذه المهمة الجليلة إلى كبار التابعين وفقهاء المدينة السبعة ، وفقهاء الأمصار في البلاد الإسلامية المترامية الأطراف ، وأضاف فقهاء

التابعين اجتهاداتهم الخاصة ، وآراءهم في المسائل الجديدة على ضوء الكتاب والسنة واجتهاد الصحابة .

وفي القرن الثاني الهجري لمع في الفقه عدد من الفقهاء الذين استفادوا من جهد السابقين ، وحددوا لأنفسهم مناهج واضحة في الاجتهاد والاستنباط لمعرفة الحكم الشرعي ، والتف حولهم الطلاب ، ورجع إليهم الناس والحكام ، فقلدوا آراءهم ، ودونوا مذاهبهم ، وأهمهم ثلاثة عشر مجتهداً في مكة والمدينة ، والبصرة والكوفة ، والشام ومصر ، وبغداد ونيسابور ، وظهر بعدهم مباشرة المذاهب الفقهية التي نسبت إلى أئمة وفقهاء ، انقرض كثير منها ، وبقي بعضها ، وهي المذاهب المعروفة في العالم الإسلامي اليوم .

واعتمدت هذه الحركة الفقهية على استنباط الأحكام الفقهية من المصادر الشرعية ، لاستخراج حكم المسائل والقضايا ؛ لاعتقاد الفقهاء أن لكل قضية أو أمر من أمور الدنيا حكماً لله تعالى ، وأنهم المكلفون ببيان هذه الأحكام ، فإن طرأت حادثة أو وقع نزاع ، أو استجد بحث رجع الناس والحكام إلى العلماء والمجتهدين لمعرفة حكم الله تعالى في ذلك .

وتكوّن من عملهم مجموعة ضخمة من الأحكام الشرعية والفروع الفقهية ، وقاموا بواجبهم خير قيام في مسيرة التطور ، ومواكبة الفتوح ، ورسم المنهج الإلهي في حياة الفرد والمجتمع والدولة ، لتبقى مستظلة بالأحكام الشرعية في كل صغيرة وكبيرة .

وبقي المحور الأساسي للاجتهاد والفقه معرفة الحكم الشرعي في الفروع والجزئيات ، وضمها إلى بعضها ، وتصنيفها حسب الأبواب الفقهية المعروفة ، بدءاً من كتاب الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، إلى المعاملات في العقود والشركات ، إلى أحكام الأسرة في

الزواج والطلاق والوصية والفرائض ، إلى أحكام الجهاد والسّير والمعاهدات ، ثم أحكام القضاء والدعوى والبيّنات والإقرار والشهادات والأيمان ، وهذا هو الإطار الأساسي للفقه في مختلف المذاهب .

وظهر خلال القرن الثاني الهجري عوامل جديدة ، وطرق مختلفة ، وتطورات ملموسة في الاجتهاد ، ومنها ظهور الفقه الافتراضي ، وظهور أئمة المذاهب الذين دونوا أحكامهم ، وتميزت اجتهاداتهم ، وتحددت قواعدهم وأصولهم في الاستنباط والاجتهاد في ثنايا الأحكام الفقهية التكاليفية للتعليل والتدليل ، واستقل كل مذهب بمنهج معين ومستقل في بيان الأحكام ، وبرزت للوجود قواعد علم أصول الفقه ، وهي قواعد للاستنباط والاجتهاد يعتمد عليها المجتهد في معرفة الأحكام الشرعية من مصادرها الصحيحة المقبولة .

وفي القرن الرابع الهجري : ظهرت نواة لقواعد جديدة ، وبرز للوجود تطور جديد في تدوين الأحكام الشرعية ، وجمعها ، وضبطها ، وحصرها ، وذلك باستخلاص القواعد العامة لمجموعة من الفروع الفقهية التي تتشابه في أسبابها ، وشروطها ، وأحكامها ، ويجمعها ضابط عام ، فوجدت القواعد الفقهية ، أو قواعد الأحكام ، وهي القواعد التي صاغها العلماء ، وخاصة أتباع الأئمة ومجتهدي المذاهب لجمع الأحكام المتماثلة ، والمسائل المتناظرة ، وبيان أوجه الشبه بينها ، ثم ربطها في عقد منظوم ، يجمع شتاتها ، ويؤلف بين أجزائها ، ويقيم صلة القربى في أطرافها ، لتصبح عائلة واحدة ، وأسرة متضامنة ، وهي القواعد الكلية في الفقه الإسلامي .

يحدثنا العلامة القرافي عن وجود هذه القواعد ، فيقول : «إن الشريعة المحمدية اشتملت على أصول وفروع ، وأصولها قسمان : أحدهما : المسمى بأصول الفقه ، وهي في غالب أمره ليس فيها إلا قواعد الأحكام

الناشئة من الألفاظ العربية ، وما يعرض لتلك الألفاظ من النسخ والترجيح ، ونحو الأمر للوجوب ، والنهي للتحريم ، والقسم الثاني : قواعد كلية جلية ، كثيرة العدد ، عظيمة المدد ، مشتملة على أسرار الشرع وحكمه ، لكل قاعدة من الفروع في الشريعة ما لا يحصى ، ولم يذكر منها شيء في أصول الفقه ، وإن كان يشار إليها هناك على سبيل الإجمال ، ويبقى تفصيله لم يحصل^(١) .

وفي القرن السابع الهجري وما بعده بدأ كبار العلماء يولون القواعد الفقهية أهمية في التصنيف ، ويتنافسون في التأليف ، وكانت معظم كتب القواعد تضبط الأحكام الفقهية حسب المذهب الواحد ، وإن كانت في غالبها متشابهة بين المذاهب ، وتختلف الفروع والجزئيات التي تدخل فيها ، وتنوعت العناوين التي تحمل هذا المضمون ، مثل «قواعد الأحكام» و«القواعد الفقهية» و«الأشباه والنظائر» و«الفروق» و«القواعد الكلية في الفقه» كما سنرى .

وقارن ذلك ظهور كتب «التعريفات» و«الحدود الفقهية» لبيان المراد من الاصطلاحات الفقهية ، كما قارن ذلك بهدوء واستحياء ظهور النظريات الفقهية ، التي أخذت مداها الواسع في عصر النهضة الحديثة منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري ، وظهر كثير من النظريات الفقهية ، كنظرية العقد ، ونظرية الضرورة ، ونظرية الضمان ، ونظرية الدعوى ، ونظرية الإثبات الشرعي ، ونظرية الحق ، ونظرية الملكية ، ونظرية التعسف في استعمال الحق ، ونظرية التكافل الاجتماعي .

وتوجه التطور الفقهي في القرنين الأخيرين إلى إصدار بعض التشريعات والقوانين والأنظمة المستمدة من الفقه الإسلامي ، لتطبيقها

(١) الفروق ٢/١ ، وانظر: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي ، شلبي ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

في الحياة ، والتزام الدول والأفراد بها .

تعريف القواعد الفقهية :

القواعد: جمع قاعدة ، والقاعدة في اللغة هي الأساس ، ومنه قواعد البناء وأساسه^(١) ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

والقاعدة في الاصطلاح بمعنى الضابط ، وهي «الأمر الكلي المنطبق على معظم جزئياته»^(٢) ، فالقاعدة قضية كلية يدخل تحتها جزئيات كثيرة ، ويحيط بها كثير من المسائل من الأبواب المتفرقة .

والقاعدة إما أن تنطبق على جميع الفروع التي تدخل تحتها ، كما سبق فيما مضى ، وإما أن تشمل غالب الجزئيات أو أكثرها ، ويخرج عنها بعض الفروع والجزئيات التي تطبق عليها قاعدة أخرى ، ولذلك عرفها الحموي في «حاشيته على الأشباه والنظائر» بأنها «حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته»^(٣) .

وقدما التعريف الأول الذي يفيد انطباق القاعدة على جميع الجزئيات ، لأن الأصل فيها أن تكون كذلك ، وأن خروج بعض الفروع عنها لا يضر ولا يؤثر ، وتكون استثناء من القاعدة ، لأن كل قاعدة أو مبدأ أو أصل له استثناء ، وهذا الاستثناء لا يغير من حقيقة الأصل أو المبدأ ،

(١) المصباح المنير ٢/ ٧٠٠ ، المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٩ ، تهذيب اللغات ٩٨/٢ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٧٧ ، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون ٥/ ١١٧٦ ، المصباح المنير ٢/ ٧٠٠ ، مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي ١/ ٦٤ ، وأضاف «لتعرف أحكامها منه ، لذلك عمت فائدتها ، وطال في البحث لسان شاملها .

(٣) غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر ١/ ٢٢ .

ولا يقدح في القاعدة ، ولذلك صرحت مجلة الأحكام العدلية بهذا فقالت في المادة الأولى منها: «ثم إن بعض هذه القواعد ، وإن كان بحيث إذ انفرد يوجد من مشتملاته بعض المستثنيات ، لكن لا تختل كليتها وعمومها من حيث المجموع ، لما أن بعضها يخصص ويقيد بعضاً»^(١).

وكل من التعريفين السابقين ينطبق على تعريف القاعدة بمدلولها العام ، وتشمل مختلف العلوم ، ثم خصها بعض الفقهاء لتعريف القاعدة الفقهية ، لذلك يسن تقييد التعريف بالقاعدة الفقهية ، فيكون «حكم أغلبي ينطبق على الجزئيات الفقهية مباشرة» إضافة كلمة «الفقهية» لإخراج القاعدة النحوية وغيرها ، وحصر التعريف بالأحكام الفقهية ، وإضافة كلمة «مباشرة» لإخراج القاعدة الأصولية فإنها تدل على الحكم الفقهي بواسطة ، وبطريق غير مباشر كما سنرى^(٢).

ولكي تتميز القاعدة الفقهية عن غيرها من المصطلحات القريبة منها ، نبين الفرق بينها وبين الضابط ، أو القاعدة الأصولية ، أو النظرية ، ثم نبين الصلة بين القاعدة الفقهية وبين الأشباه والنظائر ، أو الفروق الفقهية.

الفرق بين القاعدة والضابط :

تشارك القاعدة مع الضابط بأن كلاهما يندرج تحته أحكام فقهية ، ويستعمل في كتب الفقه ، ولذلك يميز العلماء بين القاعدة والضابط بأن القاعدة تحيط بالفروع والمسائل من أبواب فقهية مختلفة ، مثل قاعدة «الأمور بمقاصدها» فإنها تطبق على أبواب العبادات والجنايات والعقود والجهاد وغيرها من أبواب الفقه ، ومثل قاعدة «اليقين لا يزول بالشك» فإنها تدخل في عدة أبواب كالطهارة ، والعبادات ، والنكاح ، والطلاق.

(١) مرآة المجلة ، يوصف أصاف ٧/١.

(٢) انظر : القواعد ، للمقري ١٠٧/١.

أما الضابط فإنه يجمع الفروع والمسائل في باب واحد من الفقه ، مثل : « لا تصوم المرأة تطوعاً إلا بإذن الزوج ، أو إذا كان مسافراً »^(١) فإنه يشمل عدة أحكام في كتاب الصيام ، ومثل « كل ماء مطلق لم يتغير فهو طهور » فهو يشمل أنواع المياه في كتاب الطهارة .

وهذا ما وضعه السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه « الأشباه والنظائر في النحو » إذ يقول : « مما اشتمل عليه الكتاب في الضوابط والاستثناءات والتقسيمات ، وهو مرتب على الأبواب ، لاختصاص كل ضابط ببابه ، وهذا هو أحد الفروق بين الضابط والقاعدة ، لأن القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى ، والضابط يجمع فروع باب واحد »^(٢) .

وهو ما أكدّه ابن نجيم في الفرق بين القاعدة والضابط ، فقال : « الفرق بين الضابط والقاعدة : أن القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى ، والضابط يجمعها من باب واحد ، هذا هو الأصل »^(٣) .

وهذا الفرق بين القاعدة والضابط ليس مطرداً لدى كثير من المؤلفين في القواعد الفقهية والضوابط والأشباه والنظائر ، فقد يطلق بعضهم القاعدة على ما جمعه من أحكام من باب واحد ، وقد يطلق بعضهم على الضابط مصطلح « القواعد الخاصة »^(٤) .

ومن جهة أخرى فإن العموم والشمول والاتساع في القواعد متفاوت

(١) انظر : الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ص ١٧٣ ، المدخل لدراسة التشريع الإسلامي ٢٩٩/١ .

(٢) الأشباه والنظائر في النحو ٧/١ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ١٦٦ ، وهو ما بينه أبو البقاء الكفوي في (كلياته ٤٨/٤) فقال : « القاعدة هي الأساس والأصل لما فوقها ، وهي تجمع فروعاً من أبواب شتى ، والضابط يجمع فروعاً من باب واحد » .

(٤) القواعد الفقهية ، للندوي ص ٥٠ ، وانظر القواعد ، للمقري ١٠٩/١ .

من قاعدة إلى أخرى ، بحكم دخولها في أبواب متعددة ، فمنها ما يدخل في معظم أبواب الفقه ، كقاعدة «الأمر بمقاصدها» كما سنرى ، فإنها تدخل في سبعين باباً ، ومنها ما هو أقل شمولاً من ذلك ، مثل قاعدة «الدفع أقوى من الرفع» فإن فروعها تشمل بعض مسائل الطهارة والحج والنكاح^(١).

الفرق بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية:

رأينا أن العلماء وضعوا قواعد أصولية للاستنباط والاجتهاد لمعرفة الأحكام الفقهية ، وكان تدوينها مبكراً وسابقاً على القواعد الفقهية ، وأول من دوّن القواعد الأصولية وجمعها في كتاب مستقل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه «الرسالة» كما وضع الأئمة قواعد فقهية لكثير من الأحكام المتشابهة ، والمسائل المتناظرة ، وكانت مبعثرة في الكتب والأبواب الفقهية ، وتأخر تدوينها وجمعها بشكل مستقل ، وصرح القرافي بالنوعين السابقين ، وميز بينهما ، لكنه جمع في كتابه «الفروق» بين القواعد الأصولية والقواعد الفقهية ، وكذلك فعل أحياناً السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر» وابن نجيم الحنفي في كتابه «الأشباه والنظائر» وهو ما سار عليه ابن اللحام الحنبلي في كتابه «القواعد والفوائد الأصولية» ، والعلامة العلائي في «قواعده» وسبق إلى ذلك أيضاً أبو زيد الدبوسي الحنفي في كتابه «تأسس النظر» وغيرهم كثير^(٢).

ومن هنا تشبه القواعد الفقهية بالقواعد الأصولية ، وقد يلتبس الأمران على الباحث غير المتخصص ، لذلك نعرف القواعد الأصولية ، ونبين أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما.

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٩ ، ١٣٨ .

(٢) انظر: القواعد ، المقري ١/ ١٤٢ .

فالقاعدة الأصولية هي: الأمر الكلي الذي يوصل البحث فيه إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، وتسمى في أصول الفقه بالدلائل الإجمالية ، مثل قاعدة «الأمر للوجوب» فإنها قضية كلية يدخل تحتها عدد لا يحصى من الجزئيات ، كقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقوله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] ، إلى غير ذلك من صيغ الأمر التي يتوصل بها المجتهد إلى استخراج الأحكام الشرعية بواسطة هذه القواعد ، ويستدل بها على اجتهاده ، ومثل قاعدة «النهي يقتضي التحريم» و«الأمر بالشيء نهى عن أضداده» و«السنة مبينة للقرآن» و«الإجماع حجة» و«شرع من قبلنا شرع لنا إذا ورد في شريعتنا ما يؤيده» وغير ذلك^(١).

وأوجه الشبه والاتفاق بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية يظهر في أمرين:

- ١ - إن كلاً منهما قواعد كلية تندرج تحتها قضايا جزئية متعددة .
 - ٢ - إن الهدف الأخير ، والغاية الرئيسة لكل منهما ، يتعلق بالأحكام الشرعية العملية ، ومعرفة حكم الله تعالى في الحلال والحرام .
- وأما أوجه الاختلاف بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية فكثيرة ، أهمها:

- ١ - إن القواعد الأصولية ناشئة في أغلبها من الألفاظ العربية ، والقواعد الفقهية ، والنصوص العربية ، كما صرح به القرافي سابقاً^(٢) ، أما القواعد الفقهية فناشئة من الأحكام الشرعية ، والمسائل الفقهية .

(١) انظر كتابنا: أصول الفقه الإسلامي ص ١٣ ، ١٦ .

(٢) الفروق ٢/١ .

٢ - إن القواعد الأصولية خاصة بالمجتهد ، ويستعملها عند استنباط الأحكام الفقهية ، ومعرفة حكم الوقائع والمسائل المستجدة من المصادر الشرعية ، أما القواعد الفقهية فإنها خاصة بالفقيه أو المتعلم ، أو المفتي الذي يرجع إليها لمعرفة الحكم الموجود للفروع والجزئيات ، ويعتمد عليها بدلاً من الرجوع إلى الأبواب الفقهية الواسعة والمتفرعة ، مثل قاعدة: «العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني» وقاعدة «الغرم بالغنم» وقاعدة «الخارج بالضمان» وقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» ، لذلك تعتبر القواعد الفقهية جزءاً من دراسة الفقه .

٣ - تتصف القواعد الأصولية بالعموم والشمول لجميع فروعها ، كما تتصف بالثبات ، فلا تتبدل ولا تتغير ، مثل قاعدة «الأمر للوجوب» وقاعدة «النهي للتحريم» وقاعدة «المطلق يبقى على إطلاقه حتى يرد ما يقيده» وهكذا . . .

أما القواعد الفقهية فإنها - وإن كانت عامة وشاملة - تكثر فيها الاستثناءات ، وهي قواعد أغلبية ، يكون الحكم فيها على أغلب الجزئيات ، ويكون لها مستثنيات ، وهذه الاستثناءات قد تشكل قاعدة مستقلة ، أو قاعدة فرعية ، كما سنرى في القسم الثاني ، وهذا ما حدا بكثير من العلماء لاعتبار القواعد الفقهية قواعد أغلبية ، وأنه لا يجوز الفتوى بمقتضاها .

كما أن بعض القواعد الفقهية ليست ثابتة ، وإنما تتغير لتغير الأحكام المبنية على العرف وسد الذرائع والمصلحة وتغير الأحوال والأزمان ، أما القواعد الأصولية فإنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

٤ - إن القواعد الأصولية يستخرج منها الحكم الفقهي بصورة غير مباشرة ، مثل «الأمر يفيد الوجوب» فهذا يدل على وجوب الصلاة بواسطة الدليل ، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] .

أما القاعدة الفقهية فإنها تدل على الحكم الفقهي مباشرة ، وبلا واسطة ، فقاعدة «الأمر بمقاصدها» تفيد وجوب النية في الصلاة وبقية العبادات مباشرة .

٥ - إن القواعد الأصولية تسبق من الناحية الذهنية والواقعية على الفروع الفقهية والجزئيات التي ستؤخذ منها ، وتستنبط منها ، كقاعدة «تقديم القرآن على السنة» الواردة في حديث معاذ رضي الله عنه ، وقاعدة «لا اجتهاد في مورد النص» التي دل عليها الحديث السابق أيضاً ، ولذلك تكون القاعدة الأصولية ميزاناً وضابطاً للاستنباط الصحيح ، مثل قواعد النحو لضبط النطق والكتابة ، ولا يضير ذلك تأخر تدوين علم أصول الفقه ، مما لا مجال لعرضه هنا ، ولذلك وضع الإمام الشافعي كتابه في أصول الفقه «الرسالة» مقدمة لكتابه في الفقه «الأم» ليسير على مبادئ أصول الفقه ، ويلتزم بقواعده في الاجتهاد والاستنباط .

أما القواعد الفقهية فإنها متأخرة في الوجود الذهني والواقعي عن الفروع الفقهية ، والمسائل الجزئية ، لأن القاعدة الفقهية جاءت لجمع شتات الفروع ، والربط بينها ، وجمع معانيها ، وهو ما حصل فعلاً من الناحية التاريخية لوجود القواعد الفقهية .

٦ - وأخيراً فإن الشيخ الطاهر بن عاشور يرى فرقاً آخر ، وهو «أن معظم مسائل أصول الفقه لا ترجع مباشرة إلى خدمة حكمة الشريعة ومقاصدها ، ولكنها تدور حول محور استنباط الأحكام من ألفاظ الشارع بواسطة قواعد يتمكن بها العارف بها من انتزاع الفروع منها ، أما القواعد الفقهية فإنها تخدم المقاصد الشرعية العامة والخاصة ، وتمهد الطريق للوصول إلى أسرار الأحكام وحكمها»^(١) .

(١) المدخل لدراسة التشريع الإسلامي (١/٢٩٤) ، تخريج الفروع =

وهذه الفوارق بين القواعد الأصولية والقواعد الفقهية لا تمنع وجود قواعد مشتركة بينهما ، أو قواعد متداخلة بين القسمين ، وقد يميز بينهما باختلاف النظر إلى القاعدة ، فقاعدة «سد الذرائع» وبعض قواعد العرف إذا نظر إليها باعتبارها دليلاً شرعياً ، ومبدأً عاماً كانت قاعدة أصولية ، وإذا نظرنا إليها باعتبار كونها فعلاً للمكلف كانت قاعدة فقهية ، ولذلك رأينا كثيراً من القواعد الفقهية في كتب أصول الفقه ، ورأينا كثيراً من القواعد الأصولية في كتب القواعد الفقهية^(١).

فمن ذلك قال ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه «القواعد» الفقهية : القاعدة التاسعة عشر بعد المئة : «إذا وجدنا لفظاً عاماً قد خص بعض أفراد به حكم موافق للأول أو مخالف له ، فهل يقضي بخروج الخاص من العام ، وانفراده بحكم المختص به ، أو يقضي بدخوله فيه فيتعارضان مع اختلاف الحكم؟» والقاعدة ١٢١ «في تخصيص العموم بالعرف» والقاعدة ١٢٢ «يخص العموم بالعادة على المنصوص» والقاعدة ١٢٣ «يخص العموم بالشرع أيضاً على الصحيح» والقاعدة ١٢٤ «هل نخص اللفظ العام بسببه الخاص إذا كان السبب هو المقتضي له» ، والقاعدة ١٢٥ «النية تعم الخاص ، وتخصص العام بغير خلاف ، وهل تقيد المطلق أو تكون استثناء من النص؟» وغير ذلك من القواعد الأصولية التي وردت في كتب القواعد الفقهية ، وأشرنا سابقاً إلى هذا الربط والجمع بين النوعين في التأليف والتصنيف والجمع .

= على الأصول ، مقدمة مذكور ص (٣٥) .

(١) انظر : القواعد الفقهية ، الندوي ص ٥٨ ، المنشور في القواعد ٣٢/١ ، القواعد ، المقري ١٠٧/١ ، أصول الفقه ، أبو زهرة ص ٩ ، إيضاح المسالك ، مقدمة التحقيق ص ١١٤ .

القواعد الفقهية والنظريات الفقهية:

قلنا: إن الفقه الإسلامي بدأ بالفروع والجزئيات ، ثم انتقل إلى التعيد بإقامة الضوابط الفقهية والقواعد الكلية ، وكانت هذه القواعد والضوابط مرحلة ممهدة لجمع القواعد المتشابهة ، والمبادئ العامة لإقامة نظرية عامة في جانب من الجوانب الأساسية ، في الفقه ، ولكن الظروف التي مرت بالأمة الإسلامية ، وأحاطت بالاجتهاد والمجتهدين ، والعلماء أوقفت العمل عند مرحلة القواعد ، إلى أن ظهرت منذ قرن النهضة الفقهية والدراسات المقارنة ، وشرع العلماء في صياغة النظريات الأساسية في الفقه الإسلامي^(١) مثل نظرية العقد ، أو النظرية العامة للعقود والموجبات ، ونظرية الأهلية ونظرية الدعوى ، ونظرية الفساد ، ونظرية البطلان ، ونظرية الشروط المقترنة بالعقد ، ونظرية العقد الموقوف ، وقد يطلق بعض العلماء المعاصرين على ذلك اسم «نظام» مثل نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الجهاد ، وغيره مما يتيح للباحث أو الدارس أن يحصل على منهج الإسلام العام ، وآراء الفقهاء أو المذاهب الفقهية ، في كل جانب من جوانب التشريع الأساسي في الإسلام ، وهو ما اتجه إليه كثير من المصنفين والدارسين في أطروحة الدكتوراه .

يقول الأستاذ الزرقا: «ومعنى هذه النظريات تلك الدساتير والمفاهيم الكبرى التي يؤلف كل منها على حدة نظاماً حقوقياً منبثقاً في الفقه الإسلامي ، وتحكم عناصر ذلك النظام في كل ما يتصل بموضوعه شعب الأحكام ، وذلك كفكرة الملكية وأسبابها ، وفكرة العقد وقواعده ونتائجه ، وفكرة الأهلية وأنواعها ومراحلها وعوارضها ، وفكرة النيابة

(١) يرى أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة أن النظريات العامة للفقه مرادفة للقواعد الفقهية (أصول الفقه ، له ص ١٠) ولم يوافق أحد على ذلك .

وأقسامها ، وفكرة البطلان والفساد والتوقف ، وفكرة الضمان وأسبابه وأنواعه»^(١).

ويعرف الأستاذ الدكتور فتحي الدريني النظرية العامة فقهاً فيقول: «هي مفهوم كلي ، قوامه أركان وشرائط وأحكام عامة ، يتصل بموضوع عام معين ، بحيث يتكون من كل أولئك نظام تشريعي ملزم ، يشمل بأحكامه كل ما يتحقق فيه مناط موضوعه»^(٢).

ويظهر مما سبق أن النظرية الفقهية والقاعدة الفقهية مفهوم كلي ، أو حكم كلي عام ، وأن كلاً منهما يشمل أحكاماً جزئية كثيرة ، ويغطي عدداً من الفروع الفقهية.

ولكن يختلفان من عدة جوانب ، أهمها:

١ - تتضمن القاعدة الفقهية في ذاتها حكماً فقهاً معيناً ، وينتقل هذا الحكم الفقهي إلى الفروع والجزئيات المندرجة تحت القاعدة ، مثل قاعدة «الضرر يزال» فإنها تتضمن حكماً فقهاً وهو وجوب رفع الضرر في كل حالة أو مسألة أو قضية تحدث ضرراً وإيذاء يمتنع الشرع ، ومثل ذلك قاعدة «اليقين لا يزول بالشك» في كل حالة اجتمع فيه يقين وشك ، ومثل قاعدة «الأمر بمقاصدها» وغير ذلك.

أما النظرية الفقهية فلا تتضمن حكماً فقهاً ، مثل نظرية العقد الموقوف ، ونظرية الضرورة الشرعية ، ونظرية البطلان ، ونظرية النيابة ، ونظرية الالتزام وغيرها.

٢ - تقوم النظرية الفقهية على أركان وشرائط وأحكام عامة ، مثل نظرية الظروف الطارئة ، ونظرية المسؤولية التقصيرية ، ونظرية الباعث ،

(١) المدخل الفقهي العام ١/ ٢٣٥.

(٢) النظريات الفقهية ص ١٤٠.

أما القاعدة الفقهية فلا تشتمل على أركان وشرائط وإنما تنضوي على حكم عام يشمل الفروع والجزئيات والقضايا التي تدخل تحتها ، كما سبق .

والنتيجة أن النظرية أعم وأشمل وأوسع من القاعدة الفقهية ، وأن كثيراً من النظريات الفقهية يندرج تحتها عدد من القواعد الفقهية ، مثل نظرية العقد التي يدخل فيها جميع القواعد الفقهية المتعلقة بالعقد ، ونظرية العرف التي يدخل تحتها جميع القواعد الفقهية التي تتعلق بالعرف والعادة^(١) ، وأن القواعد واسطة بين الفروع والأصول ، أو هي واسطة بين الأحكام والنظريات^(٢) .

القواعد الفقهية والفروق الفقهية :

بحث بعض العلماء قواعد الفقه الكلية تحت عنوان «الفروق» وهذا يقتضي بيان العلاقة بين الاصطلاحين .

والفرق لغة خلاف الجمع ، وفي الاصطلاح الفقهي عرفه السيوطي بقوله : «هو الفن الذي يذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويراً ومعنى ، المختلفة حكماً وعلّة»^(٣) ، وعند الأصوليين وأهل النظر «هو أن يفرق المعترض بين الأصل والفرع بإبداء ما يختص بإحدهما لئلا يصح القياس»^(٤) .

ونشأ فن الفروق مع ظهور علم الفقه ، وصار وسيلة للتمييز بين الفروع

(١) انظر: القواعد الفقهية ، الندوي ص ٥٥ ، القواعد للمقري ، المقدمة ١/ ١٠٩ ، النظريات الفقهية ص ١٤٠ ، النظريات والقواعد في الفقه الإسلامي ، مقالة مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان ، العدد ٢ ص ٥٢ .

(٢) انظر: مقالات الكوثري ص ١١٨ .

(٣) الأشباه والنظائر ، للسيوطي ص ٧ .

(٤) كشف اصطلاحات الفنون ٥/ ١١٢٩ .

الفقهية المتشابهة صورة ، المختلفة حكماً ودليلاً ، لمدرک خاص يقتضي ذلك التفريق .

واعتنى الفقهاء بالفروق الفقهية منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، وجنحوا للتأليف فيه ، وكان له أسبقية التدوين عن القواعد الفقهية ، لوجود مسائل عديدة تتشابه في صورها ، وتختلف في أحكامها وعللها ، مما شكل ظاهرة بارزة تحتاج إلى حل وبيان ، وكانت أحد أسباب الاختلاف بين الأئمة المجتهدين في ملاحظة الفروق الدقيقة ، والمعاني المؤثرة التي أدت إلى الحكم الذي وصل إليه المجتهد .

يقول الشيخ أبو محمد الجويني في مقدمة كتابه «الفروق» : «فإن مسائل الشرع ربما تتشابه صورها ، وتختلف أحكامها ، لعلل أوجبت اختلاف الأحكام ، ولا يستغني أهل التحقيق عن الاطلاع على تلك العلل التي أوجبت افتراق ما افترق منها ، واجتماع ما اجتمع منها ، فجمعنا في هذا الكتاب . . . مسائل وفروقات بعضها أغمض من بعض»^(١) ، كالفرق بين الشهادة والرواية ، والقضاء والفتوى ، والماء والتراب في التطهير ، والمسلم والذمي . . . إلى غير ذلك من الأمور التي تشترك مع غيرها في جانب أو حكم ، وتختلف عنه في جانب آخر ، يقتضي حكماً مخالفاً .

ويظهر مما سبق أن علم الفروق ، أو الفروق الفقهية أليق بالفقه ، وأقرب إلى كتب الفقه ، ويختلف عن القواعد الفقهية ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، والاقتصار على الفرق بين مسألة ومسألة ، وحكم فقهي وحكم آخر ، وإنما تقدم العلماء خطوة أخرى مهمة ، وهي بيان الفرق بين قاعدة فقهية وقاعدة فقهية أخرى للتشابه بينهما من جهة ،

(١) القواعد الفقهية للتدوي ص ٧٣ ، نقلاً عن شريط مصور .

وللوصول من الفرق بينهما إلى التفريق بين مسألتين من جهة أخرى ، وهذا ما قصده القرافي رحمه الله .

يقول الشيخ محمد علي المالكي في مقدمة «تهذيب الفروق للقرافي» : «وتلك الفروق منها ما هو واقع بين فرعين ، يحصل بيانه بذكر ما هو المقصود من قاعدة أو قاعدتين ، ومنها ما هو واقع بين قاعدتين مقصود تحقيقهما بالسؤال عن الفرق بينهما ، نظراً لكون تحقيقهما بذلك أولى»^(١) .

وهذا يدل على أن الفروق الفقهية تتناول القواعد الفقهية لبيان الفرق بينها ، كما أن كتب الفروق عرضت كثيراً من القواعد الفقهية ، وجاء علم الأشباه والنظائر يجمع بين القواعد الفقهية والفروق الفقهية ، وهو ما فعله السيوطي كما سنرى ، وابن نجيم وغيرهما .

ويؤكد القرافي الصلة والعلاقة بين القواعد الفقهية والفروق الفقهية وسيلة وهدفاً ، فيقول : «وجعلت مبادئ المباحث في القواعد بذكر الفروق ، والسؤال عنها بين الفرعين أو قاعدتين ، فإن وقع السؤال عن الفرق بين الفرعين فيبانه بذكر قاعدة و قاعدتين ، يحصل بهما الفرق ، وهما المقصودتان ، وذكر الفرق وسيلة لتحصيلهما ، وإن وقع السؤال عن الفرق بين القاعدتين ، فالمقصود تحقيقهما ، ويكون تحقيقهما بالسؤال عن الفرق بينهما أولى من تحقيقهما بغير ذلك ، فإن ضمَّ القاعدة إلى ما يشاكلها في الظاهر ، ويضادها في الباطن أولى»^(٢) ، فمنهج القرافي في أن يستنبط الفرق بين فرعين ليستنتج منه قاعدة ، وأن يستنبط

(١) تهذيب الفروق ، على هامش الفروق ٣/١ ، وانظر : الاستثناء في الفرق والاستثناء ٧٥/١ وما بعدها ، القواعد الفقهية ، للندوي ص ٧١ ، وما بعدها ، النظريات والقواعد في الفقه الإسلامي ، أبو سليمان ص ٥١ .

(٢) الفروق ٣/١ .

الفرق بين القاعدتين ليتم التمييز بينهما ، والتحقيق فيهما بيان الفرق بينهما .

القواعد الفقهية والأشباه والنظائر :

عرض أكثر العلماء في العصور الأخيرة (من القرن السابع حتى القرن العاشر) القواعد الفقهية في كتب «الأشباه والنظائر» مما يستدعي بيان العلاقة بين الاصطلاحين .

فالأشباه لغة جمع شبه وشبهه ، وهو المثل ، والنظائر جمع نظيرة للأثنى ، والمذكر نظير ، واتجه كثير من العلماء إلى عدم التفريق بين المذكر والمؤنث هنا ، ويرون أن النظائر جمع نظير ، وهو المثل المساوي ، وهذا نظير هذا أي مساويه^(١) .

ويظهر مما سبق أن الأشباه والنظائر في اللغة بمعنى واحد ، وساع بين العلماء استعمال هذين اللفظين على وفاق المعنى اللغوي ، واعتبروا الشبيه والنظير بمعنى واحد ، ولذلك عرف العلامة الحموي الأشباه والنظائر بقوله : «المراد بها المسائل التي يشبه بعضها بعضاً ، مع اختلاف في الحكم ، لأمر خفية أدركها الفقهاء بدقة أنظارهم ، وقد صنفوا لبيانها كتباً كفروق المحبوبي والكرايسبي»^(٢) .

ولكن التحقيق الفقهي ، والتدقيق في أصول الفقه ، يؤكدان وجود الفروق الدقيقة بين الأشباه والنظائر ، ونكتفي بالإشارة إلى الجانب الفقهي الذي يبينه بعض من صنف في الأشباه والنظائر .

يقول تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى : «إن الأشباه هو أن يجتذب

(١) المصباح المنير ٤١٢/١ مادة شبه ، ٨٤٠/٢ مادة نظر ، وانظر : تهذيب اللغات ، النووي ١٦٩/٢ .

(٢) غمز العيون البصائر شرح الأشباه والنظائر ١٨/١ .

الفرع أصلاً ، ويتنازع مأخذان فينظر إلى أولاهما وأكثرهما شبهاً فيلحق به^(١) ، ثم يضرب مثلاً لذلك .

ويؤكد ذلك السيوطي رحمه الله تعالى بقوله : «الفرق بين المثل والشبيه والنظير : المثل أخص الثلاثة ، والشبيه أعم من المثل ، وأخص من النظير ، والنظير أعم من الشبيه ، وبيان ذلك أن المماثلة تستلزم المشابهة وزيادة ، والمشابهة لا تستلزم المماثلة ، فلا يلزم أن يكون شبه الشيء مماثلاً له ، والنظير قد لا يكون متشابهاً ، وحاصل هذا الفرق أن المماثلة تقتضي المساواة من كل وجه ، والمشابهة تقتضي الاشتراك في أكثر الوجوه لا كلها ، والمناظرة تكفي في بعض الوجوه ، ولو وجهاً واحداً ، يقال هذا نظير هذا في كذا ، وإن خالفه في سائر جهاته . . وأما اللغويون فإنهم جعلوا المثل والشبيه والنظير بمعنى واحد»^(٢) .

فالنظير يطلق على الشبيه ، ولكن إذا جمع بينهما فيراد منهما أمر آخر ، وذلك أن العلماء أرادوا بحث الأحكام المتشابهة ، وهذا يدخل في القواعد الفقهية ، فعرضوا هذه القواعد الكلية ؛ لأنها تجمع الفروع المتشابهة ، والمسائل المتماثلة ، وهذه القواعد على درجات متفاوتة ، وأصناف متعددة ، فبعضها قواعد كبرى ، وبعضها قواعد صغرى ، وبعضها قواعد مذهبية كما سنرى ، ووجد العلماء والفقهاء بجانب هذه القواعد بعض الفنون التي تتصل بالفقه ، مثل : الضوابط الفقهية ، والفوارق الفقهية ، كما سبق ، وهي متشابهة أحياناً ، وتختلف عن بعضها بوجود بعض الفوارق أحياناً أخرى ، فلجأ المصنفون إلى اختيار لفظ «النظائر» وضمها إلى «الأشباه» ، لأن النظائر أعم من الأشباه ، كما جاء في كلام السيوطي ، ولم يقف المصنفون في كتب «الأشباه والنظائر» على

(١) الأشباه والنظائر ، ابن السبكي ، مخطوط ، عن القواعد الفقهية ص ٦٤ .

(٢) الحاوي للفتاوي ، السيوطي ٢/٢٧٣ (فتاوي تتعلق بالنحو) .

القواعد الفقهية ، والفروق فحسب ، بل ضموا إليهما أموراً أخرى ، كما سنرى في الدراسة التحليلية لكتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي^(١).

ونخلص من ذلك إلى أن «الأشباه والنظائر» لا تعني مجرد «القواعد الفقهية» بل تشمل عدة فنون أخرى تتصل بالفقه والأحكام الشرعية ، لكن القواعد الفقهية تحتل مكان الصدارة لأهميتها ، وهو ما سنفصله إن شاء الله .

أهمية القواعد الفقهية وفوائدها :

يبين لنا العلامة القرافي رحمه الله تعالى أهمية القواعد وفوائدها ، فيقول : «وهذه القواعد مهمة في الفقه ، عظيمة النفع ، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف ، ويظهر رونق الفقه ويعرف ، ومن جعل يُخْرِجَ الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت ، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تنهاى ، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات ، واتحد عنده ما تناقض عند غيره ، وتناسب»^(٢).

وقال ابن نجيم رحمه الله تعالى مبيناً فوائد القواعد : «الأول : في معرفة القواعد التي تُردُّ إليها ، وفرعوا الأحكام عليها ، وهي أصول الفقه ، وبها

(١) لم ينفرد الفقهاء باستعمال هذا العنوان في كتبهم ، بل شاركهم فيه غيرهم ، وسبقوهم فيه ، وأول من استعمله المفسر مقاتل بن سليمان البلخي (١٥٠هـ) في كتابه «الأشباه والنظائر في تفسير القرآن العظيم» ثم تبعه عدد من المفسرين ، ثم استعمله الأدباء والنحويون وللسيوطي كتاب «الأشباه والنظائر في النحو» كما سبق ، ثم شاركهم الفقهاء في «الأشباه والنظائر في الفقه» منذ القرن السابع الهجري ، ونشطوا في هذا المضمار ، واهتموا بعرض «القواعد الفقهية» في كتبهم ، كما سنبينه بعد قليل ، انظر : القواعد الفقهية ، للندوي ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) الفروق ٣/١ .

يرتقي الفقيه إلى درجة الاجتهاد ، ولو في الفتوى»^(١) .

ويمكننا أن نلخص أهمية القواعد وفوائدها بما يلي :

١ - إن دراسة الفروع والجزئيات الفقهية يكاد يكون مستحيلا ، بينما يدرس الطالب ضابطاً فقهياً ، ويحفظ الفقيه قاعدة كلية تنطبق على فروع كثيرة لا حصر لها ، ويتذكر القاعدة ليفرع عليها المسائل والفروع ، ويتذكر الأحكام .

يقول العلامة الزركشي رحمه الله تعالى : «فإن ضبط الأمور المتشعبة والمتعددة في القوانين المتحدة هو أدعى لحفظها ، وأدعى لضبطها ، وهي إحدى حكم العدد التي وضع لأجلها ، والحكيم إذا أراد التعليم لا بدّ له أن يجمع بين بيانين : إجمالي تشوف إليه النفس ، وتفصيلي تسكن إليه ، ولقد بلغني . . . «الفقه معرفة النظائر» ، وهذه قواعد تضبط للفقيه أصول المذهب ، وتطلعه من مأخذ الفقه على نهاية المطلب ، وتنظم عقد المنشور في سلك ، وتستخرج له ما يدخل تحت ملك ، أصّلتها لتكون ذخيرة عن الاتفاق»^(٢) .

٢ - إن دراسة الفروع والجزئيات ، إن حفظت كلها أو أغلبها ، فإنها سريعة النسيان ، ويحتاج الرجوع إليها في كل مرة إلى جهد ومشقة وخرج ، أما القاعدة الكلية فهي سهلة الحفظ ، بعيدة عن النسيان ، ومتى ذكر أمام الفقيه فرع أو مسألة فإنه يتذكر القاعدة ، مثل قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» أو «الضرر يزال» أو «يتحمل الضرر الخاص لمنع الضرر العام» أو «الولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة» ويتجلى ذلك واضحاً في القواعد

(١) الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ص ١٥ .

(٢) المنشور في القواعد ، للزركشي ٦٥/١ - ٦٦ .

الخمس الرئيسة التي تشمل مالا يحصى من الأحكام ، والأبواب الفقهية ، كما سنرى .

إن الأحكام الجزئية قد يتعارض ظاهرها ، ويبدو التناقض أحياناً بين عللها ، فيقع الطالب الباحث في الارتباك والخلط ، وتشبه عليه الأمور ، أما القاعدة الفقهية فإنها تضبط المسائل الفقهية ، وتنسق بين الأحكام المتشابهة ، وترد الفروع إلى أصولها ، وتسهل على الطالب أخذها ، ويتفادى ظواهر التناقض فيها .

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى عن ذلك : «فهذه قواعد مهمة ، وفوائد جمة ، تضبط للفقهاء أصول المذهب ، وتطلعه على مآخذ الفقه على ما كان عنه قد تغيب ، وتنظم له منشور المسائل في سلك واحد ، وتفيد له الشوارد ، وتقرب عليه كل متباعد»^(١) .

٤ - إن القواعد الكلية تسهل على رجال التشريع غير المختصين فرصة الاطلاع على الفقه بروحه ومضمونه ، وأأسسه وأهدافه ، وتقدم العون لهم لاستمداد الأحكام منه ، ومراعاة الحقوق والواجبات فيه^(٢) .

وأشار إلى هذا القرافي رحمه الله تعالى قبل سبعة قرون ونيف ، فقال : «وإذا رأيت الأحكام مُخَرَّجَةً على قواعد الشرع ، مَبْنِيَّةً على مآخذها ، نهضت الهمم حينئذ لاقتباسها ، وأعجبت غاية الإعجاب بتقص لباسها»^(٣) .

وهذا ما تنبه له رجال التشريع المعاصر ، المستمد من الفقه الإسلامي ، وبدأت به لجنة «مجلة الأحكام العدلية» التي صدرت في عهد

(١) القواعد ، لابن رجب الحنبلي ص ٣ .

(٢) انظر : المدخل لدراسة التشريع الإسلامي ١/ ٢٩٦ ، المدخل ، شلبي ص ٢٣٠ .

(٣) الذخيرة للقرافي ١/ ٣٤ .

الدولة العثمانية سنة ١٢٨٦هـ ، وأخذت طريقها للتطبيق سنة ١٢٩٣هـ ، وأصبحت قانوناً مدنياً عاماً مستمداً من المذهب الحنفي ، وتتصدره القواعد الفقهية الكلية في ٩٩ مادة ، ثم سار على هذا النهج القانون المدني الأردني ، الصادر سنة ١٩٧٦م ، وغيره من القوانين الأخرى مما يبين أهمية القواعد الفقهية وأثرها في التشريع الحديث^(١).

٥ - تكون القواعد الكلية عند الطالب والباحث والفقهاء ملكة فقهية تنير أمامهم الطريق لدراسة أبواب الفقه الواسع ، ومعرفة الأحكام الشرعية في المسائل المعروضة عليهم ، واستنباط الحلول للوقائع المتجددة ، والمشاكل المتكررة ، والنوازل المعاصرة ، والحوادث الجديدة التي تحتاج للتخريج في معرفة أحكامها ، لذلك اعتبرها ابن نجيم - كما سبق - هي الأصول للفقه ومسائله ، وبها يرتقي الفقيه إلى درجة الاجتهاد ، وفهم أسرار الشريعة .

وبعبارة أدق يظهر التشابه بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية ، والتشابه بين عمل الفقيه وعمل الأصولي ، فالأصولي يعتمد على القواعد الأصولية ، ويعتبرها المعايير الصحيحة لاستنباط الأحكام الشرعية من منابعها الأساسية ، والفقيه يركز على القواعد الفقهية ، ويعتبرها معياراً لمسائل الفقه وفروعه وتنظيم أحكامه^(٢).

حجية القواعد الفقهية :

إن أهمية القواعد الفقهية وفوائدها لا يعني أنها صدر للتشريع ، وأدلة يعتمد عليها ، وهذا لا ينقص من أهميتها ، ولا يضير في فوائدها .

فالقواعد الفقهية لا يصح أن تكون دليلاً يحتج بها ، ولا مصدراً

(١) إيضاح المسالك ، مقدمة المحقق ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ ، المدخل الفقهي العام ٩٤٣/٢ وما بعدها .

تستنبط منها الأحكام الشرعية ، وإنما هي مجرد شواهد يستأنس بها العلماء والفقهاء والمفتون والقضاة والباحثون في إبداء الرأي .

وإن كثيراً من كتب الفقه والفتاوى ، وكتب الخلاف والقضاء تشير في كثير من الأحكام إلى القواعد الفقهية ، وكأنها تستند إليها ، أو تحتج بها ، والحقيقة أن هذا الاستدلال ليس بمجرد القاعدة الفقهية ، وإنما هو إشارة إلى الأدلة التي تؤخذ منها القاعدة ، أو الأسس التي تعتمد عليها ، أو المبادئ الأصولية التي ترتبط بها ، ويكون إيراد القاعدة الفقهية لبيان دخول الحكم الشرعي أو القضائي تحت فروعها وجزئياتها .

ويستثنى من ذلك أمران - يحتج بهما بالقاعدة الفقهية ، وهما :

١ - إذا كانت القاعدة مستفادة من القرآن الكريم أو السنة الشريفة ، فيصح أن تكون دليلاً شرعياً ، ومصدراً للأحكام ، مثل «الضرورات تبيح المحظورات» «المرء مؤاخذ بإقراره» «الحرج مرفوع» «لا ضرر ولا ضرار» «الخراج بالضمان» «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» .

٢ - إذا لم يجد المجتهد أو المفتي أو القاضي دليلاً شرعياً ، أو مصدراً خاصاً ، للمسائل الطارئة ، والقضايا المستجدة ، ولم يجد نصاً فقهياً في ذلك ، فيمكنه الاعتماد على القواعد الفقهية إذا كانت المسألة تدخل تحتها ، أو كان الفرع يتفق معها ، ولا يوجد فرق ما - قطعاً أو ظناً - بينهما^(١) .

كتب القواعد الفقهية عند الشافعية :

ونرى أنه إتماماً للفائدة وبياناً للسيرة التاريخية للقواعد الفقهية ، وتمهيداً للدراسة التحليلية لكتاب السيوطي ، أن نعرض أهم كتب القواعد

(١) انظر: القواعد الفقهية ص ٢٩٣ وما بعدها ، النظريات والقواعد في الفقه الإسلامي ص ٥٥ .

الفقهية ، أو الأشباه والنظائر ، في المذهب الشافعي لندرك الجهد الفقهي الذي بذله الفقهاء في تاريخ التشريع ، ومدى استفادة السيوطي منه ، واعتماده عليه .

بدأت قواعد الفقه الكلية مبثوثة في كلام الفقهاء وكتبهم ، وصنف الإمام الشافعي كتابه «الرسالة التي تتضمن القواعد الأصولية ، أما القواعد الفقهية في المذهب الشافعي فأقدم من وضعها وصاغها ودونها - فيما نعلم - القاضي حسين المروزي المتوفي سنة ٤٦٢هـ) وكان إماماً كبيراً وصاحب وجه في المذهب ، وصنف في الأصول والفروع والخلاف ، وردّ جميع مذهب الشافعي إلى أربع قواعد^(١) ، ثم استمر التصنيف والإضافة والزيادة على هذه القواعد وبدأ الاقتباس والتنافس بين المذاهب في تدوين القواعد الفقهية وما يلحق بها من الفروق ، والأشباه والنظائر .

والكتب التي وضعت في القواعد الفقهية على المذهب الشافعي كثيرة ، وأهمها:

١ - الفروق: للشيخ أبي محمد ، عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني (المتوفى سنة ٤٣٨هـ) وهو والد إمام الحرمين^(٢) .

٢ - قواعد في فروع الشافعية ، لمعين الدين ، أبي حامد ، محمد بن إبراهيم الجاجرمي الشافعي (المتوفى سنة ٦١٣هـ) وقد أكثر الناس من

(١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٧ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٥٦/٤ ، وفيات الأعيان ٤٠٠/١ ، تهذيب الأسماء للنووي ١٦٤/١ ، شذرات الذهب ٣١٠/٣ ، القواعد للمقري ١٣٣/١ الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ١٥ ، المدخل ، للشلبلي ص ٢٣٣ ، المدخل الفقهي العام ٩٤٥/٢ .

(٢) يوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بتركيا ، بمكتبة ترخان ، رقم ١٤٦ ، وذكره ملا جلبي في كشف الظنون ١٨٨/٢ ، وذكر كتباً أخرى للشافعية في «الفروق» في نفس الصفحة السابقة ، وانظر ترجمة الشيخ أبي محمد الجويني في: طبقات الشافعية الكبرى ٧٣/٥ ، وفيات الأعيان ٢٥٠/٢ .

الاشتغال بها في عصره ، كما يقول العلامة ملا جليبي^(١) .

٣ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للشيخ عز الدين ، أبي محمد ، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (٦٦٠هـ) ، وجعل محور الشريعة يدور حول قاعدة واحدة أساسية ، وهي «جلب المصالح ودرء المفاسد» وردّ جميع القواعد الأخرى في كتابه إليها ، قال صاحب «كشف الظنون» عن كتاب العز: «وليس لأحد مثله ، وكثير منها مأخوذ من شعب الإيمان للحليمي ويعرف هذا الكتاب «بالقواعد الكبرى» وللعز بن عبد السلام كتاب «القواعد الصغرى» أيضاً^(٢) .

٤ - الأشباه والنظائر ، لصدر الدين ، محمد بن عمر بن الوكيل ، أبي عبد الله بن المرحّل ، المصري الشافعي (المتوفى سنة ٧١٦هـ) ، وقيل في كتابه: هو من أحسن الكتب في موضوعه إلا أنه لم ينقح ، ولم يحرر ، ولعله أقدم كتاب في قواعد الفقه الشافعي باسم «الأشباه والنظائر» واشتمل الكتاب على سبع وعشرين قاعدة ، بعضها تقسيمات فقهية ، ولا تعد قواعد إطلاقاً ، قال السيوطي: ومات قبل تحريره ، فحرّره وزاد عليه ابن أخيه^(٣) .

(١) كشف الظنون ٢/٢٤٢ .

(٢) الكتاب مطبوع بالقاهرة طبعة قديمة ، ثم طبع مرة ثانية بالقاهرة في مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، وطبع مرات أخرى ، وجاء القاضي عز الدين محمد بن أحمد بن جماعة ، المتوفى سنة ٨١٩هـ وكتب ثلاثة شروح على القواعد الكبرى ، وثلاثة شروح على القواعد الصغرى . (انظر: كشف الظنون ٢/٢٤٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٥٣ ، حسن المحاضرة ١/٣١٤ ، فوات الوفيات ٢/٣٥٠) .

(٣) يوجد منه نسخة مخطوطة نفسية جداً ، كتبت في القرن الثامن في المكتبة الأزهرية برقم ٢٦٢٠ عروس ، ونسخة أخرى بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية . (انظر: كشف الظنون ١/١٠٦ ، حسن المحاضرة ١/٤١٩ ، القواعد للمقري ص ١٣٤ ، القواعد الفقهية للدوي ص ١٧٨) .

٥ - المجموع المذهب في قواعد المذهب ، للحافظ صلاح الدين بن خليل كَيْكَلُوي العلائي ، أبي سعيد الشامي الشافعي (المتوفى سنة ٧٦١هـ) ويعتبر هذا الكتاب من أجود وأنفس الكتب التي صنفت في الفقه الشافعي وقواعده ، ويجمع بين قواعد أصول الفقه وقواعد الفقه ، ويعرف باسم «قواعد العلائي» ، واختصره الشيخ محمد بن عبد الله الصَرْخُدي (المتوفى سنة ٧٩٢هـ) ثم اختصره العلامة ابن خطيب الدَّهْشَة (ت ٨٣٤هـ) وضم إليه كلام الإسني^(١).

٦ - الأشباه والنظائر ، لتاج الدين ، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، (المتوفى سنة ٧٧١هـ) ، وهو من أهم الكتب في هذا الشأن جودة في الترتيب ، ومن أنفسها تنسيقاً للقواعد ، ويحتل مكاناً مرموقاً لجمعه بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية وكل ما يتصل بموضوع الأشباه والنظائر ، وهو الكتاب المشهور الذي اعتمد عليه ابن الملقن وغيره ، وعول عليه السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر» ، وأراد ابن نجيم الحنفي أن يحاكيه بوضع كتاب مثله في المذهب الحنفي^(٢).

٧ - الأشباه والنظائر: للإسني جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسني الشافعي (المتوفى سنة ٧٧٢هـ) ، لكن ابن السبكي يقول عنه: «فيه أوهام كثيرة ، لأنه مات عن مسودة» ، كما صنف الإسني رحمه الله تعالى كتابين في القواعد ، وهما: «التمهيد في استخراج الفروع على

(١) كشف الظنون ١٠٦/١ ، ٢٤٢ ، مقالات الكوثري ص ١١٧ ، القواعد الفقهية للندوي ص ١٨٧ ، وطبع الكتاب ابن خطيب الدَّهْشَة ببغداد سنة ١٩٨٤م بتحقيق الدكتور الشيخ مصطفى البنجويني.

(٢) كشف الظنون ١٠٦/١ ، شذرات الذهب ١٨٠/٦ ، الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ١٥ ، القواعد الفقهية للندوي ١٨٩ ، القواعد للمقري ١٣٤/١ ، وحقق الكتاب ونشره الدكتور عبد الفتاح أبو العينين في رسالة دكتوراه بالأزهر.

الأصول» و«الكواكب الدرية» في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية» أو «الكوكب الدرّي» وهو شبيه بموضوعه بالتمهيد ، وكلاهما يجمعان الكثير من القواعد الفقهية والقواعد الأصولية^(١).

٨ - المنشور في القواعد الفقهية ، أو القواعد في الفروع : لبدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشي (المتوفى سنة ٧٩٤هـ) ، ورتبها على حروف المعجم ، وجمع القواعد والضوابط الفقهية وما يدخل تحتها من فروع المذهب الشافعي ، مع روعة البيان ، وجودة الصياغة ، وإشراق الألفاظ ، وشرح هذا الكتاب سراج الدين العبادي (٩٤١هـ أو ٩٤٧هـ) في مجلدين ، واختصر الأصل الشيخ عبد الوهاب الشعراني (المتوفى سنة ٩٧٣هـ)^(٢).

٩ - القواعد ، للشيخ شرف الدين عيسى بن عثمان الغزي (المتوفى سنة ٧٩٩هـ) ، صنفه على طريقة ذكر القاعدة وما يستثنى منها ، ثم أدخل الألفاظ فيها.

وللغزي نفسه كتاب «الجواهر والدرر» في القواعد ، وهو غير الكتاب السابق^(٣).

١٠ - نواظر النظائر ، أو الأشباه والنظائر ، لسراج الدين ، عمر بن علي ابن أحمد الأنصاري الشافعي ، النحوي ، المعروف بابن الملقن

(١) كشف الظنون ١/١٠٦ ، الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ص ٦ ، التمهيد للإنسوي ، تحقيق الدكتور محمد حسن هيتو ، ص ٢٨ ، ٢٩.

(٢) حقق كتاب «المنثور للزركشي» الدكتور تيسير فائق محمود ، ونشرته وزارة الأوقاف بالكويت ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م في ثلاثة أجزاء ، انظر: المنثور ، مقدمة المحقق ١/٤٦ ، كشف الظنون ٢/٢٤٢ ، القواعد الفقهية للندوي ص ١٩٥.

(٣) كشف الظنون ٢/٢٤٣ وذكره باسم علي بن عثمان ، وهو خطأ ، وانظر: أدب القضاء للغزي ، مقدمة المحقق ص ١١.

(المتوفى سنة ٨٠٤ هـ) ، والكتاب مرتَّب القواعد الفقهية على حسب ترتيب الأبواب الفقهية ، وقد استفاد من كتاب «الأشباه والنظائر لابن السبكي» وعوَّل عليه كثيراً ، وكأنه اختصار له ، مع اقتباس عبارات كاملة منه ، ولكن أغفل ذكر العلامة ابن السبكي وكتابه «الأشباه والنظائر» ، ويضم إلى الكتاب ضوابط مهمة لأبواب الفقه^(١).

١١ - القواعد: للعلامة تقي الدين ، أبي بكر بن محمد بن عبد المؤمن ، الحصني (نسبة إلى الحصن من قرى حوران) ثم الدمشقي ، الفقيه الشافعي (المتوفى سنة ٨٢٩ هـ) ، والكتاب مزيج من القواعد الأصولية والقواعد الفقهية ، وفيه اقتباس كثير من كتاب «المجموع المذهب في قواعد المذهب للعلائي» وفيه كثير من الضوابط والفوائد الفقهية^(٢).

١٢ - الاستغناء في الفرق والاستثناء: لبدر الدين ، محمد بن أبي بكر بن سليمان ، البكري ، الفقيه الشافعي ، أحد تلامذة العلامة جمال الدين الإسنوي (٧٧٢ هـ) وترجم الحافظ السخاوي للبكري في أعيان القرن التاسع ، لأنه عاش في النصف الثاني من القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، ولم تعرف سنة وفاته ، والكتاب قيم ، وحافل بالقواعد والضوابط الفقهية التي استخلصها من كلام أئمة الشافعية ، وبلغت ستمئة قاعدة ، ولكن جلها ضوابط فقهية ، مع تحرير كل ضابط فقهي ، وبيان

(١) يوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في سوهاج مصر ، كتبت سنة ٨٠٣ هـ في ١٣٢ ورقة ، كما يوجد نسخة أخرى في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية. (انظر: كشف الظنون ١/١٠٦ ، القواعد الفقهية للندوي ص ٢٠١ ، ٢٠٣).

(٢) يوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة شستريتي ، وصورة عنها في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، وللحصني ترجمة في: شذرات الذهب ٧/١٨٨ ، البدر الطالع ١/١٦٦ ، وانظر: القواعد الفقهية للندوي ص ٢٠٥ وما بعدها.

الفوارق الدقيقة بينها ، ولذلك سماه بهذه التسمية^(١) .

١٣ - الأشباه والنظائر : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (المتوفى سنة ٩١١هـ) وسوف نفرده بالدراسة التحليلية والبحث العلمي في القسم الثاني .

ومما يلفت النظر أن كتاب السيوطي هو آخر كتاب في القواعد الفقهية في المذهب الشافعي ، ولم يصنف بعده شيء ، ولعل السبب أن كتاب السيوطي قد أوفى الموضوع ، وأكمل البحث ، فلا حاجة للمزيد ، وقد ظهر كتاب «الفوائد المكية» فيما يحتاجه طلبة الشافعية من المسائل والضوابط والقواعد الكلية» تأليف السيد علوي بن أحمد السقاف ، ثم اختصره المؤلف في كتابه «مختصر الفوائد المكية»^(٢) ، ولكنه اقتصر على ذكر القواعد الفقهية الخمس الرئيسة في صفحة واحدة (ص ١٢) ، ومن هنا نتقل إلى القسم الثاني بالدراسة المفصلة لكتاب السيوطي .

القسم الثاني : دراسة تحليلية لكتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي :

درس السيوطي الفقه ، كما سبق ، ودرّسه ، وتبحر فيه ، وحلق به ، ثم مارس الإفتاء لبيان الأحكام الشرعية في المسائل والأسئلة المعروضة عليه ، وبلغ القمة العليا فيه ، ثم وصل إلى رتبة المجتهدين ، وصرح بنسبة الاجتهاد المطلق لنفسه .

ولئن نازعه العلماء في دعوى الاجتهاد الذي يقتضي وضع مبادئ أصولية ، وقواعد اجتهادية مستقلة ، وهو لم يفعل ذلك في الحقيقة ،

(١) الاستغناء ، للبكري ، مقدمة المحقق ٤٢/١ ، ٤٤ ، القواعد الفقهية للدودي ص ٢١٢ ، والكتاب حقق بعضه الدكتور سعود بن مسعد ، ونشرته جامعة أم القرى بمكة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(٢) الكتاب مطبوع مع كتب أخرى بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٨هـ / ١٩٤٠م .

ولزم منهج الإمام الشافعي في أصول الفقه ، فلم ينازعه أحد في إدراك الغاية القصوى في الفقه ، ويتمثل ذلك في الاشتغال الواسع فيه ، والممارسات الواسعة في جوانبه ، ومعرفة أحكامه ، وسبر أغواره ، وكشف أسرارهِ ، وبيان علله وحكمه ، والتعمق في المقاصد العامة ، والمسائل المتشابهة ، والفروق الدقيقة ، مما يفتح الباب أمامه لصياغة القواعد الكلية ، والضوابط الفقهية ، والفروق الفروعية ، وما يتصل بها مما ضمنه في كتبه ، مع ما استفاده من جهود السابقين في هذا المضمار بدراسته وفهمه وهضمه ، ثم بالزيادة عليه ، والتوسع فيه .

فلم يكن غريباً - بعد ذلك - أن يساهم السيوطي رحمه الله تعالى في تدوين القواعد الفقهية ، وأن يصنّف فيها كتابه الشهير «الأشباه والنظائر» في قواعد وفروع فقه الشافعية»^(١) .

وكان موضوع «الأشباه والنظائر» ماثلاً في ذهن السيوطي وفكره ، ومستقراً في عقله وباطنه ، وشاغلاً باله ووقته ، فأولاه العناية والرعاية ، وصنف فيه كتابين : الأول : «الأشباه والنظائر» في الفقه ، والثاني : «الأشباه والنظائر في النحو»^(٢) .

وكان السيوطي - رحمه الله تعالى - يلم بالكتب التي صنفت في القواعد الفقهية خاصة ، وكتب الأشباه والنظائر عامة ، فيقول في مقدمة كتابه «الأشباه والنظائر في النحو» : «أول من فتح هذا الباب شيخ الإسلام

(١) طبع هذا الكتاب المشهور عدة مرات في مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ومطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ، وطبع أيضاً بمكة ، وصور عدة مرات في بيروت وغيرها ، واعتمدت في هذا البحث على الطبعة الأخيرة سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م من مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ويقع في مجلد كبير ، ويتألف من (٥٥٦) صفحة .

(٢) طبع كتاب «الأشباه والنظائر في النحو» في شركة الطباعة الفنية بالقاهرة سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، وطبع مرات أخرى وصور .

ابن عبد السلام في «قواعده الكبرى» فتبعه الزركشي في «القواعد» ، وابن الوكيل في «أشباهه» ، وقد قصد ابن السبكي بكتابه تحرير كتاب ابن الوكيل ، وذلك بإشارة والده^(١).

وسوف نقدم في هذا القسم من البحث دراسة شاملة على الكتاب عامة ، ثم دراسة تفصيلية لمحتوى الكتاب ومضمونه ، لنصل أخيراً إلى تقييم الكتاب وتقدير العلماء له .

الفقه المذهبي :

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا محلاً للبحث هو «الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية» فهو في الفقه أولاً ، وفي مذهب الإمام المطلبي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) ثانياً ، وهو أحد المذاهب الفقهية المشهورة في العالم العربي والإسلامي ، ويتبعه مئات الملايين من المسلمين ، وقام على خدمته والتأليف فيه والتدريس آلاف العلماء والفقهاء ، والتزم العمل به والسير على أحكامه كثير من البلاد الإسلامية ، كما اعتمده كثير من القضاة في فصل المنازعات ، والحكم في الخلافات ، والبت في الدعاوى ، ويتعبد به ملايين الناس طوال التاريخ الإسلامي منذ العصر العباسي ، وحتى اليوم^(٢).

(١) الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ص ٥ ، وذكرنا سابقاً كتب الأشباه والنظائر في الفقه على المذهب الشافعي ، وهي : «الأشباه والنظائر» لابن الوكيل ، و«الأشباه والنظائر» لابن السبكي ، و«الأشباه والنظائر» للإسنوي ، و«الأشباه والنظائر» لابن الملقن ، وغيرها ، ولا شك أن السيوطي اطلع على أكثرها أو كلها ، واستفاد منها ، وأضاف لها الشيء الكثير ، كما هو الشأن في اعتماد اللاحق على السابق ، (انظر : كشف الظنون : ١/١٠٧).

(٢) انظر : كتابنا «تعريف عام بالعلوم الشرعية» ، طبع دار طلاس ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م ، وكتابنا «مرجع العلوم الإسلامية» طبع دار المعرفة بدمشق ، =

وحصر الكتاب في فقه المذهب الشافعي لا يضير الكتاب ، ولا ينقص من أهميته ، لسببين :

الأول: أن التصنيف والتأليف كان في الغالب والشائع منحصرًا في أحد المذاهب ، ولذلك وجدت كتب القواعد الفقهية ، والأشباه والنظائر في مختلف المذاهب ، وتنافس العلماء والفقهاء في هذا الخصوص ، وهو تنافس محمود ومشكور ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ، حتى وصلنا تراث فقهي زاخر ، وثروة تشريعية نضاهي بها العالم .

الثاني: أن القواعد الفقهية ، أو الأشباه والنظائر ، متشابه بين المذاهب الفقهية ، وتكاد أن تكون متطابقة ، ومتفقة مع بعضها ، وواحدة في الصياغة والتعبير والأسلوب ، ولكن تختلف في الفروع والجزئيات والمسائل والتطبيقات المقررة على القاعدة ، ومن هنا استفاد العلماء والفقهاء والمصنفون من مختلف المذاهب من بعضهم ، واقتبس كثير منهم القواعد من كتب المذهب الآخر ، وطبقها على فروع مذهبه وأحكامه ، ويذكر أن أول من بدأ في تدوين القواعد - فيما وصلنا - أبو طاهر الدَّباس ، إمام الحنفية فيما وراء النهر في القرن الرابع الهجري ، ولما بلغ ذلك القاضي حسين ، إمام الشافعية في زمانه ، ردَّ جميع مذهب الشافعي إلى أربع قواعد ، كما سبق .

وهذا ما صرح به ابن نجيم الحنفي رحمه الله تعالى في محاكاته كتاب «الأشباه والنظائر» لابن السبكي الشافعي ، فقال: «وأن المشايخ الكرام قد ألفوا لنا ما بين مختصر ومطول من متون وشروح وفتاوى ، واجتهدوا في المذهب والفتوى ، وحرروا ونقحوا ، شكر الله سعيهم ، إلا أنني لم أر

= الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ففيهما دراسة مختصرة ، ومسهبة عن المذهب الشافعي .

لهم كتاباً يحكي كتاب الشيخ تاج الدين السبكي الشافعي ، مشتملاً على فنون الفقه . . . فألهمت أن أصنع كتاباً على النمط السابق»^(١) .

أهمية فن الأشباه والنظائر:

إن أهمية القواعد الفقهية وفوائدها التي ذكرناها سابقاً تنطبق على علم الأشباه والنظائر ، لأن القواعد الفقهية جزء من فن الأشباه والنظائر ، وتشكل المنطلق الأول له ، وتحتل مكان الصدارة فيه ، ويضاف إلى هذه الأهمية والفوائد ما يحققه علم الأشباه والنظائر في بقية الجوانب والفروع كالقواعد الكلية ، والضوابط الفقهية ، والقواعد الأصولية ، والقواعد المختلف فيها كأساس لعلم الخلاف المعروف في الفقه الإسلامي ، والنظائر المتشابهة في أبواب الفقه ، وما أضافه بعض العلماء كابن نجيم ، كفن الأغاز ، والحيل ، والحكايات والمراسلات .

وكان السيوطي رحمه الله تعالى يدرك أهمية فن الأشباه والنظائر ، وحقيقة هذا العلم النافع المفيد ، ولذلك نبه عليه ، وصرح به في مقدمة كتابه ، فقال: «وكان من أجل أنواعه (الفقه): معرفة نظائر الفروع وأشباهها ، وضم المفردات إلى أخواتها وأشكالها»^(٢) ، ودلل السيوطي رحمه الله تعالى على أهمية هذا العلم بصعوبة العمل فيه ، ودقة البحث فيه ، ووعورة الطريق لسالكه ، فقال: «إن هذا الفن لا يدرك بالتمني ، ولا ينال بسوف ، ولعل ، ولو أني ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجدّ وشمّر ، واعتزل أهله وشدّ المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ، ولازم الترداد إلى الأبواب في الليل الداج ، يدأب في التكرار والمطالعة بكرة وأصيلًا ، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بيّاتاً ومقيلاً ، ليس له همة إلا معضلة يحلها ، أو مستصعبة عزت على القاصرين ،

(١) الأشباه والنظائر ، ابن نجيم ص ١٥ .

(٢) الأشباه والنظائر ، للسيوطي ص ٤ .

فيرتقي إليها ويحلها ، يُردُّ عليه ويردّ ، وإذا عذله جاهل لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين بسهم ، والغمر يضرب في حديد بارد ، وحلق على الفضائل ، واقتنص الشوارد :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

يقتحم المهامه المهولة الشاقة ، ويفتح الأبواب المرتجة إذا قال الغبي : لا طاقة ، إن بدت له شاردة ردها إلى جوف الفرا ، أو شردت عنه نادرة اقتنصها ولو أنها في جوف السماء ، له نقد يميز به بين الهباب والهباء ، ونظر يحكم - إذا اختلفت الآراء - بفصل القضاء ، وفكر لا يأتي عليه تمويه الأغبياء ، وفهم ثاقب لو أن المسألة من خلف جبل قاف لخرقه حتى يصل إليها من وراء ، على أن ذلك ليس من كسب العبد ، وإنما هو من فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

وهذا كلام صحيح ، وليس فيه مبالغة أو تهويل ، لأن هذا العلم يعتمد على جمع الفروع والمسائل والجزئيات الفقهية في قواعد كلية ، وصياغة دقيقة ، وعبارات وجيزة ، كأنها أمثال وحكم ، مع معرفة أوجه الشبه ، وجوانب الاختلاف ، لوضع الضوابط ، وتقرير الفروق ، وملاحظة الأقوال المعتمدة في المذهب ، ونقاط الخلاف مع بقية المذاهب ، ولذلك لا يلج هذا الخضم إلا فطاحل العلماء ، وكبار الفقهاء ، وأساطين اللغويين والنحاة ، ولا يجزأ للتصنيف فيه إلا النخبة المتفوقة النادرة من كبار المؤلفين والكتاب .

ثم قال السيوطي رحمه الله تعالى : «اعلم أن فن الأشباه والنظائر فن عظيم ، به يُطلع على حقائق الفقه ومداركه ، ومآخذه وأسراره ، ويتمهر في فهمه واستحضاره ، ويقندر على الإلحاق والتخريج ، ومعرفة أحكام

(١) المرجع السابق .

المسائل التي ليست بمسطورة ، والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على ممر الزمان ، ولهذا قال بعض أصحابنا: الفقه معرفة النظائر»^(١).

الباعث على تصنيف «الأشباه والنظائر»:

وكان هذه الأهمية السابقة لعلم الأشباه والنظائر ، وصعوبة مسلكه ، وقلة وارده ، إلا ممن مهر الفقه ، وعجنه وطبخه ، وألفه وعاش معها ، كأن هذه الأهمية أحس بها السيوطي رحمه الله تعالى ، وقد عرف من نفسه القدرة عليها ، وكأنها أصبحت فرض عين عليه ، يأثم إذا تركها ، ويجب عليه القيام بها وأداؤها.

لذلك قال السيوطي عن كتابه «وأنت إذا تأملت كتابي هذا علمت أنه نخبة عمر ، وزبدة دهر ، حوى من المباحث المهمات ، وأعان عند نزول الملمات ، وأنار مشكلات المسائل المدلهجات ، فإني عمدت إلى مقفلات ففتحتها ، ومعضلات فنقحتها ، ومطولات فلخصتها ، وغرائب قل أن توجد منصوصة فنصصتها»^(٢).

ثم صرح السيوطي بالباعث على تصنيف كتابه ، فقال: «واعلم أن الحامل لي على إبداء هذا الكتاب أنني كنت كتبت من ذلك أنموذجاً لطيفاً في كتاب سميته «شوارد الفوائد في الضوابط والقواعد» فرأيت أنه وقع موقعاً حسناً من الطلاب ، وابتهج به كثير من أولي الألباب ، وهذا الكتاب هو بالنسبة إلى هذا كقطرة من قطرات بحر ، وشذرة من شذرات نحر ، وكأني بالناس وقد افترقوا فيه فرقاً... وكيف يقاس من نشأ في حجر العلم منذ كان في مهده ، ودأب فيه غلاماً وشاباً وكهلاً حتى وصل إلى قصده بدخيل... لاحت منه التفاتة إلى العلم... وفرقة آتاها الله

(١) الأشباه والنظائر ص ٦.

(٢) الأشباه والنظائر ص ٥.

هداها ، وألهمها تقواها ، وزكاها مولاها ، فرأت محاسنه وسناها ، وفوائده التي لا تتناهى ، فاعترفت بشكرها وتناها ، واغترفت من بحرها ، ولم يلوها عدل عاذل ولا تناها . . .»^(١).

وقد لبي السيوطي رحمه الله تعالى نداء الواجب ، وحمل عبء المسؤولية على كتفيه ، وصنف هذا الكتاب ، لينهل منه الطلاب والعلماء ، ويستفيد منه المفكرون والباحثون ، ويقطف جناه الفقهاء والأصوليون ، ويتنافس في تقريره وتدريسه الجامعات في الدراسات العليا في مختلف البلاد.

مضمون «الأشباه والنظائر» وخطته:

إن مضمون الكتب التي صنف في علم الأشباه والنظائر كانت مختلفة ومتباينة ، ولم يلتزم المؤلفون في القواعد الفقهية والأشباه والنظائر خطة واحدة في التأليف والتصنيف ، وجاءت المصنفات في ذلك متنوعة في الترتيب أو المضمون.

فبعض المؤلفين صنف القواعد الفقهية على الترتيب الألفبائي ، مراعيًا في ذلك الحرف الأول من كل قاعدة ، دون النظر إلى موضوع القاعدة ، وسار على هذه الطريقة بدر الدين الزركشي في كتابه «المنتور في القواعد» وقال في مقدمته: «وربته على حروف المعجم ليسهل تناول طرازها المعلم»^(٢) وبعضهم اعتمد الترتيب الموضوعي من حيث شمولية القاعدة الفقهية والاتفاق عليها ، وقسموا القواعد إلى قواعد كلية ، يرجع إليها أغلب مسائل الفقه ، وقواعد كلية ، يرجع إليها بعض مسائل الفقه ، وقواعد خلافية بين المذاهب ، وسار على هذه الطريقة أكثر مؤلفي كتب

(١) الأشباه والنظائر ص ٥ ، ٦ .

(٢) المنتور في القواعد ٦٧/١ .

الأشباه والنظائر ، كابن السبكي وابن نجيم ، والتزم نهجهم شيخنا السيوطي رحمه الله تعالى ، وأضاف إلى القواعد الفقهية ما يتعلق بالأشباه والنظائر ، كما سنرى ، وهناك من المؤلفين من جمع القواعد الفقهية دون مراعاة لترتيب معين ، وبعضهم رتبها حسب الأبواب الفقهية ، وبعضهم رتبها حسب المباحث الأصولية ، ودمج القواعد الفقهية معها .

واختلف التأليف في القواعد من حيث المضمون أيضاً ، فبعض المصنفين دمج القواعد الفقهية مع القواعد الأصولية ، مثل الحافظ العلائي في «قواعده» والزنجاني في «تخريج الفروع على الأصول» والإسنوي في «التمهيد» ، وهو ما فعله أبو زيد الدبوسي الحنفي في «تأسيس النظر» والعلامة القرافي المالكي في «الفروق» وابن اللحام الحنبلي في «القواعد والفوائد الأصولية» وابن رجب الحنبلي في «القواعد» كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وبعض المصنفين دمج القواعد الفقهية مع موضوعات فقهية أخرى ، وقد يضيفوا إليها مباحث عقائدية ، وهو ما فعله الزركشي «المنثور» والإسنوي في «التمهيد» والقرافي في «الفروق» وغيرهم ، وجاء المصنفون في الأشباه والنظائر فاقترضوا على القواعد الفقهية ، ولكنهم أضافوا إليها بحثاً جديدة تتصل بالموضوع مع اختلاف بينهم في هذه الإضافات ، وانفرد بعض المؤلفين بمنهج خاص ، وترتيب مستقل كالعز بن عبد السلام^(١) .

وبيّن السيوطي رحمه الله تعالى خطته في كتاب «الأشباه والنظائر» وحدد المضمون الفقهي له ، والمباحث التي تناولها فقال :

«وطالما جمعت من هذا النوع (القواعد الفقهية) جموعاً ، وتبعت نظائر المسائل أصولاً وفروعاً ، حتى أوعيت من ذلك مجموعاً جموعاً ،

(١) انظر القواعد ، المقرّي ، مقدمة المحقق ١/١٣٩ ، المنثور في القواعد ، مقدمة المحقق ١/٢٥ ، الاستغناء في الفرق والاستثناء للبكري ، مقدمة المحقق ١/٦٦ .

وأبديت فيه تأليفاً لطيفاً ، لا مقطوعاً فضله ، ولا ممنوعاً ، ورتبته على كتب سبعة :

الكتاب الأول : في شرح القواعد الخمس التي ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها .

الكتاب الثاني : في قواعد كلية ، يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية ، وهي أربعون قاعدة .

الكتاب الثالث : في القواعد المختلف فيها ، ولا يطلق الترجيح لظهور دليل أحد القولين في بعضها ، ومقابله في بعض ، وهي عشرون قاعدة .

الكتاب الرابع : في أحكام يكثر دورها ، ويقبح بالفقيه جهلها : كأحكام الناسي ، والجاهل ، والمكره ، والنائم ، والمجنون ، والمغمى عليه ، والسكران ، والصبي . . . وفروض الكفاية وسننها ، والسفر ، والحرم ، والمساجد ، وغير ذلك ، وفي ضمن ذلك قواعد وفوائد ، وتتمات وزوائد ، تبهج الناظر ، وتسرخ خاطر .

الكتاب الخامس : في نظائر الأبواب ، أعني التي هي من باب واحد ، مرتبة على أبواب الفقه ، والمخاطب بهذا الباب والذي يليه المبتدئون .

الكتاب السادس : فيما افرقت فيه الأبواب المتشابهة .

الكتاب السابع : في نظائر شتى .

ويختتم السيوطي رحمه الله تعالى خطته ، فيقول : «واعلم أن كل كتاب من هذه الكتب السبعة لو أفرد بالتصنيف لكان كتاباً كاملاً ، بل كل ترجمة من تراجمه تصلح أن تكون مؤلفاً حافلاً»^(١) .

(١) الأشباه والنظائر ص ٥ - ٦ .

ويحسن الإشارة هنا إلى كتاب السيوطي «الأشباه والنظائر في النحو» وبيان التشابه =

وخطة السيوطي واضحة جلية ، وتحدد مضمون الكتاب ، وأنه - يجمع من القواعد الفقهية والضوابط الفقهية ، والفروق ، والنظائر ، وتشبه خطته كتاب ابن السبكي بالشافعي ، وابن نجيم الحنفي ، لكن ابن نجيم أضاف إلى كتابه «الفن الرابع: في الألغاز» و«الفن الخامس: الحيل» «الفن السابع: الحكايات والمراسلات» بينما نرى السيوطي تجنب ذلك وتحاشاه .

وسوف نقدم تعريفاً لكل كتاب من هذه الكتب السبعة ، مع إلقاء الضوء على مضمونها ، وما تحتويه من قواعد وفروع وأمثلة فقهية ، وفوائد ومنافع .

الكتاب الأول: في شرح القواعد الخمس التي ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها :

هذا الكتاب يتناول أهم القواعد الفقهية التي أكملها السيوطي رحمه الله تعالى في الكتاب الثاني ، وأفرد هذه القواعد الخمس بالكتاب الأول نظراً لأهميتها ، وعمومها ، وشمولها ، ومحاولة الفقهاء إرجاع جميع الفروع إليها ، وتبناها جميع الفقهاء في مختلف المذاهب ، ووضعوها في كتبهم المذهبية ، وفي كتب القواعد والأشباه والفروق وكتب الفروع^(١) .

= في الخطة ، وأنه رتبته على سبعة فنون ، كل قسم مؤلف مستقل ، له خطة واسم ، وهي : الأول: المصاعد العلية في القواعد النحوية ، الثاني: تدريب أولي الطلب في ضوابط كلام العرب ، الثالث: سلسلة الذهب في البناء من كلام العرب ، الرابع: اللمع والبرق في الجمع والفرق ، الخامس: الطراز في الألغاز ، السادس: المناظرات والمطارحات ، السابع: التبر الذائب في الأفراد والغرائب (انظر: كشف الظنون ١/ ١٠٧) ، وأشرنا سابقاً أن هذا الكتاب طبع عدة مرات ، وهو في أيدي الباحثين والنحويين والأدباء واللغويين .

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٧ .

ونظم بعض الشافعية هذه القواعد الخمس في أبيات من الشعر^(١) ،
فقال :

خمسٌ مُقَرَّرَةٌ قواعدٌ مذهب للشافعي ، فكن بهنَّ خبيراً
ضَرَرٌ يُزال ، وعادةٌ قد حُكِّمَتْ وكذا المشقةُ تجلبُ التيسيراً
والشُّكُّ لا ترفعُ به متيقناً والقصدُ أخلصُ إن أردت أجوراً

وعرض السيوطي رحمه الله هذه القواعد بشيء من الإسهاب والتفصيل
في خمس وتسعين صفحة من كتابه (٧ - ١٠١) ونعرض كل قاعدة منها
باختصار شديد ، وهي :

القاعدة الأولى : الأمور بمقاصدها :

شرحها السيوطي بسبعة مباحث ، بيّن في الأول أصل هذه القاعدة من
الأحاديث النبوية الصحيحة ، والموجزة ، والمحكمة ، والتي تعدّ من
جوامع الكلم^(٢) ، وأهمها الحديث المشهور «إنّما الأعمال بالنيات» ،
وتواتر النقل عن الأئمة لقدر حديث النية ، قال أبو عبيد : ليس في أخبار
النبي ﷺ أجمع وأغنى وأكثر فائدة منه ، واتفق الإمام الشافعي والإمام
أحمد بن حنبل والحافظ ابن مهدي ، وأبو داود ، والدارقطني وغيرهم
على أنه ثلث العلم ، ومنهم من قال ربه ، ووجه كونه ثلث العلم أن
كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه ، فالنية أحد أقسامها الثلاثة
وأرجحها ، لأنها قد تكون عبادة مستقلة ، وغيرها يحتاج إليها ، وأراد
الإمام أحمد بكونه ثلث العلم أنه أحد القواعد الثلاث التي ترد إليه جميع
الأحكام عنده ، ونقل السيوطي الأحاديث التي تعتبر أصول الإسلام ،
ومدار السنة أو الفقه كله عليها ، حتى قال ابن مهدي : «حديث النية يدخل

(١) المنشور في القواعد ١٨/١ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ٨ ، وجاءت هذه القاعدة في المادة الثانية من مجلة الأحكام
العدلية .

في ثلاثين باباً من العلم» ، وقال الشافعي : «يدخل في سبعين باباً»^(١) .

وهنا ذكر السيوطي في المبحث الثاني ما يرجع إلى هذه القاعدة من أبواب الفقه إجمالاً ، وأهمها العبادات ، والجنايات ، والقصاص ، والحدود ، والطلاق ، واللقطة ، والأيمان ، والذبائح ، ثم قال السيوطي : «فهذه سبعون باب ، أو أكثر دخلت فيها النية»^(٢) .

وفي المبحث الثالث عرض السيوطي فيما شرعت النية لأجله ، كتمييز العبادات من العادات ، وتمييز رتب العبادات بعضها عن بعض ، وضرب بعض الأمثلة الفقهية ، ثم بين ما يترتب على ذلك من الأحكام والنظائر الفقهية والمناقشات والآراء ، والضوابط ، والقواعد الفرعية ، والتنبيهات ، وخاصة اشتراط التعرض للفرضية ، والإخلاص في العمل لله تعالى^(٣) .

وانتقل السيوطي في المبحث الرابع إلى وقت النية وأن الأصل في وقتها أول العبادات ونحوها ، وذكر أمثلة من الفروع الفقهية ، وما يخرج عن هذا الأصل أحياناً^(٤) .

وحدد السيوطي في المبحث الخامس محل النية ، وهو القلب في كل موضع ، لأن حقيقتها القصد مطلقاً ، وقيل : القصد المقارن للفعل ، وشرح صلة اللسان بالنية ، وأنه لا يكفي مجرد التلفظ باللسان دون القلب ، وأنه لا يشترط مع القلب التلفظ ، وضرب أمثلة عملية من الفقه

(١) الأشباه والنظائر ص ٩ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ١١ ، ويتفرع على هذه القاعدة وفروعها في المعاملات قاعدة مهمة ومشهورة ، وهي «العبرة في العقود للمقاصد ، لا للالفاظ والمعاني» ، وهي المادة الثالثة من المجلة .

(٣) الأشباه والنظائر (ص ١٢ - ٢٣) .

(٤) الأشباه والنظائر ص ٢٤ - ٣٠ .

والأحكام الفرعية من مختلف الأبواب ، وأن استثناء مواضع يكتفى فيها باللفظ هو رأي ضعيف^(١).

وعدد السيوطي في المبحث السادس شروط النية ، وهي : الإسلام ، والتميز ، والعلم بالمنوي وأن لا يأتي بمناف ، ودعم ذلك بالأدلة الشرعية ، والأمثلة الفقهية ، والاستثناءات في بعض الحالات ، وختم المبحث بصور تصح فيها النية مع التردد أو التعليق^(٢) ، كما ختم البحث في القاعدة الأولى بالمبحث السابع في أمور متفرقة ، كالاختلاف في كون النية ركناً في العبادات أم شرطاً ، وبعض القواعد الأصولية والفقهية والفروع المنشورة ونظائرها المتعددة^(٣) ، ثم قال : «خاتمة : تجري قاعدة الأمور بمقاصدها» في علم العربية أيضاً ، وذكر أمثلة لذلك^(٤).

القاعدة الثانية : اليقين لا يزول بالشك :

بدأ السيوطي بيان دليل هذه القاعدة من الأحاديث الصحيحة ، ثم قال : «اعلم أن هذه القاعدة تدخل في جميع أبواب الفقه ، والمسائل المخرجة عليها تبلغ ثلاثة أرباع الفقه وأكثر ، ثم قال : «ويندرج في هذه القاعدة عدة قواعد»^(٥) ، ويبن القواعد الفرعية التي تدخل في هذه القاعدة ، منها «الأصل بقاء ما كان على ما كان» و«الأصل براءة الذمة» و«من شك هل فعل شيئاً أم لا ، فالأصل أنه لم يفعله» والأصل (في الأمور العارضة) العدم وقاعدة «الأصل في كل حادث تقديره بأقرب زمن» وقاعدة «الأصل في الأشياء الإباحة ، حتى يدل الدليل على التحريم»

(١) المرجع السابق ص ٣٠ - ٣٥ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ٣٥ - ٤٢ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ٤٣ - ٤٩ .

(٤) الأشباه والنظائر ص ٤٩ - ٥٠ .

(٥) الأشباه والنظائر ص ٥٠ ، ٥١ ، وهي المادة الرابعة من المجلة .

وقاعدة «الأصل في الأبضاع التحريم» وقاعدة «الأصل في الكلام الحقيقية» وبين السيوطي أدلة كل قاعدة فرعية ، وأمثلة من المسائل الفقهية التي تدخل تحتها ، ثم شرح تعارض الأصل والظاهر ، وتعارض الأصلين ، وتعارض الظاهرين مع الأمثلة والفروع والمسائل ، وختم الكلام عن القاعدة الثانية بفوائد ، الأولى : زوال حكم اليقين بالشك في بعض المسائل ، وأن الشك على ثلاثة أضرب ، وأن المراد بالأصل هو الاستصحاب المعروف في علم أصول الفقه كأحد أدلة التشريع^(١).

القاعدة الثالثة : الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ :

بعد أن بين السيوطي الأصل في هذه القاعدة من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، قال : «قال العلماء : يتخرج على هذه القاعدة جميع رخص الشرع وتخفيفاته»^(٢) ، ثم عدد أسباب التخفيف في العبادات كالسفر والمرض والإكراه والنسيان والجهل والعسر وعموم البلوى ، وشرح الرخص التي تثبت عند توفر كل سبب من الأسباب السابقة ، ثم ختم الكلام عن هذه القاعدة ، بفوائد مهمة في ضبط المشقة ، وأنواع التخفيف في الشرع ، وأقسام الرخص ، وتعاطي سبب الرخصة ، وأنه يتفرع على هذه القاعدة قاعدة أخرى قال بها الإمام الشافعي ، وهي «إذا ضاق الأمر اتسع» وشرحها ودلل عليها^(٣).

القاعدة الرابعة : الضَّرَرُ يُزَالُ :

وأصلها الحديث الصحيح في قوله ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» ، وقال السيوطي : «هذه القاعدة ينبنى عليها كثير من أبواب الفقه»^(٤) ، وعددها ،

(١) الأشباه والنظائر ص ٥١ - ٧٦.

(٢) الأشباه والنظائر ص ٧٦ ، ٧٧ ، وهي المادة ١٧ من المجلة.

(٣) الأشباه والنظائر ص ٨٣.

(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٤ ، وهي المادة ٢٠ من المجلة.

ثم عرض القواعد التي تتعلق بهذه القاعدة ، وبين الفروع الفقهية والمسائل الجزئية لكل ذلك ، وهذه القواعد هي : «الضروريات تبيح المحظورات بشرط عدم نقصانها عنها» وقاعدة «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها» ونبه على أنه يخرج منها صور : العرايا ، والخلع ، واللعان ، وأضاف فائدة أن مراتب المصالح خمس ، وهي ضرورة وحاجة ومنفعة وزينة وفضول ، ثم أضاف تذييلاً ، وقال : «قريب من هذه القاعدة : ما جاز لعذر بطل بزواله»^(١) ، كما يتفرع على القاعدة الأصلية قاعدة «الضرر لا يزال بالضرر» وقاعدة «إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرر بارتكاب أخفهما» وقاعدة «الحاجة تنزل منزلة الضرورة ، عامة كانت ، أم خاصة . ومجموع القاعدة الأصلية والقواعد التي تتعلق بها يشكل الأصل لنظرية الضرورة الشرعية التي أشرنا لها في النظريات الفقهية» .

القاعدة الخامسة : العادة مُحَكِّمَةٌ :

أشار السيوطي إلى أصلها ، وأنها تمثل أحد مصادر التشريع في أصول الفقه ، وهو العرف ، فقال : «اعلم أن اعتبار العادة والعرف رجع إليه في الفقه في مسائل لا تعد كثرة ، فمن ذلك»^(٢) ، وعددها ، ثم شرح ما يتعلق بهذه القاعدة وخمسة مباحث : الأول : فيما تثبت به العادة ، وذلك يختلف من باب فقهي إلى آخر ، والمبحث الثاني : إنما تعتبر العادة إذا اطَّردت ، فإن اضطربت فلا ، وإن تعارضت الظنون في اعتباره فخلافاً ، وفي ذلك فروع فقهية كثيرة ، واستطرد إلى فصل في تعارض العرف مع الشرع ، وفصل في تعارض العرف مع اللغة ، وفصل في تعارض العرف العام والخاص ، مع ذكر ضوابط لذلك وتنبيهات فيه ، والمبحث الثالث : العادة المطردة في ناحية ، هل تنزل عادتهم منزلة الشرط ، وفيه صور ،

(١) الأشباه والنظائر ص ٨٥ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ٨٩ ، ٩٠ ، وهي المادة ٣٦ من المجلة .

والمبحث الرابع: العرف الذي تحمل عليه الألفاظ ، إنما هو المقارن السابق دون المتأخر ، وأكد في المبحث الخامس على ضابط مهم للفقهاء ، وهو: كل ما ورد به الشرع مطلقاً ، ولا ضابط له فيه ، ولا في اللغة ، يرجع فيه إلى العرف ، وذكر السيوطي أمثلة لذلك ، كالحرز ، واليمين ، والتفرق في البيع ، والقبض وغير ذلك^(١).

وتوقف السيوطي رحمه الله تعالى عن بيان القواعد التي تتفرع على هذه القاعدة ، وجاءت في مجلة الأحكام العدلية فنشير إليها ، وهي: استعمال الناس حجة يجب العمل بها ، المادة ٣٧ ، إنما تعتبر العادة إذا طردت أو غلبت ، المادة ٤١ ، العبرة للغالب الشائع ، لا للنادر ، المادة ٤٢ ، الحقيقة تترك بدلالة العادة ، المادة ٢٤ ، الكتاب كالخطاب ، المادة ٦٩ ، الإشارة المعهودة الأخرس كالبيان باللسان ، المادة ٧٠ ، المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، المادة ٤٣ ، التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، المادة ٤٥ ، المعروف بين التجار كالمشروط بينهم ، المادة ٤٤ ، لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان ، المادة ٣٩^(٢).

ومجموع هذه القواعد تكون الشطر الأساسي لنظرية العرف والعادة في الفقه وأصوله^(٣) ، وبانتهاء الشرح على قاعدة «العادة محكمة» تنتهي القواعد الخمس الأساسية التي خصص لها السيوطي الكتاب الأول ، ثم انتقل إلى الثاني .

(١) الأشباه والنظائر ص ٩٠ - ١٠١ .

(٢) انظر: المدخل الفقهي العام ٩٩٤/٢ .

(٣) انظر نظرية العرف في كتاب: المدخل الفقهي العام ٨٣٠/٢ وما بعدها ، العرف والعادة ، أبو سنة ص ١٣ .

الكتاب الثاني: في قواعد كلية يتخرج عليها مالا ينحصر من الصور الجزئية:

عرض السيوطي في هذا الكتاب أربعين قاعدة ، وهي قواعد فقهية كلية وعامة وشاملة ، وهي معتبرة غالباً في كافة المذاهب ، ويقع الخلاف في إدخال بعض المسائل تحتها ، ولكن هذه القواعد تأتي في الدرجة الثانية بعد القواعد الخمس الأولى ، ومجموعهما يشكل القواعد الفقهية بالاصطلاح الدقيق ، وقد اقتصر بعض المصنفين عليها ، وما يتفرع منها ، وحصرها اهتمامهم في هذا النوع دون غيره .

وعرض السيوطي هذه القواعد الكلية الأربعين في ستين صفحة (١٠١ - ١٦١) ، وبين أصل كل قاعدة ، وتعليلها ، والتدليل عليها ، ثم ذكر الفروع الفقهية التي تدخل تحتها ، ونختار نماذج منها للعرض .

١ - الاجتهادُ لا يُنْقَضُ بمثله^(١) ، ونبه السيوطي في هذه القاعدة إلى أن تطبيقها في الاجتهاد والحكم القضائي ينحصر في الماضي ، ولكن يغير الحكم في المستقبل لانتفاء الترجيح الآن ، وأنه يستثنى من القاعدة صور ، وعددها ، ثم أردف ذلك بفائدة عن السبكي ، وهي : «إذا كان للحاكم أهلية الترجيح ، ورجح قولاً بدليل جاز ، ونفذ حكمه ، وإن كان مرجوحاً عند أكثر الأصحاب ما لم يخرج عن مذهبه»^(٢) ، ثم ذكر لهذه القاعدة خاتمة ، وهي : «ينقض قضاء القاضي إذا خالف نصاً ، أو إجماعاً ، أو قياساً جلياً ، وقال القرافي : أو خالف القواعد الكلية ، قال الحنفية : أو كان حكماً لا دليل عليه ، وقال السبكي : وما خالف المذاهب الأربعة فهو كالمخالف للإجماع»^(٣) .

(١) الأشباه والنظائر ص ١٠١ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ١٠٤ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ١٠٥ .

٢ - إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام ، ولها فروع كثيرة ، ويخرج عنها فروع أيضاً ، ويدخل فيها قاعدة: «إذا تعارض المانع والمقتضي ، قدم المانع» وقاعدة عكسية: «الحرام لا يحرم الحلال» وهي غير مسلمة^(١).

٣ - تصرف الإمام على الرعية مَنُوط بالمصلحة وبين السيوطي أن هذه القاعدة نص عليها الإمام الشافعي ، وتحدد هذه القاعدة السياسة الشرعية للإمام ، والوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية ، ولها فروع فقهية كثيرة ، ذكر السيوطي بعضها^(٢).

٤ - الحدود تُدْرَأُ بالشبهات ، وهذه القاعدة جزء من حديث شريف ، خرّجه السيوطي ، وعدد رواته ، وهذه القاعدة تعتبر محوراً رئيساً في الحدود الشرعية والقصاص ، لذلك صرح السيوطي بذلك فقال: «الشبهة تسقط الحد ، ويسقط القصاص أيضاً بالشبهة ، الشبهة لا تسقط التعزير ، وتسقط الكفارة»^(٣).

٥ - الخراج بالضمنان ، وهذه القاعدة نص حديث صحيح ، أخرجه الشافعي وأحمد وأصحاب السنن ، كما بينه السيوطي ، وبين المراد من القاعدة ، والأمثلة لتطبيقها ، وما يرد عليها من الأسئلة والأجوبة^(٤).

ونكتفي بهذه القواعد كنماذج للقواعد الكلية التي أفرد لها السيوطي الكتاب الثاني ، وبين الضوابط الفقهية التي تدخل فيها ، والقواعد التي تتفرع عنها^(٥).

(١) الأشباه والنظائر ص ١٠٥ - ١١٦ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ١٢١ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٤) الأشباه والنظائر ص ١٣٥ .

(٥) الأشباه والنظائر ص ١٣٦ وما بعدها .

الكتاب الثالث: في القواعد المختلف فيها ، ولا يطلق الترجيح ،
لاختلافه في الفرع :

وهذه القواعد كما يظهر من عنوانها أنها من قواعد الخلاف ، وتمثل
أحياناً الخلاف بين المذاهب ، ولذلك تعتبر قواعد مذهبية تخدم المذهب
الذي يعتنقه المصنف ، وقد تكون أحياناً أخرى قواعد خلافية في نفس
المذهب ، ويختلف فقهاء المذهب فيها ، وينتج عن الخلاف فيها خلاف
بين المذاهب ، أو خلاف في مسائل فرعية في المذهب ، ولذلك ترد
معظم هذه القواعد بصيغ استفهامية ، إشارة إلى اختلاف العلماء فيها ،
وبهدف شحذ الأذهان بها ، ولفت الأنظار إلى أهميتها ، وبيان المعاناة
في ربط الفروع بأصولها وضوابطها .

وكثير من هذه القواعد توجد - في الأصل - في كتب الفقه ، وترد على
أسنة الفقهاء عند التعرض لسبب الخلاف في المسألة ، أو في كتب الفقه
المقارن ، وكتب علم الخلاف ، كبداية المجتهد ، لابن رشد ،
والمختصر الفقهي لابن الحاجب .

كما أن بعض الفقهاء حصر اهتمامه في هذا النوع من القواعد
كالونشريسي المالكي في «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك» وأبي
زيد الدبوسي الحنفي في كتابه «تأسيس النظر» ويظهر ذلك في كتاب
«تخريج الفروع على الأصول» للزنجاني الشافعي ، و«التمهيد في تخريج
الفروع على الأصول» للإسنوي ، بينما وضع ابن نجيم بعض هذه القواعد
في النوع الثاني من القواعد الكلية ، ولم يفرد لها وحدها^(١) .

وعرض السيوطي رحمه الله تعالى في الكتاب الثالث عشرين قاعدة

(١) انظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ١٠٥ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، القواعد الفقهية
للندوي ص ١٦٦ ، القواعد ، للمقري ، مقدمة المحقق ١/١١١ .

مختلفاً فيها ، وأكد أنه لا يطلق الترجيح فيها ، لاختلاف العلماء في فروعها ، وصاغها بطريقة السؤال ، ووزعها على مختلف أبواب الفقه ، ونذكر هنا نماذج منها :

«الجمعة ظهر مقصورة ، أو صلاة على حيالها؟» «النذر هل يسلك به مسلك الواجب أو الجائز؟» «العبرة بصيغ العقود أو معانيها؟» «الحوالة هل هي بيع أو استيفاء؟» «الإبراء هل هو إسقاط أو تمليك؟» «إذا بطل الخصوص هل يبقى العموم؟» «المانع الطارئ هل هو كالمقارن؟» ، وذكر السيوطي الفروع الفقهية ، والمسائل المتعددة في كتب الفقه ، وآراء العلماء المختلفة في كل مسألة ، والتنبيهات والقواعد الفرعية لبعض القواعد الرئيسة^(١) .

الكتاب الرابع : في أحكام يكثر دورها ، ويقبح بالفقيه جهلها :

وهذه الأحكام شبيهة بالضوابط الفقهية التي تضم أحكاماً كثيرة في باب فقهي معين ، وقد عدد السيوطي هذه الضوابط في خطة كتابه ، فقال : «أحكام الناسي ، والجاهل ، والمكره ، والنائم ، والمجنون ، والمغمى عليه ، والسكران ، والصبي ، والأنثى ، والخنثى ، والمتحيرة ، والأعمى ، والكافر ، والجان ، والمحارم ، والولد ، والوطء ، والعقود ، والفسوخ ، والصريح ، والكناية ، والتعريض ، والكتابة ، والإشارة ، والملك ، والدين ، وثمن المثل ، وأجرة المثل ، ومهر المثل ، والذهب والفضة ، والمسكن ، والخادم ، وكتب الفقه ، وسلاح الجندي ، والرطب ، والعنب ، والشرط ، والتعليق ، والاستثناء ، والدُّور ، والحصر ، والإشاعة ، والعدالة ، والأداء ، والقضاء ، والإعادة ، والإدراك ، والتحمل ، والتعبدية ، والموالة ،

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٦٢ - ١٨٧ .

وفروض الكفاية ، وسننها ، والسفر ، والحرم ، والمساجد ، وغير ذلك ، وفي ضمن ذلك قواعد وفوائد ، وتتمات ، وزوائد ، تبهج الناظر ، وتسر الخاطر»^(١).

ويظهر من بيان هذه المسائل أهميتها ، وكثرة وقوعها في الحياة ، وكثرة السؤال عنها ، والاستفتاء فيها ، مما يوجب على العالم والفقهاء معرفتها ، ويقبح به جهلها ، لأنها من الأمور اليومية عند الناس ، واستطراد السيوطي في بعضها ، كالقول في العقود ، فعرض تقسيمات العقود المختلفة^(٢) ، والفسوخ ، وفرقة النكاح ، والألفاظ الصريحة في أبواب الفقه المتعددة ، وأسهب الكلام في هذا الكتاب ، وتناول الفروع الفقهية الكثيرة ، والمسائل الجزئية المتكررة ، فغطى هذا الكتاب حيزاً كبيراً من كتاب السيوطي رحمه الله تعالى ، وكان أشبه بكتب الفقه في المذهب الشافعي^(٣).

الكتاب الخامس: في نظائر الأبواب:

شرح فيه السيوطي الأحكام المتشابهة ، والنظائر ، والضوابط ، على ترتيب أبواب الفقه ، ابتداء من كتاب الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، ثم البيع وبقية العقود ، ثم الفرائض ، والوصايا ، والنكاح ، والطلاق ، ثم القصاص ، والتعزير ، والحدود ، ثم الجهاد ، وأخيراً: القضاء والشهادات والدعوى والبيانات واليمين ، وبين السيوطي الأحكام الفقهية لأهم المسائل والضوابط لهذه الأبواب حسب المذهب الشافعي ،

(١) الأشباه والنظائر ص ٤ - ٥ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ٢٧٥ - ٢٨٧ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ١٨٧ - ٤٢٢ ، وتناول ابن نجيم أغلب هذه الموضوعات بعنوان الفن الثاني الفوائد ، ورتبها حسب الأبواب الفقهية . (الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ص ١٦٦ - ٣٠٠) .

مما يقرب هذا الكتاب أيضاً من كتب الفقه في المذهب الشافعي^(١).

الكتاب السادس: في أبواب متشابهة ، وما افرقت فيه :

تعرض فيه السيوطي لعدد من المصطلحات الشرعية ، والأحكام الفقهية التي يظهر عليها التشابه ، وتلتقي في بعض الأحكام ، ولكنها تختلف عن بعضها في أحكام أخرى ، وتفترض فيما بينها بفوارق دقيقة قد يصعب على الناظر كشفها ، كالفرق بين اللبس والمس ، والحيض والنفاس ، والأذان والإقامة ، والتَّمَتُّع والقران في الحج ، والإجارة والبيع ، والقضاء والحسبة ، والشهادة والرواية ، وقتال الكفار وقتال البغاة ، وبين السيوطي رحمه الله تعالى باختصار الفوارق بين كل مسألتين مما يكشف عن حقائقها وأحكامها^(٢).

الكتاب السابع: في نظائر شتى :

ويتضمن مسائل فقهية معدودة ، وبعض القواعد المحصورة التطبيق ، ومجموعة من الفوائد الفقهية ، بعضها من استنتاج السيوطي ، وبعضها منقول من كتب الفقه ، أو عن لسان بعض الفقهاء ، وجاء في هذا الكتاب ضابط واحد^(٣) ، وهو «البدل مع مبدله أقسام» ، وقاعدتان هما : «تفويت الحاصل ممنوع ، بخلاف تحصيل ما ليس بحاصل» «الواجب الذي لا يتقدر إذا زاد فيه على القدر المجزئ» ، هل يتصف الجميع بالوجوب ، وهي قاعدة خلافية ، ومن أمثلة المسائل : «الخلاف الأصولي في أن النسخ رفع أو بيان؟» ومن أمثلة الفوائد : «البناء على فعل الغير في

(١) الأشباه والنظائر ص ٤٢٢ - ٥١٥ ، وتناول ابن نجيم معظم هذه الموضوعات وموضوعات الكتاب السادس في الفن الثالث ، كتابه : الجمع والفرق ، (الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ص ٣٠٢ - ٣٩٢).

(٢) الأشباه والنظائر ، للسيوطي ص ٥١٥ - ٥٣١ .

(٣) الأشباه والنظائر ص ٥٣١ - ٥٤٠ .

العبادات فيه نظائر» و«الوكيل في النكاح يجب عليه ذكر الموكل» و«الفقير والمسكين حيث أطلق أحدهما اشتمل الآخر ، فإذا ذكرا اختص كل بمعناه ، قال البلقيني: ونظير ذلك الكافر والمشرک ، وقلت: ونظير ذلك في العربية: الظرف والمجرور ، ومن نظائر ذلك أيضاً: الإيمان والإسلام» ، وختم السيوطي هذا الكتاب بذكر المسائل التي يُفتى فيها على القديم (المذهب القديم للشافعي) ، وهي بضع عشرة مسألة ، نقلها عن النووي في «المجموع شرح المَهْدَب»^(١) .

وبعد هذا العرض الموجز لمضمون كتاب «الأشباه والنظائر» فإننا نحيل القارئ الكريم إلى الاطلاع المباشر ، والدراسة التفصيلية لهذا الكتاب القيم ، ليتحقق له النفع العلمي ، ويضع عينه ويده على هذا الكثر الثمين ، ويطمئن قلبه إلى هذه الثروة الفقهية التي دبجها السيوطي بيراعه ، وخلفها للأجيال بعده .

وبذلك نصل إلى استنباط منهج السيوطي ، ثم التقييم العلمي لكتابه .

منهج السيوطي في «الأشباه والنظائر» :

نستطيع من دراسة الكتاب ، وتتبّع قواعده ، وضوابطه ، وفروقه ، ونظائره ، وضرب الأمثلة والاستدراكات والأدلة ، أن نستخرج منهج السيوطي بالأمور التالية :

١ - يظهر من خطة الكتاب السابقة أن السيوطي رحمه الله تعالى رتب كتابه من الأهم إلى المهم ، ومن القواعد الخمس الأساسية الرئيسة ، إلى القواعد الكلية المتفق عليها ، ثم انتقل إلى قواعد الخلاف بين المذاهب ،

(١) الأشباه والنظائر ص ٥٤٠ ، وأضاف ناشر الكتاب صفحتين فيهما قصيدة نظمها بعضهم في المسائل التي لا يعذر فيها الجهل (ص ٥٤١ - ٥٤٢) ، ثم جاء فهرس الكتاب في ١٤ صفحة (٥٤٣ - ٥٥٦) .

أو بين الأصحاب في المذهب ، ثم يتن الضوابط والفوائد والقواعد والتنبيهات والأحكام الخاصة بفقه المذهب الشافعي .

٢ - كان السيوطي يضع القاعدة ، ويبدأ بها ، ثم يبين أصلها ، ومصدرها ، ودليلها من آيات القرآن الكريم إن وجدت ، ثم من نصوص السنة المطهرة ، ثم من الآثار الواردة عن الصحابة ، ثم من أقوال الأئمة والأصحاب .

واستدلّاه بآيات القرآن الكريم يدل على الفهم الثاقب ، وهو صاحب القدح المعلى في علوم القرآن عامة ، والتفسير وآيات الأحكام خاصة ، وله الكتب المشهورة في علوم القرآن والتفسير .

وركز كثيراً على الاستدلال بالسنة الشريفة ، وهو المارد الذي لا يشق له غبار في الحديث وعلومه ، وصنف أكبر موسوعة حديثة وصلت إلينا طوال التاريخ الإسلامي ، وهذا ما صرح به في مقدمة كتابه ، فقال : «وقد صدرت كل قاعدة بأصلها من الحديث والأثر»^(١) ، ولم يكتف السيوطي بإيراد الأحاديث الشريفة ، بل قام بتخريجها ، وعزوها إلى مصادرها ، وبيان درجة الحديث ، ومدى صحة الاعتماد عليها ، وهذا في حد ذاته عمل جبار ، ولكنه لا يستكثر على السيوطي المحدث الحافظ ، ولذلك قال : «وحيث كان في إسناد الحديث ضعف أعملت جهدي في تتبع الطرق والشواهد لتقويته على وجه مختصر ، وهذا أمر لا ترى عينك الآن فقيهاً يقدر عليه ، ولا يلتفت بوجهه إليه»^(٢) .

واستعان السيوطي كثيراً بالآثار ، وما ثبت عن الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء ، واعتبر أن الأصل في «الأشباه والنظائر» هو ما جاء في

(١) الأشباه والنظائر ص ٥ .

(٢) الأشباه والنظائر ص ٥ .

كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري ، المعروف بكتاب «السياسة القضائية» أو «دستور القضاء في الإسلام» ، فقال السيوطي : «اعلم أن فن الأشباه والنظائر فن عظيم . . . وقد وجدت لذلك أصلاً من كلام عمر بن الخطاب (وذكر سند روايته لذلك . . . وفيه) اعرف الأمثال والأشباه ، ثم قس الأمور عندك ، فاعمد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى . . .» ، وبين السيوطي وجه الاستدلال من الكتاب على الأشباه ، والنظائر ، والفروق ، والتكليف بالاجتهاد .

٣ - جمع السيوطي بين القاعدة الكلية الفقهية وبين الفروع الفقهية ، فبدأ بصياغة القاعدة الكلية ، ثم بين القواعد الفرعية لها أحياناً ، وذكر المسائل الفقهية كتطبيق عملي للقاعدة ، كما أردف القواعد بالضوابط مع الأمثلة المتعددة من الأحكام ، وما يرد على بعضها من الاستثناءات ، وما يقع بينها من الفروق ، ولذلك جاء عنوان الكتاب «الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية» .

٤ - وشح السيوطي كتابه بنقل آراء كثير من الأئمة والفقهاء والعلماء ، ونسب الأقوال إلى أصحابها ، بأمانة علمية ، وصرح أحياناً باسم الكتاب وعنوانه الذي نقل منه ، أو اعتمد عليه ، أو ورد فيه الإشكال ، أو الاعتراض ، أو الفائدة ، أو التنبيه ، مع بيان النصوص الفقهية التي أخذت منها القواعد^(١) .

٥ - وردت في الكتاب مقارنات كثيرة مع المذاهب الفقهية ، وكان ينقل آراء علماء بقية المذاهب ، ويذكر أقوالهم ، ويقتبس النصوص من كتبهم مع التصريح بها والعزو إليها ، وخاصة كتب القواعد ، دون تعصب أو تزمت ، أو تعريض بأحد ، بل يظهر الاحترام والتقدير للجميع ، مع الموضوعية في البحث .

(١) انظر على سبيل المثال القاعدة الخامسة (الأشباه والنظائر ص ١٢١) .

كما أن تبحر السيوطي بعلوم العربية في النحو والأدب واللغة شدّه إلى بعض المقابلات ، وبيان الاتفاق بين القواعد الفقهية وقواعد اللغة العربية وبادئها^(١).

٦ - لقد اقتفى السيوطي غالباً في جمع القواعد الفقهية وترتيبها منهج ابن الوكيل وابن السبكي ، دون أن يصرح بذلك ، وجاء ابن نجيم وسار على غرار ابن السبكي ، وصرح في مقدمته على ذلك ، ومع هذا فإننا نجد فروقاً كثيرة بين الكتب الثلاثة ، مع كثرة وجوه الاتفاق ، والعبارات الواحدة التي تظهر عند المقارنة .

ومن الفوارق بين الكتب الثلاثة أن السبكي اقتصر على القواعد الفقهية ، وما يلحق بها من الأشباه والنظائر ، بينما أضاف ابن نجيم بعض الفنون التي لا تدخل في الأشباه والنظائر كالحيل والألغاز ، وأضاف السيوطي الكتاب الثالث في الأحكام التي يكثر دورها ويقبح بالفقيه جهلها ، وانفرد ابن السبكي بثلاثة كتب في أصول كلامية ، ومسائل أصولية ، وكلمات نحوية^(٢).

المآخذ على «الأشباه والنظائر» :

ومن دراسة الكتاب السابقة ، ومنهجه الخاص ، نستطيع أن نبدي بعض الملاحظات عليه ، أهمها :

١ - عدم التناسق والتناسب في توزيع الكتب المؤلفة منه ، فالأول :

(١) قال السيوطي - على سبيل المثال - : «لهذه النظائر أشباه في العربية . . . ثم قال : تجري قاعدة «الأمر بمقاصدها» في علم العربية أيضاً» (الأشباه والنظائر ص ٤٩) وقال : «ونظير ذلك في العربية : الظرف والمجرور» (الأشباه والنظائر ص ٥٣٩).

(٢) انظر : القواعد الفقهية للندوي ص ١٣٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ ، الاستغناء في الفرق والاستثناء ، مقدمة المحقق ٦٨/١ ، المثور في القواعد ، مقدمة المحقق ٢٦/١ ، القواعد للمقري ، مقدمة المحقق ١٣٤/١ .

تناول القواعد الفقهية الخمس: مئة صفحة ، وجاء الثاني لشرح أربعين قاعدة كلية في إحدى وستين صفحة ، وحصر الثالث القواعد المختلف فيها في خمس وعشرين صفحة ، بينما توسع الكتاب الرابع في الأحكام التي يكثر دورها ، وغطى ٣٣٥ صفحة وجاء الكتاب الخامس في ثلاث وتسعين صفحة ، واكتفى السادس بالأبواب المتشابه وما افرقت فيه في ست عشرة صفحة ، وكذا الكتاب السابع في نظائر شتى في عشر صفحات ، فالبون شاسع في حجم الكتب ، وكان بالإمكان ضم الكتب الثلاثة الأولى في كتاب واحد (١ - ١٨٧) ثم تقسيم القواعد إلى ثلاثة أنواع كما وردت فيه كما يمكن ضم الكتب الثلاثة الأخيرة في كتاب واحد ، فيخف الفرق الواسع بين الكتب .

٢ - لم يصرح السيوطي رحمه الله تعالى بكتب «الأشباه والنظائر» التي اقتبس منها ، أو نهج مسلكها ، لكنه حافظ على الأمانة العلمية بعزو القواعد والضوابط والآراء إلى أصحابها ، ومنهم أصحاب «الأشباه والنظائر» كابن السبكي خاصة ، كما أنه يذكر العالم أو الفقيه ، وقد يكون له عدة كتب ومصنفات ، كالنووي ، وابن السبكي ، والإسنوي ، والبلقيني وغيرهم ، ولم يحدد الكتاب الذي قصده غالباً ، لكن حدده في بعض الأحيان .

٣ - دمج السيوطي القواعد الفقهية خاصة ، وأحكام الأشباه والنظائر عامة ، بموضوعات فقهية يبحثها العلماء والفقهاء في كتب الفقه والفروع ، وهو ما حذر منه ابن السبكي رحمه الله فقال: «وراء هذه القواعد ضوابط يذكرها الفقهاء وليست عندنا من القواعد الكلية ، بل من الضوابط الجزئية لتدريب المبتدئين ، لا لخوض المجتهدين ، ولتمرين الطالبين ، لا لتحقيق الراسخين . . وأغراض الناس تختلف ، ولكل مقصده ، ولا ننكر على أحد مقصده ، وإنما ننكر إدخال شيء في شيء لا

يليق به ، ويكبر حجم الكتب بما لا حاجة إليه»^(١).

وتنبه السيوطي إلى ذلك ، ولكنه لم يتجنبه أو يحذر منه ، بل وقع فيه ، ووضعه في كتابه ، وصرح به في عنوان الكتاب الرابع ، فقال: «أحكام يكثر دورها ، ويقبح بالفقيه جهلها»^(٢) ، وهذه الأحكام محلها كتب الفقه ، وليس كتب القواعد الفقهية ، أو الأشباه والنظائر ، وصرح بعنوان الكتاب الخامس فقال: «والمخاطب بهذا الباب ، والذي يليه ، المبتدئون»^(٣).

٤ - ذكر السيوطي بعض القواعد الفرعية مما لا يمكن اعتبارها قواعد حسب المصطلح عليه ، فبعضها ضوابط فقهية ، وبعضها مجرد أحكام فقهية جزئية ، كما حوى الكتاب بعض القواعد الأصولية ، وقواعد النحو واللغة العربية ، وهذا خروج عن موضوع الكتاب ، ومضمونه ، ومنهاجه ، وغرضه الأساسي.

٥ - عرض السيوطي بعض القواعد الكلية ، ثم بين ما يتفرع عنها من قواعد ، ولكن عمله لم يكن مطرداً ، واقتصر على بعض الحالات ، وأغفل ذلك في أكثر القواعد ، كما أشرنا سابقاً في القواعد المتفرعة عن القاعدة الكلية «العادة محكمة».

٦ - صرح السيوطي في الكتاب الأول أنه في القواعد الخمس الأساسية ، ولكنه جعلها عند الشرح ست قواعد ، فقال القاعدة السادسة: «العادة محكمة» وجعل القاعدة الخامسة: «الحاجة تنزل منزلة الضرورة» ولعل هذا خطأ مطبعي ، أو خطأ في النسخ ، لأن هذه القاعدة الخامسة

(١) القواعد ، المقري ، عن مقدمة التحقيق ١/ ١٤٤٠.

(٢) الأشباه والنظائر السيوطي ص ١٨٧.

(٣) المرجع السابق.

هي الفرع الخامس للقاعدة الرابعة ، وتأتي «العادة محكمة» هي القاعدة الخامسة الأساسية^(١).

أهمية كتاب «الأشباه والنظائر»:

إن كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي يمثل الذروة في كتب القواعد الفقهية عامة ، وعند الشافعية خاصة ، شكلاً ومضموناً ، وفيه غزارة علمية كبيرة ، وقواعد كثيرة ، وأحكام فقهية ، وفروع جزئية ، ومسائل عملية لا تحصى ، مما يدل على سعة اطلاع السيوطي ، وعمق معرفته في الفقه ، ليلحق الفروع من أبواب مختلفة بالقاعدة ، مع توشيحها بالفوائد الجمّة ، والتنبيهات الدقيقة ، والتعقيبات الفريدة ، والعبارات الواضحة ، والأسلوب المشرق ، والبيان الفصيح ، والتنويع المحبب ، والمسائل المشوقة .

والكتاب زاخر بمختلف فنون الأشباه والنظائر ، ويحتوي على مجموعة القواعد الكلية ، والأحكام المتناظرة ، والفروق الدقيقة ، وحشد كبير من الجزئيات الماثورة في كتب الشافعية ، مما يؤكد أيضاً أن السيوطي فقيه متبحر ، وله باع طويل في المذهب الشافعي ، واطلاع واسع على كتب المذهب وكتب القواعد والأشباه ، وله حافظة لا تضاهى للمسائل الفقهية ، وموهبة نادرة في معرفة مظان الأحكام الفرعية ، مما يوحي أيضاً بأنه يملك مكتبة فقهية كبيرة ، ويملك ناصية القلم والبيان لصياغة القواعد ، وهو من هو في الأدب والنحو واللغة .

وعرف الناس والعلماء مكانة هذا السفر العظيم ، والكتاب الفريد ، فأقبلوا عليه بالدراسة والمطالعة ، والنسخ والنشر ، وفي مجال التعليم والتدريس ، واعتنوا به عناية فائقة ، وذاع صيته ، وانتشر فضله قديماً ،

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٨ ، ٨٩ .

كما تبوأ المكانة العالية حديثاً لدى الجامعات الإسلامية وكليات الشريعة ، وأصبح مرجعاً أساسياً بطلاب الدراسات العليا ، ومصدراً رئيساً في البحوث الفقهية والأصولية ، ومنهلاً للتكوين الفقهي .

ومن مظاهر أهمية الكتاب أنه حظي برعاية المؤلفين ، وظهرت حوله دراسات متعددة ، منها :

١ - قام أبو بكر بن أبي القاسم الأهدل (١٠٣٥هـ) فاستخلص القواعد من «الأشباه والنظائر» ونظمها في منظومة باسم «الفرائد البهية» ، ثم شرح هذه المنظومة الشيخ عبد الله بن سليمان الجوهرى اليمنى (١٢٠١هـ) وسمى الشرح «المواهب السنية على الفوائد البهية»^(١) .

ثم قام الشيخ محمد ياسين بن عيسى الفاداني المكي بوضع حاشية على هذا الشرح ، وأسماها «الفوائد الجنية حاشية على المواهب السنية» وطبعت :

٢ - حاشية على الأشباه والنظائر للسيوطي لبهاء الدين محمد بن محمد باقر السيزاوري الشافعي (١٠٣٣هـ) .

٣ - حاشية على الأشباه والنظائر للسيوطي ، لإبراهيم بن السيد صبغة الله ، المعروف بفصيح الدين البغدادي الشافعي (١٢٩٩هـ)^(٢) .

وإن كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي قد وفى الموضوع حقه ، ولم يترك مجالاً لمستزيد ، ووصل إلى غاية الجمع والإتقان ، والإحاطة والشمول ، ولذلك لم يقدم أحد - فيما نعلم - طوال خمسة قرون مضت

(١) طبعت المذاهب السنية شرح الفرائد البهية بهامش «الأشباه والنظائر» ، للسيوطي ، طبعة مكة سنة ١٣٣١هـ ، (انظر: معجم المطبوعات العربية ص ١٠٧٣) .

(٢) انظر: القواعد الفقهية ، للندوي ص ٤٤٢ نقلاً عن هدية العارفين ٤٢/٥ - ٤٣ ، ٣١٦/٦ .

على مضاهاة هذا الكتاب ، أو التصنيف في موضوعه ، ولذلك تنافست المطابع ودور النشر والمكتبات على طباعته وتصويره وتوزيعه في أرجاء العالم الإسلامي ، وتصدّر رفوف المكتبات العامة والخاصة .

ولكن لا بدّ من الاعتراف بالحق ، ولو كان مُرّاً ، أن هذا الكتاب لم يخدم خدمة كافية تليق بأهميته ومكانته ، وأنه يحتاج إلى تحقيق علمي رفيع ، لعزو الأحاديث إلى كتب السنة المشهورة ، ونسبة الأحكام الفقهية والمسائل المتنوعة إلى مكانها من كتب الفقه المعتمدة في المذهب ، ليتم نشره محققاً بطباعة أنيقة ، وثوب قشيب ، ومحلى بالفهارس الضرورية لتسهيل الرجوع إليه ، والاستفادة منه عملياً بشكل كامل .

وقام العلماء في مختلف العصور بالشناء على الكتاب ، والإطراء به ، وبيان جواهره ومكنوناته للناس ، ونكتفي في هذا الخصوص بنص واحد لشاب هندي من ندوة العلماء ، وهو الأستاذ علي أحمد الندوي قال فيه ، بعد أن تعرض للكتاب في مواطن متعددة من رسالته : «الكتاب المذكور من أروع المؤلفات في القواعد الفقهية ، وأغزرها مادة ، وأحسنها ترتيباً وتنسيقاً ، تداولته أيدي العلماء في كل مكان ، وحظي بحسن القبول والرواج ، وفي الواقع أتى فيه المؤلف بخلاصة مركزة ، وزبدة مستخلصة من كتب السابقين في هذا المجال ، فجمع فيه معظم ما تفرّق وتناثر من القواعد في كتب هذا الفن لتاج الدين السبكي والعلائي والزرکشي ، وأضحى بذلك مصدراً خصباً لدراسة القواعد الفقهية خاصة في المذهب الشافعي»^(١) .

خاتمة : وأختم هذا البحث بتلخيص أهم النقاط فيه ، مع اقتراح وتوصية .

(١) القواعد الفقهية ، للندوي ص ٢٠٨ .

١ - يعتبر السيوطي رحمه الله تعالى من أعلام المسلمين البارزين المشهورين الذين أطبق ذكرهم وفضلهم الآفاق ، ولهم خدمات جلى في تاريخ الإسلام ، ويد بيضاء في العلوم الإسلامية ، والثقافة العالمية ، والحضارة الإنسانية .

٢ - إن القواعد الفقهية ذات أهمية كبيرة في تاريخ الفقه الإسلامي ، وتمثل حلقة الوصل بين الفروع الجزئية والنظريات الفقهية ، وتحتل المكان الأول في الدراسات الشرعية والفقهية ، وتأتي في مركز الصدارة في التشريعات والأنظمة .

٣ - يمثل كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي ذروة المجد في التأليف والتصنيف ، والجمع والإحاطة ، والفصاحة والبيان ، والتبويب والترتيب .

٤ - أقترح أن تشمل رعاية الجامعات ، والمجامع الفقهية ، والموسوعات الإسلامية ، والعلماء والمحققين ، هذا الكتاب بالتحقيق العلمي ، والإخراج الفني ، والطباعة الحديثة .

سائلين الله تعالى أن ينزل شآبيب رحمته على روح السيوطي ، وأن يجزيه عنا خيراً ، وأن ينفعنا بعلمه وكتبه ، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



مراجع البحث

- ١ - الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية ، للسيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .
- ٢ - الأشباه والنظائر في النحو ، للسيوطي ، طبع شركة الطباعة الفنية بالقاهرة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- ٣ - الأشباه والنظائر ، لابن نجيم الحنفي ، نشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .
- ٤ - الاستغناء في الفرق والاستثناء ، للبكري ، نشر جامعة أم القرى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٥ - أصول الفقه ، للشيخ محمد أبو زهرة ، مطبعة مخيمر بالقاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .
- ٦ - أصول الفقه الإسلامي ، للدكتور محمد الزحيلي ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- ٧ - الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ٨ - إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك ، للونشريسي ، طبع الرباط ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٩ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للشوكانبي ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، ١٣٤٨هـ .

- ١٠ - تخريج الفروع على الأصول ، للزنجاني ، طبع جامعة دمشق ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
- ١١ - التعريفات ، للجرجاني ، تصوير لبنان ، ١٩٦٩م .
- ١٢ - تهذيب الأسماء واللغات ، للنووي ، تصوير عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر ، دار الكتب العلمية ، بيروت بدون تاريخ .
- ١٣ - تهذيب الفروق ، للشيخ محمد علي بن حسين المالكي المكي ، على هامش «الفروق» ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر ، ١٣٤٦هـ .
- ١٤ - الحاوي للفتاوي ، لجلال الدين السيوطي ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .
- ١٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، للسيوطي ، طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ١٦ - الذخيرة ، للقرافي ، مطبعة كلية الشريعة ، بالجامعة الأزهرية القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ١٧ - الرد على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، للسيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٨ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، طبعة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠هـ .
- ١٩ - صحيح البخاري ، للإمام البخاري ، ضبط الدكتور مصطفى البغا ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٢٠ - صحيح مسلم ، للإمام مسلم القشيري النيسابوري ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، مع شرح النووي ، بدون تاريخ .

- ٢١ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، طبع مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م .
- ٢٢ - طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكي ، طبع عيسى البابي الحلبي ، بالقاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- ٢٣ - العرف والعادة في رأي الفقهاء ، للشيخ الدكتور أحمد فهمي أبو سنة ، مطبعة الأزهر ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
- ٢٤ - غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر ، للحموي ، دار الطباعة العامرة ، ١٣٥٧هـ ، القاهرة .
- ٢٥ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين ، للمراغي ، الطبعة الثانية تصوير ، بيروت ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٢٦ - الفروق ، للقرافي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٤٦هـ .
- ٢٧ - الفكر السامي ، للحجوي الفاسي ، مطبعة إدارة المعارف بالرباط ، ١٣٤٠هـ ، وبفاس ١٣٤٥هـ .
- ٢٨ - فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ، مطبعة مصطفى محمد ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م .
- ٢٩ - القاموس المحيط ، الفيروزابادي ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- ٣٠ - القواعد ، لابن رجب الحنبلي ، طبع دار المعرفة ، بيروت ، تصوير بدون تاريخ .
- ٣١ - القواعد ، لأبي عبد الله المقرئ ، تحقيق أحمد بن عبد الله بن حميد ، نشر جامعة أم القرى ، بمكة المكرمة ، بدون تاريخ .

- ٣٢ - القواعد الفقهية ، للأستاذ علي أحمد الندوي ، طبع دار القلم - دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ٣٣ - كشف اصطلاحات الفنون ، للتهانوي ، تصوير عن مكتبة كلكتا بالهند ، ١٨٦٢م .
- ٣٤ - كشف الظنون عن أسامي الفنون ، ملا جلبي ، الحاج خليفة ، طبعة أولى ١٣١٠هـ ، طبعة إستانبول ١٣٥١هـ .
- ٣٥ - الكليات ، لأبي البقاء الكفوي ، نشر وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨١م .
- ٣٦ - مختصر من قواعد العلائي وكلام الإسوي ، لابن خطيب الدهشة ، تحقيق البنجويني ، مطبعة الجمهور ، الموصل ، ١٩٨٤م .
- ٣٧ - المدخل لدراسة التشريع الإسلامي ، للدكتور عبد الرحمن الصابوني ، نشر جامعة دمشق - بدون تاريخ .
- ٣٨ - المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي ، للدكتور مصطفى الشلبي ، طبع مصر ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .
- ٣٩ - المدخل الفقهي العام ، للأستاذ مصطفى الزرقا ، الطبعة السابعة - دمشق ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ٤٠ - مرآة المجلة ، يوسف آصاف ، المطبعة العمومية بمصر ، ١٨٩٤م .
- ٤١ - المصباح المنير ، للفيومي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٢٦م .
- ٤٢ - معجم المطبوعات العربية ، يوسف سركيس ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٤٣ - المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

٤٤ - مقاصد الشريعة الإسلامية ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ،
الشركة التونسية ، تونس ، ١٩٧٨ م.

٤٥ - مقالات الكوثري ، للشيخ محمد زاهد الكوثري ، طبع مكتبة التراث
- حلب ، بدون تاريخ.

٤٦ - المنشور في القواعد ، للزركشي ، تحقيق الدكتور تيسير فاتق
محمود ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الفليح ، الكويت ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

٤٧ - النظريات الفقهية ، للدكتور فتحي الدريني ، مطبعة خالد بن
الوليد ، دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

٤٨ - النظريات والقواعد في الفقه الإسلامي ، بحث للدكتور عبد الوهاب
أبو سليمان في مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، السعودية ، العدد
٢ ، سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

٤٩ - نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول ، للإسنوي ، تصوير عالم
الكتب ، بيروت ، ١٩٨٢ م عن المطبعة السلفية - بالقاهرة ،
١٣٤٥ هـ.

٥٠ - وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة
بالقاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م.



البيضاوي فقيهاً وأصولياً

البيضاوي المشهور المغمور:

الإمام البيضاوي من كبار علماء المسلمين في القرن السابع الهجري ، وله شهرة عظيمة على جميع المستويات ، وله سمعة ذائعة ، وكتب مشهورة ، وشخصية لامعة ، فهو قاض وله مواقف مشهودة في القضاء ، وهو أصولي ، وكتابه في الأصول عمدة العلماء والطلاب وهو مفسر قدير ، وكتابه في التفسير منتشر بين المسلمين ، كما أنه فقيه شافعي لامع ، ومؤرخ بارز ، ونحوي وأديب ، ومتكلم ونظار ، وكتب في التوحيد وأصول الدين والكلام والمنطق والحديث الشريف والتهذيب والأخلاق .

وقد يبدو غريباً أن أبدأ مقالي عن البيضاوي لأقول: إنه العلامة المشهور المغمور ، فما هو السبب في ذلك؟

إن البيضاوي معروف لدى الجميع ، ومشهور على ألسنة الناس ، وله شهرة واسعة على المستويين العلمي والشعبي ، واسمه يتردد على كل لسان ، وكتبه نافعة معلومة ، ولم يغفل علماء التاريخ ترجمته وحياته ومصنفاته .

ولكن شخصية البيضاوي ، وتفاصيل حياته ، ليست واضحة في

الأذهان ، سواء عند العلماء ، أو طلاب العلم ، أو عوام الناس ،
ولا يعرف أحد عنها إلا القليل القليل ، فما هو السبب؟

تبادر إلى ذهني بادية ذي بدء أن السبب طول الزمان ، والفارق الكبير
بيننا وبينه ، وأن سبعة قرون ونيفاً قد أسدلت الستار على حياته الخاصة ،
وأزالت الهالة التي أحاطت به ، وبددت الأنوار التي أضاءت بيته ،
فقصدت المراجع المختلفة والمصادر الأصلية ، لأبحث عن الواقع ،
فعدت بخيبة الأمل ، وفوجئت بالحقيقة .

ذلك أن جميع كتب التاريخ والتراجم ذكرت اسم البيضاوي ،
وترجمت لحياته باختصار ، وتناولت بعض الجوانب المحدودة ،
وذكرت جل مصنفاته وكتبه ، وأثنت عليه الثناء العاطر ، وأشارت أنه من
أسرة علم وفضل ، ولكنها لم تفصح لنا عن التفاصيل ، ولم تكشف لنا
الخباء ، ولم ترفع لنا الستار ، ولم توضح الحقيقة الكاملة ولم تروِ
التفاصيل التي تشفي الغليل ، وتروي الظمان .

فالكلام في مجمله مختصر وقصير ، وهو في معظم الأحيان مكرر
ومثقول بشكل شبه حرفي ، ولا يزيد في أوسع المصادر عن صفحة ،
وبقي الغموض مخيماً ، والسؤال مطروحاً عن النقاط التالية :

١ - لم تذكر هذه المصادر ولادته ، ونشأته ، وتربيته ، مع أنها أشارت
إلى أنه نشأ في بيت العلم ، وأسرة الفضل ، وتفقه بأبيه ، وكان والده
عالمًا ، وكذلك كان جده ، وهو ما صرح به الإمام البيضاوي نفسه في
مقدمة كتابه «الغاية القصوى» فقال: «فاعلم أنني أخذت الفقه عن والدي
المولى الصدر العالي ، ولي الله الوالي قدوة الخلف ، وبقية السلف ،
إمام الملة والدين أبي القاسم عمر ، عمّر الله تعالى قواعد الدين بأسنة
أقلامه ، وأصوبة أحكامه ، رحمة الله عليه ، وهو عن والده قاضي القضاة

السعيد ، فخر الملة والدين ، محمد بن الإمام الماضي صدر الدين أبي الحسن علي البيضاوي عن . . »^(١) .

٢ - أغفلت كتب التراجم والمدارس التي ارتادها ، وأمكنة التعليم التي حصّل منها ، وأسماء العلماء ، الذين أخذ عنهم ، والشيوخ الذين تردد إليهم ، والمحدثين الذين روى عنهم ، مع أن ترجمته المختصرة ، وآثاره العلمية تدل على أنه أتقن علوم الإسلام الدينية التي تتوقف على التلقي والسماع ، والأخذ شفاهاً على المختصين وكبار العلماء ، وإلا بقي الطالب منها على الشاطئ ، وتجنب الغوص فيها ، والسباحة في خضمها ، ليرضى بالمكث على سواحلها ، يتنعم بفيئها ، ويناله الرذاذ والرطوبة منها ، وهذا ما تجاوزه البيضاوي رحمه الله بالإجماع .

٣ - أشارت كتب التراجم والتاريخ إلى مكانة البيضاوي في التدريس ، وشهرته في التصنيف ، وشيوع كتبه ، ولكنها أغفلت نهائياً ذكر تلامذته ، والطلاب الذين تربوا على يديه ، وأخذوا عنه العلم ، ونقلوا كتبه ومؤلفاته ، ونشروا هذه المصنفات التي سارت بها الركبان ، ويستثني من ذلك ما ذكره العلامة ابن السبكي عرضاً عن شخصين تتلمذوا على البيضاوي ، وتفقهوا به .

ولذلك وصلت بعد المطالعة والدراسة ، والبحث والتنقيب إلى هذه النتيجة التي جاءت في استهلال المقال أن البيضاوي مشهور مغمور .

ولكن نسارع إلى تطمين القارئ الكريم إلى أن هذا الجانب المجهول عن البيضاوي ، والجزء المغمور من حياته ، لا يؤثر علينا في شيء ، ولا يضره هو في شيء ، ما دام أن الجانب المشهور ، والجزء المضيء قد وصل كاملاً والحمد لله ، وشاع عرضاً وطولاً ، وأضاء الخافقين ، واستفاد منه الناس جميعاً .

(١) الغاية القصوى ، مخطوط ، ورقة ٢/٤ ، وانظر : مرآة الجنان ٢٢٠/٤ .

ذلك أن ولادة البيضاوي ونشأته وتربيته وتحصيله العلمي ورحلاته في طلب العلم لا يفيدنا اليوم إلا من جهة الشغف العلمي ، وحب المعرفة والاستطلاع ، ورسم الصورة الكاملة عن حياته .

وإن إغفال شيوخه ورحلاته العلمية والمدارس التي تربى فيها لا يؤثر من قريب ولا من بعيد ، ما دام أثرها واضحاً وبارزاً في تكوين هذه الشخصية الفذة ، والعلم الشامخ ، والحجة في المعرفة ، والبحر في العلوم ، وهو البيضاوي .

كما أن السكوت عن تلاميذه وطلابه لا يغير من الحقيقة شيئاً ما دام تراثه قد حفظ ، وكتبه قد نقلت إلينا في معظمها ، وأن المسلمين شرقاً وغرباً ، عرباً وعجماً ينهلون منها طوال القرون السبعة الماضية ، وستبقى إلى ما شاء الله ، وقد عكف العلماء وطلاب العلم على دراستها ، والاستفادة منها ، ودارت عليها رحي العلم عدة قرون ، وتناولها المصنفون بالشرح والحواشي ، والاختصار والنظم ، والتعليق والتقرير ، ونقلتها لنا الأجيال ، لتبقى منارة مضيئة تهدي السائرين ، وترشد السادرين ، وتجذب عشاق المعرفة إلى حوضها .

ولكن القسم المجهول من حياة البيضاوي ، الذي كنا نتمنى التعرف عليه ، ويعتبر إغفاله خسارة ، وهو سلوكه الإسلامي ، وأخلاقه الرفيعة ، ليكون قدوة لمن بعده في هذا الجانب ، ومجالاً للتربية غير المقصودة للأجيال اللاحقة ، ليسيروا عليها ، ويكونوا خير خلف لخير سلف ، وقد اقتصر المؤرخون على وصفه بالعبادة والزهد ، والورع والتقوى ، ولم يذكروا دليلاً على ذلك إلا في مجال عزله عن القضاء لشدة في الحق ، وتخوفه من المسؤولية والحساب ، كما سنرى .

وقد نقتب في جوانب حياته المكتوبة ، وآثاره المنقولة ، وأفكاره المسطورة لأعرف السبب في هذا الغموض عن حياته ، وقلت: لعله

العداوة بينه وبين خصومه؟! أم هو الحسد ممن دونه؟! أم هو التنافس مع العلماء ومن حوله؟! أم هو الاختلاف في الآراء؟! أم الصدام في الاتجاهات السياسية أو الميول المذهبية؟! أم هو التحامل من الفرق وأعداء الدين؟! فلم أعثر على جواب ، ولعل كارثة القرن السابع الهجري ، التي نكب بها العالم أجمع ، والحضارة الإنسانية كاملة ، والتي قضت على الخلافة الإسلامية ، وهي سقوط بغداد على يد هولاكو ، والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، وإشاعة الذعر والخوف ، والنهب والقتل ، والسرقة والاغتصاب ، وقتل الأبرياء ، وإبادة العلم والعلماء ، وقطع أوصال الدولة ، وحرق المكتبات ؛ هو السبب في الغموض الذي حلّ على البيضاوي وأمثاله ، فمن قدر الله عليهم أن يعيشوا تلك الظروف العصيبة ، والنكبات الخطيرة ، أعادنا الله منها ، وجنبنا الوقوع في أشراكها .

خطة البحث :

وبعد هذه الكلمة السريعة بين يدي البحث ، رأيت أن أقسم الدراسة إلى قسمين :

القسم الأول: يتعلق بحياة البيضاوي الشخصية في الإطار الذي وصلنا ، وضمن الدائرة التي نقلت إلينا عن اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ونشأته وأعماله ووفاته .

القسم الثاني: في حياته العلمية عامة ، وفي الجانب الفقهي والأصولي خاصة ، لتتعرف على شخصية البيضاوي الحقيقية ، بدراسة كتبه ، وتحليل آثاره من خلال الإنتاج الذي خلفه ، وليس من كتب التاريخ والتراجم ، ولا ممن وصفه ، وكتب عنه ، ونقل من أخباره ، وهذا الجانب في التعرف على البيضاوي أكثر فائدة ، وأدق تصويراً ، وأجلى بياناً .

القسم الأول

حياة البيضاوي الشخصية

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، البيضاوي ، أبو سعيد ، القاضي ، المفتي ، العالم بالفقه وأصول الفقه ، والتفسير وأصول الدين ، والحديث والمنطق ، والعربية والتاريخ .

ولد بالبيضاء ، وتولى القضاء بشيراز ، ثم عزل فارتحل إلى تبريز لنشر العلوم والمعارف ، ومات سنة ٦٨٥ هـ ، ودفن بتبريز .

هذه هوية القاضي البيضاوي بالاختصار على القول الراجح ، أما التفاصيل فقد اتفق علماء التراجم والتاريخ على معظمها ، واختلفوا في بعضها ، وهاكم البيان :

اسمه ونسبه :

اسمه عبد الله بن عمر بن محمد بن علي ، باتفاق المصادر ، أما نسبه فهو البيضاوي ، الشيرازي ، الفارسي .

والفارسي نسبة إلى بلاد فارس التي ولد فيها ، ونشأ في ربوعها ، وتربى في أحضانها ، وتعلم لغتها ، وكتب فيها ، وألف بعض كتبه باللغة الفارسية ، ويعتبر من أعلام الأدب الفارسي^(١) .

(١) انظر: تاريخ الأدب الفارسي ، زاده شفق ص ١٩٨ عن معجم المؤلفين ٩٧/٦ ، التعريف بالمؤرخين ١١٦/١ .

والشيرازي نسبة إلى شيراز ، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس ، ونسب البيضاوي إليها ، لأنه البيضاء تابعة لها ، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة^(١) .

والبيضاوي نسبة إلى بلدة البيضاء من بلاد فارس ، وهي مدينة مشهورة من أعمال شيراز ، وأكبر مدينة بإصطخر ، ويتنسب إليها جماعة كثيرة من العلماء^(٢) ، وهذه النسبة للبيضاوي أشهر النسب ، وبها يعرف ، ويعرف أيضاً بالقاضي .

كنيته ولقبه :

اختلفت المصادر في كنية البيضاوي ، فذهب فريق إلى أن كنيته أبو الخير^(٣) ، وذهب فريق آخر إلى أن كنيته أبو سعيد^(٤) ، وجمع فريق ثالث بين الكنيتين ، فقال : أبو الخير أو أبو سعيد ، أو أبو الخير أو أبو سعيد^(٥) ، والغالب أن كنيته الحقيقية أبو سعيد ، وأن أبا الخير أطلق عليه لقباً للمدح والثناء ، وهو عادة السلف من العلماء في العصر العباسي وما بعده .

أما لقبه فهو ناصر الدين باتفاق المصادر ، وذكرت بعض المصادر لقباً

(١) انظر : مرصد الاطلاع ٨٢٤/٢ ، مفتاح السعادة ١٠٣/٢ .

(٢) انظر : الأنساب ، للسمعاني ٣٦٨/٢ ، مرصد الاطلاع ٢٤٢/١ .

(٣) انظر : بغية الوعاة ، للسيوطي ٥٠/١ ، نزهة الجليس ٨٧/٢ ، شذرات الذهب ٣٩٢/٥ ، روضات الجنات ص ٤٥٤ ، الفتح المبين ٨٨/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٥٧/٨ ، مفتاح السعادة ١٠٣/٢ ، معجم المؤلفين ٩٧/٦ ، كشف الظنون ١٦٢/١ ، طبقات المفسرين للداودي ٢٤٣/١ .

(٤) انظر : هدية العارفين ٤٦٣/١ ، معجم المؤلفين ٩٧/٦ ، كشف الظنون ١٦٢/١ .

(٥) انظر : الأعلام للزركلي ٢٤٨/٤ ، نهاية السؤل ١/ج ، حاشية الخفاجي ٤/١ .

آخر له وهو قاضي القضاة^(١) ، وهذا منصب جليل ، له دلالة معينة ، ويظهر أنه لقب به للتعظيم فقط .

ولادته ونشأته :

ولد البيضاوي في البيضاء باتفاق ، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته ، كما أغفلت جميع المصادر سنَّه عند الوفاة ، مما يستحيل علينا تقدير ولادته ، ويظهر أنه نشأ في البيضاء وتربى فيها على يد والده ، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء ، وقد اقتصررت كتب التراجم على أن تفقه بوالده ، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه ، فقال اليافعي : « تفقه بأبيه ، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادى ، الشافعي ، وتفقه مجير الدين بالإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى »^(٢) .

ولم تذكر كتب التراجم والرجال التي بين أيدينا ترجمة والده أو جدّه ، إلا ما جاء ضمناً عن اسمه ، وهو عمر بن محمد بن علي ، وذكر البيضاوي كنية والده بأنه « أبو القاسم » ، ونقل البيضاوي آراء فقهية عن والده ، فقال : « وقد نقل النكير عن بعض الأئمة للسجود بلا سبب ، واختار شيخني ووالدي رحمه الله جوازه »^(٣) .

مكانة البيضاوي :

احتل البيضاوي مكانة رفيعة في بلده ووطنه ، وتبوأ مركزاً مرموقاً في المجتمع ، واتفقت كتب التراجم والتاريخ على أوصافه العامة ، بأنه كان

(١) انظر: شذرات الذهب ٣٩٢/٥ ، مرآة الجنان ٢٢٠/٤ ، بغية الوعاة ٥٠/١ ، مفتاح السعادة ١٠٤/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٥٨/٨ ، روضات الجنات ص ٤٥٤ ، نزهة الجليس ٨٧/٧ .

(٢) مرآة الجنان ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر: الغاية القصوى ، للبيضاوي ١٨٤/١ ، ٣٠٩ .

قاضياً ، ورعاً ، صالحاً ، تقياً ، مفتياً ، شديداً في الحق ، عالماً ، علامة ، زاهداً ، عادلاً .

قال ابن كثير: «هو القاضي الإمام العلامة ، ناصر الدين ، عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيتها، وعالمها، وعالم أذربيجان وتلك النواحي»^(١).
وقال ابن السبكي: «كان إماماً مبرزاً ، نظاراً ، صالحاً ، متعبداً ، زاهداً»^(٢).

وقال الخوانساري: «كان إماماً علامة عارفاً بالفقه والتفسير والأصولين والعربية والمنطق ، نظاراً ، صالحاً ، متعبداً ، شافعيّاً»^(٣).

وقال الحسيني الموسوي: «تولى قضاء القضاة بفارس ، وكان زاهداً ، عابداً ، متورعاً»^(٤).

وقال الأسنوي: «كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة ، صالحاً ، خيراً»^(٥).

وقال الداودي: «كان إماماً ، علامة ، عارفاً بالفقه والتفسير والأصولين ، والعربية ، والمنطق ، نظاراً ، صالحاً ، متعبداً ، زاهداً ، شافعيّاً»^(٦).

وقال الصفدي: «الشيخ الإمام العلامة المحقق المدقق ناصر الدين الشيرازي البيضاوي ، صاحب التصانيف البديعة المشهورة...»^(٧).

(١) البداية والنهاية ٣٠٩/١٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٥٧/٨.

(٣) روضات الجنات ص ٤٣٤.

(٤) نزهة الجليس ٨٧/٢.

(٥) طبقات الشافعية ، للإسنوي ٢٨٣/١.

(٦) طبقات المفسرين ٢٤٢/١.

(٧) الوافي بالوفيات ٣٧٩/١٧.

توليه القضاء :

القضاء منصب جليل ، ومركز مرموق ، به تُحفظ الحقوق ، وتُحقن الدماء ، وتُصان الأعراض ، وتزال الخصومات ، ويُطبق الشرع ، ويُقام العدل ، وتنفذ الأحكام الشرعية كما يريد رب العزة ، ولذلك تولاه رسول الله ﷺ ، وعين بعض الصحابة قضاة في مختلف المدن والأمصار ، وتولاه الخلفاء الراشدون ، وكبار الأئمة والعلماء ، تقرباً إلى الله تعالى ، وحباً في مرضاته ، وحرصاً على تنفيذ أوامره ، وروى البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «لأن أجلس قاضياً بين الناس بحقٍّ واجب أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة»^(١) ، ولما ورد في القضاء بالحق من الترغيب والحث عليه ، منها ما رواه عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «إن المقسطين على منابر من نور على يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذي يعدلون في حكمهم وأهلهم ، وما ولُّوا»^(٢) وصان القضاة المسلمون هذا المنصب ، وقاموا به حق القيام في معظم الأحيان ، حتى صار قضاة الإسلام مضرب المثل في النزاهة والعدل ، وصارت ولاية القضاء غالباً منقبة ومدحاً وثناءً وفخراً.

وقد أجمعت كتب الرجال التي ترجمت للإمام البيضاوي بنعته بالقاضي حتى اشتهر بذلك ، وأنه تولى القضاء بولايته في شيراز ، وبيّنت بعض هذه الكتب تفاصيل تعيينه للقضاء ، وأن البيضاوي رحمه الله تعالى طلب القضاء ، وسعى إلى تبريز للحصول عليه في عهد الأتابك أبي بكر ابن سعد ، المتوفى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، ثم اختلف المؤرخون في الوسيلة التي وصل إليها البيضاوي إلى القضاء على روايتين :

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨٩/١٠ .

(٢) رواه مسلم والنسائي وأحمد والبيهقي والحاكم .

الرواية الأولى: ذكرها أكثرهم بالفاظ متقاربة ، أحسنها ما سطره ابن السبكي فقال: «ودخل تَبْرِيْز ، وناظر بها ، وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عُقِدَ بها لبعض الفضلاء ، فجلس القاضي ناصر الدين في أُخْرِيَّاتِ القوم ، بحيث لم يعلم به أحد فذكر المدرس نكتةً ، زعم أن أحداً من الحاضرين لا يقدر على جوابها ، وطلب من القوم حلّها ، والجواب عنها ، فإن لم يقدروا فالحل فقط ، فإن لم يقدروا فإعادتها ، فلما انتهى من ذكرها شرع القاضي ناصر الدين في الجواب ، فقال له : لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها ، فخيّرَ بين إعادتها بلفظها أو معناها ، فبُهِتَ المدرس ، وقال: أعدّها بلفظها ، فأعادها ثم حلّها ، وبين أن في تركيبه إيّاها خللاً ، ثم أجاب عنها ، وقابلها في الحال بمثلها ، ودعا المدرس إلى حلها ، فتعذر عليه ذلك ، فأقامه الوزير من مجلسه ، وأدناه إلى جانبه ، وسأله من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي ، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز ، فأكرمه ، وخلع عليه في يومه ، وردّه ، وقد قضى حاجته»^(١).

الرواية الثانية انفرد بها الخوانساري ، وأن البيضاوي رحمه الله توصل إلى القضاء عن طريق كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم المسمى: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ، فقال: «وقد صار هذا الكتاب منتشرًا في العالم ، وسبب تقربه عند سلطان العصر ، واختصاصه بمنصب قضاء القضاة ، وذلك أنه بعث إليه بكتاب تفسيره المذكور ، فاستحسنه منه ، وأشار إليه أن يطلب من الحضرة السلطانية بإزاء هذا العمل السديد ، فقال أريد قضاء البيضاء لكي أرفع به بين أهل ديارى الذين كانوا

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٥٨/٨ ، وانظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٤٣/١ ، نزهة المجلس ٨٧/٢ ، مفتاح السعادة ١٠٤/٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤١٨/٤ ، التعريف بالمؤرخين ص ١١٦ .

ينظرون إليَّ بعين التحقير»^(١) ، ثم أضاف الخوانساري فقال: «وقيل إنه قد استند في إنجاح هذا المقصد بذيل همة العارف الأوحد خواجه محمد الكنجاني»^(٢).

وطلب القضاء جائز باتفاق العلماء ، ولكن ذهب الجمهور إلى كراهية الطلب ، لما فيه من شبهة ، أو اتهام للطالب أن يكون ذلك لحظ نفسه أو لغرض شخصي ، أو هدف محرم ، وقال بعض الفقهاء: يجوز طلب القضاء من الصالح له ، لقوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ [يوسف: ٥٥] ، وهناك حالات يجوز فيها طلب القضاء عند بعض الفقهاء ، منها: إذا تعين القضاء على شخص واحد ، ولا يوجد غيره ، صالحاً له ، ومنها طلب القضاء لأجل الرزق من بيت المال ، ومنها طلب القضاء لنشر العلم ، كما إذا كان الطالب رجلاً عالماً ، ولكنه غير مشهور ، ولا معروف ، ويريد أن يشتهر علمه ، ويستفيد الناس منه ، فيجوز له ذلك^(٣).

فطلب البيضاوي للقضاء لا غبار عليه ، وقد يكون حرصه عليه وسعيه وراءه ، لما يعرف من نفسه من القدرة عليه ، وأنه صالح له ، أو أنه الأصلح والأفضل والأقدر للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وإذا صحت رواية الخوانساري من تحديد رغبته في القضاء «لكي أترفع به بين أهل ديارى الذين كانوا ينظرون إليَّ بعين التحقير» فإنها تتفق مع الحالة الأخيرة التي نص الفقهاء على جواز طلب القضاء من أجل نشر العلم ، وأن

(١) روضات الجنات ص ٤٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٥ ، وسماه حاجي خليفة: الشيخ محمد بن محمد الكنتحاني. (كشف الظنون ١/١٦٢).

(٣) انظر: أدب القضاء لابن أبي الدم ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي ص ٥١.

الطالب غير مشهور ولا معروف ، ويريد أن يشتهر علمه ، ويستفيد الناس منه» وهذا ما حصل مع البيضاوي رحمه الله تعالى .

عزل البيضاوي عن القضاء :

لم يستمر القاضي البيضاوي على منصة القضاء كثيراً ، واتفقت كتب التراجم على أنه عين على القضاء مدة ، ثم عزل ، ولم تصرح بالكيفية ، لكن وردت بعض الإشارة إلى السبب .

وأفاد العلامة ابن السبكي أن البيضاوي تولى قضاء القضاة في شيراز لمدة ستة أشهر فقط ، وذلك عند ترجمته لقاضي القضاة مجد الدين إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل ، أبي إبراهيم التميمي الشافعي الشيرازي البالي ، قال : «وولي قضاء القضاة بفارس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وعزل بعد مدة بالقاضي ناصر الدين البيضاوي ، ثم أعيد بعد ستة أشهر ، وعزل القاضي ناصر الدين ، واستمر مجد الدين على القضاء خمساً وسبعين سنة ، وكان مشهوراً بالدين والخير والمكارم ، وحفظ القرآن وكثرة التلاوة»^(١) .

وذكر المراغي أن القاضي البيضاوي «صرف عن القضاء لشدته في الحق»^(٢) ، وقال ابن العماد : «ولي أمر القضاء بشيراز ، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز»^(٣) .

وتفيد هذه النصوص أن القاضي البيضاوي عزل عزلاً عن القضاء ، بينما تشير نصوص عبارات أخرى إلى أن البيضاوي ندم على طلب القضاء بعد أن ذكره شيخه بعواقبه ، وحذره من مغبته ، فقال حاجي خليفة :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤٠١/٩ وما بعدها .

(٢) الفتح المبين ٨٨/٢ .

(٣) شذرات الذهب ٣٩٢/٥ .

«وقيل: إنه طال مدة ملازمته ، فاستشفع من الشيخ محمد بن محمد الكتحتائي ، فلما أتاه (أي إلى السلطان) على عادته ، قال: إنَّ هذا الرجل عالم فاضل ، يريد الاشتراك مع الأمير في السعير ، يعني أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار ، وهي مجلس الحكم ، فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه ، وترك المناصب الدنيوية ، ولازم الشيخ (أي في تبريز) إلى أن مات»^(١) ، وذكره الخوانساري أن البيضاوي استعان بالشيخ العارف بالله خواجه محمد الكتجاني (كذا) في نجاح مقصده في القضاء ، فرفع الشيخ طلبه إلى الملك بقوله: «إن استدعائي من حضرة الملك في هذا الليلة أن يقطع قطعة من رباع جهنم لشخص كان يتوقعها من جنابك...» ، فأجابه الملك إلى سؤاله من غير فتور... ، لكن القاضي المزبور لما سمع بكلام العارف المذكور مع حضرة السلطان المبرور ، وتأمل في حقيقته تنبه من مرقدته ، وتندم على ما كان»^(٢) ، وهذان النصان يدلان على أن البيضاوي اعتزل القضاء بنفسه.

والظاهر الجمع بين الأمرين ، وأن البيضاوي عين قاضياً في البيضاء ، ثم قاضياً بشيراز ثم عزل ، فسعى إلى القضاء ، لما نقله حاجي خليفة عن التاج السبكي في «الطبقات الكبرى» «أن البيضاوي لما صرف عن قضاء شيراز رحل إلى تبريز ، وصادف دخوله مجلس درسه...» ، وأخبر الوزير أنه جاء في طلب القضاء بشيراز فأكرمه ، وخلع عليه في يومه ، وردده ، وقد قضى حاجته»^(٣) ، كما ذكر الخوانساري عن تفسير البيضاوي أنه كان سبباً لتقربه من السلطان ، وطلب قضاء البيضاء ، كما سبق ، ولما عين

(١) كشف الظنون ١/١٦٢ .

(٢) روضات الجنات ص ٤٥٥ .

(٣) كشف الظنون ١/١٦٢ ، والجملة الأولى غير موجودة في الطبقات الكبرى للتاج السبكي المطبوعة الآن ، ولعلها سقطت من المخطوطة .

البيضاوي في قضاء شيراز ثانية ، أو في قضاء قضائها مكث مدة قصيرة ثم اعتزل بنفسه بسبب الظروف السياسية ، والاضطرابات الداخلية التي طرأت بعد سقوط بغداد ، وذلك أن أمير فارس الأتابك أبا بكر بن سعد بن زنكي حمى بلاده من شر المغول وخطرهم عند قدومهم ، بأسلوب سياسي حكيم ، وسالم المغول ، وبذل لهم الطاعة ، فسلم على مملكته ، وهياً الأمن والرخاء فيها ، حتى مال إليه العلماء ومن فر من سائر البلاد ، واجتمعوا عنده ، ولما توفي أبو بكر بن سعد تغيرت حالة الدولة السلغرية ، وتبدل سعداها إلى نحس ، واستولى هولاءكو على جميع إيران ، ونشر الرعب والخوف والاضطراب والفساد ، وعطل الأحكام ، فتخلى البيضاوي عن القضاء ، لشدته وحصره والتزامه بالشرع ، وردّ المناصب التي كلف بها ، وذهب إلى تبريز ، وتفرغ للعلم ، وانزوى للتأليف والتدريس ، واعتكف على نشر العلوم ، ولأزم شيخه الأثير^(١).

شيوخ البيضاوي وتلامذته:

إن الإنسان لا يولد عالماً ، وإنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، وكثيراً ما يتأثر الإنسان بوالديه ومربيه ، وأساتذته ومشايخه ، وقد يكون ثمرة من غراسهم ، ونبتة من بذورهم ، وصورة صادقة عن سعيهم ، ولذلك يتحمل الآباء مسؤولية تربية الأولاد ، وندب الشرع والعقل إلى اختيار المربين ، وانتقاء العلماء ، لتوجيه الأولاد وتعليمهم.

وذكرنا سابقاً أن المؤرخين أغفلوا ذكر شيوخ البيضاوي ، وسكتوا عن رحلاته في طلب العلم ، ولم يتركوا لنا إلا ما صرح به البيضاوي نفسه من تفقهه على والده عمر بن محمد بن علي البيضاوي ، الذي كان قاضي الممالك عند الدولة السلغرية في بلاد فارس^(٢).

(١) انظر: التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص ١١٧ .

(٢) انظر: مرآة الجنان ٤/ ٢٢٠ ، والمرجع السابق ص ١١٦ .

وأشارت المراجع إلى أن البيضاوي كان متأثراً بالشيخ محمد بن محمد التحتائي الذي ساعده في تولي القضاء - كما قيل - وتأثر بأقواله ، وأن البيضاوي لازم هذا الشيخ بعد عزله عن القضاء ، وبقي معه في تبريز حتى مات ، وأن البيضاوي صنف كتابه التفسير بإشارة شيخه^(١) .

وكما أن الإنسان يتأثر بأساتذته وشيوخه ، فإنه يؤثر في طلابه وتلامذته ، ليكونوا امتداداً علمياً له ، ونقله لأرائه وعلمه ، ووسيلة لنشر كتبه ومصنفاته .

ولم يكن حظ تلاميذ البيضاوي أحسن حالاً من شيوخه ، فلم يذكرهم أحد ، إلا ما جاء في ثنايا الكتب وأسماء المؤلفين ، ومن شرح كتب البيضاوي ، فعلمنا اسم تلميذين للبيضاوي ، هما :

١ - أحمد بن الحسن ، الشيخ فخر الدين ، الإمام الجاربردي ، العالم الفاضل ، الدين الوقور ، الذي كان مواظباً على العلم ، وإفادة الطلبة ، أخذ عن القاضي البيضاوي ، وله شرح «المنهاج» في أصول الفقه ، و«شرح الحاوي الصغير» في الفقه ، و«شرح الشافية لابن الحاجب» في النحو ، و«حاشية على الكشاف» في التفسير ، مات في رمضان سنة ٧٤٦هـ بتبريز^(٢) .

٢ - الشيخ زين الدين الهنكي ، تلميذ البيضاوي ، الذي صار شيخاً لعصده الدين الإيجي صاحب التصانيف المشهورة ، وقال طاش كبري زاده : «الهَبْكي»^(٣) .

(١) انظر: كشف الظنون ١/١٦٢ .

(٢) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٩ ، مفتاح السعادة ١/١٤٢ ، البدر الطالع ٤٧/١ ، الدرر الكامنة ١/١٣٢ ، طبقات الشافعية للإسنوي ١/٣٩٤هـ .

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٩ ، مفتاح السعادة ١/٢١١ ، البدر الطالع ٣٢٦/١ ، الدرر الكامنة ٢/٤٢٩ .

وإننا لنقطع ونجزم أن تلاميذ البيضاوي كثر ، وأنهم كانوا نابغين ، ومتأثرين به ، بدليل : أنهم تلقوا كتبه ، ونقلوها ، وأشاعوها إلى الأقطار الإسلامية .

وفاة البيضاوي :

لما ترك البيضاوي القضاء بشيراز ارتحل إلى تبريز ، ولازم شيخه إلى أن مات ، وأقام البيضاوي بتبريز ينشر العلوم والمعارف ، ويصنف الكتب المفيدة ، والمصنفات المشهورة ، وأوصى قبل وفاته إلى قطب الدين الشيرازي (٧١٠هـ) أن يدفن عند قبر شيخه ، ولما مات دفن عند قبره في خرنداب تبريز على شرقي تربة الخواجة ضياء الدين يحيى^(١) .

واختلف المؤرخون في تاريخ وفاة البيضاوي على عدة أقوال ، ثلاثة منها مقبولة ، وتحتمل الصحة ، لأنها صدرت عن أعيان القرن الثامن الهجري ، وهم السبكي والصفدي والإسنوي والياضي وابن كثير ، وكانوا قريبي العهد بالبيضاوي ، وكلهم توفي بعده بقليل ، وهناك عدة أقوال شاذة وغريبة ، سوف نشير إليها .

ذهب أكثر المؤرخين وكتب التراجم والرجال إلى أن البيضاوي توفي سنة (٦٨٥هـ - ١٢٨٦م) ، وهو ما اقتصر عليه أكثر المعاصرين ، اعتماداً على ما ذكره الصفدي بالسند ، قال : «قال لي الحافظ نجم الدين سعيد الدهلي الحنبلي الحريري : توفي رحمه الله تعالى في سنة خمس وثمانين وستمئة بتبريز ، ودفن فيها»^(٢) ، وتابع أكثر المؤلفين وأصحاب المصادر الصفدي في هذا التاريخ ، وهو قول ابن كثير^(٣) .

(١) انظر : كشف الظنون ١/١٦٢ ، روضات الجنات ص ٤٥٥ ، البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ .

(٢) الوافي بالوفيات ١٧/٣٧٩ .

(٣) انظر : روضات الجنات ص ٤٥٥ ، البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ ، شذرات الذهب =

أما السبكي فلم يذكر وفاة البيضاوي في «الطبقات الكبرى» وإنما ذكرها في «الطبقات الوسطى» وحددها سنة ٦٩١ هـ ، وأيده الإسوي في ذلك ، ونقل الكثيرون عنهما هذا التاريخ^(١).

وذهب اليافعي إلى تحديد الوفاة بسنة ٦٩٢ هـ ، وقال به بعض العلماء^(٢).

أما الأقوال الشاذة فذكر بعضها حاجي خليفة ، فقال أحياناً توفي سنة ٦٨١ هـ ، ولم يبين مصدراً لقوله ، ونقل في عدة أمكنة أنه توفي سنة ٦٨٥ هـ ، وفي مكان ثالث جمع بين القولين ، فقال: إنه توفي سنة ٦٨٥ هـ و٦٨٢ هـ ، وفي مكان رابع قال: توفي سنة ٦٨٤ هـ^(٣).

ونقل البغدادي أنه توفي سنة ٦٩٦ هـ ولم يذكر مصدراً ، ولم يشاركه أحد ، ولعله تصحيف عن سنة ٦٩١ هـ^(٤).

ونقل الخفاجي قولاً شاذاً آخر فقال: «والذي اعتمده وصححه المؤرخون في التواريخ الفارسية أنه توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٧١٩ هـ تقريباً ، ويشهد له ما في آخر تاريخ البيضاوي «نظام التواريخ» ،

= ٣٩٢/٥ ، نزهة الجليس ٨٧/٢ ، طبقات المفسرين ٢٤٣/١ ، مفتاح السعادة

١٠٤/٢ ، الأعلام ٢٤٨/٤ ، الفتح المبين ٨٨/٢ ، معجم المؤلفين ٩٧/٦ .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٥٧/٨ والوسطى بهامشها ، طبقات الشافعية للإسوي

٢٨٣/١ ، بغية الوعاة ٥١/٢ ، هدية العارفين ٤٦٣/١ ، معجم المؤلفين

٩٧/٦ .

(٢) انظر: مرآة الجنان ٢٢٠/٤ ، روضات الجنات ص ٤٥٥ ، معجم المؤلفين

٩٧/٦ .

(٣) انظر: كشف الظنون ١٠١/٢ ، ٤٤٢ ، ٥٣٨ ، ٥٥٤/٢ ، ١٦٢/١ ، ٦٠٤/٢ .

(٤) هدية العارفين ٤٦٣/١ .

وقال الخفاجي: وهو المعتمد» ، بينما قال عن القول الأول سنة ٦٨٥ هـ: «هذا هو المشهور»^(١).

ورد بروكلمان هذا القول الشاذ الأخير ، واستبعده ، قائلاً: «غير أنه ليس من المحتمل أن تكون وفاته قد تأخرت حتى ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م»^(٢).
ورأى أن الراجح هو القول الأول الذي ذكره الصفدي بالسند ، وأيده ابن كثير لقرب العهد به ، وهو المشهور.

القسم الثاني حياة البيضاوي العلمية

صنف البيضاوي رحمه الله تعالى كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة ، كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير والحديث ، والتوحيد أو علم الكلام أو أصول الدين ، والمنطق والجدل ، والعربية والتاريخ.

ورزق الله تعالى البيضاوي التوفيق في التأليف ، والنجاح في التصنيف ، والسداد في اختيار المعلومات ، والدقة في العلم ، وتفضل الله عليه بإقبال الناس على كتبه ، وانتشار مصنفاته ، وشيوعها في الأقطار ، وأخذ منها العلماء ، وطلاب العلماء ، فانتسبوا إليه ، وتلمذوا على كتبه ، فالعلم نسب بين أهله .

وإذا كانت كتب التراجم والتاريخ لم تسعفنا في معرفة تلاميذه بسبب الاضطراب السياسي والاجتماعي ، وفقدان الأمن والطمأنينة ، وتقطع أوصال البلاد الإسلامية ، وسيطرة الخوف والرعب على يد المغول ، فإن كتب البيضاوي كانت السفير الصادق ، والرسول الأمين ، والترجمان

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٤/١ ، نهاية السؤل ١/ج .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤/٤١٨ .

الصحيح ، والصلة الوثقى بيننا وبينه ، فالعلم رحم بين أهله ، وقد تتلمذ المسلمون جيلاً بعد جيل على كتب البيضاوي ، وتلقاها العلماء بالقبول ، وعكف عليها الطلاب بالدراسة والحفظ^(١) ، وصارت كتبه معتمدة في الجامعات الإسلامية والمعاهد العلمية للتدريس ، وطبع الكثير منها عدة طبعات في عدة أقطار عربية وإسلامية ، كما ترجم بعضها إلى عدة لغات .

وامتازت كتب البيضاوي بالاختصار والدقة ، وسلامة الاختيار ، وحسن التبويب والتنظيم ، وصارت قطب الرchy لعدد كبير من العلماء ، والمصنفين ، فتناولوها بالشروح العديدة ، والحواشي الكثيرة ، والتعليقات المتنوعة المفيدة ، كما سنرى ، حتى اشتهر البيضاوي بكتبه ، وعرف في العالم الإسلامي بها ، وحظي بالشناء العاطر ، والذكر الجميل ، وهذه بعض النصوص في ذلك .

قال ابن كثير : «البيضاوي صاحب التصانيف»^(٢) .

وقال الياضي : «الإمام ، أعلم العلماء الأعلام ، ذو التصانيف المفيدة المحققة ، والمباحث الحميدة المدققة» ثم قال : «وللقاضي ناصر الدين المذكور مصنفات عديدة ، ومؤلفات مفيدة» وذكر بعضها ، ثم قال : «وغير ذلك مما شاع في البلدان ، وسارت به الركبان ، وتخرج به أئمة كبار ، رحمه الله تعالى رحمة الأبرار»^(٣) .

(١) نقل طاش كبرى زادة عن محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي (٨١٤هـ) أنه كان يحفظ منهاج البيضاوي ، وذكر مثله عن غيره (انظر: مفتاح السعادة ٥٧/٢) .

(٢) البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ .

(٣) مرآة الجنان ٢٢٠/٤ .

وقال الخوانساري عنه: «صاحب التفسير المعتمد عليه عند علماء الجمهور»^(١).

وقال الحسيني الموسوي: «القاضي البيضاوي صاحب التصانيف المشهورة»^(٢).

وقال الصفدي عنه: «العالم العلامة ، المحقق المدقق ، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي ، صاحب التصانيف البديعة المشهورة»^(٣).

ونقل ابن العماد الحنبلي عن ابن حبيب أنه قال عنه: «تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته»^(٤).

وقال العزاوي: «البيضاوي من أعظم علماء الإسلام ، ذاعت شهرته في الأقطار ، بحيث دخلت مؤلفاته في مناهج التدريس ، وصار تفسيره يدرس في المدارس العلمية ، ويعد من كتب التفسير المعتبرة ، ولم يعرف أنه مؤرخ ، وإنما هو قاض وفقه شافعي ، وما كان يظن امرؤ أن الاضطراب في العالم الإسلامي يؤرخ عنه فقيه أصولي ، ومفسر ديني»^(٥).

وقال المراغي: «ألف مصنفات عدة ، تدل على قدم راسخة في التأليف ، وبراعة فائقة في التصنيف»^(٦).

(١) روضات الجنان ص ٤٥٤ .

(٢) نزهة الجليس ٨٧/٢ ، وانظر: كشف الظنون ١٠٥/٢ .

(٣) الوافي بالوفيات ٣٧٩/١٧ .

(٤) شذرات الذهب ٣٩٢/٥ .

(٥) التعريف بالمؤرخين ص ١١٦ .

(٦) الفتح المبين ٨٨/٢ .

وقال طاش كبرى زادة: «صنف التصانيف المشهورة في أنواع العلوم»^(١).

تصانيف البيضاوي:

تنقسم مصنفات البيضاوي إلى قسمين ، قسم مشهور ومعروف ، وذكرته معظم المصادر ، وقسم غير مشهور ، انفرد بذكره بعض المؤرخين في المراجع التي سنشير إليها ، وهي:

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، وهو التفسير الذي ذاع في الأمصار ، واشتهر البيضاوي به أثناء حياته ، وسار في الأقطار ، وتلقاه العلماء شرقاً وغرباً بالقبول ، ووشحوه بالشروح والحواشي ، وطبع عدة مرات.

٢ - تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة للبعوي في الحديث الشريف .

٣ - الغاية القصوى في دراية الفتوى في فروع الفقه الشافعي .

٤ - شرح التنبيه للشيرازي في الفقه الشافعي في أربع مجلدات ، ذكره ابن كثير .

٥ - تذكرة في الفروع ، ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في «هدية العارفين» .

٦ - منهاج الوصول إلى علم الأصول ، وهو المختصر المشهور في أصول الفقه .

٧ - شرح منهاج الوصول .

٨ - شرح المنتخب في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي .

(١) مفتاح السعادة ١٠٣/٢ .

- ٩ - شرح المحصول في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي أيضاً ، ذكر ابن كثير .
- ١٠ - مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام ، وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه .
- ١١ - طوابع الأنوار في أصول الدين ، وهو كتاب دقيق للغاية ، وأجل مختصر صنف في علم الكلام ، كما يقول السبكي .
- ١٢ - مصباح الأرواح ، اختصر فيه طوابع الأنوار في أصول الدين .
- ١٣ - الإيضاح في أصول الدين ، وهو شرح على كتاب المصباح .
- ١٤ - شرح الكافية في النحو لابن الحاجب .
- ١٥ - لب الألباب في علم الإعراب ، اختصر فيه الكافية لابن الحاجب .
- ١٦ - شرح المطالع ، وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي .
- ١٧ - متن في علم الهيئة ، وهو مختصر ذكره الخفاجي .
- ١٨ - نظام التواريخ ، باللغة الفارسية ، من ابتداء الخلق حتى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م .
- ١٩ - التهذيب والأخلاق في التصوف ، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السؤل .
- ٢٠ - رسالة في موضوعات العلوم وتعريفها ، ذكرها البغدادي ، والزركلي .
- ٢١ - شرح الفصول لنصر الدين الطوسي ، ذكره البغدادي والخوانساري .

٢٢ - منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى ، ذكره البغدادي^(١) .

وهذا المسرد لمصنفات البيضاوي يدل على الجوانب المختلفة لحياته العلمية ، وثقافته الواسعة ، وإنتاجه الوفير ، وسوف نقتصر على الجانب الفقهي ، والأصولي .

أولاً: البيضاوي فقيهاً:

امتاز القرن السابع الهجري بميزة خاصة بالنسبة للمذهب الشافعي ، وهو أنه بلغ رتبة الكمال والنضوج في هذا القرن ، وتبوأ كنه الأوج ، وظهر فيه أئمة وأعلام وصلوا إلى القمة ، وتمت فيه حركة التدقيق والتحقيق لآراء المذهب وأقوال أئمة ، وتحقق هذا العمل على يدي محقق المذهب: الإمام الجليل عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني ، الشيخ أبو القاسم الرافعي ، صاحب الشرح الكبير ، المسمى «فتح العزيز في شرح الوجيز» المشهور المعروف ، وتوفي الرافعي سنة ٦٢٠هـ^(٢) ، والإمام العلامة ، محيي الدين ، يحيى بن شرف بن مرة ، الشيخ أبو زكريا النووي ، المتوفى ٦٧٦هـ ، صاحب التصانيف الكثيرة^(٣) ، وكان معهم عدد كبير من الفقهاء والعلماء^(٤) .

(١) انظر: إيضاح المكنون ١/١٣٨ ، ٢/٢٦٩ ، ٥٩٠ ، هدية العارفين ١/٤٦٣ ، مفتاح السعادة ٢/١٠٥ ، ١٧٩ ، معجم المؤلفين ٦/٩٧ ، كشف الظنون ١/١٦٢ ، ٢/١٠١ ، ٥٣٨ ، نهاية السؤل ١/٥ ، البداية والنهاية ١٣/٣٠٩ ، التعريف بالمؤرخين ص ١١٨ ، حاشية الشهاب الخفاجي ١/٤ ، وبقيّة كتب التراجم السابقة .

(٢) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٨١) ، والمراجع المشار إليها في الهامش .

(٣) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٩٥) ، والمراجع المشار إليها في الهامش .

(٤) من هؤلاء الفقهاء الأعلام ابن أبي الدم الحموي (٦٤٢هـ) وابن الصلاح (٦٤٣هـ) =

وشارك في هذه النهضة الفقهية للمذهب الشافعي القاضي البيضاوي ،
فتفقه على علماء بلده ، ورحل إلى شيراز وتبريز وغيرهما ، وحصل العلم
بالأحكام الشرعية حتى وثق من نفسه بإتقانها ، وطلب القضاء ، كما مر ،
حتى وصفه ابن العماد بقوله : «ولي أمر القضاء بشيراز ، وقابل الأحكام
الشرعية بالاحترام والاحتراز»^(١) ، ولم تدم ولاية القضاء عليه كثيراً ،
فاعتزلها ، ورحل إلى تبريز ، وبدأ بالتصنيف والتأليف .

كتب البيضاوي الفقهية :

تناول البيضاوي رحمه الله التأليف الفقهي على المذهب الشافعي ،
وتنوعت هذه الكتب اختصاراً وتطويلاً ، كما تنوعت في الأسلوب ،
وصنف ثلاثة كتب ، الأول رسالة في الفروع ، والثاني اختصار لأحد أمهات
كتب المذهب ، والثالث شرح لأهم مختصر في الفقه الشافعي ، وهي :

١ - تذكرة في الفروع :

وهذا الكتاب لا نعرف عنه شيئاً ، ولم يذكره في مصنفات البيضاوي
إلا إسماعيل باشا البغدادي^(٢) ، ولعله رسالة مختصرة في الفقه الشافعي
على طريقة البيضاوي ومنهجه في التأليف .

٢ - شرح التنبيه :

وهو أربعة مجلدات ، ذكره ابن كثير وغيره^(٣) ، ولم يظهر له أثر في
فهارس الكتب والمكتبات ، ولعله لا يزال مجهولاً في بعض الأماكن

= والعزبن عبد السلام (٦٦٠هـ) والفركاح المصري (٦٩٠هـ) ، كما ظهر أئمة
وأعلام كبار في القرن السابع في المذاهب الأخرى ، كالشيخ ابن قدامة الحنبلي
(٦٢٠هـ) ، والشيخ المجد بن تيمية (٦٥٢هـ) وابنه شهاب الدين بن تيمية
(٦٨٢هـ) ، القرافي المالكي (٦٨٤هـ) ، وابن الساعاتي الحنفي (٦٩٤هـ) .

(١) شذرات الذهب ٣٩٢/٥ .

(٢) هدية العارفين ٤٦٣/١ .

(٣) انظر البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ ، والفتح المبين ٨٨/٢ .

والدور الخاصة التي تقتني المخطوطات ، وتحفظ بأمهات كتب التراث ، أو لعله قد فقد مع ما فقد من تراث الإسلام والمسلمين .

ونقل ابن السبكي عن عبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي ، شارح التنبيه المشهور ، أنه «قد ذكر أنه لخص «الشرح» من الوسيط والبسيط والشامل . . . ، والنهاية ومختصرها . . . وشرح البيضاوي» وجاء في الهامش أن ابن السبكي قال في «الطبقات الوسطى» عن صاحب الترجمة : «والجيلي استشعر من نفسه أنه ينكر عليه ، فعذ في خطبة كتابه كتباً كثيرة للأصحاب» ولم يؤرخ وفاته ، بل قال : «ولم أعرف إلى الآن من حال الجيلي شيئاً»^(١) .

ويعتبر «التنبيه» للإمام أبي إسحاق الشيرازي ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، أهم المختصرات الفقهية في المذهب الشافعي قبل أن يصنف الإمام النووي مختصره «المنهاج» وكان العلماء يتبارون بحفظه وشرحه ، حتى ذاع صيته ، واشتهر بين العلماء ، وله شروح تزيد عن السبعين^(٢) ، ومن هنا يظهر أهمية شرح التنبيه للبيضاوي ، وأنه شرح كبير في أربعة مجلدات كما وصفه ابن كثير وغيره .

٣ - الغاية القصوى في دراية الفتوى :

وهو أهم كتاب فقهي للبيضاوي ، شاع بين الناس وانتشر ، وأجمعت كتب التراجم والتاريخ وأسماء الكتب على نسبة هذا الكتاب للبيضاوي ، وقد حفظ من عوادي الزمن ، وكوارث الأيام ، ووصل سالمًا كاملاً حتى

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٥٧/٨ ، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق كتاب «الموضح في شرح التنبيه» لعبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي «الجزء الأول ، والجزء الثالث .

(٢) انظر : كشف الظنون ١/٣٣٣ ، الإمام الشيرازي ، للدكتور محمد حسن هيتو ص ١٦٨ .

عصرنا الحاضر^(١) ، وهذا الكتاب اختصار لكتاب الوسيط للإمام الغزالي (٥٠٥هـ).

ولا تظهر أهمية هذا الكتاب «الغاية القصوى» بالفقه إلا بعد معرفة سلسلة كتب الفقه للمذهب الشافعي ، فالإمام الشافعي رحمه الله كتب «الأم» وجاء المزني فاختصر كتاب الأم في «مختصر المزني» فجاء إمام الحرمين وشرح مختصر المزني في كتاب «نهاية المطلب» ، وجاء تلميذه الغزالي فاختصر النهاية إلى كتابه «السيط» ثم اختصر البسيط في «الوسيط» ثم اختصر الوسيط في «الوجيز» ثم اختصر الوجيز في «الخلاصة» ، وجاء الرافعي ، وهو محقق المذهب ، فاختصر من الوجيز كتاب «المحرر» ثم اختصر الإمام النووي ، وهو المحقق الثاني للمذهب كتاب المحرر في كتابه «المنهاج» وهو الكتاب المختصر المعتمد عند الشافعية ، كما أن الرافعي شرح الوجيز للغزالي في كتابه المشهور «فتح العزيز» وجاء النووي أيضاً واختصر فتح العزيز إلى «روضة الطالبين» في اثني عشر جزءاً ، وهو الكتاب المعتمد أيضاً في المذهب ، وطبع كاملاً في دمشق^(٢).

وهكذا يظهر أن «الغاية القصوى» اختصار لأحد كتب المذهب ، في سلسلة الفقه الشافعي ، وأن الغاية اختصار دقيق ومحكم للوسيط ، مع العبارة السليمة ، واللغة الفصحى ، واختيار الألفاظ الجميلة ، مع الاحتفاظ بالمصطلحات الفقهية ، وتعتمد على الاختصار لاختيار الأقوال الراجحة ، والآراء المعتمدة في المذهب ، مع الأدلة والتعليل والإشارة

(١) يوجد من كتاب «الغاية القصوى» عدة نسخ مخطوطة وكاملة ، وقام الدكتور علي محيي الدين القروداغي بتحقيقه للحصول على رسالة ماجستير من الأزهر ، ثم طبعه ونشر في جزأين.

(٢) انظر: الفوائد المكية للسيد علوي السقاف ص ٣٥ وما بعدها ، المذهب عند الشافعي ، مقال للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي في مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، العدد الثاني ص ٢٥.

أحياناً إلى المقارنة مع المذهب الحنفي والمالكي ، ومع الاعتماد على القواعد الفقهية ، والمناهج الأصولية ، والمناقشة المنطقية الهادئة المتزنة ، والأدب الجم مع أئمة المذاهب ، ويسميه كثير من العلماء بـ «مختصر الوسيط» .

والكتاب أنموذج فريد لكتاب فقهي معاصر يبين الأحكام الشرعية باختصار مع الأدلة ، وفوق كل ذلك يتميز بالترتيب وحسن التبويب ، فقد قسم الكتاب إلى عدة كتب ، وكل كتاب بحثه في عدة أبواب ، وعرض الباب في عدة فصول ، ويضيف إلى ذلك عناوين إضافية : كالفرع ، والفائدة ، والتهذيب والخاتمة ، مع العناوين الأساسية للكتاب والباب والفصل .

ويتألف الكتاب من تقديم البيضاوي نص فيه أنه اختصر الوسيط ، ثم تصدير عن مقدمات الفقه ، وعرض أحكام الفقه في كتب ، ابتداءً من الطهارة ، فالتيمم فالحيض ، فالصلاة ، فالجنائز ، فالزكاة ، فالصيام ، فالاعتكاف ، فالحج ، فالبيع . . ، فالتق ماراً بجميع الأحكام الفقهية .

ويتبوأ كتاب «الغاية القصوى» الدرجة العليا في هذا المجال ، ولكنه لم ينتشر بين العلماء والطلاب ومجالس العلم كما انتشرت كتب البيضاوي في أصول الفقه والتفسير ، ولعل السبب في ذلك أن الإمام النووي رحمه الله كان معاصراً للبيضاوي في القرن السابع ، وبلغ النووي رتبة المحقق والمرجع في المذهب ، والمدقق لأقواله ، والمنقح لكتبه ، وصنف كتبه التي سارت بها الركبان ، والتف حولها المسلمون في أرجاء المعمورة ، وهي «منهاج الطالبين» مختصراً ، و«الروضة» و«المجموع» وغيرها ، فلم يفسح المجال لكتاب البيضاوي وغيره ليأخذ نصيبه في دور العلم ومعاهده^(١) .

(١) انظر تعقيب ابن السبكي على إحدى مسائل «الغاية القصوى» وتصرف البيضا

وذكرت كتب التراجم والتاريخ وفهارس الكتب أن الشيخ عبد الله بن محمد الفرغاني الهاشمي الحسيني ، المقلب بالعبري ، المتوفى سنة ٧٤٣هـ وقيل سنة ٧٤٢هـ ، الذي كان قاضياً بتبريز ، شرح مصنفات البيضاوي ، وهي «الغاية القصوى» في الفقه ، و«المنهاج» في أصول الفقه ، و«مصباح الأرواح» في أصول الدين^(١) .

ثانياً: البيضاوي أصولياً:

يشكل علم أصول الفقه المنارة الوضاءة بين العلوم الشرعية ، ويعتبر مفخرة الأمة في حضارتها وعلومها ، وهو مما انفرد المسلمون في التاريخ ، ذلك أنه عبارة عن القواعد والمبادئ التي سار عليها الفقهاء في استنباط الأحكام ، وبيانها للناس ، وأنه يتكون من الضوابط التي يلتزم بها الفقيه أو المجتهد ، بقصد أن يكون طريقه مستقيماً واضحاً ، لا يعتريه وهن أو انحراف ، ولا خبط أو اضطراب ، كما أن هذا العلم هو المصباح الذي ورثته الأجيال ، وحمله العلماء لبيان الأحكام الشرعية في كل جديد ، ومعالجة المشاكل التي تطرأ ، وغير ذلك وفق منهج محدد يسير عليه العالم في الاستنباط والاجتهاد .

وعرف البيضاوي أصول الفقه بأنه «معرفة دلائل الفقه إجمالاً ، وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد»^(٢) .

وقد لمع نجم أصول الفقه في القرن السابع الهجري ، وصارت الكتب التي صنف في هذا القرن في أصول الفقه نقطة ارتكاز من جهة ، ونقطة

= بها عن الوسيط في (طبقات الشافعية الكبرى ١٥٨/٨ هامش من الطبقات الوسطى).

(١) انظر ترجمته في (البدر الطالع ٤١١/١ ، الدرر الكامنة ٤٧/٣ ، الأعلام ٢٧١/٤).

(٢) منهاج الوصول في معرفة علم الأصول ص ٣ .

تحول متميزة بين ما سبقها وما لحقها من جهة أخرى ، وظهر في هذا القرن أشهر علماء الأصول الأعلام كالإمام الرازي (٦٠٦هـ) ، والتبريزي (٦٢١هـ) وسيف الدين الآمدي (٦٣١هـ) ، وابن الحاجب (٦٤٦هـ) والقرافي (٦٨٤هـ) والقاضي البضاوي (٦٨٥هـ) ، وشمس الدين الأصفهاني (٦٨٨هـ) وابن الساعاتي (٦٩٤هـ).

وكان للقاضي البضاوي مكانة عظيمة في هذه النهضة المباركة لعلم أصول الفقه في هذا القرن ، بل يعتبر البضاوي وابن الحاجب الحوض الذي انصبت فيه الجهود المبذولة في الأصول ، فجمعوها ، ثم نقحوها ، ثم صاغها كل منهما في مختصره المشهور الذي دار حوله هذا العلم عدة قرون ، حتى وقتنا الحاضر .

كتب البضاوي الأصولية :

يعتبر البضاوي من أعلام أصول الفقه عن جدارة واستحقاق ، لأنه درس هذا العلم العظيم ، وأتقنه ، وهضم ما كتب فيه ، ثم تابع الطريق ليعطي الثمار اليانعة ، والمحصول المبارك فيه ، وصنف عدة كتب في أصول الفقه ، وهذه الكتب متنوعة ، بعضها اختصار لكتب غيره ، وبعضها شرح لأهم مختصرات هذا العلم ، وكان رحمه الله يشير في الفقه إلى كتبه الأصولية ، فيقول مثلاً : «كما بينا في كتبنا الأصولية»^(١).

وذكرت معظم كتب التراجم والتاريخ مصنفات البضاوي في أصول الفقه وإن ضنت علينا الأيام بأكثرها ، ولم يبق في التداول والانتشار وحلقات الدرس والعلم ، إلا أصغرهما وأهمها ، وهو «المنهاج» وهذه الكتب هي :

١ - منهاج الوصول في معرفة علم الأصول ، ويعرف اختصاراً بالمنهاج .

(١) الغاية القصوى .

٢ - شرح منهاج الوصول^(١).

٣ - شرح المنتخب في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي الذي انتخبه من كتابه المحصول^(٢).

٤ - مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام ، وهو شرح مختصر ابن الحاجب المشهور وعنوانه «مختصر منتهى السؤل والأمل إلى علمي الأصول والجدل»^(٣).

٥ - شرح المحصول للإمام فخر الدين الرازي^(٤).

وأكثر هذه الكتب انتشاراً وشيوعاً ، وتداولاً في أروقة العلم ، واعتماداً عليه في تناول علم أصول الفقه وشرحه والتعليق عليه ، وحفظه واقتباس التعريفات والأحكام منه هو «كتاب منهاج الوصول في معرفة علم الأصول» ، وسوف نفرده بالدراسة والبيان.

منهاج الوصول:

هذا الكتاب مختصر في علم أصول الفقه ، يبلغ ١٢٠ صفحة من الحجم الوسط ، وهو حلقة أساسية في سلسلة كتب أصول الفقه منذ عهد

(١) انظر: بغية الوعاة ٥١/٢ ، روضات الجنات ص ٤٥٤ ، طبقات المفسرين ٢٤٣/١ ، الوافي بالوفيات ٣٧٩/١٧ ، الفتح المبين ٨٨/٢ ، مفتاح السعادة ١٠٥/٢ ، حاشية الخفاجي ٤/١ .

(٢) انظر: طبقات المفسرين ٢٤٣/١ ، البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ ، إيضاح المكنون ٥٦٩/٢ ، حاشية الخفاجي ٤/١ ، مفتاح السعادة ١٠٥/٢ ، بغية الوعاة ٥١/٢ ، وانظر الكلام عن كتاب «المنتخب» وما يقال حوله ، وتحقيق نسبه في (المحصول ٥١/١/١ وما بعدها).

(٣) انظر: بغية الوعاة ٥١/٢ ، كشف الظنون ٥٣٨/٢ ، طبقات المفسرين ٢٤٣/١ ، الوافي بالوفيات ٣٧٩/١٧ ، حاشية الخفاجي ٤/١ ، مفتاح السعادة ١٠٥/٢ ، الفتح المبين ٨٨/٢ .

(٤) انظر: البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ .

الشافعي رحمه الله تعالى الذي صنف أول كتاب في علم أصول الفقه ، وكان أول من قام بتدوين أصول الفقه حتى وقتنا الحاضر .

وهذه السلسلة في أصول الفقه تبدأ من «الرسالة» للإمام الشافعي ، التي كانت المنارة الباسقة لدعوة العلماء للتأليف والكتابة والتصنيف في علم أصول الفقه ، وكانت حجر الأساس في بناء صرح هذا العلم ، فشمروا العلماء والأئمة عن ساعد الجد ، وحرروا المصنفات ، وأكملوا البناء الذي أقام أساسه الإمام الشافعي ، وتنوعت الطرق في تصنيف علم أصول الفقه ، وكان من أهم الكتب التي ألفت على طريقة الشافعية أو المتكلمين ثلاثة ، وهي المعتمد لأبي الحسين البصري (٤٦٣هـ) ، والبرهان للإمام الحرمين الجويني (٤٨٧هـ) ، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) ، فجاء الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) فجمع الكتب الثلاثة السابقة ولخصها ، وأحاط بكل ما كتب قبله ، وصاغ هذا العلم صياغة محكمة ، وثيقة ، مع المقارنة والمناقشة ، وصنف كتابه الكبير المشهور «المحصول في علم الأصول» الذي بلغ القمة والأوج ، وكان يعتبر ثورة في علم الأصول^(١) .

وكان الرازي رحمه الله قد ملأ الدنيا بعلمه ، وشغل الناس بمكانته وتصانيفه ، ومنها «المحصول» الذي جمع فيه مزايا الكتب التي سبقته ، وأحاط بمباحثها ، وتجنب المآخذ التي وردت عليها ، وتعقب أقوالهم ، واستدرك الكثير عليهم ، وصاغ أصول الفقه وقواعده في أسلوب حسن ، وعبرة محكمة ، وتعبير دقيق ، وأفاض عليها من علمه الغزير ، وعقله الواسع العميق ، حتى تبوأ «المحصول» قمة علم الأصول ، وقصده

(١) انظر كتابنا: أصول الفقه الإسلامي ص ٤٥ وما بعدها .

العلماء في جميع الأرجاء بالدراسة والاستفادة منه ، واختصاره وشرحه^(١).

وممن اختصره «المحصول» تاج الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموي المتوفى سنة (٦٥٦هـ) في كتابه «الحاصل من المحصول» ، وجاء القاضي البيضاوي فاختصر «الحاصل» في كتابه «منهاج الوصول إلى علم الأصول» بعبارة دقيقة ، واختصار محكم ، حتى صار متناً معتمداً في الأصول ، يحفظه الطلاب والعلماء عن ظهر غيب ، ثم وضعوه للتدريس ، وتناولوه بالشروح .

قال الإسنوي : «اعلم أن المصنف أخذ كتابه من «الحاصل» للأرموي ، و«الحاصل» أخذه مصنفه من «المحصول» للرازي ، و«المحصول» استمداده من كتابين ، لا يكاد يخرج عنهما غالباً ، أحدهما المستصفى للغزالي ، والثاني المعتمد لأبي الحسين البصري . . . وسببه على ما قيل أنه كان يحفظهما»^(٢).

وقال الإسنوي عن «المنهاج» : «ثم إن أكثر المشتغلين في هذا الزمان قد اقتصروا من كتب [الأصول] على «المنهاج» للإمام قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي رضي الله عنه لكونه صغير الحجم ، كثير العلم ، مستعذب اللفظ ، وكنت أيضاً ممن لازمته درساً وتدريساً»^(٣).

وقال ابن كثير : «ومن مصنفاته المنهاج في أصول الفقه ، وهو مشهور ، وقد شرحه غير واحد»^(٤).

(١) لقد حقق المحصول وأخرجه للوجود الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني في ستة مجلدات وانظر مقدمته ٢٨/١/١ ، ٤٠ .

(٢) نهاية السؤل ٤/١ .

(٣) المرجع السابق ٢/١ .

(٤) البداية والنهاية ٣٠٩/١٣ .

ونقل ابن العماد عن ابن حبيب قال: «تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته ، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه ، المحرر ، لكفاه»^(١).

وقال المراغي: «وهو كتاب تناوله العلماء بالشرح والتعليق ، وانتفع به الطلاب والعلماء»^(٢).

ونلاحظ أن أول من شرح «المنهاج» مؤلفه البيضاوي رحمه الله تعالى ، كما أنه شرح أصل أصله ، وهو المحصول ، وصاحب البيت أعرف من غيره ، وأهل مكة أدري بشعابها.

خطة البيضاوي في المنهاج:

بدأ البيضاوي كتابه القيم المختصر «المنهاج» بتقديم من صفحة واحدة ، ثم عرف أصول الفقه تعريفاً لقبياً باعتباره حقيقة عرفية دون النظر إلى أجزائه المركب منها ، فقال:

«أصول الفقه: معرفة دلائل الفقه إجمالاً ، وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد»^(٣).

وشرح التعريف شرحاً موجزاً ، ثم بين خطته في الكتاب ، فقال:

«رتبناه على مقدمة وسبعة كتب».

ففي المقدمة شرح الأحكام الشرعية ومتعلقاتها وفيما لا بد للحكم منه ، كالحاكم وهو الله تعالى ، والمحكوم عليه وهو المكلف ، والمحكوم به ، وهو فعل المكلف ، وفي الكتاب الأول بحث المصدر الأول للتشريع وهو الكتاب الكريم ، وتكلم فيه على دلالات الألفاظ ،

(١) شذرات الذهب ٣٩٢/٥.

(٢) الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٨٨/٢.

(٣) منهاج الوصول ص ٤.

فبين الحقيقة والمجاز ، والعموم ، والخصوص ، والمطلق والمقيد والمجمل ، وقسمه إلى تسعة أبواب ، وقسم الباب إلى فصول أحياناً .

وفي الكتاب الثاني بحث السنة في بابين الأول في أفعاله عليه الصلاة والسلام ، والثاني في الأخبار ، وفيه ثلاثة فصول ، وتحدث في الكتاب الثالث عن الإجماع فبين حجية وأنواعه ، وشرطه ، وعرض في الكتاب الرابع القياس في بابين ، فذكر حجية ، وأركانها ، وتوسع في الكلام عن العلة ، وفي الكتاب الخامس تناول الأدلة المختلفة فيها ، وقسمها إلى قسمين الباب الأول في الأدلة المقبولة ، وهي الإباحة الأصلية والاستصحاب والاستقراء ، وأقل ما قيل والمناسب المرسل ، وفقد الدليل ، والباب الثاني في الأدلة المردودة وهي الاستحسان وقول الصحابي .

وفي الكتاب السادس تكلم عن التعادل والترجيح في أربعة أبواب ، الأول في تعادل الأمرتين ، والثاني في الأحكام الكلية للترجيح ، والثالث في ترجيح الأخبار ، والرابع في ترجيح الأقيسة ، وأما الكتاب السابع والأخير مخصصه للاجتهاد والإفتاء في بابين ، فعرف الاجتهاد ، وبين شروط المجتهد وحكم الاجتهاد ومسائل الإفتاء .

وختم المنهاج بسطر واحد ، فقال : «وليكن هذا آخر كلامنا ، والله الموفق والهادي للرشاد»^(١) .

طريقة البيضاوي في المنهاج :

عرض البيضاوي أهم مسائل أصول الفقه بأسلوب مختصر ، وعبارة مسبوكة ، وكلام دقيق ، ويجمع بين المنقول والمعقول كما قال في تقديمه : «وإن كتابنا هذا «منهاج الوصول إلى علم الأصول» الجامع بين

(١) المرجع السابق ص ١٢١ .

المعقول والمشروع ، والمتوسط بين الأصول والفروع ، وهو وإن صغر حجمه ، كبر علمه ، وكثرت فوائده ، وجلّت عوائده ، جمعته رجاء أن يكون سبباً لرشاد المستفيدين ونجاتي يوم الدين»^(١).

ويسير على طريقة المتكلمين ، فيبين أوجه الخلاف ، ويستدل للمراجع ، ويرد على المخالف ، ويعتمد على ذكر الشبهة والرد عليها على أسلوب علم الكلام ، والمعروف بالفنقلة ، أي: فإن قلت كذا ، قلنا كذا^(٢).

ويبدأ الكلام بذكر المصطلحات الأصولية ، ويبين وزنها الصرفي ، ومعناها اللغوي ، ثم يتتقى التعريف الأصولي الدقيق ، الواضح ، المسبوك ، ثم ينتقل إلى الأحكام الأصولية ، وقواعد الاستنباط ، وتقرير الآراء .

شروح المنهاج وحواشيه :

اعتنى العلماء قديماً وحديثاً بكتاب «المنهاج» للبيضاوي ، فتصدى كثير منهم لشرحه ، وكتب كثيرون الحواشي والتعليقات على الشروح ، واستدرك عليه آخرون ، ومنهم من قام بتخريج أحاديثه ولغاته ، ومنهم من نظمه ، ومنهم من كتب الزيادات في علم الأصول التي لم يتعرض لها «المنهاج» وبلغت هذه الشروح والحواشي أكثر من خمسين كتاباً ، طبع كثير منها مرات ومرات ، كما طبع المنهاج نفسه عدة مرات .

ومن هذه الشروح: شرح القاضي البيضاوي نفسه ، وشرح الأيكي الشيرازي (٦٩٧هـ) ، وشرح الجزري (٦٣٠هـ) ، وشرح المراغي

(١) المرجع السابق ص ٣ .

(٢) انظر: كشف الظنون ٥٥٤/٢ وما بعدها ، إيضاح المكنون ٥٩٠/٢ ، مقدمة نهاية السؤل ١/صفحة ي ، دائرة المعارف الإسلامية ٤١٩/٤ ، مفتاح السعادة ١٠٥/٢ ، ١٩٢ ، منهاج الوصول ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٤ .

(٧٦٤هـ) وشرح الفرغاني العبري (٦٤٢هـ) وشرح التبريزي الحنفي (٧٤٣هـ) وشرح التبريزي الجاربردي (٧٤٦هـ) وشرح الأصفهاني (٦٩٤هـ) وشرح تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ) وولده تاج الدين السبكي (٧٧١هـ) واسم «المنهاج» في شرح المنهاج مطبوع ، وشرح الأسنوي (٧٧٢هـ) ، وشرح ابن الملقن (٨٠٤هـ) وشرح أبي زرعة العراقي (٨٢٦هـ) وشرح ابن رسلان الرملي (٨٤٢هـ) والشرح الكبير لكمال الدين بإمام الكاملية (٨٧٤هـ) وشرح البدخشي الحنفي .

وأحسن هذه الشروح وأنفعها شرح برهان الدين الفرغاني العبري^(١) (٧٤٢هـ) وشرح الأسنوي ، وهو شرح متوسط الحجم ، توخى فيه الإيضاح والسهولة ، وذكر فيها ما يرد عليها من الأسئلة ، ونبه على ما وقع فيه من الغلط في النقل ، وبين مذهب الشافعي في الفروع والأصول وأشار إلى المواضع التي خالف فيها البيضاوي إمام الحرمين والآمدي وابن الحاجب ، وكتب على هذا الشرح عدة حواشٍ وتعليقات ، منها حاشية العلامة الشيخ محمد نجيب المطيعي (١٢٧١هـ/ ١٩٣٥م) وطبع شرح الأسنوي مع حاشية المطيعي ، كما طبع شرح الأسنوي مع شرح البدخشي عدة مرات ، وكان شرح الأسنوي «نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول» الكتاب المقرر في كلية الشريعة بجامعة الأزهر .

كما خرّج الأحاديث الشريفة التي وردت في «المنهاج» عدد من العلماء ، منهم الإمام العلامة الزركشي (٧٩٤هـ) صاحب «البحر المحيط» في الأصول ، وضم إلى تخريج أحاديث «المنهاج» تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» وسمى كتابه «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر»^(٢) ، ومنهم الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦هـ) ،

(١) يوجد من شرح العبري نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢) يوجد نسخة من هذا الكتاب بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ومنهم سراج الدين عمر بن الملقن (٨٠٤هـ).

ونظم «المنهاج» الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦هـ) والعلامة الزرعي (٧٧٦هـ) ويوسف العيني (٨٩٨هـ) وشهاب الدين الطوخي الشافعي المعروف بابن رجب المولود (٨٤٧هـ) ، وأحمد بن يوسف الكوراني (٨١٠هـ).

وجمع الزوائد على «المنهاج» جمال الدين الأسنوي (٧٧٢هـ) صاحب الشرح السابق المشهور ، والإمام برهان الدين إبراهيم الأبناسي الشافعي^(١).

البيضاوي وبقية العلوم:

كان البيضاوي رحمه الله ذا ثقافة متنوعة ، وكان كالبحر يضم في جنباته الخير الكثير ، فأعطى ما عنده ، وكتب في عدة علوم كما سبق ، وصنف عدة مصنفات ، وشرحنا الجانب الفقهي والأصولي ، ونشير فقط إلى بقية العلوم ، وخاصة التفسير الذي ذاع فيه صيته ، واشتهر في الآفاق كالمنهاج في الأصول وأكثر ، وتلقى العلماء بالقبول كتابه في التفسير «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وعكفوا عليه بالدراسة والتدريس ، والشرح والحواشي والتعليقات التي تجاوزت الحصر ، وطبع تفسيره مع شروحه وحواشيه عدة مرات ، وفي أقطار مختلفة ، وخاصة حاشية شهاب الدين الخفاجي المطبوعة في ثمانية مجلدات ، كما اشتهر كتابه «نظام التواريخ» واعتنى به أهل فارس ، ويضاف إلى ذلك مشاركته في الحديث الشريف بشرح مصابيح السنة للبغوي ، وفي العربية بتصنيف كتابين في

(١) انظر: كشف الظنون ٥٥٥/٢ وما بعدها ، نهاية السؤل ١/صفحة ي ، إيضاح المكنون ٥٩٠/٢ .

النحو والإعراب ، وفي علم الهيئة والمنطق ، وموضوعات العلوم وتعريفها .

خاتمة :

هذه صورة مشرقة عن حياة البيضاوي ، وآثاره الخالدة ، وكتبه النافعة ، ومصنفاته المشهورة ، ولئن ضنَّ علينا التاريخ بالأضواء الكاشفة عن ولادته ونشأته وشيوخه وتلاميذه فإن مآثره العلمية عوضت خيراً من ذلك ، وبقيت شامخة جليلة ، وكانت نوراً وضياء للمسلمين في كل زمان ومكان ، فقيمة الإنسان بما يتقن ، ولسنا بالآباء نفتخر ، وكل امرئ يقدر بكسبه وعمله ، وحسبنا في ذلك حديث رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له »^(١) ، وهذا علم البيضاوي ينتفع به إلى يوم الدين ، ليكتب ثوابه في صحائفه ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ورحمه الله رحمة واسعة ، والحمد لله رب العالمين .



(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

مصادر البحث

- ١ - الإبهاج في شرح المنهاج ، تقي الدين السبكي وتاج الدين السبكي ، تصوير دار الكتب العلمية ، بيروت - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٢ - أدب القضاء ، الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات ، ابن أبي الدم الحموي ، ط دار الفكر - دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٣ - الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة - بدون تاريخ .
- ٤ - الإمام الشيرازي ، الدكتور محمد حسن هيتو - ط دار الفكر - دمشق - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٥ - الأنساب ، للسمعاني - الطبعة الثانية ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ١٤٠٠هـ / - ١٩٨٠م .
- ٦ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، للعالم إسماعيل باشا البغدادي - طبع وكالة المعارف ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
- ٧ - البداية والنهاية ، الحافظ أبو الفداء ابن كثير الدمشقي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م .
- ٨ - البدر الطالع ، محمد علي الشوكاني - مطبعة السعادة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ .
- ٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين السيوطي - طبع دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٦٤م .
- ١٠ - التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، المحامي عباس العزاوي - ط شركة التجارة - بغداد - ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

- ١١ - حاشية الشهاب الخفاجي «عناية القاضي» على تفسير البيضاوي -
تصوير المكتبة الإسلامية - ديار بكر - تركيا .
- ١٢ - دائرة المعارف الإسلامية ، مجموعة من المستشرقين ، منهم
بروكلمان - طبع طهران .
- ١٣ - الدرر الكامنة ، أحمد بن حجر العسقلاني ، مطبعة المدني -
القاهرة - سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م .
- ١٤ - روضات الجنات ، الخوانساري - طبع حجر ١٣٠٧هـ .
- ١٥ - شذرات الذهب ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، طبع القدسي -
القاهرة - سنة ١٣٥٠هـ .
- ١٦ - طبقات الشافعية ، جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي - ت الجوري -
مطبعة الإرشاد بغداد - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ .
- ١٧ - طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي -
ط عيسى الحلبي - القاهرة - ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- ١٨ - طبقات المفسرين ، محمد بن علي الداودي ، ت علي محمد عمر -
مطبعة الاستقلال - القاهرة - ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ١٩ - الغاية القصوى في دراية الفتوى ، للقاضي عبد الله بن عمر
البيضاوي - تحقيق محيي الدين قرة داغي ، - مطبعة دار النصر -
القاهرة .
- ٢٠ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين ، الشيخ عبد الله مصطفى
المراغي - الطبعة الثانية - بيروت - ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٢١ - الفوائد المكية ، السيد علوي بن أحمد السقاف - ط مصطفى البابي
الحلي - القاهرة - بدون تاريخ .
- ٢٢ - كشف الظنون ، مصطفى بن عبد الله ، الشهير بحاجي خليفة -

الطبعة الأولى - نظارة المعارف - إستانبول ١٣١٠هـ.

٢٣ - المحصول في علم أصول الفقه ، فخر الدين الرازي - ت الدكتور طه العلواني - الطبعة الأولى - الرياض - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٢٤ - مرآة الجنان ، عبد الله بن أسعد ، أبو محمد اليافعي - الطبعة الأولى - حيدر آباد الدكن - سنة ١٣٣٩هـ .

٢٥ - معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة - مطبعة الترقى بدمشق - ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .

٢٦ - مفتاح السعادة ، أحمد بن مصطفى ، الشهير بطاش كبرى زادة - مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة .

٢٧ - منهاج الوصول في معرفة علم الأصول ، القاضي البيضاوي ، ضبطه وحققه محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٥١م .

٢٨ - نزهة الجليس ، العباس بن علي المكي الحسيني الموسوي - طبع مصر ١٢٩٣هـ .

٢٩ - نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول ، عبد الرحيم الأسنوي ، المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٥هـ .

٣٠ - هدية العارفين ، إسماعيل باشا البغدادي - طبع إستانبول - سنة ١٩٥١م .

٣١ - الوافي بالوفيات ، خليل بن أيبك الصفدي - ط دار الأندلس - بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .



الأشعري والأشعرية

مقدمة:

يطلق اصطلاح الأشعرية أو الأشاعرة عنواناً لأحد المذاهب الاعتقادية في الإسلام ، وإطلاق اسم «المذهب» على الأشعرية جار على سبيل التجوز والمشكلة مع أسماء المذاهب الاعتقادية الأخرى ، وذلك أن الأشعرية تمثل الآراء الاعتقادية والإيمانية في الإسلام ، كما وردت في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وهي العقيدة الإسلامية التي يلتقي عليها جماهير المسلمين ومعظم علماء الأمة الإسلامية ، ابتداء من عصر النبوة ، وخلال التاريخ الإسلامي ، حتى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإن ظهرت خلافات بين الأشعرية وغيرهم من أهل السنة والجماعة فهي اختلافات جزئية بسيطة لا تمت إلى أصل العقيدة ، وفي ذات الوقت كان للأشعرية مواقف مشهودة في وجه المذاهب الاعتقادية الأخرى التي شابها كثير من المبادئ الغريبة والآراء الدخيلة .

والأشعرية نسبة إلى مؤسسها وإمامها الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، الذي ولد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ ، وتوفي ببغداد ٣٢٤هـ ، وقيل غير ذلك^(١) .

(١) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٧/٤ ، وفيات الأعيان ٤٤٦/٢ ، تبين كذب المفترى ص ٣٤ وما بعدها ، الأعلام للزركلي ٦٩/٥ في البداية والنهاية ١٨٧/١١ .

وتطلق الأشعرية في مقابل الماتريديّة غالباً ، ويطلق لفظ الأشاعرة في مقابل المعتزلة ، ويشمل لفظ الأشاعرة غالباً: الأشعرية والماتريديّة ، وإذا أطلقت الأشاعرة في مقابل الحكماء فالمراد بها جميع المتكلمين^(١) .
أولاً - نشأة الأشعرية :

ظهرت الأشعرية كمذهب في الوقت الذي اشتد فيه أمر المعتزلة عقائدياً وسياسياً ، وهجوماً على الفقهاء والمحدثين ، وتشتت الناس أمام المعتزلة ، وكثرت الفرق الصغيرة للرد عليها .

وكان أبو الحسن الأشعري معتزلياً في أول أمره ، فدرس كتبهم وأفكارهم وأساليبهم في الجدل والنقاش ، ثم تبرأ منهم ، واستخدم أسلحتهم في الرد عليهم ، وكشف باطلهم ، وتأييد الاعتقاد الصحيح ، ومبادئ الإيمان الكامل ، والفكر الإسلامي الثابت ، وقام بمواجهة المعتزلة ، وتزييف آرائهم ، لبيان الحق والصواب حتى نسب المذهب إليه ، مع أنه كان موجوداً قبله ، واجتمع حوله معظم المسلمين ، وأيده العلماء والفقهاء والمحدثون ، وصارت آراؤه تتردد في المحافل العلمية والأوساط الدينية .

وظهر في نفس الوقت إمام الهدى الشيخ أبو منصور محمد بن محمد ابن محمود الماتريدي الذي ولد في منتصف القرن الثالث الهجري ، وعاصر أبا الحسن الأشعري ، ولكنه كان في سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، وتوفي سنة ٣٣٣هـ ، وتصدى للمعتزلة ، وناصر الفقهاء والمحدثين بمنهاج خاص ، والتقى مع الأشعري في كثير من النتائج^(٢) .

(١) دستور العلماء ١/ ١١٨ .

(٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ، أبو زهرة ص ٢٠٧ ، تبين كذب المفترى ص ١٩ ، الفوائد البهية ص ٩٥ ، الجواهر المضيئة ٢/ ١٣٠ ، الأعلام ٧/ ٢٤٢ ، ومرجع العلوم الإسلامية ص ٣٣٩ .

وصار الأشاعرة والماتريدية يمثلان مذهب أهل السنة والجماعة عند المسلمين في أمور الإيمان والعقيدة والتصوير الإسلامي عن الإنسان والكون والحياة ، وهو ما جاء صريحاً في القرآن الكريم والسنة النبوية ، والتقى عليه أصحاب رسول الله ﷺ وسلف الأمة وخلفها ، ويلتزم به الغالبية العظمى من المسلمين في القديم والحديث .

وهذان المذهبان لم يأتيا بجديد في العقيدة الإسلامية ، ولم يبتدعا رأياً إضافياً عليها ، وإنما سعيا إلى تثبيت العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الواردة في القرآن والسنة ، وتبناها المسلمون سلفاً وخلفاً ، مع إزالة ما علق بها من تأثير التيارات الوافدة ، والشبه المثارة ، والآراء الدخيلة ، والبدع الطارئة ، والتأثيرات الجانبية من الحضارات القديمة ، والمبادئ الغربية التي أخذت بها المذاهب الاعتقادية الأخرى كالمعتزلة والمرجئة والقدرية والجبرية والحشوية والمجسمة وغيرها مما يعرف بمذاهب علم الكلام^(١) .

قال الشيخ أبو القاسم القشيري : «اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة الحديث ، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث ، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة ، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين من الملة سيفاً مسلولاً»^(٢) .

(١) عرف ابن خلدون علم الكلام بأنه «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة» (مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨) . انظر: مرجع العلوم الإسلامية ص ٣٢٣ .

(٢) تبیین کذب المفتری ، لابن عساکر ، ص ١١٢ .

وقال ابن السبكي: «اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ، ولم ينشئ مذهباً ، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف ، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريقة السلف نطاقاً ، وتمسك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به في ذلك ، السالك سبيله في الدلائل ، يسمى أشعرياً^(١) .

وقال ابن خلكان: «هو صاحب الأصول ، والقائم بنصرة مذهب أهل السنة ، وإليه تنتسب الطائفة الأشعرية»^(٢) ، ثم نقل عن الصيرفي «كانت المعتزلة قد رفضوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم» .

وقال ابن العماد: «وقد بيض الله به وجوه أهل السنة النبوية ، وسود به رايات أهل الاعتزال والجهمية ، فأبان به وجه الحق الأبلج»^(٣) .

فالأشعري لم يخترع لنفسه مذهباً خاصاً ، وإنما اعتنق ما كان يعتقد به جماهير المسلمين من علماء الحديث والفقه ، وسائر الصحابة والتابعين ، مما ثبت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأن المعول عليه عند الاختلاف هو القرآن والسنة وإجماع المسلمين .

ولكن نسبت هذه العقيدة إليه لأنه قام بالدفاع عنها في وجه أهل الزيغ والضلال وأصحاب البدع وآراء الفرق الأخرى ، وتزييف أقوالهم المخالفة للإسلام ، فانتشر اسمه في الآفاق ، وسمي بمذهب أهل السنة والجماعة ، وأقام أتباعه وتلاميذه وأنصاره على أسلوبه ومنهجه ومسلكه

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكي ٣٦٥/٤ .

(٢) وفيات الأعيان ، لابن خلكان ٤٤٦/٢ .

(٣) شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي ٣٠٣/٢ .

وآرائه في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب وشمال إفريقيا وصقلية والأندلس .

وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، فنصر مذهب الأشعري ، وأيد اعتقاده ، ورسخ منهجه ، وأضاف إليه المقدمات المنطقية والعقلية التي تتوقف عليه الأدلة والأنظار^(١) ، وصاغها في قواعد وأقيسة ، «وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها ، لتوقف تملك الأدلة عليها ، وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول»^(٢) ، وصنف عدة كتب في ذلك ، وسار على نهجه إمام الحرمين الجويني ، وأملى في الطريقة عدة مصنفات ، وجاء حجة الإسلام الغزالي فوجد أن هذه المقدمات والأدلة مقتبسة من كلام الفلاسفة فخفف من غلوائها ، وأكد أن بطلان المدلول لا يثبت من بطلان دليله المنطقي الفلسفي ، وغلب الأدلة النقلية ، ثم أفرد الرد على الفلاسفة ، وسار علماء الأشاعرة على عرض أمور العقيدة متأثرين بهذه الاتجاهات ، والجمع بينها أحياناً ، أو تغليب إحداها على الأخرى أحياناً أخرى^(٣) ، ويعتبر كتاب «طوالع الأنوار» للقاضي البيضاوي خير مثال على الجمع بين الطرق السابقة ، ونال شهرة كبيرة ، ومكانة عالية ، حتى قال فيه ابن السبكي «وأما الطوالع فهو عندي أجل مختصر في علم الكلام»^(٤) .

واستمر المذهب الأشعري في الازدهار ، والتلقي والتدريس والتدوين ، حتى القرن الثامن الهجري ، فصار شائعاً ومنتشراً في أروقة

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٦ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ص ١٥٧/٨ .

الجامعات والمساجد والمدارس ، وسار الهوينى بعد ذلك مستقراً بين المسلمين بدون منازع تقريباً كما سنرى في مكانة الأشعرية .

ثانياً - مبادئ الأشعرية :

ويظهر مما سبق أن عرض آراء الأشعرية ومبادئها أنها هو بيان للعقيدة الإسلامية ، من جهة ، وبيان موقف الإسلام من الآراء الجديدة التي أثارها المذاهب الأخرى من جهة أخرى ، وأن وظيفة الأشعرية وهدفها هو تأكيد ما يعتقده أهل السنة ، ورجال الحديث والعلماء في مسائل أصول الدين ، وهو ما ورثوه عن جيل التابعين ، وورثه التابعون من الصحابة ، مأخوذاً من نصوص الكتاب والسنة ، وقد توارى جانب منه في خضم المناقشات الكلامية ، والخلافات المذهبية الوافدة ، التي أثارها المعتزلة وغيرهم ، مع شيوع البدع ، والفهم الخاطيء ، والتصور المنحرف عن الدين والإسلام ، فجاء أبو الحسن الأشعري ليجدد الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، ويكشف الستار عن البدع والأهواء والآراء الدخيلة ، وهو ما فعله الشيخ أبو منصور الماتريدي فيما وراء النهر ، فكل منهما تصدى للذود عن عقيدة أهل السنة والجماعة بالمناهج العقلية والحجج المنطقية والأدلة النقلية ، ونسبت هذه المبادئ لهما وانتشرت آراؤهما ، فكانا إمامي أهل السنة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربها ، مع اختلاف بينهما في جزئيات محدودة لا تتجاوز بضع عشرة مسألة^(١).

(١) الخلاف بين الأشعرية والماتريدي ينحصر في مسائل جزئية اجتهادية تتصل بهوامش المبادئ الاعتقادية المتفق عليها ، وأكثرها خلاف لفظي واصطلاحي لا طائل تحته ، ولا علاقة لها بجوهر المعتقدات الأساسية ، وحصراً بعض العلماء في عشر مسائل ، وجمعها ابن السبكي في ثلاث عشرة مسألة ، منها ست مسائل فيها خلاف معنوي ، والباقي لفظي ، وزادها الشيخ زادة إلى أربعين ، بما فيها الخلافات الفلسفية والعقلية البحتة والمنطقية ، وجمعها في كتابه «نظم =

ويصرح الإمام أبو الحسن الأشعري بالتزامه بالقرآن الكريم والسنة الشريفة ، وما جاء به ، فيقول في كتابه «الإبانة» : «قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها ، التمسك : بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيع الزائغين ، وشك الشاكين»^(١)؟

ويحدد الإمام أبو الحسن الأشعري عقيدة الأشعرية بقوله : «وجملة قولنا : أنا نقر بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا نرد من ذلك شيئاً»^(٢) . إلى أن يقول : «وإن الله عز وجل إله واحد... ، وأن محمداً عبده ورسوله... . وإن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور»^(٣) .

ونذكر بعض الأمثلة عن المسائل الاعتقادية المشهورة ، والمنسوبة إلى الأشعرية ، وحصل فيها جدل فكري ، واختلاف نظري ، ومناظرات حادة ، واختلاف في المنهج الاجتهادي والمسلك العلمي في الاستدلال .

= الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد» المطبعة الأدبية بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣١٧هـ ، وسوف نعرضها باختصار . وانظر طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٧٨ ، العقيدة الإسلامية ص ٨١ .

(١) الإبانة عن أصول الديانة ، له ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) الإبانة ص ١٨ .

١ - صفات الله تعالى: تقول الأشعرية أن الله تعالى صفات أزلية ، مثل العلم والبصر والكلام والقدرة ، وإن الله تعالى عالم بعلم ، وبصير ببصر ، ومتكلم بكلام ، وقادر بقدرة . . . إلى عشرين صفة يجب على المكلف أن يعرفها وردت بالنصوص الشرعية .

وأنكر المعتزلة الصفات لله تعالى ، وقالوا: إنه عليم بذاته ، وبصير بذاته ، متكلم بذاته ، قادر بذاته ، وأن هذه الصفات التي وردت في القرآن يجب تأويلها ، مثل يد الله بأنها لطفه ، ووجه الله بأنه ذاته ، وقال المشبهة بتشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق في اليد والوجه .

وقال الأشعري: إن الصفات يجب ألا تؤخذ بظاهر اللفظ ، ولا بالتأويل ، بل تؤخذ بلا كيف ، مع التسليم فيها ، والتفويض في كيفيتها ، وأن إثبات الصفات لله تعالى ليس فيها تجسيد ، فهي صفات حقيقية ، ولكن لا تعلم طبيعتها بالدقة ، مثل الاستواء على العرش ، وأن الكلام صفة أزلية ، والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، وأن الصفات شيء غير الذات .

يقول الأشعري: «وأن الله استوى على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، وأن له وجهاً بلا كيف ، كما قال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وأن له يدين بلا كيف ، كما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ، وأن له عيناً بلا كيف ، كما قال: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] ، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً ، وأن الله علماً كما قال: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] ، وكما قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] ، ونسبت الله السمع والبصر لا ننفي ذلك ، كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج ، ونسبت أن الله قوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ

قُوَّةٌ ﴿ [فصلت: ١٥] ونقول: إن كلام الله غير مخلوق ، وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له: كن فيكون^(١) .

وكان اتجاه الإمام الأشعري إلى التسليم بالصفات ، كما وردت في القرآن الكريم ، فلا تؤخذ على ظاهر اللفظ ، ولا تؤول ، وهو رأي السلف ، ولكن ورد عن الأشعري تأويل اليد بالقدرة في كتابه «اللمع»^(٢) ، وجاء عن علماء الأشعرية كالبغدادى والجويني تأويل هذه الصفات ، فأولوا «يده» بأنها قدرته ، ووجهه بأنه داته ، أو وجوده ، وسار على هذا معظم الأشاعرة المتأخرين بما يليق من جلال الله تعالى ، ويقرب إلى الأذهان ، وعبر المحققون عن ذلك بقولهم: «إن رأى السلف (بالتفويض والتسليم) أسلم ، ومذهب الخلف (بالتأويل) أحكم .

٢ - مسؤولية الإنسان وإرادته: وهذه المسألة فرع عن أحد أركان الإيمان ، وهو «الإيمان بالقضاء والقدر» ، وفسرهما الأشاعرة بأن القضاء هو تقدم علم الله تعالى بما سيكون من كسب العبد ، والقدر صدور الأعمال وإيجاد الأشياء على حسب مقاديرها المحددة بالقضاء ، وكل ذلك يتعلق بصفات الله تعالى في الإرادة والعلم والقدرة والفعل ، ولا علاقة للقضاء والقدر بمسألة الجبر مطلقاً ، أو الإرادة والاختيار في أفعال الإنسان ، ولكن توهم كثيرون في ذلك ، وأثاروا مسألة الجبر والاختيار ، حتى ظهرت فرقتا الجبرية والقدرية المغالبتان فيهما^(٣) .

ورأى الأشعرية وسط بين الجبرية والمعتزلة القائلين بقول القدريّة ، فالمعتزلة قالوا: إن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه ، وله الحرية

(١) الإبانة ص ١٨ - ١٩ .

(٢) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ١٩٧ ، ١٩٩ ، مبادئ العقيدة الإسلامية ص ٨٧ ، ١٥٢ .

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٥٤ ، مبادئ العقيدة الإسلامية ص ١٨٤ .

المطلقة ، ولا قدر عليه في ذلك ، وقالت الجبرية : إن الإنسان لا يستطيع إحداث شيء ، ولا كسب شيء ، وليس له إرادة ولا اختيار ، بل هو مجبور على الأفعال كالريشة في مهب الريح ، ونفوا عنه المسؤولية ، ونسبوا الفواحش والمنكرات وجميع الأعمال إلى الله تعالى ، وخالف الأشعري القولين ، وفصل بين قدرة الله تعالى وإرادته ، وقضائه وقدره ، وبين إرادة الإنسان ، وأكد حقيقة اختيار الإنسان في أفعاله مع الإصرار على القول بأن الله قادر على كل شيء ، وأن الله تعالى أودع القدرة عند الإنسان على الفعل^(١) . وهو ما يعرف بالكسب عند الأشعرية ، ويعرف عند الماتريدية باختيار .

قال ابن السبكي : والذي تحرر لنا أن الاختيار والكسب عبارتان عن معين واحد ، ولكن الأشعري أثر لفظ الكسب على لفظ الاختيار ، لكونه منطوق القرآن ، والقوم آثروا لفظ الاختيار لما فيه من إشعار قدرة للعبد^(٢) . فالكسب والاختيار شيء واحدة ، وهو رأي أهل السنة والجماعة .

٣ - الإيمان : هو الاعتقاد الجازم ، وهو ما انعقد عليه القلب ، وصدقه اللسان ، وعملت به الجوارح ، وهو أساس الدين ، واتفق أهل السنة على أن الإيمان في الشرع هو تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح^(٣) ، ولكن اختلفت الآراء بعد ذلك في جزئيات تتعلق بالإيمان ، أهمها :

أ - حقيقة الإيمان : قال الماتريدية وجمهور مشايخ الحنفية أن الإقرار

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٣١ ، ٢١٧ ، وما بعدها .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٨٦ .

(٣) ويتفق الجميع على أن الإيمان الذي حدده رسول الله ﷺ في حديث جبريل ، وهو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدرة .

باللسان شطر من الإيمان ، وهو ركن داخل في الإيمان ، لأن الإيمان لغة هو التصديق ، والتصديق يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، وقال الأشعرية : إن النطق بالإيمان من القادر شرط في الإيمان ، والشرط خارج عن حقيقة وماهية التصديق الذي هو في القلب^(١) ، ويتفق الفريقان على أن الإقرار باللسان ضروري ، ويتوقف عليه الإيمان ، ولكنه على الرأي الأول ركن وجزء من الإيمان ، وعلى القول الثاني : هو شرط مهم وضروري ، ولكنه خارج عن جوهر الإيمان ، وهذا اختلاف لفظي واصطلاحي .

ب - زيادة الإيمان ونقصه : قال الإمام أبو الحسن الأشعري : «إن الإسلام أوسع من الإيمان ، وليس كل إسلام إيمان . . .» ثم يقول : «وإن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»^(٢) ، أي أن إيمان الإنسان يزيد بالطاعات والأعمال الصالحة ، وينتقص بالمعاصي والسيئات ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] وقوله تعالى : ﴿ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] .

وقال أبو منصور الماتريدي : أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن الإيمان هو التصديق البالغ حد الجزم ، وذلك لا يقبل التفاوت بحسب ذاته ، والنقص فيه ينافي اليقين ، ويستوي فيه الناس^(٣) .

وهذا اختلاف اصطلاحي أيضاً ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، ولا ينكر كل فريق وجهة نظر الآخر ، والآثار التي تترتب عليه .

ج - العمل مع الإيمان : قال المرجئة : إن الإيمان لا علاقة له بالعمل ،

(١) صحيح البخاري ١١/١ ، نظم الفرائد ص ٣٧ .

(٢) الإبانة ص ٢٤ .

(٣) نظم الفرائد ص ٣٩ ، شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٦/١ .

ومن عمل المعاصي ، وارتكب الحرام ، وترك الواجبات والفرائض فلا يؤثر ذلك على إيمانه ، وقال الخوارج: العمل ركن في الإيمان ، وكل من ارتكب معصية ، أو ترك واجباً فهو كافر ، وقالت المعتزلة: إن مرتكب المعصية ليس مؤمناً ولا كافراً ، وقال الأشعرية وجماهير أهل السنة: إن فاعل الذنب ومرتكب المعصية وتارك الواجب يسمى عاصياً وفاسقاً ، ولا يكفر بذلك ، ويبقى الإيمان الناقص عنده .

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنى والسرقة وشرب الخمر ، كما دانت بذلك الخوارج ، وزعمت أنهم كافرون»^(١).

٤ - الإمامة: أصبحت الإمامة والخلافة قبل وبعد مقتل سيدنا علي كرم الله وجهه موضع نقاش شديد ، وجدل حاد ، ودخلت باب الإيمان وكتب العقيدة ، وأدت إلى الاختلاف بين المذاهب السياسية في الإسلام ، والتي عكست وجهة نظرها في العقيدة وعلم الكلام ، قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبينهم ﷺ اختلافهم في الإمامة»^(٢).

وانتفتت مذاهب أهل السنة والجماعة على قول واحد في ذلك ، صرح به أبو الحسن الأشعري فقال: «ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، وإن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين ، وقدمه المسلمون للإمامة ، كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة ، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ ، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأن الذين قتلوه قتلوه ظلماً وعدواناً ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

(١) الإبانة ص ٢٢ .

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٢ .

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ ، وخلافتهم خلافة النبوة^(١) ، ثم ذكر الإمام أبو الحسن الأشعري الأدلة في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم بين إمامة الفاروق وإمامة عثمان وإمامة علي رضي الله عنه ، وقال: «هؤلاء الأئمة الأربعة المجمع على عدالتهم وفضلهم رضي الله عنهم» ثم قال: «فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم فإنما كان على تأويل واجتهاد ، وعلي الإمام ، وكلهم من أهل الاجتهاد ، وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة ، فدل على أنهم كلهم كانوا على حق في اجتهادهم ، كذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد ، وكل الصحابة مأمونون غير متهمين في الدين ، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم ، وتعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم والتبرؤ من كل من ينقص أحداً منهم رضي الله عنهم جميعهم^(٢) . واتفق أهل السنة والجماعة أنه لم تثبت الوصاية بالخلافة بعد رسول الله ﷺ لأحد ، والأمر شورى بين المسلمين .

ثالثاً - طرق البحث عند الأشعرية :

اعتمد الأشعرية في البحث عن العقائد على محورين :

١ - مسلك النقل : بما ثبت في القرآن الكريم والحديث الشريف عن أوصاف الله تعالى ورسوله واليوم الآخر ، والإقرار بالملائكة والحساب والعقاب والثواب ، وبالجنة والنار ، ويعتمدون على ظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه مع تنزيه الله تعالى عن الشبيه والنظير ، وإثبات جميع الصفات لله تعالى التي أثبتتها لنفسه ، مع الجزم واليقين إنها ليست كصفات المخلوقين ، وإن اتفقت التسمية أحياناً ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ

(١) الإبانة ص ٢٤ .

(٢) الإبانة ص ١٨٥ - ١٨٩ ، ١٩٠ - ١٩١ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٥٢ ، وما بعدها طبع دار البيان .

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [الشورى: ١١] ، وهذا ما يصرح به الأشعرية في كتبهم ، ويصرح به إمامهم أبو الحسن الأشعري في النصوص السابقة التي نقلناها عنه في العقيدة والإيمان ، والصفات ، زيادة الإيمان ونقصه .

وإن كثيراً من حجج الأشعرية تقوم على تفسير القرآن والحديث ، ولذلك ينظر إلى منهجهم في التدليل في هذه الناحية بأنه يشبه منهج السلف واتباع الإمام أحمد بن حنبل المحافظين ، وهو ما نصّ عليه الإمام أبو الحسن الأشعري حرفياً^(١) .

٢ - مسلك العقل : اعتمدت الأشعرية على العقل ، واتجهت إلى الاحتجاج بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية لتؤكد بها الاستدلال على ما جاء في القرآن والسنة ، فتستدل بالعقل والمنطق لتعضد بهما النص والنقل ، وهو مسلك الإمام أبي الحسن الأشعري الذي لا يتخذ العقل حاكماً على النصوص ليؤولها كما يفعل المعتزلة ، بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص يؤيدها ، وكان الأشعري بارعاً بالاستدلال العقلي ، ورضي به مسلكاً ما دام خاضعاً لسلطان النصوص .

ويرجع السبب لاعتماد الأشعري على العقل لعدة أمور ، وهي :

١ - أن الأشعري كان معتزلياً ، وتخرج من مدارسهم ، وتمرس في طريقة الاستدلال العقلي منهم ، وأن المبادئ الفلسفية والعقلية والمنطقية قد شاعت وانتشرت ، واستخدمتها مختلف الفرق والمذاهب في النيل من الدين ، والتشكيك في العقيدة ، والهجوم على الإسلام وإثارة الشبه بين الناس .

(١) الإبانة ص ١٧ وما بعدها ، العقيدة الإسلامية ص ٧٤ وما بعدها ، تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٩٧ .

٢ - أن الأشعري والأشعرية وقفت في وجه الملاحدة والباطنية للرد عليهم ، وكشف ضلالهم ، والسعي على تحذير أتباعهم منهم ، وإبعاد الناس عنهم ، وهؤلاء لا يقنعون بالنقل والنص ، بل يحتاجون إلى الأقيسة المنطقية والأدلة العقلية .

٣ - أن الأشعري تصدى للرد على المعتزلة وآرائهم وانحرافاتهم ومغالاتهم ، وقد بسطوا آراءهم على الساحة السياسية والعلمية ، فاستخدم سلاحهم لقطع شبهاتهم ، وتفنيد حججهم .

ولم يكن الأشعري أول من استعان بالعقل للدفاع عن مذهب أهل السنة ، وسبقه غيره لذلك كالحارث المحاسبي وغيره ، ولكن الأشعري كان على علم وثيق مفصل بآراء المعتزلة واستعان بالعقل وعلم الكلام بطريقة تقبلها فريق كبير من أهل السنة والعلماء والفقهاء ، فاعتبر أول من استعمل طريقة المتكلمين في البحث والمناظرة والاستدلال العقلي لنصرة مذهبهم ، ثم تأكد مسلك العقل ومقدماته عند الأشعرية على يد أتباعه كالباقلاني والجويني ، والرد على الفلاسفة من الغزالي^(١) .

ويظهر مسلك الأشعري بالاعتماد على النظر والعقل في مناظراته مع أبي علي الجبائي وغيره من المعتزلة والقدرية والجهمية والحشوية ، معتمداً على المنطق والعقل ، والقياس والتعليل ، والنظر والاجتهاد^(٢) .

واعتمد الماتريدية على مسلك العقل في العقائد أيضاً ، مع اختلاف بسيط بأن الأشعري يقدم النص على العقل ، ولا يقيم السلطان العقل

(١) انظر العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر ص ٧٩ تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٠٠ مقالات الإسلامية ص/يد .

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٦/٤ للاطلاع على هذه المناظرات ، وانظر أيضاً كتاب الإبانة ، وكتاب مقالات الإسلاميين لوضع اليد على المسلك العقلي ، والأسلوب الجدلي عند الأشعري .

الاجتهادي وزناً أمام النصوص ، وإن كانت واردة عن طريق الآحاد ، أما أبو منصور الماتريدي فكان يقيم لأحكام العقل وزناً أكثر من ذلك ، ويسعى للتوفيق ما أمكن بين العقل والنقل ؛ ولذلك لا يوجد اختلاف جوهرى في المعتقدات الأساسية عند الأشعرية والماتريدية ، لأنهما منهجان إلى مذهب واحد ، وهدف واحد ، وهو تثبيت العقيدة الإسلامية الصحيحة ، والدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة ، والوقوف ضد هجمات المبتدعة وأوهامهم ، ولكن اختارت الأشعرية المسلك الوسط في الآراء الفلسفية التي تتصل بالقرآن ، وبذلك تتفق الأشعرية مع الفقهاء والمحدثين في الأمور التي وردت فيها نصوص في القرآن والسنة^(١) .

رابعاً : الخلاف بين الأشعرية والماتريدية :

يقرر الأشعرية والماتريدية عقيدة الإسلام والمسلمين من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وعرفوا باسم أهل السنة والجماعة ، ويتفقان مع سائر المذاهب على الأصول الاعتقادية ، وأركان الإيمان ، ويلتقي الجميع في معظم جزئيات العقيدة وفروعها ، ولكن حصل اختلاف بسيط في بعض جزئيات العقيدة ، وينحصر في الفروع ، كما حصل هذا الاختلاف في مذهب الأشعرية أنفسهم ، ومذهب الماتريدية بين علمائهم ، ومع المذاهب الأخرى أيضاً ، وكثيراً ما يكون الاختلاف لفظياً ، وشكلياً ، واصطلاحياً ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، وبعضه من المقدمات المنطقية والعقلية ، أو في تفسير الصفات الإلهية للوقوف عند النص عليها ، أو لمحاولة تأويلها لتنزيه الله تعالى عن التجسيم ، أو التشبيه بصفات خلقه .

ومذهب الأشاعرة يطلق غالباً على رأيي الأشعرية والماتريدية معاً ،

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر ص ٨٠ ، تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٩٧ .

ويتبعه معظم المسلمين ، قال ابن السبكي : «إن المالكية كلهم أشاعرة ، لا أستثني أحداً ، والشافعية غالبهم أشاعرة ، لا أستثني إلا من لحق منهم بتجسيم أو اعتزال . . . ، والحنفية أكثرهم أشاعرة ، أعني يعتقدون عقيدة الأشعري ، لا يخرج منهم إلا من لحق منهم بالمعتزلة ، والحنابلة أكثر فضلاء متقدميهم أشاعرة ، لم يخرج منهم عن عقيدة الأشعري إلا من لحق بأهل التجسيم»^(١).

والخلاف بين الأشعري والماتريدية قليل ، لما نقله ابن السبكي عن والده قال : «ما تضمنته عقيدة الطحاوي» (الحنفي) ، وهو ما يعتقده الأشعري (الذي يتبعه الشافعية) لا يخالفه إلا في ثلاث مسائل قال ابن السبكي : «ثم تصفحت كتب الحنفية فوجدت جميع المسائل . التي بيننا (الشافعية) وبين الحنفية خلاف فيها ثلاث عشرة مسألة ، منها معنوي ست ، والباقي لفظي ثم يقول : «وتلك الست المعنوية لا تقتضي مخالفتهم لنا ، ولا مخالفتنا لهم فيها ، تكفيراً ولا تبديعاً ، صرح بذلك الأستاذ أبو منصور البغدادي ، وغيره من أئمتنا وأئمتهم ، وهو غني عن التصريح لظهوره ثم نقل كلام الحافظ ابن عساكر ، فقال : الأصحاب مع اختلافهم في بعض المسائل كلهم أجمعون ، على ترك تكفير بعضهم بعضاً مجمعون ، بخلاف من عداهم من سائر الطوائف وجميع الفرق»^(٢).

خامساً - أهم مسائل الخلاف :

ونشير هنا إلى الخلاف بين الأشعرية والماتريدية في باب العقيدة ، أي بين الشافعية والحنفية ، والذي انتقل إلى الفقه وأصول الفقه والأحكام الشرعية ، ونعرض أهم المسائل بإيجازه مع التعليل والتدليل باختصار ، لتأكيد ما قلناه ، وهي :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٧٧ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٧٨ .

١ - صفة السمع والبصر :

ذهب الحنفية إلى أن صفة السمع تتعلق بما يصح أن يكون مسموعاً ،
والبصر يتعلق بما يصح أن يكون مبصراً ، ويتعلقان بالموجودات ، وهذا
مفهوم من الكتاب والسنة .

وقال الأشعري والشافعية أن السمع والبصر يتعلقان بكل موجود ،
وأن الله تعالى يسمع في الأزل ذاته العلية وجميع صفاته الوجودية ، لأن
إدراك المبصر بالباصرة مما جرت به العادة ، ويمكن غير ذلك ^(١) .

٢ - القضاء والقدر :

قال الحنفية : إن القدر هو تحديد الله تعالى أزلاً كل شيء بحده الذي
يوجد به ، والقضاء هو الفعل مع زيادة أحكام ، لقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَدُّهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ومعناه قدر كل شيء تقديرًا يوافق
الحكمة ، فخلقه ، وآخر «فقدَّره تقديرًا» على «خلق» لمحافظة الفاصلة .

وقال جمهور الأشعرية : إن القضاء إرادة الله تعالى الأزلية المقتضية
لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، والقدر تعلق تلك الإرادة بالأشياء
في أوقاتها المخصوصة ، واستدلوا بالحديث الصحيح لمن سأل عما
يعمل الناس ويكدحون ، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟
فقال عليه الصلاة والسلام : «بل شيء قضى عليهم» وفسر علي رضي الله
عنه القدر بعالم الشهادة ^(٢) .

٣ - المتشابهات :

قال الحنفية : إن إثبات اليد والوجه وغيرها لله تعالى حق ، ولكنه
معلوم بأصله ، مجهول بوصفه ، ولا يجوز إبطال الأصل بالعجز عن درك

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ١٠ .

(٢) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٢١ .

الوصف ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْلُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] فيجب الوقف عند لفظ الجلالة «الله» وإن «الراسخون» يفوضون الأمر لله ، والمتشابه لا يعلمه إلا الله .

وقال الأشعرية : إن المتشابهات مجازات عن معان ظاهرة ، فاليد مجاز عن القدرة ، والوجه عن الوجود ، والعين عن البصر ، والاستواء عن الاستيلاء ، واحتجوا بالآية السابقة ، بدون الوقف عند لفظ الجلالة «الله» لأن الراسخين يعلمون تأويل المتشابهات ، وإلا لم يكن لهم فضل على الجهال^(١) .

٤ - التكليف بما لا يطاق :

ذهب الماتريدية إلى أن التكليف بما لا يطاق من الله تعالى لا يجوز ، لأن التكليف إنما يتصور في أمر يمكن إتيانه فيثاب عليه ، ولو امتنع عنه يعاقب ، ولقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فالتكليف بما لا يطاق غير واقع ، وأيد ذلك الإسفراييني والغزالي وابن دقيق العيد من الشافعية .

وقال الأشعرية : إن التكليف بما لا يطاق جائز ، ولكنه محصور بالمتنع لغيره ، بأن يكون ممكناً في نفسه ، لكن لا يجوز وقوعه من المكلف لانتفاء شرط أو وقوع مانع كبعض تكليف العصاة والكفار ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحِثْ عَلَيْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، فلو لم يكن ذلك جائزاً لم يصح الاستعاذة منه ، وأن الله تعالى أمر بالإيمان فيمن علم أنه لا يؤمن^(٢) .

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٢٣ .

(٢) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٢٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣٨٧ .

٥ - الحسن والقبح :

قال الماتريدية: إن العقل يدرك حسن بعض الأشياء وقبح بعضها لمدح الأول ، وذم الثاني ، لأن أول الواجبات بتصديق النبي ، واجب عقلاً ، فإن توقف على الشرع لزم الدور والتسلسل .

وقال الأشعرية: لا يعرف بالعقل حسن شيء من الأشياء ولا قبحه ، وإنما يعرف بالشرع الذي يثبت ويمدح الفعل الحسن ، ويعاقب فاعل القبح^(١) .

٦ - حقيقة الإيمان :

قال الحنفية: إن الإيمان هو الإقرار والتصديق ، أي: إن الإقرار شرط من الإيمان ، وركن داخل فيه ، لأن الإيمان لغة هو التصديق ، ويشمل التصديق القلبي واللساني ، فكل منهما ركن .

وقال الأشعرية: الإيمان هو التصديق القلبي فقط ، وإن النطق من القادر شرط في الإيمان خارج عن ماهية التصديق ، لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ، فالقلب محل الإيمان الذي هو التصديق القلبي فقط^(٢) .

٧ - زيادة الإيمان ونقصه :

قال الماتريدية: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن الإيمان هو التصديق البالغ حد الجزم ، وهذا لا يقبل التفاوت بحسب ذاته ، خشية احتمال النقيض الذي ينافي اليقين ولا يجامعه .

وقال الأشعرية: الإيمان يزيد وينقص ، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتَ

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٣١ وما بعدها .

(٢) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٣٧ .

عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿ [الأنفال: ٢] ولقوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فالآية تصرح بذلك^(١).

٨ - إيمان المقلد:

قال علماء الماتريدية: إن من اعتقد أركان الدين تقليداً، كالتوحيد والنبوة وغيرها يصح إيمانه، لأن النبي ﷺ والصحابة والتابعين قبلوا إيمان الأعراب الخالين عن النظر والاستدلال ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل، وهو ثابت بالنصوص، وإن أكثر عوام المسلمين مكتفون بالتقليد.

وقال علماء الأشعرية: لا يكفي التقليد في العقائد الدينية، ويشترط لصحة الإيمان معرفته بالدليل، لأن التصديق لا يوجد بدون العلم والمعرفة، وحقق ابن السبكي أن هذا القول مكذوب على الأشعري^(٢).

٩ - الإيمان والإسلام:

ذهب مشايخ الحنفية إلى أن الإيمان والإسلام واحد، لأن الإسلام هو جعل الأشياء كلها لله تعالى خاصة سالمة لا يشرك فيها غيره، والإيمان هو التصديق، وهو أن يصدق أن الله رب كل شيء، فإذا صدق أنه رب كل شيء فقد جعل الأشياء كلها لله تعالى سالمة.

وقال علماء الأشعرية: إن الإيمان والإسلام متغايران، فالإيمان هو التصديق، والإسلام هو الأعمال، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام، والتفريق بينهما^(٣)، وهو اختلاف اصطلاحى.

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٣٩ وما بعدها.

(٢) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٤٠ طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٨٥.

(٣) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٤٤ وما بعدها.

١٠ - الاستثناء في الإيمان:

قال مشايخ الحنفية: لا يصح أن يقال أنا مؤمن إن شاء الله ، لأن الإيمان لا يصح إلا بالتصديق البالغ حد الجزم ، والشرط يدل على حصول التوقف وعدم الجزم ، وهو شك في الإيمان .

وقال مشايخ الأشعرية: يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله ، لأن من قال أنا مؤمن حقاً عند الله يكون حكماً على علم الله تعالى في الغيب^(١) ، وكل فريق نظر إلى الموضوع من جهة معينة .

١١ - شرط الذكورة في النبوة:

قال مشايخ الحنفية: إن الذكورة شرط النبوة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] ، وهذا ينفي نبوة المرأة ، لأنها لا تصلح للإمارة فلا تصلح للنبوة .

وقال الأشعري ومن تابعه: ليست الذكورة شرطاً للنبوة ، وأنه صحت نبوة النساء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى﴾ [القصص: ٧] ، والإيحاء من خصائص الأنبياء^(٢) ، هذا اختلاف لفظي واضح .

١٢ - عقاب الكفار على ترك الفروض:

ذهب جمهور الحنفية إلى أن الكفار لا يعاقبون في الآخرة على ترك العبادات زيادة على عقوبة الكفر ، لأن الرسول ﷺ كلف معاذ بن جبل بدعوة الناس إلى الشهادتين ، فإن أجابوه أعلمهم بفرائض الصلاة والزكاة والصيام ، فهذا يدل على أن فرضية الصلوات مختصة بتقدير الإجابة ، وإلا فلا تفرض عليهم لعدم الدليل عليها .

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٤٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٨٣ .

(٢) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٤٩ .

وقال الشافعي وأتباعه: إن الكفار يعاقبون في الآخرة على ترك العبادات زيادة على عقوبة الكفر ، لقوله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المائدة: ٤٢ - ٤٣] فترك الصلاة سبب للعقاب^(١).

ونكتفي بهذه المسائل ، ونقتصر على بيان الخلاف والدليل بإيجاز ، لأن تفصيل ذلك يحتاج إلى مجال آخر .

سادساً - مكانة الأشعرية في المجتمع :

ظهر أبو الحسن الأشعري في العراق معقل المعتزلة ، فناظرهم ونشر مذهب أهل السنة والجماعة ، وبسط أقوال الفقهاء والمحدثين في أمور العقيدة ، والتفت حوله سواد الأئمة وعلمائها ، وغلب المذهب على بلاد العراق ، ثم انتقل إلى خراسان ، وبلاد الشام ، وبلاد المغرب وسائر إفريقية ، وإلى صقلية والأندلس ، وانتشر بالشام بواسطة صاحب الأشعري أبي الحسن عبد العزيز الطبري راوية تفسير ابن جرير الطبري عن مؤلفه ، نشره في بلاد الحجاز الحافظ أبو ذر الهروي ، وكان أهم العوامل لانتشار مذهب الأشعرية مصنفات الغزالي بوجه خاص ، وكان ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين تلميذاً للغزالي ، ومريداً صادقاً له عدة سنوات ، ولما ظهر بالأندلس دعا إلى تأييد الأشعرية وحمايتها ، وساعد على نشر كتب الغزالي ، فكان عضداً قوياً لمذهب الأشاعرة في بلاد المغرب ، كما ناصر بعض أئمة التصوف أهل السنة ، على الطريقة الأشعرية منذ القرن الخامس الهجري^(٢).

(١) نظم الفرائد وجمع الفوائد ص ٥٨ ، هذا ما يبحثه علماء أصول الفقه في مسألة: هل يصح التكليف مع فقدان الشرط ، انظر: أصول الفقه الإسلامي ، لنا ، ص ٣٢٨ .

(٢) انظر: تبين كذب المفتري ص ١٥ وما بعدها ، تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٠١ .

وتبنى الأشعرية معظم أتباع المذاهب الفقهية الأربعة ، فالمالكية كلهم أشاعرة ، ومعظم الشافعية ، وقسم كبير من الحنفية ، وكثير من الحنابلة ، أما بقية الحنفية والشافعية فساروا على منهج الشيخ أبي منصور الماتريدي واتبعوا مذهبه ، وسار أكثر علماء السنة على المذهب الأشعري ، وصار هو المعتمد عندهم في التدريس في معظم البلاد الإسلامية ، واشتدّ ساعد الأشاعرة جيلاً بعد جيل ، وقويت شوكتهم باطراد .

ولقي المذهب الأشعري معارضة متنوعة ، فوقف المعتزلة في وجه أبي الحسن الأشعري حتى تغلب عليهم ، وبعد وفاته بيسير استعاد المعتزلة قوتهم في عهد بني بويه فكرياً وسياسياً ، فقام الإمام أبو بكر الباقلائي في وجههم ، وقمعهم بحججه ، وعاد مركز أهل السنة على الطريقة الأشعرية إلى الانتشار ، وفي أول عهد السلاجقة استطاع الوزير الكندري الذي كان معتزلياً وتظاهر بالمذهب الحنفي استطاع أن يقنع سلطان السلاجقة الأول طغرل بك على سب الأشاعرة ومطاردتهم وحبسهم وإشعال الفتنة عليهم في نيسابور ، ثم رفع هذا الخطر وانقلب الأمر إلى مصلحة الأشاعرة في عهد ألب أرسلان ، وتأيد الوزير الأول نظام الملك ، ودفنت الفتنة ، وعاد علماء الأشعرية إلى مكانتهم السامية .

وقام ابن حزم الظاهري بمخالفة آراء الأشعري ، وتمحيص آرائه ، واتهامه بالجبر حيناً ، وبالإرجاء حيناً آخر ، ولكن هذه المخالفة لم تدم طويلاً ، وانقرضت في حينها .

وأكثر الفرق مخالفة للأشعرية ما قام به فريق من متطرفي الحنابلة وغيرهم في الوقوف في الصف المخالف لأبي الحسن الأشعري ، وخاصة في العراق ، وقالوا ببعض الآراء الخارجة عن أصول مذهبهم ، وناصروا أبا الحسن الأشعري العداء ، وتحاملوا عليه ، ونسبوا إليه آراء لم

يقلها ، ونقلوا عنه أقاويل غير صحيحة ، بل نص في كثير منها على نقيضها كالصفات ، وتمسكوا بحرفية النصوص ، وحرصوا على الالتزام بالصورة المبسطة التي كانت في الحجاز ، وسار عليها الصحابة ، وسموا أنفسهم بالسلفية ، وثارَت بينهم وبين الأشاعرة وعامة العلماء خلافات ومهاترات كانت تصل أحياناً إلى فتن محلية ، حتى قام المحدث ابن عساكر فرد عليهم ، ودافع عن الإمام أبي الحسن الأشعري في كتابه «تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» وذكر فيه أقوال الأشعري ، وترجم لمعظم علماء الأشاعرة ، وبين آراءهم وأقوالهم^(١) ، وانتهى الصراع الفكري بين الأشاعرة والحنابلة ، واستقرت السيادة للأشاعرة في مختلف البلدان من القرن الخامس حتى القرن الثامن ، فجده الإمام ابن تيمية وابن القيم لمدة وجيزة ، ثم زال من الحلبة.

وكان الخلاف بين المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي محصوراً في مسائل نظرية ، واختلافات منهجية ، يلتقيان في معظم الآراء التي تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة كما ذكرنا.

واستقر الأمر لدى علماء المسلمين بالوقوف عند أقوال الأشعري يرددونها ويدرسونها ، ويصنفون فيها ، وينسبونها إلى الإسلام مباشرة ، ولم يحرصوا على عدّ أنفسهم منتسبين إلى الأشعري ، مع ما يكون له ولأتباعه من الاحترام ، ولم يبق الآن في الواقع وأروقة العلم ما يعرف بالمذهب الأشعري.

سابعاً - أبرز رجال الأشعرية:

رأينا أن معظم علماء المسلمين ، وأتباع المذاهب الفقهية الأربعة

(١) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٢٥ ، تبين كذب المفترى ص ١٩ .

كانوا يلتزمون بالطريقة الأشعرية في الاعتقاد والدعوة والمنهج ، ولكن برز فريق منهم على الساحة العلمية والعملية^(١) ، نشير إلى بعضهم :

١ - أخذ عن الإمام أبي الحسن الأشعري عدد كبير من التلاميذ والعلماء وتلاميذهم ، منهم أبو إسحاق الإسفراييني وأبو بكر القفال وعبد العزيز بن محمد الطبري ، وابن مجاهد محمد بن أحمد الطائي ، وأبو الحسن الباهلي ، وهذان الأخيران حملوا المذهب الأشعري في القرن الثالث الهجري ، ونشروه ، ونافحوا عنه .

٢ - وفي القرن الرابع الهجري استقر المذهب الأشعري ، وصنفت فيه الكتب ، واستوى على سوقه ، وكثر العلماء فيه ، وأشهرهم ثلاثة :

أ - الباقلاني ، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (٤٠٣هـ) وكان يلقب بشيخ السنة ، ولسان الأمة ، وكان مالكيًا ، ونقح بحوث الأشعري ، وأيد آراءه ، والتزم منهجه ومسلكه ، وتوسع في المقدمات العقلية ، وصنف «التمهيد في الرد على الملاحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة» و«البيان» و«مناقب الأئمة في نقض المطاعن على سلف الأمة» و«الانتصاف» و«كشف الأسرار في الرد على الباطنية» و«الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والديانة» .

ب - ابن فورك ، أبو بكر محمد بن الحسن (٤٠٦هـ) الأديب المتكلم الأصولي الشافعي الذي جمع أهل السنة في الري ونيسابور ، وله حوالي مئة مصنف .

ج - الإسفراييني ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (٤١٨هـ) ، الفقيه

(١) انظر في طبقات الأشعرية وعلمائهم كتاب: تبين كذب المفتري ص ١٧٧ وما بعدها ، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٦٨ وما بعدها ، مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ ، تاريخ التراث العربي ١/٤/٤٧ ، وتاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٠٢ وما بعدها .

الأصولي المتكلم ، وكانت له مدرسة بنيسابور .

وكان الباقلااني وابن فورك والإسفراييني متعاصرين من أصحاب الأشعري ، وكان صاحب بن عباد يقول عنهم : «الباقلاني بحر مغدق ، وابن فورك صك مطرق ، والإسفراييني نار تحرق»^(١) .

٣ - وفي القرن الخامس الهجري اشتهر علماء كثر من أصحاب المذهب الأشعري ، منهم : عبد القاهر بن طاهر البغدادي (٤٢٩هـ) وله كتاب «أصول الدين» و«الفرق بين الفرق» ، ومحمد بن أحمد بن أحمد أبو جعفر السمناني الحنفي ، القاضي البغدادي (٤٤٤هـ) الذي كان حنفي المذهب في الفقه ، ويعتقد في الأصول مذهب الأشعري ، ومنهم أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) الحافظ المحدث الفقيه الأصولي ، ومنهم أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) ، وأشهر هذه الطبقة اثنان :

أ - إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤٧٨هـ) ، الفقيه الأصولي المتكلم ، وله في أصول الدين والعقيدة «الشامل في أصول الدين» و«الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» و«لمع الأدلة في قواطع عقائد أهل السنة» ، وكان الجويني معاصراً لإمام أهل السنة والمذهب الأشعري في نيسابور أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (٤٦٥هـ) صاحب «الرسالة القشيرية» والشيخ أبي علي الدقاق .

ب - الغزالي ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ) الذي خفف من منهج الباقلاني في التعصب للمقدمات العقلية ، ورد على

(١) تبين كذب المفتري ص ٢٤٤ .

الفلاسفة ، وله كتاب «تهافت الفلاسفة» و«المنقذ من الضلال» و«إحياء علوم الدين».

وكان في المغرب في القرن الخامس أبو الوليد الباجي ، وابن عبد البر الحافظ ، والقاضي عياض بن محمد اليحصبي وغيرهم .

٤ - وظهر في القرن السادس عدد كبير من علماء المذهب الأشعري ، منهم : محمد بن تومرت (٥٢٥هـ) تلميذ الغزالي ، ومؤسس دولة الموحدين ، وأبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي (٥٤٣هـ) الفقيه المفسر ، وله كتاب «العواصم من القواصم» و«التوسط في معرفة صحة الاعتقاد» ومنهم أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ) وله كتاب «المصارعة» للرد على ابن سينا في تبني الفلسفة اليونانية ، وكتاب «نهاية الأقدام في علم الكلام» و«الإرشاد إلى عقائد العباد» و«الملل والنحل» ، ومنهم : أبو القاسم علي بن الحسن ، المعروف بابن عساكر الدمشقي (٥٧١هـ) ، وأشهر علماء القرن السادس فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) المفسر والفقيه والأصولي والمتكلم وصاحب التصانيف المشهورة.

٥ - وحمل المذهب الأشعري في القرن السابع كثيرون ، أشهرهم سيف الدين الآمدي (٦٣١هـ) وشيخ الإسلام العز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) ، والشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي (٦٤١هـ) وشيخ الإسلام عز الدين الحصري الحنفي من بخارى ، والقاضي البيضاوي (٨٥٠هـ) وله كتاب «طوالع الأنوار» الذي أشرنا إليه .

٦ - ومن أبرز رجال الأشعرية في القرن الثامن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، وتقي الدين السبكي ، والشيخ صفى الدين الهندي ، والشيخ جمال الدين الزملكاني ، وقاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي ، والقاضي عضد الدين الإيجي الشيرازي (٧٥٦هـ) وله كتاب «العقائد العضدية»

و«المواقف» ، وكان يعاصرهم السيد الشريف الجرجاني وكان فقيهاً حنفياً ملماً بالعلوم العقلية ، وتأخرت وفاته للقرن التاسع (٨١٦هـ)^(١).

الخاتمة:

ونتيجة لجهود العلماء السابقين فقد استقرت مبادئ المذهب الأشعري في عقيدة المسلمين من أهل السنة والجماعة ، وذابت آراؤهم في كتب التوحيد وعلم الكلام والعقيدة الإسلامية ، ولم يعد العلماء ينتسبون إلى الأشعري ، أو يخصصون مذهبه بكتب وتدریس ، وغابت الخلافات المذهبية في هذا الخصوص ، باستثناء ما يثيره بعض السلفية من أفكار كلامية قديمة ، وخلافات تاريخية ، وألفاظ اصطلاحية .

وهكذا أدت الأشعرية وظيفتها في تثبيت العقيدة الصحيحة عند المسلمين ، وبيان المفهوم الصحيح ، والمعاني المحكمة في المسائل الخلافية ، ووقفت في وجه المنحرفين وأعداء الإسلام ، وفندت حججهم ، وكشفت اللثام عن شبهاتهم ، وحققت الاستقرار العقائدي لدى جماهير المسلمين ، ثم ذابت في كتبهم وتراثهم وحياتهم وأفئدتهم بعد أن أدت المهمة الملقاة على عاتقها في المراحل التاريخية السابقة ، لتبقى عقيدة المسلمين سليمة وصحيحة ، وصافية ونقية ، وبضياء مشرقة ، مع الشريعة والأحكام ، ومع مصادر الإسلام الأساسية ، وأركانه الرئيسية ، وكل ذلك بحفظ الله تعالى وفضله ، وهو القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، نسأل الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يحفظ علينا ديننا وعقيدتنا ، وأن يحسن ختامنا بالوفاة على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والحمد لله رب العالمين .

(١) انظر تراجم مختصرة لهؤلاء الأعلام ، مع التعريف بأهم كتبهم في كتاب «مرجع العلوم الإسلامية» .

أهم مصادر البحث

- ١ - الإبانة عن أصول الديانة ، للإمام أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ). مكتبة دار البيان - دمشق - - الطبعة الأولى - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- ٢ - الأعلام ، خير الدين الزركلي . الطبعة الثالثة - بيروت .
- ٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية ، الشيخ محمد أبو زهرة (١٩٧٤م) ، طبع دار الفكر العربي - القاهرة .
- ٤ - تبين كذب المفترى فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري ، للمحدث علي بن الحسن بن عساكر (٥٧١هـ) تصوير دار الكتاب العربي عن طبعة القدسي بالقاهرة - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
- ٥ - دائرة المعارف الإسلامية ، أصدرها المستشرقون برعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية . مطابع دار الشعب - القاهرة .
- ٦ - شرح العقيدة الطحاوية ، القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (٧٩٢هـ) مكتبة دار البيان - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
- ٧ - طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م .
- ٨ - العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مطابع مؤسسة الوحدة - دمشق - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- ٩ - مبادئ العقيدة الإسلامية ، الدكتور مصطفى الخن - مطبعة طربين - دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٠ - مرجع العلوم الإسلامية ، الدكتور محمد الزحيلي ، نشر دار المعرفة ، دمشق - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- ١١ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، للإمام أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ) دار النشر فرنز شتاينر - بيسبادن - الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١٢ - مقدمة ابن خلدون ، العلامة عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
- ١٣ - نظم الفرائد وجمع الفوائد في العقائد ، العلامة عبد الرحيم بن علي ، الشهير بشيخ زاده - المطبعة الأدبية بمصر - الطبعة الأولى ١٣١٧هـ .
- ١٤ - وفيات الأعيان ، لأبي العباس أحمد بن محمد ، المعروف بابن خلكان (٦٨١هـ) ، مطبعة السعادة - مصر - الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م .



العروبة عند إقبال فكراً وعقيدة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ،
المبعوث رحمة للعالمين . وبعد :

فإن البحر كثير الدرر ، ثرّ الجواهر ، ومهما أخذ الصيادون من درره
وجواهره فإنه يبقى مليئاً بها ، زائداً بخزائنها .

وإن ينبوع الغزير لا ينقطع خيرُهُ ، ولا يقف عطاؤه ، ولا يجف
تدفقه ، والشاعر المسلم ، الفيلسوف العلامة ، الدكتور محمد إقبال^(١)
بحر في ثقافته ، وينبوع في أفكاره ، ومهما تحدث عنه العلماء ، وأقيمت
له المهرجانات ، وتكررت عنه اللقاءات ، فإنه يظل مستمر العطاء .

ومهما كانت المسافة بيننا وبين إقبال ، ومهما وجدت فوارق الجنس
واللغة ، فإن جسور اللقاء متوفرة ، وأواصر القرى موجودة ، ووشائج
المحبة قائمة .

وقد اخترت الحديث عن أهم نقاط اللقاء معه ، وأردت أن أعرض
العروبة عند إقبال ، فكراً وعقيدة ، لنعرف أفكاره عنها ، ويقينه بها ،
ونظريته إليها ، واعتقاده فيها .

(١) ولد المرحوم محمد إقبال في ٣/ ذي القعدة ١٢٩٤هـ الموافق ٩/١١/١٨٧٧م
في سيالكوت مدينة في ولاية البنجاب ، وأصله من براهمة كشمير ، وتوفي في
٢٢/ صفر ١٣٥٦هـ الموافق ٢١/٤/١٩٣٨م .

تعريف العروبة:

تطلق العروبة في لسان العرب على أمرين أساسيين:

الأول: تطلق العروبة على لغة العرب لساناً ، فيقال: عرب الرجل ، وعرب لسانه عروبة إذا كان عربياً فصيحاً ، وعرب يعرب إذا فصح لسانه بعد لكنة .

الثاني: تطلق العروبة على العرب جنساً ، فيقال: عرب الرجل يعرب عروبة ، وأعرب عروبة ، إذا صار عربياً^(١) .

ومن اجتماع اللغة والجنس مع وحدة الفكر والمبدأ والاعتقاد تتكون الأمة .

ولذلك سوف أتناول الموضوع من هذه الجوانب الثلاثة ، وأقسمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العروبة لساناً عند إقبال .

الثاني: العروبة جنساً عند إقبال .

الثالث: الأمة العربية في نظر إقبال ، فكراً وعقيدة ، في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، ثم الخاتمة .

القسم الأول: اللسان العربي عند إقبال:

تنسب العربية إلى يعرب بن قحطان ، أبي اليمن ، وهو أول من تكلم العربية^(٢) ، ولا نريد الدخول في الناحية التاريخية السحيقة ، لنقتصر الحديث على أهم مرحلة في اللغة العربية ، عندما اختارها الله سبحانه وتعالى لغة لكلامه ، وأنزل فيها كتابه المبين / القرآن الكريم / بلسان عربي

(١) القاموس المحيط ١٠٢/١ ، المصباح المنير ٤٦/١ .

(٢) القاموس المحيط ١٠٢/١ .

فصيح ، واصطفى في خيار أهلها محمد بن عبد الله ﷺ ، ليكون رسوله إلى خلقه ، وخاتم أنبيائه ، وبعثه رحمة للعالمين نذيراً وبشيراً ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم سواء السبيل بالشرع القويم .

وإن النصوص الشرعية وردت باللغة العربية ، وعلى حسب قواعدها وأساليبها ، وفي أعلى درجة من بلاغتها وفصاحتها ، وأنزل الله كتابه على مقتضى اللغة العربية ، وبين الرسول ﷺ دين الله وشرعه وأحكامه بدلالات اللغة العربية .

فالقرآن الكريم دستور المسلمين ، وكلام رب العالمين ، والمصدر الأول للهداية والإيمان ، والعقيدة والشرعة ، والعبادة والأخلاق ، نزل بلسان عربي مبين .

وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة بلغة عربية خالصة ، لذلك أصبحت علوم العربية أساسية وضرورية في معرفة الأحكام الشرعية ، وتفسير القرآن الكريم ، وبيان السنة النبوية ، وأداء العبادات الإسلامية ، والأذكار الدينية .

ومن هنا اهتم العلماء المسلمون - في أصقاع العالم ، ومن مختلف الشعوب والأجناس - بعلوم اللغة العربية ، وكانوا يبدؤون بدراستها وتعلمها ، ويقرنونها بالعلوم الشرعية ، ويتبحرون بها ويتخصصون بفروعها ، ويمارسون التأليف والتدريس فيها .

ونص علماء أصول الفقه على أن معرفة العربية وعلومها أحد شروط الاجتهاد والاستنباط ، وقال أئمة الفقه وعلماءه : إن تعلم العربية فرض وواجب وضروري لتلاوة القرآن الكريم ، وصحة الصلاة ، وقال علماء التفسير : إن العلم بالعربية أحد شروط التفسير ومقوماته ، وقال مثل ذلك علماء التوحيد والعقيدة ، وشرح الحديث .

يقول الإمام الشافعي : «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب

ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والشهد وغير ذلك .

ثم يقول الشافعي رحمه الله : «وما ازداد من العلم باللسان ، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه : كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت ، وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وُجّه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه ، وندب إليه ، لا متبوعاً»^(١) .

وهكذا نشر الإسلام اللغة العربية بين المسلمين ، وصيغ بها المجتمع المسلم خارج البلاد العربية ، وكان اعتناق الإسلام ، وحب الرسول ﷺ ، والصدق في الإيمان والعزيمة في الدين ، والحرص على تلاوة القرآن وأداء العبادات دافعاً للمسلم إلى أن يتعلم العربية ، وباعثاً له للنطق بها ، فصارت اللغة العربية لغة عالمية ، وتبوأَت المكان اللائق بها .

ونتيجة لحث الإسلام على العلم والتعلم في جميع مجالات الحياة ، وتوجه المسلمين لطلب العلم والتعلم في جميع فنون المعرفة ، ومن مختلف الثقافات القديمة والحضارات الأجنبية ، وترجمة هذه العلوم إلى العربية ، أصبحت اللغة العربية لغة العلم ، ولغة الحضارة الإنسانية ، ولغة الثقافة العالمية ، وبذلك توسع مضمونها ، وأثرى فكرها ، وتوسع اشتقاقها ، وهذا ما قصده الإمام الشافعي بقوله : «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً»^(٢) .

واتجهت الشعوب غير العربية إلى تعلم العربية لسببين :

(١) الرسالة ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الرسالة ص ٤٢ .

الأول: ديني بالنسبة للمسلم غير العربي ، فإنه يتعلق بالعربية ، وينتمي إليها ، لأنها لغة دينه وعقيدته ، ولغة شرعه وأحكامه ، ولغة نبيه وتاريخه ، ولغة قرآنه وعبادته وذكره .

الثاني: ثقافي بالنسبة لغير المسلمين من الأعاجم الذين لم يدخلوا الإسلام ، ومع ذلك اتجهوا إلى تعلم العربية ، لأنها لغة العلم ، ولغة الحضارة ، ولغة الثقافة والأدب^(١) .

ونذكر هنا برسالتين كتبهما نصارى الأندلس ، تبكيان لغة اللاتين والإغريق ، وتنددان بالنصارى الذين أهملوا لغتهم ، وأقبلوا على اللغة العربية^(٢) .

الأولى: لكاتب معروف هو الفارو ، جاء فيها: «أن أرباب الفطنة والتذوق ، سحرهم رنين الأدب العربي ، فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون للغة قاهريهم دون غيرها» .

الثانية: وجاء فيها: «إن إخوتي المسيحيين يعجبون بشعر العرب ، وأقاصيصهم ، أو يدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، وأسفاه ، إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً ولا لغة ، غير الأدب العربي واللغة العربية وأنهم يلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأعلى الأثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شيء

(١) انظر أقوال الأدباء والمفكرين النصارى المعاصرين في كتاب «الأمة العربية ص ٨٢» .

(٢) نشر الرسالتين كثير من الإسبان والعرب منهم دوزي في كتابه «الإسلام الأندلسي» وشكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية» عن أسبوع الفقه ص ٧٤٩ .

لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ، فيا للأسى إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلن تجد فيهم اليوم واحداً من كل ألف يكتب بها خطاباً لصديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة ، وصحة الأداء» .

هذا بالنسبة لغير المسلمين ، وأما المسلمون فلم يقتصر الملايين منهم على مجرد تعلم العربية للعبادة ، بل قاموا بخدمتها والعناية بها ، والتأليف فيها ، والنظم بها ، ومن هؤلاء الملايين فيلسوف الإسلام العلامة الشاعر محمد إقبال .

وكان لعلماء الإسلام وأئمة من غير العرب فضل كبير في خدمة العربية ، والتأليف فيها ، وكانوا يتباركون بدراستها ، لأنها قربة من رب العالمين ، وخدمة للقرآن الكريم ، وتدبر آياته ، وفهم لمعانيه ومقاصده ، ومن هنا برز أعلام كبار منهم في علوم العربية ، وأكثرهم من غير العرب حباً في لغة القرآن الكريم والنبي العربي ﷺ ، وتاريخ الثقافة العربية أكبر شاهد على ذلك ، وخاصة ما وصلنا من التراث العربي الزاخر .

ونكتفي بذكر أنموذج واحد منهم ، هو العلامة الزمخشري الذي يقول فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «لعل ذلك المثل السائر الذي فاضت به الحكمة الفطرية «رب أخ لك لم تلده أمك» لم ينطبق يوماً على متأخين متناصرين ، على بعد الأواصر ، وتباين العناصر ، كما انطبق على ما بين اللغة العربية ذاتها ، وبين حبيها وربيبها: فخر خوارزم ، جار الله ، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، فلقد نشأ متيمّاً بالعربية ، متفانياً فيها ، منقطعاً لروايتها وتحقيقها وخدمة علومها ، مفضلاً لها ، مناصراً لخصائصها ومعارفها ، ومحارباً للمستنقصين قدرها من الشعوبيين ،

معتزاً بما نال من المعرفة فيها ، وشرف الانتساب إليها ، ولقد افتنَّ
في تأليفه العجيبة بالتنويه بالعربية ، وفضلها ، وعجيب أمرها ، وبارع
محلها . . . ، ولقد أبدع الزمخشري في العربية علماً وذوقاً ، ورواية
وإنشاء»^(١) .

إقبال والعربية :

ولد إقبال من أصل هندي ، ونشأ نشأة إسلامية ، فتعلم العربية ،
وصار ملماً بها ، ثم أقبل على تلاوة القرآن الكريم ، وفهم معانيه ، وتذوق
أساليبه ، وتدبر ألفاظه وكلماته ، وكان يُثابر على تلاوة كلام الله العربي ،
ويعتقد بالسر البياني في لغة القرآن العربية ، وتجذب به فصاحة القرآن
وبلاغته ، فيواظب على تلاوته بعد صلاة الصبح يومياً ، وتحت إشراف
والده ، وهنا لا ندري بأيهما نعجب بالأب أم بالابن ، فقد كان أبوه يسأله
كل يوم ، وعلى فترة ثلاث سنوات : ماذا تصنع يا إقبال بعد صلاة
الصبح؟ ويقول إقبال: كنت أقول لوالدي: لماذا تسألني عما أعمل ،
وأنت تعلم ما أعمل؟ فيقول لي والدي: «إني أعلم أنك تقرأ القرآن بعد
الصلاة ، ولكنني أريد أن تقرأه وكأنه أنزل عليك»^(٢) ، ولم يقتصر على
تلاوة القرآن للعبادة وفي الصلاة ، بل قام يدعوه به وإليه لغة وفكراً ،
للصلاح والإصلاح .

ولم يكتف المرحوم إقبال بتعلم العربية ، بل عمل مدرساً للأدب
العربي في نفس المعهد الذي تخرج منه ، وسعى على نشر العربية في
ربوع الهند قديماً ، وباكستان حديثاً ، وعمل على إحياء الآداب العربية
بين المسلمين .

(١) التفسير ورجاله ص ٥٣ .

(٢) نداء إقبال ص ٦٣ ، إقبال ، عزام ص ١١ .

وكان إقبال يناله العجب والفخر من الأدب العربي ، والشعر العربي ، وما يحمله من مكارم الرجولة وصفاتها ، ومعاني البطولة والفروسية ، والدعوة إلى الجهاد ، وكان يستشهد بأبيات «الحماسة» ويدعو إلى تمثيلها ، والتعلق بها ، فيقول:

بُثْتُ فِكْراً ضالِعاً في الأدبِ إرجعن يا صاحِ نحوَ العربِ
وسُلِّمَتي العربِ يا صاحِ اعشقي أَطْلَعَنُ صبحَ الحجازِ المشرقِ

ويقول إقبال عن اللغة العربية التي تحمل الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي: «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده»^(١).

ويؤكد العلامة إقبال أن تدوين العلوم عند المسلمين ، واكتشاف النظريات الإنسانية والتقنية إنما يعود إلى القرآن ، فمن ذلك ما يقوله عن ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية: «والحقيقة أنه يبدو أن مقدمة ابن خلدون تدين بالجانب الأكبر من روحها إلى ما استوحاه المؤلف من القرآن ، بل هو مدين للقرآن إلى حد كبير ، حتى في أحكامه على الأخلاق والطبائع» ثم يضرب أمثلة على ذلك^(٢).

ويعبر إقبال عن فكره العربي ، وثقافته الإسلامية ، وإن كان لحمه وجسمه من العجم ، فإن عقله وقلبه من الحجاز ، فيقول:

«أنا أعجمي الدّن ، لكن خمرتي صنعُ الحجاز ، ولحنها الفينان
إن كان لي نغمُ الهنودِ ولحنُهم لكنَّ هذا الصوت من عدنانٍ»

وهكذا يرى إقبال ، أن العربية لم تعد مجرد لغة ، ولم تبق لساناً

(١) إقبال الشاعر ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

فحسب ، بل أصبحت فكراً في العقل ، وعقيدة في القلب ، وترياقاً في الدم ، تسري في عروق المسلمين ، وتقترن بالقرآن الكريم الذي يعتبر منبع كل العلوم ، فيقول إقبال :

أَبْعَدَ كِتَابَ اللَّهِ يَبْسُطُ مَرْجِعَ يَمَلُّ عَلَى فَحْوَاهِ سِرٌّ مَعْقَدُ
فَأَنْتَ الَّذِي بِالشَّعْرِ أَقْظَتْ أُمَّةٌ مِنْ الْبُؤْسِ كَانَتْ بِالْأَمْسِ الْمُرَّ تَجْهَدُ

فالقرآن دستور الإسلام والمسلمين ، والعربية لسان دين الإسلام ، وفيهما الآداب الإسلامية والأحكام الإلهية ، والسعادة الأبدية ، ولا بد من الحفاظ عليها لبقاء الإسلام ، واستمرار حكم الله في الأرض ، وضمان الوجود للأمة الإسلامية ، ولذلك وجه السيد جمال الدين الأفغاني انتقاده المَرَّ إلى الأتراك في آخر عهدهم الأسود لترك العربية ومحاولة التتريك ، فقال : « ويسوؤني - وأنا ممن يحبهم - وتأثر كلما افتركت فيما ارتكبه من الخطأ في عدم قبول اللسان العربي ، وأزداد تأثراً إذ أراهم يرتكبون خطأ أفضح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب ، واستبدال اللسان العربي - لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر - »^(١).

القسم الثاني : العرق العربي أو الجنس العربي عند إقبال :

كان إقبال - كما سبق - من دم هندي ، ولكن ترفع عن مستوى القوم والجنس والعرق ، وتبنى نظرة الإسلام إلى الأقوام والجنسيات عامة ، والجنس العربي خاصة ، فاعتنق الإسلام عقيدة وفكراً ، وأحب الإسلام حباً جماً ، وعشق رجالهم ، وتغنى بمآثرهم .

وإن الشعور القومي أمر فطري وغريزي لوجود الارتباط بين أفراد

(١) السيد جمال الدين الأفغاني ، أبورية ص ٢٠٦ .

الجماعة القومية الواحدة ، وبهدف الحفاظ على الذات والوجود ، وهذا الشعور يرتبط به أمران مهمان :

الأول: عدم الوقوف عند الأنانية القومية والشعور الذاتي ، وتجاوزه إلى الشعور الإنساني ، والارتباط العالمي ، لتوفير الصلة الوثيقة بين الأمرين ، وتحقيق التوازن بينهما.

الأمر الثاني: وجوه القيم والمبادئ والأفكار والعقائد التي تربط الأفراد في القوم الواحد ، ثم تربط بين الأقوام ، والشعوب ، والأمم .

وهذا ما قرره الإسلام بوضوح وصراحة ، فقال عز وجل مبيناً قدرته وعظمته في خلق الناس ، وجعلهم شعوباً وأمماً وأجناساً مختلفة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّكِمْ وَالنَّوْكِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ولكن الله تعالى أراد من الأمم والشعوب التعارف والتعاون على الخير والبر والتقوى ، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن هنا فإنه لا تفاضل بين الأجناس ، والأقوام ، وإنهم جميعاً خلق الله وعباده ، وإنه لم يفضل قوماً على قوم ، ولا جنساً على آخر ، وهذا ما أكدته الرسول ﷺ بقوله: «يا أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد أذهب عنكم عُيَّةَ الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، وفاجر شقي ، وأنتم بنو آدم ، وآدم من

(١) رواه الإمام أحمد ٤١١/٥ .

تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفها التَّنَّ»^(١).

ولكن الله تعالى فضل العرب على غيرهم بالوصف، لا بالذات، بأن اختارهم لحمل رسالته الإلهية، وتبليغ دعوته العالمية التي ختم بها النبوة والرسالات، فكان لهم فضل المعلم على المتعلم.

وقد ثبت لهم هذا الفضل عندما قبلوا الإسلام، وحملوه، وبلغوه، ونشروه في العالم بين الشعوب والأمم، وبقي لهم هذا الفضل ما داموا على هذا الجانب، ويقفون على هذه المنصة ويحملون هذا المشعل والنور الضياء، فإن تخلوا عن ذلك فقدوا فضلهم، وقصروا أمام ربهم، واهتز النور في أيديهم، وقد ينقلبون وبالأعلى الشعوب الأخرى بالتخلف عن مقدمة الركب، والته في مسيرة البشرية، وهذا ما أراده القرآن الكريم في الآية السابقة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ وهو ما أكدته الرسول ﷺ بأنه: «لا فضل لعربي . . . إلا بالتقوى» «مؤمن تقي وفاجر شقي» هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الإسلام غذى القومية العربية بزااد فكري، وأمدّها بالقيم والأفكار والأخلاق والعقيدة ليحقق هدفين رئيسين:

الأول: ليوحد بين أفرادها، ويوفر لهم الانسجام الكامل، لأن عناصر القومية الأساسية في العرق والجنس واللغة والأرض لا تكفي، ولا تحقق الوحدة والوجود للقومية، فالقومية هيكل والدين أو الفكر غذاء وكساء، والقومية جسد، والفكر أو الدين روح، ولا بد من اجتماع الجسد مع

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً. (مسند أحمد ٣٦١/٢ ، ٥٢٤ ، سنن أبي داود ٦٢٤/٢ ، سنن الترمذي مع تحفة الأحوزي ٤٥٥/١٠).

الروح لتحقيق الحياة، وكان الإسلام روح القومية العربية وغذاءها والعنصر الفعال والحاسم فيها.

وتلخص العلاقة بين العرب والإسلام بهذه العبارة: «العرب وعاء الإسلام، والإسلام روح العروبة».

وإن عناصر القومية والمادية تعتبر بحدّ ذاتها مجرد تجمع عرقي أجوف، لا يملؤه إلا الفكر والثقافة والعقيدة التي تحافظ على القوم والجنس، وإلا تفككت عراها، وانفطرت عقدها، وانقسمت أجزاء متقاتلة ومتحاربة (كما كان الحال بين الغساسنة والمناذرة، وبين القبائل العربية في الجاهلية، وكما هو الواقع الموجود بين البلاد العربية الآن، والتمزق بسبب اختلاف الفكر والمبدأ، وكما هو الأمر في شبه القارة الهندية وانقسامها إلى الهند وباكستان وبنغلادش، وإيرلندا الشمالية، وأفغانستان، ونيكاراغوا، وكوريا الشمالية، وكوريا الجنوبية، وغيرها).

الهدف الثاني: الذي حققه الإسلام، وغذى به القومية العربية هو أن يقيم لها أساس التعاون واللقاء بينهما وبين الأقوام والشعوب الأخرى، ولا تبقى الأمة العربية معزولة عن العالم، أو متفوقة على نفسها، أو تقف في أهدافها وتطلعاتها على النزعة القومية، والتطرف الإقليمي، والفكرة العنصرية والجمود العرقي الذي يهدد البشرية بالحروب والقتال، والحقْد والنزاع، والتعالي والتفاخر، وهو ما تؤكده الأحداث التاريخية قديماً، وهو ما ظهر في العصر الحاضر عند النازية، وعنصرية جنوب إفريقية، والعنصرية الصهيونية، وغيرهم من المغالين في القومية، الذين يجعلون منها ديناً وعقيدة ومذهباً وشعاراً، مع أن القومية مجرد انتماء وانتساب تحتاج إلى عقيدة وهدف.

وجاء الإسلام ليسمو بالقومية العربية نحو الأهداف السامية، والمبادئ القويمة، والشعور الإنساني والإخاء العالمي، ونقل العرب

من قومية العرق والجنس - دون أن يلغيها نهائياً - إلى قومية الدين ، إن صح هذا التعبير ، وأقام الروابط بين الناس على أساس الإيمان والعقيدة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ليتم التعاون بين القوميات والأجناس والأعراق ، ويتم التعارف الكامل في خدمة البشرية والإنسانية ، وهو ما حققه الإسلام عملياً في التاريخ ، وهو ما يشعر به المسلم نظرياً ، وعقيدةً ، اليوم ، على أن يبقى العرب في القيادة والريادة والقلب والفكر ، لأن الإسلام نزل بلغتهم ولأنهم أدرى الناس بفهمه ، وأجدرهم بحمله ، وهم الذين نقلوه إلى العالم ، وبلغوه للشعوب .

وهذه النظرية للأقوام والأجناس والأعراف ، وحاجتها للفكر الموحد ، والعقيدة الواحدة ، هي أرقى ما أدركته البشرية اليوم ، وهي المعيار الأساسي في وحدة الشعوب ، ولقاء الأمم ، كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي ، والسوق الأوروبية ، وغيرها في أكثر دول العالم التي تضم على أرضها - عملياً - عدداً من الأقوام والأجناس ، ويوحدها وحدة الفكر والثقافة ، أو العقيدة والدين أو الاتجاه الاقتصادي والمبادئ المشتركة .

وهنا نشير إلى الفرق الشاسع ، والبون الكبير بين الإسلام واليهودية ، فالإسلام نقل العرب أولاً ، والأقوام الأخرى ، من دائرة القوم والجنس والعنصر المحصور في المكان والدم والعرق ، إلى الأممية والعالمية ، مع وحدة الفكر والثقافة ، أما اليهود فقد حرفوا دين الله ، وتلاعبوا في كتب الله ، وزوَّروا على لسان الأنبياء والمرسلين ، وضيقوا الشرع والعقيدة ليضعوها في قمقم صغير ، فقبلوا الدين إلى قومية وعنصرية ، وحصروا الثقافة في القوم والجنس اليهودي ، وجعلوا من أنفسهم شعب الله المختار ، وتعالوا على بقية الشعوب ، واحتقروا بقية الأقوام ، فكانوا مثلاً سيئاً للعنصرية الممقوتة ، ونموذجاً شاذاً لتمثيل الأنبياء ودعوة الأديان السماوية .

فإن عدنا إلى العلامة إقبال لوجدناه يحمل هذه المشاعر والمبادئ الإسلامية عن القومية العربية والعرق العربي ، وصلته مع القوميات الأخرى ، والشعوب المتعددة .

إن إقبال من دم هندي ، وعرق معين ، ولو وقف عند هذا الحد لكان واحداً من أولئك الملايين الذين يعبدون البقرة ، ويسجدون لها ، ويقدمون حركتها ، ويشربون بولها ، ولكنه تخلى عن ذلك إلى ما هو أسمى وأعلى ، وإلى ما هو أعم وأشمل ، دون أن يتخلى عن دمه وعرقه ولغته .

ذكر إقبال في عدة مناسبات من شعره ، أنه من سلالة البراهمة ، ولكنه لا يفخر بهذا الأصل بل يفخر بأن رجلاً من سلالة البراهمة أدرك من حقيقة الإسلام وأسراره ما أدرك .

فيقول في «ضرب كلیم» يخاطب «سَيِّداً مصاباً بالفلسفة» :
وإنني في الأصل سُومَنَاتِي إلى مَنَاقِ نَسَبِي واللات
وأنت من أولاد هاشمي وطيتي من نسل برهمي
ويقول في «أبيات أخرى ، وعنوانه «إلى أمراء العرب» :
هل يُسعد الكافر الهندي مَنَاطَهُ مخاطباً أمراء العرب في أدب^(١)
ويبين إقبال عدم انتمائه العرقي والقومي ، فيقول :

«إلى عصابات العرب ما أنا مُتَمِّم ولا أنا هندي ، ولا أنا أعجمي»^(٢)
ويخاطب إقبال مسجد قرطبة بأسبانيا والأندلس ، مبيناً صلته فيه ، فيقول : «إن بيني وبينك أيها المسجد نسباً من الإيمان والحنان» ، لكن يتذكر أنه هندي في قلب أوربا فيبين السر في ذلك ويقول : «انظر أيها

(١) محمد إقبال ، عزام ص ١٥ - ١٦ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص ١٩٠ .

المسجد إلى هذا الهندي الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ، ومهد العروبة؛ الذي ترعرع بين الكفار وعباد الأصنام ، كيف غمر قلبه الحب والإيمان»^(١).

إن إقبال لا ينكر القومية ، سواء كانت عربية أم فارسية ، أم هندية ، أم تركية ، أم إنكليزية ، ولا يغفل عن وظيفة القومية ومكانتها في تجمع الجنس ، فيقول:

«لا أنكر أن عصبيات القبائل والأمم نافعة - إلى حين - في نشوء الحياة الاجتماعية وارتقائها ، فلست أعترض على الاهتمام بهذه العصبيات من هذه الجهة»^(٢).

لكن يبين إقبال خطر النزعة القومية فيقول:

«أولئك الذين قطعوا الأخوة ، وأقاموا الملة على الوطن ، ولكي يجعلوا الوطن شمع المحفل جعلوا النوع الإنساني قبائل ، وطلبوا الجنة في بئس القرار ، فأحلوا قومهم دار البوار ، وصارت الإنسانية في الدنيا أسطورة ، واستحال الآدمي غريباً عن الآدمي»^(٣).

ثم يحذر إقبال من الوقوف عند مجرد القومية العرقية التي تؤدي إلى العصبية والعنصرية ، فيقول: «ولكن إذا عُدَّتِ القومية أعلى درجات الرقي الإنساني ، فهي عندي أكبر لعنة على الإنسانية»^(٤).

وينكر إقبال رأي القائلين بأن الوطن هو أساس الأمة ، لأن القومية بهذا المفهوم إنما هو تفريق للأخوة ، وتمزيق للبشرية ، وتشتيت

(١) إقبال الشاعر ص/ ٨٧ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص/ ١٢٨ .

(٣) محمد إقبال ، معوض ص ٣٧١ ، ديوان الأسرار والرموز ص/ ١٠٥ .

(٤) محمد إقبال ، عزام ص/ ١٢٨ .

للإنسانية^(١) ، « وإن العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ، وإذا هجر
النصارى دين عيسى بسببها ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما
لديهم فرحون »^(٢) .

لكن إقبال ينظر إلى العرب خاصة نظرة احترام وتقدير ، ويرى لهم
الفضل على البشرية والأقوام الأخرى بحمل الرسالة السماوية التي أضأوا
بها العالم ، وأناروا فيها طريق البشرية ، فيقول : « إن العرب قد أحرقوا
أنفسهم بنور المصطفى ، وأشعلوا سراج المشرق المنطفى »^(٣) .

ويكشف إقبال عن فضل الإسلام وأثره على العرب خاصة ، والأقوام
الأخرى ، وأنه ارتفع بالأشخاص من النظرة العرقية الضيقة إلى النظرة
الإنسانية الشاملة ، فيقول عن الإسلام :

« إنه نظام اجتماعي ، مقصده أن يمحو بين الناس فروق الأشخاص
والدرجات والأنساب والألوان ، ودعوته أن يعمل الإنسان لدينه ، ويعلم
على مطامع هذه الدنيا ما استطاع ، ولا يرجو إلا رضا الله »^(٤) .

ويقول أيضاً : « فالتعليم الإسلامي لا يخص قبلاً دون قبيل ، ولكن
يقصد إلى أخوة البشر كافة ، فهو يدعو الناس جميعاً إلى التعاون
والتآخي ، وأن يُغفل في هذه السبيل ما بينهم من اختلاف جزئي^(٥) ،
لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَمَٰلَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّآمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْأَلَا
تَعْبُدُ ٱللَّهَ ۖ وَلَا تُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ ۚ
[الأنعام : ٦٤] .

(١) محمد إقبال ، معوض ص/ ٣٧١ ، ديوان الأسرار ص/ ١٠٥ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص/ ٩٨ ، يشير إلى تفرقة أوربا المسيحية إلى قوميات .

(٣) محمد إقبال ، معوض ص/ ١٣٢ .

(٤) محمد إقبال ، عزام ص/ ١٣٠ .

(٥) المرجع السابق ص/ ١٢٨ .

ويقول: «إن الإسلام ينكر أواصر الأنساب ، ويعترف بالأواصر الروحية»^(١).

ويؤكد إقبال نظرة الإسلام أنه «لا يعترف باختلاف العرق أو الجنس ، وهو أعلى من الزمان والمكان ، وبهذا المعنى فإن كل البشر إخوة»^(٢) ، وأن الأمة المحمدية ليس لها نهاية زمانية فيقول:

«أمة الإسلام تبقى أبداً وأذان الحق فيها خَلَدًا»

كما أن الأمة الإسلامية ليس لها مكان فيقول:

«لا ترى المسلم يحويه عَظَن تائهٌ ، في قلبه كلُّ وطن»^(٣)

وبين إقبال السر الخالد الذي يجمع بين الأقوام والأعراق والأمم والشعوب ، وهو الفكر والنظام والشرعة ، فيقول: «لا تنتظم أمة بغير شريعة ، وشرعة الأمة الإسلامية القرآن»^(٤) فالإسلام روح الشعوب والقوميات التي تعتقه.

ويعتبر إقبال أن جوهر الأمة والقومية والوطنية ، إنما هو الفكر والثقافة ، فيقول:

«أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا ، وليس إنكاري لها خوفاً من أن تضرَّ بمصالح المسلمين في الهند ، ولكنني أنكرها لأنني أرى فيها بذور المادية الملحدة ، وهي عندي أعظم خطر على الإنسانية في عصرنا».

ويقول أيضاً: «لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية ، ولكن العبرة في الحقيقة بإيمان الإنسان وثقافته وسننه

(١) المرجع السابق ص/١٢١.

(٢) من خطاب إقبال في الجامعة الوطنية بلندن في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٢م انظر: محمد إقبال ، معوض ص/١٨٤.

(٣) ديوان الأسرار ص/١٠٢ ، ١٠٤.

(٤) محمد إقبال ، عزام ص/٩٨ - ٩٩ ، ديوان الأسرار ص/١١١.

التاريخية ، هذه هي رأيي الأشياء التي تستحق أن يعيش لها الإنسان ويموت من أجلها ، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقاً وصدفة»^(١).

ويرى العلامة إقبال أن الإسلام حقق نجاحه الباهر في الجمع بين الأمة العربية والأمم الأخرى بفضل الدين والعقيدة والتوحيد ، بعد أن تخلّى العرب عن عبادة الأصنام ، وتخلت الأمم عن عبادة الوطن فقال :

«أُمٌّ قَدْ عَبَدَتْ أَوْطَانَهَا وَبَنَتْ مِنْ نَسَبِ بُيُوتِهَا
أَتَرَى الْأَوْطَانَ أَصْلَ الْأُمَمِ تُعْبِدُ الْأَرْضَ بِهَا كَالصَّنَمِ
إِنَّمَا الْأَنْسَابُ فُخْرُ السُّفَهَاءِ حَكَمَهَا فِي الْجِسْمِ ، وَالْجِسْمُ هَبَاءٌ
وَلَنَا فِي الْحَقِّ أَسْسٌ آخَرُ هُوَ فِي الْأَبَابِ مَنَا مُضْمَرُ
قَدْ خَلَصْنَا مِنْ حُدُودٍ وَقِيُودٍ قَلْبُنَا فِي الْغَيْبِ إِذْ نَحْنُ شُهُودُ»^(٢)

لكن إقبال يفصح بصراحة عن مكانة العرب في الأمة الإسلامية ، وتبين أن قومية الدين والإسلام إذا كانت تغطي بجناحها أطراف العالم الإسلامي ، فإن الأمة العربية هي القلب النابض ، والمركز العصبي الحساس ، ولها القيادة والريادة ، ومن أرضها الطاهرة تسطع الشمس المضيئة على المسلمين ، وإلى كعبتها وقبلتها وجزيرتها تتلهم النفوس ، وتلهج الأفئدة ، وتتجه القلوب ، ونحوها تتفتح العيون لترى كل حركاتها ، وتشاركها نبضاتها ، وتفرح بأفراحها ، وتأسى لأحزانها ، وتتألم لمصائبها.

وهذا ما يكرره إقبال في عدة قصائد ، وأن قلبه معلق بالحجاز وأهله ، فيقول :

(١) محمد إقبال ، عزام ص/٧٨ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص/٩٧ ، ديوان الأسرار ص/٨٨ .

«أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مغترب إلى الأوطان»^(١)
فالعرب هم القلب للأمة الإسلامية ، يمدّها بالدم النقي ، ويحافظ
على سر البقاء والوجود .

ثم يبين إقبال أن الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد الإلهي ،
والرسالة السماوية والشريعة الخالدة ، فلا يتعلق قلب المسلم بإقليم ،
ولا يضل في دنيا الكيف والكم^(٢) .

ويقدم إقبال من سيرة الرسول ﷺ ما يؤيد هذا الاتجاه ، بأن هاجر
الرسول عليه الصلاة والسلام من بلده في مكة إلى المدينة المنورة ، ولم
يتعلق قلبه بدياره الأولى في سبيل نشر الرسالة ودعمها ، فيقول إقبال :
«لقد حلَّ عقدة القومية لدى المسلم بأن هجر سيّدنا وطّنه»^(٣) ولذلك كان
لرسول الله ﷺ هذا الفضل ، ويقول إقبال :

قد هدانا الحقّ هذا المرسلُ في سبيل الحق نحن الشُعَل
بحرّه أخرج هذا الجوهرنا نحن روح واحد بين الورى
ختم الله علينا شِرْعَتَه وعلى المرسل فينا بعثته
محفل الأيام منا يُنظّم ختم الرسل بنا والأُمم^(٤)

ويستشهد إقبال على نظريته فيقول : «إن رينان الفرنسي يقول : إن
الإنسان ليس أسيراً للجنس ولا لمجاري الأنهار وسلاسل الجبال ، ولكن
كلُّ جماعةٍ كبيرة من البشر ، صحيحة العقل حيّة القلب ، ينشأ فيها شعور
يجمعها ، وتسمى أمة»^(٥) .

(١) إقبال الشاعر ص/ ٣٤ .

(٢) ديوان الأسرار والرموز ص/ ١٠٢ ، ١٠٤ .

(٣) محمد إقبال ، معوض ص/ ٣٧٠ .

(٤) محمد إقبال ، عزام ص/ ٩٧ ، ديوان الأسرار ص ٨٨ .

(٥) محمد إقبال ، عزام ص/ ٣٧ .

وهنا يبين العلامة إقبال أن المفهوم الإسلامي العالمي للقومية بأن مزجها بالدين ، وجعل العقيدة والشرعية أساسها ، ويصور إقبال هذا المفهوم بواقع عملي ، وتاريخ مشرق ، ووحدة عالمية ، لشعوب العالم التي انضوت تحت ظل الإسلام ، فيقول نشيده الإسلامي ، ومطلعه^(١) :

الصينُ لنا ، والعربُ لنا والهندُ لنا ، والكل لنا
أضحى الإسلامُ لنا ديناً وجميعُ الكون لنا وطناً

ثم يقول :

علمُ الإسلامِ على الأيا مِ شعَارُ المجدِ لأمتنا

ثم يقول :

يا أرضَ النور من الحرَمِ من ويا ميلادَ شريعتنا
رَوْضُ الإسلامِ ودوحته في أرضِكَ رَوَّاهَا دُمْنَا
ومحمد كان أميرَ الرك ب يقود الفوز لنصرتنا

وهنا يستدرك إقبال أيضاً أن حياة الأمة تحتاج إلى مركز حساس ، وأن مركز الأمة هو البيت الحرام في مكة المكرمة ، ويتسع محيط الدائرة بغير حدود ، فيقول :

«هكذا سنة ميلادِ الأمم مركزُ فيه حياةٌ تَنظُم
إنما المركزُ روحُ الدائرة نقطةٌ ، فيها محيطٌ ، ضامرة
ومن المركز للقوم نظام ومن المركز للقوم دوام
نقطةُ المركز فينا الحَرَمُ لحنُّنا والوجدُ فينا الحرَم
نَفْسٌ في صدرنا يَتَقَدُّ روحُنا الغالي ، ونحن الجسد
مِنْ نَدَاهِ نَضَرْت أغصانُنا حيي من زمزمه بستانُنا
نحن من دعواه في الدنيا دليل نحن فيه من براهين الخليل

(١) محمد إقبال ، عزام ص/٦٢ ، إقبال الشاعر ص/٦٢ .

صوتنا يُندى به في الأمم واصلاً مُحدثنا بالقدَم^(١)
ولما وجه أحد الإنكليز الانتقاد للعلامة إقبال بأن فلسفته تخاطب أمة
من الناس هي الأمة الإسلامية ولا ترتقي إلى المستوى الإنساني العام ، رد
عليه بقوله : «إن الفلسفة والشعر ينبغي أن تكون لها مقاصد إنسانية عامة ،
ولكن هذه المقاصد إذا أُريد تحقيقها في أعمال الحياة ، لم يكن بد من
تحقيقها أول الأمر في جماعة بعينها ، لها مسلك معين ، ومذهب
مستقل ، ولكن طرائقها في العمل تتسع بالدعوة والتبليغ إلى غير نهاية ،
وعندي أن هذه الجماعة هي الأمة الإسلامية ، فالإسلام عدو لعصبية
الألوان والأجناس ، وهي أصعب العقبات في سبيل اتحاد
العالم...»^(٢).

ثم يحذر إقبال من هبوب ريح القومية والوطنية بين المسلمين فيقول :
«قد رأيت أن عالم الإسلام كذلك سرت فيه القومية والوطنية القائمتان
على عصبية الأمة والوطن ، ورأيت المسلمين يغفلون عن مقاصدهم
العامة ، ويقعون في شباك القومية والوطنية ، فرأيت فرضاً عليّ بأنني
مسلم ومحب للإنسانية أن أوجههم إلى مقاصدهم الحقّة»^(٣).

ولا يغفل إقبال عن الأحداث التاريخية النادرة التي أساءت للنظرية
الإسلامية من العرب والشعوب والقومية ، ويعتبرها أحداثاً مأساوية
خارجة عن نظرة الإسلام فيقول :

«لا أنكر أن المسلمين كغيرهم خاضوا ، وحاربوا ، واستولوا على
بعض البلاد ، وكان هناك بعض الحكام استغل الدين لتحقيق نزواته ،
ولكنني أعرف تمام المعرفة أن الاستيلاء والسيطرة واحتلال البلاد ، كل

(١) ديوان الأسرار والرموز ص/ ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص/ ١٢٨ .

(٣) محمد إقبال ، عزام ص/ ١٢٨ .

هذا لا يدخل ضمن مبادئ الإسلام . . . ، فهدف الإسلام إدخال الأقوام الأخرى تحت لوائه ، ولكنه لا يتخذ الإكراه والقوة وسيلة لهذا ، بل يستعمل الإقناع وتقديم تعاليمه البسيطة السهلة . . . »^(١) ﴿ آدُعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ﴾ .

ونختتم هذا القسم عن نظرة إقبال إلى القومية العربية التي نزل فيها الذكر الحكيم ، لتلتزم بشريعة الإسلام ، وأن وجود المسلم يكمن بالشريعة وحسب ، وأن أمل الأمة العربية مرتبط بشعار التوحيد بقيادة الرسول العربي العظيم ، فيقول :

إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي رُوحُ الْآمَالِ لِنَهْضَتِنَا^(٢)

القسم الثالث : إقبال والأمة العربية :

كانت الأمة العربية تتبوأ مركز الصدارة في قلب إقبال ونفسه ، وكانت تحتل مكاناً مهماً وعزيراً في عقل إقبال وفكره ، فقد أحب إقبال الأمة العربية ، وتغنى بلغتها ، وعشق أهلها ، وطرب بثقافتها وفكرها ، وافتخر بتراتها وأمجادها ، وعاش مع الأمة العربية في ماضيها الجاهلي ، وتاريخها الإسلامي الذي بلغت فيه ذروة المجد في العصور الزاهية : في عصر النبوة ، والخلافة الراشدة ، وعهد النهضة والحضارة والسيادة عند الأمويين والعباسيين .

واطلع إقبال على المآسي التاريخية التي حلت بالأمة العربية ، وتألم لما أصابها من نكبات وويلات ، بدءاً من أسبانيا والأندلس ، إلى صقلية وتركستان ، إلى فلسطين والاستعمار الغربي للبلاد العربية ، وتفطر كبده على المعارك الطاحنة بين العرب والمستعمرين في ليبيا وفلسطين

(١) محمد إقبال ، عزام ص/١٢٩ ، ديوان الأسرار ص /٢٦ .

(٢) محمد إقبال ، عزام ص /٦٢ .

ودمشق ، واكتشف بشكل مبكر التآمر الخبيث من الغرب على العرب ،
مع المكيدة بمصيرهم .

وحمل إقبال هموم الأمة العربية الحاضرة ، وتآلم لتراجع العرب
والمسلمين عن دينهم ، وحذر الأمة العربية من الثقة بالغرب اللثيم
المستعمر ، ووعدوه الكاذبة ، وكلامه المعسول ، وناشد الأمة العربية
بالوحدة ، والعودة إلى ذاتها وتراثها ودينها وعقيدتها ، وخاطب الأمراء
العرب ، وناشد فيهم العقول والقلوب ، وحاول أن يوقظ بينهم الروح ،
وذكرهم بعزة الآباء والأجداد ، وحرك فيهم مشاعر الاستقلال عن الغرب
فكراً وعقيدة وسياسة ، وناداهم بالوحدة العربية لتكون نواة للوحدة
الإسلامية .

وبكى إقبال واقع الأمة العربية ، وبثها آلامه وأحزانه ، وتطلع إليها في
تحقيق آماله وأهدافه ، واتخذها المثل الأعلى في حياته ، وحياة الأمم .

لقد خصص إقبال أروع قصائده ، وأبدع شعره لمخاطبة الأمة
العربية ، واتخذ منه سجلاً حافلاً لفضلها ومآثرها وحضارتها ، وذكرها
برسالتها في حمل الدعوة الإسلامية إلى شعوب العالم في الحاضر
والمستقبل ، كما كانت في الماضي .

وهذه أمثلة وشواهد لما نقول :

العرب قبل الإسلام :

يصور الشاعر إقبال حال العالم والعرب قبل الإسلام ، ثم يشير إلى
بعض النتائج التي تحققت بالبعثة الإسلامية ، والنبوة المحمدية ،
والرسالة الخالدة ، فيقول :

قد كان هذا الكون قبل وجودنا	روضاً وأزهاراً بغير شميم
والورد في الأكمام مجهول الشذا	لا يُرتجى وردٌ بغير نسيم
بل كانت الأيام قبل وجودنا	ليلاً لظالمها وللمظلوم

لما أطلّ محمدٌ زكّتِ الرُّبى واخضرَّ في البستان كلُّ هشيم
وأذاعت الفردوسُ مكنون الشذا فإذا الورى في نُصرةٍ ونعيم^(١)
العرب بعد الإسلام:

وكان إقبال - رحمه الله تعالى - يمدّ طرباً بما قدمه العرب إلى العالم
من دين رشيد ، وعقيدة صافية ، وفكر نقي ، وثقافة غزيرة ، وعلوم
جمّة ، وتشريع حكيم ، فيقول ، ويعدّ نفسه منهم :

«من كان يهتفُ باسمِ ذاتك قبلنا من كان يدعو الواحدَ القهارا
عبدوا تماثيلَ الصخورِ وقدسوا مِنْ دُونِكَ الأحجارَ والأشجارا
عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيدَ داعِ قبلنا وهدى الشعوبَ إليك والأنظارا
كنا نقدم للسيوفِ صدورنا لم نخش يوماً غاشماً جبارا»

إلى آخر قصيدته العظيمة^(٢) «شكوى» ، التي تهز المشاعر ، وتدغدغ
العواطف ، وتنشي الأرواح ، وفيها أبيات جميلة ورائعة ، أحب دائماً
قراءتها ، والرجوع إليها ، «وما أحلى الرجوع إليها» .

الدولة العربية الإسلامية :

ويفتخر إقبال بالأمة العربية التي وصلت إلى أوج العظمة في التاريخ
الإسلامي القريب ، ويقول في قصيدته «إلى الأمة العربية» مخاطباً لها
خطاب الابن البار لها ، والناقد البصير ، والناصح الأمين ، والمذكر
الرشيد بأمجادها ، والمتألم لحاضرها ومآسيها ، فيقول^(٣) :

«أمة الصحراء ، يا شعبَ الخلود من سواكم حلّ أغلال الورى

(١) إقبال الشاعر ص/ ٢٩ .

(٢) إقبال الشاعر ص/ ٢٩ .

(٣) إقبال الشاعر ص/ ٥٧ .

صَاحَ لَا كَسْرَى هُنَا لَا قَيْصِرَا
أَطْلَعَ الْقُرْآنَ صُبْحاً لِلرَّشَادِ
لَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ رَبّاً لِلْعِبَادِ

أَيُّ دَاعٍ قَبْلَكُمْ فِي ذَا الْوُجُودِ
مَنْ سِوَاكُمْ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ قَدِيمٍ
هَاتِفاً فِي مَسْمَعِ الْكَوْنِ الْعَظِيمِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَسَلِّ الْحَمْرَاءَ وَاشْهَدْ حُسْنَ تَاجِ
نَحْوَهَا طَوْعاً يُؤَدُّونَ الْخَرَجَ
مُظْهِرَ الْعِزَّةِ ، وَالْمَلِكِ «الْحَصِينَ»

«لَا تَقُلْ أَيْنَ ابْتِكَارُ الْمُسْلِمِينَ
دَوْلَةٌ سَارَ مَلُوكُ الْعَالَمِينَ
دَوْلَةٌ تَقْرَأُ فِي آيَاتِهَا

وَيَفْتَخِرُ إِقْبَالُ أَيْضاً بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، الَّتِي سَطَعَتْ بِنُورِهَا عَلَى
الْبَشَرِيَّةِ ، وَغَطَّتْ بِأَرْوَاقِهَا مَعْظَمَ الْعَالَمِ ، وَيَعْجَبُ بِأَثَارِ الْعَرَبِ فِي
الْأَنْدَلُسِ ، وَيُذَكِّرُ بِأَمْجَادِهِمْ ، فَيَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ بِعنوان «صَقِيلِيَّة»^(١):

تَنَالُ بِرَاحَتِهَا الْفَرْقَدَا
فَكَانَتْ لِأَسْطُولِهِمْ مَلْعَبَا
نَ دَانَتْ لِتَوْحِيدِهِمْ سُجْدَا
بَنَتْ عُشَّهَا قَبْلَ سِرْبِ الْقَطَا
قَوِيَ الْبِنَاءُ سَنِيَّ الْحَلَى
أَفْقَاتُ شُعُوبٍ طَوَاهَا الْكَرَى
فَهَبَ ، وَقَدْ كَانَ رَهْنُ الْبَلَى
وَبِالْعِلْمِ ، فَهُوَ سَبِيلُ الْهَدَى
فَمِنْهَا لِكُلِّ زَمَانٍ صَدَى
تَفُوقُ الْبَيَانَ وَتَعْيِي الثُّهَى
يُحْدِثُنِي الصَّخْرُ عَمَّا رَأَى

وَلِلْعُزْبِ كَانَتْ هُنَا دَوْلَةٌ
عَمَالِقَةُ الْبَيْدِ خَاضُوا الْبَحَارَ
قُصُورُ الْأَبَاطِرَةِ الْمَالِكِي
كَأَنَّ الْبُرُوقَ بِأَسْيَافِهِمْ
مِبَادِئُهُمْ أَنْشَأَتْ عَالِماً
بِصِيحَتِهِمْ حِينَ دَوَّى الْأَذَانُ
فَنَادُوا أَلَا أَيُّهَا الْكَوْنُ قُمْ
أَنَارُوا الشُّعُوبَ بِتَحْرِيرِهَا
تُغْنِي الْعُصُورُ بِأَثَارِهِمْ
حَضَارَةُ عِلْمٍ ، وَآيَاتُ فَنٍ
يَكَادُ بِقِصَّةِ أَمْجَادِهِمْ

وَأُرَانِي مُضْطَرّاً لِلِاخْتِصَارِ ، مَعَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى بَعْضِ أَيْتَاتِ الْقِصَائِدِ ،

(١) إقبال الشاعر ص/٦٣ .

وبمقدار سعادتي وغبطتي ونشوتي بعرض نماذج من القصيدة ، كنت بمثل هذا المقدار أتألم على قطعها وعدم المتابعة في قراءتها وعرضها .

ويبين العلامة إقبال أن الروح المتدفقة للأمة العربية ، والغذاء الفعال لها ، والترياق الشافي لأمرضها هو في الإسلام ، ومن هنا يشير إلى أصنام الجاهلية ، وما أورثته من وبال ، ويشير إلى فضل الله عليهم بالإسلام حتى بلغوا الثريا ، وأن الواقع الأليم للعرب والمسلمين اليوم يقتزن مع الداء الويل لأجدادهم في الجاهلية بالأصنام والتماثيل ، فيصور هذا المعنى ، ويقول في قصيدته «جواب شكوى»^(١) :

وأخضعنا لملكهم الثريا	وشيدنا النجوم لهم حصونا
ولكن ألدوا في خير دين	بنى في الشمس ملك الأولينا
تراث محمد قد أهملوه	فعاشوا في الخلائق مهملينا
تولى هادمو الأصنام قذماً	فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيم ، لكن	أرى أمثال آزر في البنيينا

العرب قدوة الأمم :

ودرس إقبال - رحمه الله - التاريخ ، فوجد أن العرب ، وقادة الأمة العربية ، وعلماءها وأئمتها ، ومفكرها ، هم القدوة الصالحة للمسلم في السلوك ، وهم المثل الأعلى للاقتداء بدءاً من محمد بن عبد الله ، رسول الله وخاتم النبيين ، إلى أبي بكر وعمر وعلي ، والحسن والحسين ، ويجعل من فاطمة الزهراء بنت المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وزوجة الإمام الكرار ، وأم الحسن والحسين ، يجعل منها القدوة الصالحة العاملة للمرأة ، سواء كانت بنتاً برة ، وزوجاً وفيه مخلص ، وأماً رؤوفاً حنونة^(٢) ، فيقول في قصيدته «إلى الأمة

(١) إقبال الشاعر ص/ ٥٠ ، نداء إقبال ص/ ١٥٢ .

(٢) انظر: ديوان الأسرار والرموز ص/ ١٣٨ ، ١٤٠ .

العربية»^(١) ، مبيناً مكانة الرسول ﷺ وجهاده في إقامة الحق ، ونشر النور ، وتبليغ الهدى للبشرية :

وابلٌ من فيض أميِّ اللقب الكريم الفرد في الكرام
أنبت الزهرَ بصحراءِ العَرَب بل سقى في القفرِ بستانِ الوثام
منح الإنسانَ مُلكَ العالم بعد ما علّمه النهجَ الرشيد
كلُّ غصنٍ كان في يُيس العَدَم بِنِداءِ اخْضَرَ حتى أثمرا
ثم قال :

لا تسلني الآن عن ثورته إنها ميدانُ بدرٍ وحنين
في أبي بكر وفي صاحبه في علي ثم في صبر الحسين
سيفِ أيوبٍ وتقوى بايزيد فيهما مفتاح كنز العالمين
ويفتخر الشاعر إقبال بانتمائه للرسول العربي ، فيقول :

«لا تعجبوا إن اقتنصتُ النجوم ، وانقادت لي الصعابُ ، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم ، الذي تشرّفت بوطأته الحصباءُ ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في أثره الغبارُ ، فصارَ أعبقَ من العبير»^(٢).

كما يفتخر إقبال بانتمائه للأمة العربية والإسلامية التي أنجبت الرجال والعلماء والمفكرين فيقول^(٣) :

«أنا مَنْ في ظلمةِ الليل أنار في طريق العلة البيضاء غبار
أمةٌ دوّت بأفاق الورى لحنها في القلب نارا قد سرى
ذرةٌ ألفت وشمساً حصدت ألف رومي ، وعطار جنت
ويشير إلى العلامة جلال الدين الرومي ، وفريد الدين العطار .

(١) إقبال الشاعر ص/٥٧ .

(٢) نداء إقبال ص/١٣٩ ، وانظر : محمد إقبال ، عزام ص/٧١ .

(٣) محمد إقبال ، عزام ص/٧١ .

النكبات التاريخية للعرب :

ويتألم العلامة إقبال على تراجع العرب والمسلمين عن دينهم وحضارتهم وتقدمهم وعلو شأنهم وعن رسالتهم للعالم ، فيقول في قصيدته الرائعة «شكوى»^(١) :

قد هبَّت الأصنامُ من بعد البلى	واستيقظت من قبلِ نفخِ الصورِ
والكعبةُ العليا توارى أهلها	فكأنهم موتى لغيرِ نشور
وقوافل الصحراءِ ضلَّ حُداتها	وغدت منازلُها ظلالَ قبور



(١) محمد إقبال ، عزام ص/٧٢ .

الإمام الشافعيُّ

أديباً وشاعراً وإماماً في اللغة

يعرف معظم الناس الإمام الشافعي فقيهاً ، وأصولياً ، ومجتهداً ، وصاحب مذهب في الفقه الإسلامي ، يتبعه الملايين في القديم والحديث .

ولكن القليل القليل من الناس يعرف أن الإمام الشافعي كان شاعراً مجلياً ، وأديباً محلقاً ، وإماماً في اللغة ، حتى إن أكثر أتباعه يجهلون ذلك ، ولا يعلمه إلا خاصة الخاصة ، وهذا ما دعانا لبيان هذه الصفة الحميدة للإمام الشافعي ، بعد لمحة موجزة عن حياته .

اسمه ونسبه :

الشافعي هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن شافع ، أبو عبد الله المطلبي القرشي ، أحد الأئمة الأربعة في الفقه عند أهل السنة ، وإليه تنسب الشافعية كافة .

ولادته ونشأته :

ولد الإمام الشافعي بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وتوفي والده ، فحملته أمه إلى مكة المكرمة ، وهو ابن سنتين ، لينشأ بين أهله وذويه وأقربائه ،

وربي يتيماً ، وحفظ القرآن ، وهو ابن سبع سنين^(١) ، وأخذ اللغة والأدب والفقه وعلوم القرآن عن علماء مكة ، وحفظ «الموطأ» في الحديث والفقه للإمام مالك ، وهو ابن عشر سنين ، وأذن له بالإفتاء في مكة ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، ورحل إلى المدينة فأخذ الحديث وعلومه عن الإمام مالك وعلماء المدينة ، ودافع عن السنة وأهل الحديث حتى سمي بناصر الحديث ، أو ناصر السنة ، ورحل إلى اليمن فتعلم الفراسة والجدل والمناظرة واشتغل ببعض الأعمال ، ثم رحل إلى العراق مرتين أو ثلاث مرات ، وأخذ فقه الرأي عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني ، والتقى مع الإمام أحمد بن حنبل وأخذ عنه الحديث ، وعلمه الفقه وأصول الفقه ، ودّرس في بغداد ، ونشر علمه وفقهه ، ثم قصد مصر سنة ١٩٩ هـ ، وتفرغ للتدريس والتصنيف ، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٢٠٤ هـ ، وقبره في القاهرة معروف^(٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١١ ، تاريخ الإمام الشافعي ص ١١ .

(٢) انظر ترجمة الإمام الشافعي في: طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكي ١٩٢/١ ، تهذيب الأسماء ، للنووي ٤٤/١ ، وفيات الأعيان ٣/٣٠٥ ، حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣٠٣ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٣٦١ ، غاية النهاية في طبقات القراء ٢/٩٥ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١ ، الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي ١/١٢٧ ، الخلاصة ، للخزرجي ٢/٣٧٧ ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/٥٦ ، حلية الأولياء ، لأبي نعيم ٩/٦٣ ، الانتقاء ، لابن عبد البر ص ٦٦ ، الفهرست لابن النديم ص ٢٩٣ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٥ ، المحمدون من الشعراء ، ص ١٩٣ .

وانظر الكتب التي أفردت لحياة الشافعي: آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم الرازي ، تحقيق الشيخ عبد الغني عبد الخالق ، مناقب الشافعي ، للبيهقي ، تحقيق السيد أحمد صقر . مناقب الشافعي لفخر الدين الرازي ، الشافعي للعلامة الشيخ محمد أبوزهرة ، الإمام الشافعي لعبد الحليم الجندي ، الإمام الشافعي ، للشيخ الأستاذ عبد الغني الدقر ، رحلة الإمام الشافعي ، محاضرة لمصطفى منير أدهم ، الإمام الشافعي ، محاضرات للشيخ جاد الرب لطلاب الماجستير ، في =

كان الشافعي شديد الذكاء ، راجح العقل ، قوي الفطنة ، تبدو عليه الشجاعة والفراصة ، وكان من أحذق قريش في الرمي ، يصيب عشرة من عشرة ، وكان جهوري الصوت ، شديد الورع والتقوى ، كثير العبادة ، زاهداً في الدنيا ، مقبلاً على العلم ، شغوفاً به ، متعمقاً في الفقه والاستنباط ، وهو أول من صَنَّف ودَوَّن علم أصول الفقه ، وكتب فيه «الرسالة» المشهورة التي أصبحت العمدة والأساس لعلماء الفقه والأصول ، وصارت كالمنارة الباسقة ، التي أنارت للعلماء طريق البحث والتأليف في أصول الفقه^(١) ، وكان الشافعي مُحَدِّثاً ، وحافظاً للحديث^(٢) ، وكان يشتغل بالتدريس والمناظرة والإفتاء والتأليف في كل مكان يحل فيه ، وتخرج على يديه خلق كثير ، وتجمهر حوله التلاميذ الذين حملوا مذهبه ، ونشروه في الأقطار والمدن ، وله كتاب «الأم» في الفقه في سبع مجلدات ، و«المسند» و«السنن» في الحديث ، و«اختلاف الحديث» وهو أول كتاب في هذا الموضوع ، و«إبطال الاستحسان» و«جماع العلم» في أصول الفقه ، وحفظت معظم مصنفات الشافعي ، ولقيت العناية الفائقة في مختلف العصور ، وطبع معظمها في وقتنا الحاضر .

= الفقه المقارن بجامعة الأزهر ، تاريخ الإمام الشافعي ، بقلمه ، برواية ابن المنذر عن الربيع المرادي ، ويليهما تاريخ الشافعي للأستاذ حسين محمد الرفاعي .

- (١) أصول الفقه الإسلامي ، للدكتور محمد الزحيلي ص ٤٣ .
- (٢) كتب الدكتور خليل ملا خاطر رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر عن «الشافعي وأثره في الحديث وعلومه» وانظر مناقب الشافعي للبيهقي ٤٨٦/١ ، ٥/٢ ، ورسالة : مسألة الاحتجاج بالشافعي ، للخطيب البغدادي في مجلة البحوث الإسلامية ص ٣٦٤ وما بعدها .

قال ابن خلكان: «وكان الشافعي كثير المناقب ، جمَّ المفاخر ، منقطع النظر»^(١).

تعلم الأدب واللغة :

الإمام الشافعي من قريش ، ونشأ بمكة المكرمة ، وبدأ حياته بتعلم الأدب ، وحفظ الشعر العربي ، والإقبال على اللغة ، وحفظ القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، وبلاغة رفيعة ، وبيان منقطع النظر أعجز البشر عن أن يأتوا بمثله ، وقرأ أخبار العرب وأيامهم ، واكتسب فصاحة اللسان ، وجودة النطق ، وفهم أسرار العربية ، وأدرك مرامي ألفاظها وعباراتها وأسلوبها ، فساعدته ذلك على تفهم معاني القرآن والسنة ، وأفاده قوة في التعبير ، ورصانة في الأسلوب ، وأصبح عالماً باللغة دلالة وأسلوباً ، وهضم الأدب ، ثم اتجه إلى الكتابة فيه .

ولكن الشافعي - مع كونه قرشياً ، ونشأ في مكة ، ونهل من معينها اللغة العربية والفصاحة والبيان - لم يقف عند ذلك ، بل ذهب إلى البادية العربية ، وقصد قبيلة هذيل ، وكانت أفصح العرب ، ومشهورة بالشعر في الجاهلية والإسلام ، بل هي من القبائل العربية التي أعرفت في الشعر ، ويضرب بها المثل ، فيقال : «أشعر من هذيل» وهذيل رجل من

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٥ ، وذكر الخطيب البغدادي بعض مزايا الشافعي ، وقال : «منها جزيل حظّه من الأدب ، وجلالة محتده في النسب الذي ساوى به في الحكم بني عبد المطلب ، ثم قال : «فإن مناقبه أكثر من أن تحصى ، وعدّ ما جمع الله فيه لا يستوفى .

فسما على الأكفاء ، فصار نسيج وحده ، وفريد مجده ، وقريع دهره ، وواحد عصره ، إن ذكرت المفاخر فهو الغاية ، وإن عدت المحاسن فهو النهاية . ثم ينقل الخطيب ثناء الأئمة والعلماء عليه ، انظر : رسالة مسألة «الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه» للخطيب البغدادي ، تحقيق الدكتور خليل ملا خاطر ، ص ٣٧٠ ، ٣٩٢ من مجلة البحوث الإسلامية ، الرياض ، المجلد الأول ، العدد الثاني .

مضر ، ولها شعر جاهلي ، وشعر إسلامي فصيح ، يتناول الحماسة والفضائل ، حتى قال حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ عن هذيل ، «إنهم أشعر القبائل العربية» وقال الأصمعي: «فيهم أربعون شاعراً مُفلقاً»^(١) ، ولزم الشافعي قبيلة هذيل عدة سنوات ، أو مدة تبلغ عشر سنوات متقطعة ، وفي رواية أنه لزم هذيلاً سبعة عشر عاماً ، فاستفاد منها - مع كونه عربياً وقرشياً - المعرفة الواسعة باللغة والأدب والشعر ، وحفظ شعر الهذليين الذي يصل إلى عشرة آلاف بيت ، مع إعرابها ومعانيها ، ثم قام بنقله وروايته إلى الناس ، كما حفظ شعر السُّنْفَرِي الجاهلي ورواه لغيره ، واستفاد الشافعي من الإقامة مع الهذليين قوة التعبير ، ورصانة العبارة في الأسلوب ، والذوق الرقيق في البيان^(٢) .

الشافعي أستاذ في الأدب :

جمع الإمام الشافعي بين منابع اللغة وأدبها وأشعارها وتاريخها في الدراسة والتلقي عند الهذليين وفي مكة ، وبين فصاحة القرآن العظيم ، وبيانه المبين الذي حفظه غيباً من الصغر ، وكان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، ويعكف على تدبره ، وتذوق معانيه ، وفهم ألفاظه ، واستنباط الأحكام الشرعية منه ، وكان تعمقه باللغة يساعده في فهم القرآن الكريم ، وكانت فصاحة القرآن وبيانه وتلاوته وتدبره يزيده تعمقاً في اللغة ، حتى صار أستاذاً فيها .

ولذلك قال فيه إمام اللغة الجاحظ - مع كونه من أقصى النقاد ، وأنه ينتمي إلى المعتزلة الذين يعادون أهل السنة - قوله المشهورة: «نظرت في

(١) قال الشافعي نفسه عن هُذَيْل: «كانت أفصح العرب» انظر: ديوان الشافعي ص ٦ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٥٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/١٠ ، محاضرات جاد الرب ص ١٤ .

كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم ، فلم أر أحسن تأليفاً من
المطلبي ، لسانه ينثر الدرّ .

وكان الإمام الشافعي راوية للشعر ، ينقله لغيره ، ويتسابق العلماء
للأخذ عنه ، وصحح عدد من علماء العربية شعر الهذليين على الشافعي ،
منهم أبو ذؤيب ، وأبو كبير ، وأبو قلابة ، والمتنخل ، والأصمعي
وغيرهم .

قال الأصمعي : «صححت شعر هذيل على فتى من قريش يقال له
محمد بن إدريس» وفي رواية : «قرأت ديوان الهذليين على شاب من
شباب قريش يقال له محمد بن إدريس» ونقل أبو عثمان المازني أنه سمع
الأصمعي يقول : «قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة»^(١) ، وروى
الحاكم عن مصعب الزبيري قال : «قرأ الشافعي أشعار هذيل حفظاً ، ثم
قال لي : لا تخبر بهذا أحداً»^(٢) .

وكان الشافعي فصيح اللسان ، يجيد القراءة الجميلة ، والإلقاء
المعبر ، والخطابة المؤثرة ، كما كان قوي الحجة ، مبرزاً في المناظرة ،
ويعتبر من الطراز الأول في هذا الخصوص .

وكان أهل اللغة يحضرون مجالس الشافعي ليتمتعوا بنطقه وإلقائه ،
وعذوبة ألفاظه ، وقد روى الزعفراني تلميذ الشافعي أنه رأى قوماً من أهل
اللغة في درس الشافعي ، فقال لهم : «لم تختلفون معنا؟ (أي تجلسون
إليه) قالوا : نسمع لغة الشافعي» ، ويقول الربيع تلميذ الشافعي : «لو رأيت
الشافعي وحسن بيانه لتعجبت منه ، ولو ألف هذه الكتب على عريته التي

(١) سير أعلام النبلاء ٤٩/١٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٥٢ ،
مناقب الشافعي للبيهقي ٤٤/٢ وما بعدها .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٩/١٠ ، الإمام الشافعي ، جاد الرب ص ١٢ ، مناقب
الشافعي ، للبيهقي ٤٦/٢ وما بعدها .

يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه ، غير أنه يجتهد في تأليفه في أن يوضع للعوام» ، وقال عبد الملك بن هشام صاحب «السيرة» ، وعالم اللغة العربية: «طالت مجالستنا للشافعي ، فما سمعت منه لُحْنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها ، وعقب على ذلك الذهبي فقال: «أنى يكون ذلك ، وبمثله في الفصاحة يضرب المثل ، كان أفصح قریش في زمانه ، وكان ممن يؤخذ عنه اللغة»^(١).

قال أبو منصور الأزهري في «تهذيب اللغة»: «عكفت على المؤلفات التي ألفها علماء الأمصار فألفت الشافعي أغزرهم علماً ، وأفصحهم لساناً ، وأوسعهم خاطراً»^(٢).

ويمتاز أسلوب الشافعي الأدبي بجزالة الألفاظ ، ووجازة العبارة ، وقوة التعبير والتأثير ، وكل من قرأ كتبه العلمية في الفقه وأصول الفقه يدرك هذه المعاني والصفات .

الشافعي إمام في اللغة :

إن الإسلام بنصوصه ، والفقه بأصوله ، يتعانقان مع اللغة العربية ، ويتلازمان معهما نظرياً وعملياً ، ويستحيل الفصل بين الإسلام والعربية ، والإمام الشافعي لم يبلغ شأوه في الاجتهاد والفقه إلا بعد أن كان إماماً في اللغة ، كما أن تبحره في اللغة وفهم معانيها وأسرارها أعانه على فهم كتاب الله ، واستنباط مراميها ، ومعرفة دلالاته ، وكان له أكبر معين على وضع علم أصول الفقه ، وتدوين قواعده ، وتقرير ضوابطه وأساسه .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٩/١٠ ، ٧٤ ، آداب الشافعي ومناقبه ص ١٣٦ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٧٢ وما بعدها ، مناقب الشافعي للبيهقي ٤٣/٢ .

(٢) الإمام الشافعي للجندي ص ٧٣ .

يقول محمد بن بنت الشافعي : « أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وقال : ما أردت منه إلا الاستعانة على الفقه »^(١).

وقال مؤرخ : الإسلام الحافظ الذهبي عن الشافعي : « وكان من أحذق قريش بالرمي ، كان يصيب العشرة من عشرة ، وكان أولاً قد برع في ذلك ، وفي الشعر ، واللغة ، وأيام الناس ، ثم أقبل على الفقه والحديث ، وجوّد القرآن »^(٢).

وكانت العوامل السابقة في حياة الشافعي بكونه قرشياً ، ونشأ في مكة ، وحفظ القرآن وتفسيره ، ورحلته إلى البادية ، وحفظ أشعار هذيل والشنفرى مع معانيها . كانت هذه العوامل مؤهلة للشافعي بأن يصبح حجة في اللغة ، وإماماً في اللغة ، ويصبح كلامه حجة في العربية ، يُرجع إليه فيها ، ويعتمد عليه في تأصيلها وتصحيحها ، ونقل الفيروز ابادي صاحب «القاموس المحيط» عن الشافعي كلمة « التّذار » بمعنى الإنذار ، وغيرها ، ولذلك قال فيه الجاحظ قولته السابقة .

وكان أبو منصور الأزهري يعتمد على أقوال الشافعي في اللغة ، وألف كتاباً في «شرح مشكلات ألفاظ الشافعي» وشرح فيه ألفاظه الفصيحة ، وبين دلالتها ، كما ألف كثير من علماء اللغة مثل نفطويه في أسلوب الشافعي وشرح ألفاظه .

ويشهد لإمامة الشافعي في اللغة ما قاله أئمة اللغة وعلمائها في الثناء على الشافعي ، والاعتراف له في ذلك .

فمن ذلك ما قاله شيخ العربية وإمام الكوفة واللغة والنحو أبو العباس ثعلب : «العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة عن الشافعي (أي : رواية

(١) الإمام الشافعي للجندي ص ٥١ ، مناقب الشافعي للبيهقي ٤٢/٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣٦١/١ ، وانظر ، سير أعلام النبلاء ١١/١٠ .

عنه) ، وهو من بيت اللغة ، والشافعي يجب أن يؤخذ منه اللغة ، لا أن يؤخذ عليه اللغة» أي أن ألفاظه بذاتها لغة يحتاج بها .

وقال ثعلب : «الشافعي إمام في اللغة» ، وقال القاسم بن سلام : «كان الشافعي ممن يؤخذ عنه اللغة أو من أهل اللغة» وقال الربيع بن سليمان «كان الشافعي عربي النفس ، عربي اللسان» ، وقال ابن سريج : «ما رأيت أحداً أفوه ، ولا أنطق من الشافعي» وقال الإمام أحمد : «كان الشافعي من أفصح الناس ، وكان مالك يعجبه قراءته ، لأنه كان فصيحاً» ووصفه ابن أبي الجارود «بأن لسانه أكثر من كتبه» وسماه ابن راهويه : «خطيب العلماء»^(١) .

وقال أبو عثمان المازني إمام النحو واللغة والأدب في عصره : «الشافعي عندنا حجة في النحو» وقال الإمام أحمد : «كان الشافعي من أفصح الناس» .

ويمدح الزمخشري صاحب «أساس البلاغة» و«تفسير الكشاف» الإمام الشافعي مدحاً كبيراً ويثني على علو كعبه ، وطول باعه في كلام العرب ، مع كون الزمخشري حنفي المذهب في الفقه ، ومن أئمة المعتزلة في العقيدة وعلم الكلام ، ومع ذلك ينقل عن الشافعي في تفسيره ، ويرجح أقواله ، ويقول : «وكلام مثله من أعلام العلم ، وأئمة الشرع ، ورؤوس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة والسداد» ثم يقول : «وكفى بكتابنا «شافي العيي من كلام الشافعي» شاهداً بأنه كان أعلى كعباً ، وأطول باعاً في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا»^(٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٧/١٠ ، آداب الشافعي ومناقبه ص ١٣٦ - ١٣٧ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٧٢ ، الشافعي ، أبو زهرة ٣٣ ، ٣٥ ، مناقب الشافعي للبيهقي ٤٣/٢ وما بعدها ، ٤٦ وما بعدها .

(٢) الكشاف ٤٩٨/١ .

وقال ابن هشام: «الشافعي كلامه لغة يحتج بها»^(١).

وكان الحافظ الفقيه سفيان بن عيينة ، وهو محدث الحرم المكي ، ومن حكماء أصحاب الحديث ، كان يسأل الشافعي في المعاني ، ويشير على الناس أن يسألوه .

وتسم لغة الشافعي بالجزالة والفصاحة المعبرة ، والبلاغة الواضحة ، والوجازة المقصودة ، ويمتاز أسلوبه وبيانه برشاقة اللفظ ، ودقة التصوير ، مع المعاني ذات الصفاء واللمعان ، وصنف كتبه في الفقه والأصول والحديث بهذا الأسلوب الرقيق ، والمستوى الرفيع ، «ورفع مستوى التعبير الفقهي إلى أعلى مستويات البلاغة»^(٢) ، كما يمتاز أسلوب الشافعي بوضوح الغرض ، وتحديد بدلالة العبارة وبتمامها دون زيادة أو نقص ، مع البيان للقصد المباشر ، والسلامة في النحو والإعراب ، فكانت كتبه من روائع الفكر والأدب معاً .

من أقوال الشافعي المأثورة:

وللشافعي حكم في الشر ، كما له حكم وبلاغة وفصاحة وبيان في الشعر ، فمن أقواله المأثورة في التربية والوعظ والإرشاد ما يتردد على الألسنة ، ويدون في الكتب^(٣).

يقول الشافعي في العلم:

- «العلم ما نفع ، ليس ما حفظ» .

(١) آداب الشافعي ومناقبه ص ١٣٦ ، مناقب الشافعي للبيهقي ٤٢/٢ .

(٢) الإمام الشافعي للجندي ص ٥٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨٩/١٠ وما بعدها ، مناقب الشافعي للفخر الرازي ص ١٢٢ وما بعدها ، آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم الرازي ص ١٣٢ وما بعدها ، ٢٧١ وما بعدها ، الإمام الشافعي للجندي ص ٦٥ - ٦٧ ، تاريخ الإمام الشافعي ص ٣٩ .

- «من لا يحب العلم فلا خير فيه ، ولا ينبغي أن يكون بينك وبينه معرفة» .

- «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما فعليه بالعلم» .

- «العلم حر ، وطالبه عبد ، فإن خَدَمَ العلم قَبْلَه ، وإن تجبر عليه فالعلم أولى أن يتجبر عليه» .

- «لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح» .

ويقول الشافعي في الوفاء والصداقة :

- «من برك فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أطلقك» .

- «ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته» .

- «من لم تنفعك صداقته ، فلا تهتم بعداوته» .

- «لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مودته» .

«إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه ، فإياك أن تبادر بالعداوة وقطع الولاية ، فتكون ممن أزال يقينه بشك . .» .

- «إذا كان لك صديق فشد يديك ، فإن اتخذ الصديق صعب ، ومفارقته سهل» .

ونقل الأصمعي حكماً عن الشافعي أنه قال : «أصل العلم التثبيت ، وثمرته السلامة ، وأصل الورع القناعة ، وثمرته الراحة ، وأصل الصبر الحزم ، وثمرته الظفر ، وأصل العمل التوفيق ، وثمرته النجح ، وغاية كل أمر الصدق» .

وقال الشافعي رحمه الله في معاشرة الناس :

- «رضا الناس غاية لا تدرك» .

- «ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر ما فيه صلاح نفسك ، ودع الناس وماهم فيه» .

- «لا ينفعك من جار السوء التوقي» .

- «من عف أمن ، ومن شرهت نفسه طال همه . . ، وأظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوي الفضل» .

- «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد» .

وقال الشافعي في الكلام والسكوت :

- «لا تتكلم فيما لا يعينك ، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ، ولم تملكها» .

- «من كتم سره كانت الخيرة في يده» .

- «سئل عن أي الأشياء أوضع للرجال؟ قال: كثرة الكلام ، وإذاعة السر ، والثقة بكل أحد» .

وكان الشافعي رحمه الله يستملح الأماليح ، ويحض على الاستمتاع في النزهة ، فيقول: «الوقار في النزهة سخف» .

وينبه على الاعتدال ، ويقول: «الانبطاط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم مجلبة للعداوة ، فكن بين المنقبض والمنبسط» ويقول: «ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر الذي فيه صلاحك فالزمه» .

ويبين الشافعي طريق السداد ، مع الخبرة والتجربة في الحياة ،

فيقول: «الكيس العاقل هو الفطن المتغافل...» ، وليس العاقل الذي يختار بين الشر والخير فيختار ، إنما العاقل الذي يقع بين الشرين فيختار أيسرهما» .

- «آلات الرياسة خمس: صدق اللهجة ، وكتمان السر ، والوفاء بالعهد ، وابتداء النصيحة ، وأداء الأمانة» .

- «أربعة أشياء قليلها كثير: العلة ، والفقر ، والعداوة ، والنار» .

- «من نمَّ لك نمَّ بك ، ومن نقل إليك نقل عنك ، وإذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك ، وإذا أغضبه قال فيك ما ليس فيك» .

- «من لم تعزه التقوى ، فلا عزَّ له» ، «أنفع الذخائر التقوى ، وأضرها العدوان» .

- «الكرم والتقوى إذا اجتماعا في شخص فهو حر» .

- «الخير في خمسة: غنى النفس ، وكف الأذى ، وكسب الحلال ، والتقوى ، والثقة بالله»^(١) .

وأمثلة ذلك من الحكم والمواعظ ، والبيان والفصاحة ، والدقة في التعبير ، نجدها في سائر كلام الشافعي ، وفي كتبه وخطبه ، وحتى في مصنفاة في الفقه وفي أصول الفقه ، ويلمس القارئ لكتابه «الرسالة» هذه الروعة والمتعة ، والجمال والرصانة .

الشافعي الشاعر:

إن توفر الأرض الطيبة ، والبذار الجيد ، والسقاية الكافية ، والرعاية الحسنة ، والجهد المتواصل ، يبشر بإنتاج وفير ، وخصب عميم ، وثمار يانعة ، وقد توفرت في الشافعي رحمه الله الفطرة الصافية ، والمواهب

(١) سير أعلام النبلاء ٤٠/١٠ وما بعدها ٩٧/٨٨ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٦٦ .

الجمّة ، والذكاء المتقد ، والعواطف السامية ، والنشأة السليمة ،
والتربية القويمة ، والعمل الدائم ، والبحث الدؤوب في مختلف صنوف
العلم ، وخاصة في الأدب واللغة والشعر والقرآن الكريم ، فأعطت
الشافعي مكانة رفيعة في قرض الشعر ، ونظم الحكم ، والتفنن في
القول ، والابتكار في المعاني ، والبلاغة في الكلام ، والجمال في
التصوير ، والذوق في البديع ، فظهر له شعر رائق ، يحمل الحكم
والأمثال .

وبدأ الإمام الشافعي في نظم الشعر منذ حداثة سنه ، واستمر على ذلك
طوال حياته ، لكنه لم يتفرغ لقول الشعر ، لأنه انصرف إلى الفقه وعلوم
الدين ، مع الاستمرار في رواية شعر العرب الذي حفظه ، وكان يستعين
بالشعر العربي في البيان والتفسير ، والاجتهاد ومعرفة المعاني ، وتحديد
الدلالات ، والمناظرات وعلم الخلاف ، والاحتجاج والكلام والخطابة .

وكان الشافعي يرتجل الشعر أحياناً ، ويقول المعنى الذي يريده في
بيت أو بيتين ، أو قطعة يعجز غيره أن يأتي به ، وكان يلجأ إلى الشعر لأنه
أقرب منالاً للسامع ، وأسهل حفظاً ، وأخف حملاً ورواية ، وأسرع
انتقالاً وشيوعاً ، وأثبت مع مر الزمن وتعاقب الأيام .

وكان الشافعي يجيد الشعر ، ولكنه لا يريد الإكثار منه ، وعلل ذلك
بنفسه فقال :

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنّ اليوم أشعر من لييد

ويقصد من ذلك أن القرآن الكريم أزرى بالشعراء ، لأنهم يبالغون في
المدح والوصف ، والذم والكيد ، ويقولون ما لا يفعلون ، لذلك كان
لييد أكثر الشعراء شعراً بالجاهلية ، فلما أسلم أمسك عن الشعر إلا
قليلاً ، وكان الشافعي بحق أشعر من لييد .

قال ابن النديم في الفهرست: «كان الشافعي يقول الشعر»^(١).

وقال ابن رشيقي: «أما محمد بن إدريس فكان من أحسن الناس افتتاناً في الشعر».

ونقل الصولي عن علامة اللغة المبرد أنه قال: «رحم الله الشافعي ، كان من أشعر الناس ، وآدب الناس ، وأعرفهم بالقراءات والفقه» ، وقال الإمام أحمد بن حنبل: «الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة ، واختلاف الناس ، والمعاني ، والفقه»^(٢).

وكان الإمام الشافعي متميزاً بالشعر في قريش ، ومنفرداً في جودته ، وهو الذي كشف السر في ذلك ، فيقول: «لا يكاد وجود شعر القرشيين ، لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] ، ولا يكون وجود خط القرشي ، لأن النبي ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْطُ بِمِثْلِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]»^(٣).

ويشير الإمام الشافعي في ذلك إلى أن قريشاً لم تشتهر بالشعر ، وإلا كان ذلك مدخلاً لأعداء الله بالنيل من الرسالة الإلهية والرسول بأنه على سنن قومه ، ومع ذلك لم يسلم عليه الصلاة والسلام من اتهامه بالشعر ، ومع مقالة الشافعي للسابقة فقد كان الشافعي نفسه شاعراً مجيداً ، وكان أكثر الأئمة كتابة بيده وبأملائه .

أما أغراض الشعر عند الشافعي فكانت نبيلة وسامية ، لكنها محصورة ، فلم يسمح الشافعي لنفسه أن يتناول جميع أغراض الشعر ، لأنها لا تتفق مع فقهه وإمامته ، وهذا يفسر أيضاً قلة الشعر عنده ، وكان

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٩٥ ، وانظر: سير أعلام النبلاء ٧٢/١٠ وما بعدها .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨٠/١٠ ، ٨١ ، ديوان الشافعي ص ٧ ، مناقب الشافعي للبيهقي ٤١/٢ .

(٣) الإمام الشافعي ، للجندي ص ٨٢ .

يقول الشعر في مناسبات كثيرة ، منها الزهد ، والتصوف الحقيقي ،
والمواعظ والحكم والغزل والحب ، والتعازي والقيم ، والأخلاق
والإيمان ، لكنه لم يقل شيئاً في المدح ، ولا في الذم ، وكثر عند
الشافعي شعر الحكمة الذي يليق بمكانته ، ويجمل بالفقهاء والأئمة .

ويمتاز شعر الشافعي بالعمق في المعاني ، والسهولة في الألفاظ ،
والاختيار في الكلمات ، لذلك يوصف شعره بأنه سهل ممتنع ، ويعلوه
الرونق والبهجة ، والروعة والتأثير ، والعذوبة والرقّة ، وهي أهم ميزات
شعر السابقين الجياد ، كما يمتاز شعر الشافعي بالجودة والبديع ، فيكثر
من الصورة البيانية الواضحة السهلة ، وكان من وراء هذه السهولة ، مع
الارتجال في أكثر شعره ، أن تجنب الشافعي القوافي الصعبة فلم ينظم
بها .

وكان معظم شعر الشافعي مقتطفات ، ولم ينظم القصائد الطوال ، لأنه
يهدف إلى سبك المعاني الحميدة التي يقصدها في الوزن الشعري ليسهل
حفظه ونقله ، ويسرع تمثله وترداده ، والاقتباس منه ، والاستدلال به ،
وهذا الإيجاز هو من طبع الشافعي في كل ما يكتب بالنثر والشعر والفقه ،
وأصول الفقه ، والحديث والحكمة ، لذلك قال فيه يونس بن حبيب :
« كان لسانه أكبر من كتبه » .

مقتطفات من شعر الشافعي :

وللتدليل على ما قلناه في شعر الشافعي ، ولكونه يتسم بالحكمة
والأقوال المأثورة ، فإننا نورد شيئاً من مقتطفات ديوانه^(١) .

(١) مناقب الإمام الشافعي ص ١١٠ وما بعدها ، ديوان الشافعي ١٣ وما بعدها ،
رحلة الإمام الشافعي ص ٥٣ وما بعدها ، المحمدون ص ١٩٣ ، مناقب الشافعي
لليهيقي : ٦٠ / ٢ وما بعدها .

ينبه الشافعي على الإحسان عند اغتنام الفرص فيقول :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فلا تدري السكون متى يكون

ويبين الشافعي أهمية السفر والسياحة في الأرض فيقول :

سافر تجد عوضاً عن تفارقه وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إنني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب
التبر كالترب ملقى في أماكنه والعود في أرضه نوع من الحطب

وهذه صور فنية واقعية ، وأدلة حسية ، وبراهين ملموسة ، تؤكد فوائد السفر ، وتخفف من مفارقة الأهل بما يجنيه المسافر ، فالعود الطيب الرائحة من البخور يزكو بالنقل من الأرض التي ينبت فيها ، وإلا بقي حطباً ، والتبر وهو الذهب الخالص لا يتتفع به الناس إلا إذا أخرج من باطن الأرض ، والأسد لا يستطيع الحياة هامداً وقاعداً وكسولاً ، والماء الذي يحيي الأنفس يفسد بالركود ويتغير طعمه ، ويطيب بالجري والنقل ، والسهم أو الصاروخ أو الرصاصة لا تحقق الهدف إلا إذا انطلقت من مقرها .

ويحب الشافعي كثرة الأصدقاء ، ويرغب بهم ، كما سبق في نثره ، ويرى أن العداوة مرة ، وأن عدواً واحداً ينغص عيش المرء فيقول :
وليس كثيراً ألف خلّ لواحد وإن عدواً واحداً لكثير
ويحث الشافعي الناس على القيام بأمورهم الخاصة ، وألا يتكلموا على غيرهم فيقول :

ما حكّ جسمك غير ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك
وإذا قصدت حاجة فاقصد لمعترف بفضلك

ويكشف الشافعي أن العلم بحر عميق ، لا يدركه الإنسان ، لكن عليه

أن يختار الأحسن ما أمكنه ، فيقول :

لن يبلغ العلم جميعاً أحد لا ولو حاوله ألف سنه
إنما العلم عميق بحره فخذوا من كل شيء أحسنه
ويبين الشافعي شروط تناول العلم ، فيقول :

أخي لن تنال العلم إلا بسة سأتيك عنها مخبراً ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان
وينصح الشافعي بالذل في التعلم ، وعدم التكبر والاستعلاء في طلبه
فيقول :

تصبر على مر الجفا من معلم فمن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعاً لوفاته
حياة الفتى - والله - بالعلم والتقوى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وينبه الشافعي إلى أهمية التقوى لطلب العلم وتوفيق الله فيه ، فيقول :
شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي
وفي رواية أخرى :

وأعلمني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي
ويصرح الإمام الشافعي بكشف طبائع الناس ، مع تقديم الموعظة
لهم ، فيقول :

نعيب زماننا ، والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهجوا ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذنب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا
ومن كلام الشافعي في الغزل :

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر ما كان كحلك بالمنعوت للبصر

لو أن عيني إليك الدَّهر ناظرة جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر
إن الرسول الذي يأتي بلا عدة مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر
وقال الشافعي في التعازي مع الحِكم :

إني معزيك ، لا أني على ثقة من الخلود ، ولكن سنة الدين
فلا المُعزَّى بباق بعد ميتة ولا المعزِّي ، وإن عاشا إلى حين
وبعد : فإن ديوان الشافعي لم يجمع قديماً ، وإنما بقي بعضه مبعوثاً
في بطون كتبه ، وبعضه قد انتشر في كتب التفسير والفقه والتصوف
والأدب والتاريخ والحكم والأمثال ، إلى أن جمع معظمه الأستاذ الكبير
زهدي يكن قاضي بيروت ، ثم جمع أكثره ، الأستاذ عبد العزيز سيد
الأهل .

رحم الله الشافعي ، فإن علمه وأدبه يملآن طباق الأرض ، وكأن
الحديث الشريف «اللهم اهد قريشاً ، فإنَّ عالمها يملأُ طباق الأرض
علماً»^(١) ينطبق عليه .

وأختم هذا البحث الموجز ببعض شعر الحكم للإمام الشافعي ،
فيقول في القناعة والسؤال :

العبد حر إن قَنَعَ والحر عبد إن مَنَعَ
ومعناه أن العبد حر إن قَنَعَ بمعنى رضي ، من باب رضي يرضى وزناً
ومعنى ، وهو القناعة والرضا ، والحر عبد إن قَنَعَ أي سأل ، من بات قنع
يقنع ، أي يسأل يسأل ، وزناً ومعنى ، أي طمع وبطر وسأل .

ويقول الشافعي أيضاً عن الطمع والقناعة ، ويصور تنازع العواطف

(١) رواه الطيالسي والبيهقي في المدخل والترمذي والإمام أحمد (كشف الخفا
٦٩/٢) ، وانظر التخریج الكامل للحديث في : سير أعلام النبلاء ٨٢/١٠
هامش ، مسألة الاحتجاج بالشافعي ص ٣٩٢ هامش من مجلة البحوث
الإسلامية ، مناقب الشافعي للبيهقي ٢٦/١ هامش ٦ .

عند الإنسان ، ليختار العاقل الأفضل :

أمتُّ مطامعي فأرحتُ نفسي فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع ، وكان ميتاً ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد علته مهاتته ، وعلاه هون
ويقول الشافعي في الزهد والتقوى ، واصفاً عباد الله تعالى الصالحين
بقوله :

إن الله عبّاداً فُطُنَّا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطْنَا
جَعَلُوهَا لَجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا
رحم الله الإمام الشافعي ، وأغدق عليه شآبيب رحمته ، وجزاه الله عنا
خيراً ، ووقفنا لصالح الأعمال ، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون
أحسنه ، والله ولي التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله رب
العالمين .



أهم مراجع البحث

- ١ - آداب الشافعي ومناقبه ، لأبي حاتم الرازي ، تحقيق الشيخ عبد الغني عبد الخالق - تصوير دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢ - أصول الفقه الإسلامي ، للدكتور محمد الزحيلي - مطابع مؤسسة الوحدة ، دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٣ - الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء ، لابن عبد البر القرطبي - مكتبة القدسي - مصر .
- ٤ - تاريخ الإمام الشافعي بقلمه ، ورواية ابن المنذر عن الربيع ، ويليها تاريخ الشافعي للسيد حسين محمد الرفاعي - مطبعة الحرية - مصر .
- ٥ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي - تصوير مطبعة الخانجي - ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م .
- ٦ - تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ، تصوير إحياء التراث العربي - بيروت - دون تاريخ .
- ٧ - تهذيب الأسماء واللغات للنووي - تصوير دار الكتب العلمية - بيروت - دون تاريخ .
- ٨ - حسن المحاضرة للحافظ السيوطي - طبع عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٩ - حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهاني - مطبعة السعادة - مصر ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .

- ١٠ - الخلاصة ، للخزرجي - مطبعة الفجالة الجديدة - مصر ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.
- ١١ - ديوان الإمام الشافعي ، جمعه الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل - نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.
- ١٢ - رحلة الإمام الشافعي إلى مصر ، محاضرة مصطفى منير أدهم - مطبعة أمين عبد الرحمن ، مصر ١٩٣٠ م.
- ١٣ - سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبي مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- ١٤ - الشافعي ، للشيخ محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، مصر ، بدون تاريخ.
- ١٥ - الإمام الشافعي ، عبد الحليم الجندي ، دار القلم - القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٦ - غاية النهاية في طبقات القراء ، للجزري - تصوير مكتبة الخانجي بمصر ١٣٥٢ / ١٩٣٣ .
- ١٧ - الفهرست ، لابن النديم ، تصوير دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ.
- ١٨ - المحمدون من الشعراء وأشعارهم ، للقفطي ، تحقيق رياض مراد ، نشر مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- ١٩ - مناقب الشافعي للبيهقي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.
- ٢٠ - مناقب الشافعي لفخر الدين الرازي - المكتبة العلامة - مصر ١٢٧٩ هـ .
- ٢١ - مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه ، للخطيب البغدادي ، تحقيق الدكتور خليل ملا خاطر ، منشورة في مجلة البحوث

الإسلامية - المجلد الأول - العدد الثاني - الرياض ١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ.
٢٢ - وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، مطبعة السعادة - مصر
١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.

* * *

الطبري فقيهاً ومجتهداً وإماماً

في مقومات التفكير عند الطبري

الطبري موسوعة علمية :

أقبل الإمام الطبري على طلب العلم ، وبذل فيه جميع أوقاته ، ووهب له حياته ، وتفرغ في جمعه ، وعكف على التصنيف والتأليف ، وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

لذلك كان الطبري رحمه الله تعالى إماماً في السنة وعلوم الحديث ، وعدّه النووي ، رحمه الله تعالى ، من طبقة الترمذي والنسائي ، وأنه سمع الحديث من كثيرين ، بعضهم من شيوخ البخاري ومسلم ، وحدث عنه خلائق من الناس^(١) ، وصنف في ذلك الكتب النافعة المفيدة .

وكان الطبري إماماً في القراءات وعلوم القرآن ، نقل عن أبي بكر بن مجاهد إمام الناس في القراءات أنه استمع ليلة لقراءة محمد بن جرير ، فقال : « ما ظننت أن الله تعالى خلق بشراً يحسن أن يقرأ هذه القراءة »^(٢) ، وصنف تفسير القرآن الكريم « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » الذي ضمّ فيه علوم القرآن المختلفة حتى اعتبر إمام المفسرين أو شيخ المفسرين ،

(١) تهذيب الأسماء ٧٨/١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٤/٣ ، تهذيب الأسماء ٧٩/١ ، تاريخ بغداد ١٦٤/٢ .

وقال فيه الشيخ أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين ليحصل على تفسير ابن جرير الطبري لم يكن هذا كثيراً»^(١).

وكان الطبري إماماً في الفقه ، وعلم الخلاف ، والفقه المقارن ، واختلاف العلماء ، ومن الأئمة المجتهدين ، وصاحب مذهب مستقل ، وتبعه بعض الناس على مذهبه ، كما سنفصل ذلك ، إن شاء الله تعالى .

ويعتبر الطبري رحمه الله إماماً في التاريخ ، وهو شيخ المؤرخين ، وصنف كتابه العظيم ، «تاريخ الأمم والملوك» وكتاب «تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين إلى شيوخته» وغيرهما ، وهذا الجانب سيفرد في محور مستقل .

وكان الطبري حافظاً لكتاب الله تعالى ، مبرزاً في المعاني وعلوم العربية ، عالماً بالفلسفة والمنطق والجدل ، وكان عنده شيء من علم الطب والجبر وعلوم الرياضيات ، وكان فصيح اللسان وله نظم وشعر .

وباختصار فإن كتبه تدل على غزارة علمه ، وسعة ثقافته ، ودقته في التصنيف والتأليف ، وإحاطته بالعلوم ، وتأثيره على الفكر الإسلامي ، والتراث الحضاري ، وأنه كان موسوعة علمية ، يغترف منها العلماء في مختلف العلوم والفنون ، روي عنه أنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة ، فصنف التصانيف الكبار^(٢).

الطبري دائرة معارف:

وكان الطبري رحمه الله تعالى دائرة معارف ، ويشهد له بذلك ما وصفه به الأئمة والعلماء والمؤرخون ، ويكفي أن نقتبس بعض أقوالهم:

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٢ ، البداية والنهاية ١١/١٤٦ ، تهذيب الأسماء ١/٧٩ .

(٢) البداية والنهاية ١١/١٤٥ ، إنباء الرواة ٣/٨٩ .

قال الخطيب البغدادي: «وكان أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه ، لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله تعالى ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم ، وله كتاب التاريخ المشهور في تاريخ الأمم والملوك ، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله ، وكتاب سماه «تهذيب الآثار» لم أر سواه في معناه ، لكنه لم يتمه^(١) ، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ، وله اختيار من أقاويل الفقهاء ، وقد تفرد بمسائل حفظت عنه»^(٢).

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: «ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير»^(٣).

وقال ابن خلكان: «كان إماماً في فنون كثيرة ، وله مصنفات مليحة في

(١) قال ابن السبكي عن كتاب «تهذيب الآثار»: وهو من عجائب كتبه ، ابتدأ بما رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، كما صح عنده بسنده ، وتكلم على كل حديث منه بعلة وطرقه ، وما فيه من الفقه والسنن ، واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعاني والغريب ، فتمّ منه مسند العشرة ، وأهل البيت ، والموالي ، ومن مسند ابن عباس قطعة كثيرة ، ومات قبل تمامه «طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣ وقال الحافظ الذهبي عنه أيضاً: «لو تمّ لكان يجيء في مئة مجلد» (سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٤) وقال ابن كثير عن كتب الطبري: «ومن أحسن ذلك «تهذيب الآثار» ولو كمل لما احتجج معه إلى شيء ، ولكان فيه الكفاية ، لكنه لم يتمه» (البداية والنهاية ١١/١٤٥).

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٢.

(٣) تهذيب الأسماء ١/٧٩ ، البداية والنهاية ١١/١٤٩.

فنون عديدة ، تدل على سعة علمه ، وغزارة فضله ، وكان من الأئمة المجتهدين»^(١).

وقال أبو العباس ابن سريج : «محمد بن جرير الطبري فقيه العالم»^(٢).

وقال الحافظ الذهبي : «الإمام العلم الفرد ، الحافظ أبو جعفر الطبري ، أحد الأعلام ، وصاحب التصانيف» وقال أيضاً : «كان ثقة ، صادقاً ، حافظاً ، رأساً في التفسير ، إماماً في الفقه ، والإجماع والاختلاف ، علامة في التاريخ وأيام الناس ، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك»^(٣).

ومن هذا يظهر لنا ما يتمتع به الإمام الطبري من الملكة العقلية ، والتفوق العلمي الذي وصل إليه ، والنبوغ الفكري الذي اعتمد عليه ، مما كان حافزاً لوالده أن يرعاه ، ويأمل فيه الخير الكثير ، ويبدل له المال الواسع ، ويسر له النفقات في سبيل طلب العلم ، والتفرغ له ، والاستزادة منه ، والرحلة إلى منابعه ومصادره ، وتوفير كل طاقاته للسهر على تحصيله ، دون أن يحتاج للتكسب أو العمل ، فجنى الخير العميم في العلوم المختلفة حتى أصبح دائرة معارف ، ينهل منها طلابه وتلاميذه ، ودونها في كتبه ومصنفاته لتستفيد منه الأجيال اللاحقة ، وتدخر على مر التاريخ ، وتصبح مرجعاً للعلماء ، ومصدراً للباحثين ، وموثلاً لرواد المعرفة ، وحجة لطلاب الحق.

صفات الطبري وشمائله :

وكان الطبري ، رحمه الله تعالى ، فوق علمه الغزير ، كثير الفضل ،

(١) وفیات الأعيان ٥٤٢/٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٣/٣ ، وقال طاش كبري زاده : «أحد أئمة الدنيا علماً وديناً» (مفتاح السعادة ٣١٥/٢).

(٣) تذكرة الحفاظ ٧١٠/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٤.

شديد الورع ، ذا شخصية قوية ، وجرأة على الحق ، فلا تأخذه في الله لومة لائم ، مهما لحقه من الأذى ، أو التشنيع من الجاهلين أو الحاسدين أو المغرضين ، وكان أهل العلم والدين معترفين له بذلك ، ولا ينكرون علمه وفضله وشمائله .

وكان الطبري شديد الزهد في الدنيا ، لا يلتفت إليها ، ولا يقبل العطايا والهبات والتبرعات ، وكان قانعاً بما يرد عليه من تركة والده التي خلفها له والده بطبرستان ، وعرض عليه القضاء فامتنع وأبى^(١) .

قال ابن كثير : «وكان أسمر ، أعين ، مليح الوجه ، مديد القامة ، فصيح اللسان ، روى الكثير عن الجرم الغفير ، ورحل إلى الآفاق في طلب الحديث ، وصنف التاريخ الحافل ، وله التفسير الكامل ، الذي لا يوجد له نظير ، وغيرهما من المصنفات النافعة في الأصول والفروع»^(٢) .

ونكتفي بهذه النبذة المختصرة عن مقومات التفكير عن الطبري ، والصورة المصغرة عن حياته ، لنخصص البحث عن الجانب الفقهي للإمام الطبري ، ابتداء من طلبه للفقهِ إلى بلوغه درجة الاجتهاد ، وتبوءه منصب الإمامة في المذهب الخاص به ، وعطاءه المبارك في المصنفات الفقهية .

الطبري يطلب الفقه

تعريف الفقه وأهميته :

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، أي هو معرفة الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي ،

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٥ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، تذكرة الحفاظ ٧١٢/ ٢ .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٤٥ .

وتقتضي من المكلف البالغ العاقل القيام بعمل وسلوك وتصرف في الحياة ، كوجوب الصلاة وأدائها ، أو الامتناع عن فعل كتحريم القتل ، أو التخيير بين فعله وتركه ، لإباحة الأكل وتناول الشرب ، على أن تكون هذه المعرفة مستتبطة ومستمدة بالنظر والاجتهاد والبحث من نصوص القرآن والسنة وبقية المصادر الشرعية ، ويكون الفقيه مجتهداً في هذه الحالة ، أما المقلد لغيره ، أو الحافظ لأحكام الفقه فلا يسمى فقيهاً في الأصل ، ثم أصبح الفقه أخيراً بمعنى إدراك أحكام الحوادث نصاً واستنباطاً ، ودراسة وحفظاً على مذهب من المذاهب ، والفقيه هو الذي يعرف الأحكام الشرعية من مذهب معين ، ويحفظها ليعلمها للناس .

فالفقه هو الطريق لمعرفة الحلال والحرام ، وإدراك أحكام الله تعالى التي أنزلها في شرعه ، للالتزام بها ، والتقيّد بحدودها ، لأنها ترسم المنهج القويم للإنسان في جميع مجالات الحياة .

والفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية ، ومن أكثر العلوم شهرة واتساعاً ، وصلة بجميع الناس ، وتطبيقاً عملياً في الواقع ، ولذلك يتوجب على كل مسلم معرفته ، فيتجه إليه طلاب العلم ، ويقصدونه منذ نعومة أظفارهم إلى آخر حياتهم ، ويأتي تحصيله في المرتبة الثانية بعد قراءة القرآن الكريم وتلاوته وحفظه .

وظهر الفقه منذ عصر النبوة والوحي ، ثم أخذ الصحابة بعنانه ، ومارسوا الاجتهاد والاستنباط بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وتجمعت لكبار الصحابة آراء وأقوال وآثار حتى صارت أشبه بالمذهب أو المدرسة ، وانتقلت هذه الصورة إلى التابعين ، فأضاف فقهاؤهم الاجتهادات الجديدة ، وظهر منهم فقهاء أعلام ، ومجتهدون بارزون من منتصف القرن الهجري الأول حتى مطلع القرن الهجري الثاني ، واشتهر فقهاء

المدينة السبعة ، وفقهاء الأمصار في المدينة ومكة ، والبصرة والكوفة ،
ومصر والشام ، واليمن وغيرها .

وفي القرن الثاني الهجري ظهر أئمة المذاهب المتعددة الذين حددوا
لأنفسهم مناهج واضحة ، وقاموا بأعمال مجيدة ، والتفت حولهم التلاميذ
والطلاب ، ورجع إليهم الناس والحكام ، فقلدوا مذاهبهم ، وجمعوا
أقوالهم ، ودوّنوا آراءهم التي صارت قائمة ومستقلة عن غيرها ، وكثر
المجتهدون في هذا القرن ، وتعددت المذاهب ، وقام أصحاب كل
مجتهد بإضافة الآراء الجديدة للحوادث فيه ، كما قاموا بتنقيح الأقوال
السابقة ، ودعمها بالأدلة والحجج ، ورسم المنهج والقواعد والأصول
له .

وكان القرن الثالث الهجري الذي ولد فيه الإمام الطبري ، ونشأ في
ظلاله ، عصر الشباب والحيوية والنشاط للمذاهب الفقهية التي انتشرت
في أرجاء العالم الإسلامي ، وكان أتباع كل مذهب يسعون لنشره ،
وتقوية أركانه ، مع تدريسه والتأليف فيه ، وتصنيف الكتب لجمع
فروعه ، وربطها بالأصول والأدلة .

ولما ولد الإمام الطبري بآمل طبرستان ، ونشأ بها . حفظ القرآن
الكريم ، وعمره سبع سنين ، ثم اتجه إلى أخذ العلوم الأولية في بلده ،
ومنها الفقه لمعرفة الأحكام الشرعية ، واستمر على تحصيل العلوم والفقه
على علماء بلده حتى ملأ جعبته ، وجمع الكثير الكثير منه ، مع ما يتمتع به
من قوة الذهن ، وصفاء القلب ، وقوة الحافظة والذكاء المتقدم ، والرغبة
في المعرفة ، والحرص على التعلم ، والانكباب على الدراسة ، والتفرغ
لذلك ، دون أن يشغله شاغل .

الرحلة في طلب العلم والفقه :

ولما بلغ الطبري رحمه الله تعالى العشرين من عمره خرج من بلده ،

ورحل في طلب العلم لتحصيله من علماء الأمصار المختلفة ، وأخذه من أفواه الأئمة مباشرة ، فاتجه إلى الري ، والتقى بعلمائها ، وأخذ عنهم الحديث والتفسير والفقه ، ثم رحل إلى العراق ، ويمم وجهه إلى بغداد للالتقاء بالإمام أحمد بن حنبل ، ولكن المنية عاجلت الإمام أحمد ، ثم اتجه صوب البصرة فسمع من علمائها ، وانتقل إلى واسط ، وسمع من شيوخها ، ثم ذهب إلى الكوفة وأخذ منها الحديث والقراءات ، ثم اتجه ثانية إلى الكوفة وتلقى فيها التوسع بفقهاء الإمام الشافعي على يد الحسن بن محمد الصباح الزعفراني (٢٦٠هـ) وغيره ، والتفت إلى الشام ، ثم مصر فوصل إليها سنة ٢٥٣هـ ، وظهرت شهرته العلمية ، والتقى الشيخ أبا محمد الربيع بن سليمان الجيزي الأزدي (ت ٢٥٦هـ) وأخذ عنه فقه الشافعية ، وذكر ابن السبكي في «الطبقات الوسطى» أن الطبري أخذ الفقه الشافعي أيضاً في مصر عن الربيع بن سليمان المرادي (٢٧٠هـ) ، كما أخذ الطبري في مصر فقه الإمام مالك على تلاميذ أبي محمد عبد الله بن وهب (١٩٦هـ).

ثم عاد الإمام الطبري إلى بغداد ، ومكث فيها مدة إلى أن حنَّ إلى وطنه مسقط رأسه بآمل ، فآب إليها ، لكن النهم العلمي والحرص على كسبه والزيادة فيه حمله مرة ثانية إلى السفر ، فاتجه إلى طبرستان سنة (٢٩٠هـ) ، ومكث فيها ملياً ، ثم سافر إلى بغداد ، وحل فيها رحله ، وألقى عصا الترحال ، وأقام بها حتى وافته المنية سنة (٣١٠هـ) ، قال ابن السبكي : «طَوَّفَ البلاد في طلب العلم»^(١).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠ ، ١٢١ هامش ، وانظر: طبقات الفقهاء ص ٩٨ ، ١٠٠ ، تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠ ، ٧١٣ ، طبقات القراء ٢/١٠٧ ، إنباء الرواة ٣/٨٩ ، معجم الأدباء ١٨/٥٣ ، تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ١١٣ وما بعدها.

وكان الإمام الطبري في هذه الرحلة يلتقي بالعلماء والفقهاء ، فيأخذ منهم ، ويتفقه على أيديهم ، ويجمع مذاهب الفقهاء والأئمة ، ويحصي الأدلة ، ويطلع على وجوه الاستنباط والاستدلال ، ولما نضح عقله وظهرت مواهبه في البلاد التي حل فيها التفّ حوله الطلاب والعلماء ، فأخذ منهم ، وأخذوا منه ، وتبادل معهم المعلومات ، وسمع الحديث ، وقرأ روايات ، وجمع القراءات ، واطلع على اختلاف الفقهاء ، حتى صار من أشهر الفقهاء ، وأجل العلماء ، وأبرزهم .

ويظهر أثر الفقه والتفقه على الإمام الطبري في الفصول التالية التي سنعرض فيها وصوله إلى درجة الاجتهاد المطلق ، ثم استقلاله بمذهب فقهي خاص ، وفي كتبه الفقهية الخاصة بمذهبه ، وكتبه الفقهية على المذهب الشافعي ، وكتبه في علم الخلاف واختلاف الفقهاء والفقه المقارن ، وعلى تلاميذه وطلابه الذين أخذوا الفقه على يديه ، والتفوا حوله ، ثم اعتنقوا مذهبه ، وقاموا على نقله ونشره والعمل فيه حتى انقرض .

كما يظهر الفقه والتفقه على الإمام الطبري في كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم ، الذي وصل إلينا كاملاً ، والحمد لله ، وطبع عدة مرات ، فقد بيّن الإمام الطبري رحمه الله تعالى آيات الأحكام ، وفسرها بإسهاب وتوسع ، وبيّن فيها مذاهب الأئمة والفقهاء ، وأقوال الصحابة والتابعين ، ومنهج استنباط كل منهم واستدلاله في الآية ، ثم أدلى بدلوه ورجح أحدها بالدليل والحجة والبرهان ، أو عرض رأياً مستقلاً مع الدليل ووجه الاستدلال .

شيوخ الطبري في الفقه :

أخذ الإمام الطبري الفقه عن علماء بلده أولاً ، ثم على العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في رحلته المباركة ، وكان الفقهاء ينتشرون في

كل صقع ، وكان الفقه في أزهى عصوره في القرن الثالث الهجري ، ولذلك فإن شيوخ الطبري في الفقه لا يحصون ، ولا يحصرهم العدد ، ولم يحصر الإمام الطبري همته وعقله وفكره في مذهب معين ، أو فقيه خاص ، أو اتجاه مذهبي وفقهي دون غيره ، بل درس الفقه على جميع المذاهب ، وجمع أقوال الصحابة والتابعين ، وتعرف على أقوال جميع الأئمة الذين انقرضت مذاهبهم ، وبين هذه الأقوال والاجتهادات في تفسيره وكتبه الفقهية ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أشهر شيوخ الطبري في الفقه على مختلف المذاهب .

١ - قرأ الفقه على داود بن سليمان الظاهري ٢٧٠هـ وهو صاحب المذهب الظاهري في الفقه ، وصنف كتاباً في الرد عليه ، كما سنرى .

٢ - أخذ الفقه الشافعي عن الربيع بن سليمان الأزدي ٢٥٦هـ والربيع ابن سليمان المرادي ٢٧٠هـ بمصر ، وعن الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ٢٦٠هـ وأبي سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري ٣٢٨هـ ببغداد .

٣ - أخذ الفقه الحنفي وفقه أهل الرأي عن أبي مقاتل بالري ، وعن فقهاء الحنفية ببغداد .

٤ - أخذ فقه الإمام مالك عن يونس بن عبد الأعلى وبني عبد الحكم محمد وعبد الرحمن وسعد وابن أخي ابن وهب وغيرهم بمصر^(١) .

الطبري إماماً في الفقه المقارن:

ويظهر مما سبق أن الطبري ، رحمه الله تعالى ، كان إماماً في علم الخلاف أو الفقه المقارن بين المذاهب ، وأن كتابه «اختلاف الفقهاء» ،

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٢٦ ، تهذيب الأسماء ٧٩/١ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣ ، ٢٣٠ ، الطبري المصلح ص ٢٣ .

أكبر دليل على ذلك ، ومما يشهد له أيضاً ما ذكره علماء التراجم والتاريخ أن المكتفي الخليفة قال للحسن بن العباس : أريد أن أوقف وقفاً ، تجتمع أقاويل العلماء على صحته ، ويسلم من الخلاف ، قال : فأحضر ابن جرير ، فأملى عليهم كتاباً لذلك ، فأخرجت له جائزة سنية ، فأبى أن يقبلها ، فتقدّم بذلك ، وعظم في نفوسهم^(١) .

الطبري فقيهاً شافعيّاً :

الفقه الشافعي نسبة إلى مؤسس المذهب الشافعي الإمام محمد بن إدريس القرشي المطلبي ٢٠٤هـ الذي نشأ في مكة ، وأخذ الفقه وعلوم القرآن على علمائها ، ثم ارتحل إلى المدينة فتفقه بالإمام مالك بن أنس ، رحمه الله تعالى وسمع منه «الموطأ» وأخذ الحديث وعلومه عن علماء المدينة ، ثم رحل إلى العراق وأخذ فقه الرأي عن الإمام محمد بن الحسن ، وناظر العلماء ، وظهر تفوقه ، وبرزت عبقريته ومنهجه الأصولي ، ومعرفته بالحديث والجدل والمنطق ، وصنف أول كتاب في أصول الفقه «الرسالة» ، ثم أملى كتابه الفقهي «الأم» الذي يمثل آخر آرائه واجتهاداته ، ويحدد مذهبه الجديد المعتمد .

وانتشر المذهب الشافعي في الحجاز والعراق والشام ومصر وبلاد فارس وغيرها ، وظهر في القرن الثالث الهجري عدد كبير من أصحاب الإمام الشافعي الذين قاموا بنشر المذهب في مختلف البلاد ، منهم أبو ثور الكلبي البغدادي ٢٤٠هـ وإسحاق بن راهويه ٢٣٨هـ والمزني ٢٦٤هـ والزعفراني ٢٦٠هـ شيخ الطبري في الفقه ، والربيع بن سليمان الجيزي ٢٥٦هـ والربيع بن سليمان المرادي ٢٧٠هـ ومحمد بن إدريس بن المنذر ، أبو حاتم الرازي ٢٧٧هـ ومحمد بن نصر المروزي ٢٩٤هـ

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠ ، البداية والنهاية ١٤٩/١١ .

صاحب الطبري في رحلته وطلبه للعلم ، وسليمان بن الأشعث ، أبو داود السجستاني ٢٧٥هـ وعثمان بن سعيد ، أبو سعيد الدارمي ٢٨٠هـ وعاش بعضهم إلى القرن الرابع الهجري كالطبري ٣١٠هـ وأبي سعيد الإصطخري ٣٢٨هـ وابن سريج ٣٠٦هـ وأبي حامد المروزي ٣٦٢هـ وأبي العباس بن القاص ٣٣٥هـ وأبي بكر بن المنذر ٣١٠هـ وغيرهم .

ويتسم الفقه في القرن الثاني الهجري بالقوة والنشاط ، والاعتماد على الاجتهاد المستقل وحرية الرأي لكل عالم أو فقيه ، بينما برز الفقه في القرن الرابع الهجري في المذاهب الفقهية ، وتقيد معظم الفقهاء والعلماء بمذهب معين ، والتزموا بأصوله ومعظم فروعه ، ويندر أن يخرجوا عنه ، وإن بلغ كثير منهم إلى درجة الاجتهاد في داخل المذهب ، دون الاستقلال عنه ، وعاش الطبري معظم حياته في القرن الثالث الهجري ، واستكمل عمره في العقد الأول من القرن الرابع ، فظهرت فيه صفات الفقه وميزاته للقرنين الثاني والرابع^(١) .

فقد فتح الطبري عينيه على دراسة الفقه على المذهب الشافعي ، وترعرع في بلده على دراسته على علماء بلده ، ونما تعمقه بدراسة المذهب الشافعي أثناء رحلته العلمية ، والتقاءه بعلماء المذهب الشافعي وفقهائه في العراق والشام ومصر ، مع أنه درس الفقه على المذهب الظاهري ، والمذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، لكنه توسع في التفقه على المذهب الشافعي ، والتزم الإفتاء به مدة طويلة ، وتقيد بأقواله وآراء الأصحاب فيه .

ولما ارتقى الطبري في العلم والفقه ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ، بقي اجتهاده محصوراً في الفقه الشافعي ، ومعتمداً على الأصول المقررة في

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، البربري والسبكي والسايس ص ١٩٩ ، ٢٩٠ ، تاريخ التشريع الإسلامي، الشهاوي ص ١٢٩ ، ١٩١ ، الطبري، الحوفي ص ٢٣٣ .

المذهب ، واعتبر من الأصحاب في المذهب الذين تعتبر أقوالهم وآراؤهم وجهاً في المذهب ، وهذا باتفاق المؤرخين والمترجمين وأصحاب الطبقات .

ثم تقدم الطبري درجة أخرى ، ووصل إلى مرتبة الاجتهاد المطلق ، واعتمد قواعد مستقلة ، وأصولاً معينة في اجتهاده ، وصار صاحب مذهب مستقل ، كما سنرى في الفصل التالي .

ولكن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين الأخيرتين لم تكن واضحة ومتميزة ، ولم تحدد بزمن معين ، ولذلك حصل الاختلاف بين العلماء في المرحلة الأخيرة ، أما المرحلة قبل الأخيرة فهي ثابتة ومتفق عليها وهي أن الطبري كان فقيهاً شافعيًا ، وكان أحد الأصحاب في المذهب الشافعي ، وأفتى بأراء المذهب ، وعلمه إلى غيره .

وهذا ما صرح به الإمام الطبري نفسه ، فقال : «أظهرت فقه الشافعي ، وأفتيت به ببغداد عشر سنين ، وتلقنه مني ابن بشار الأحول ، أستاذ أبي العباس بن سريج»^(١) .

ونقل أصحاب التواريخ عن أبي محمد الفرغاني قال : «حدثني هارون ابن عبد العزيز (وهو من أهم رواة كتب الطبري) قال : قال لي أبو جعفر الطبري : أظهرت فقه الشافعي ، وأفتيت به ببغداد عشر سنين ، وتلقنه مني ابن بشار الحول أستاذ ابن سريج» قال الفرغاني : «فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبخه إلى ما اختاره في كل صنف من العلوم»^(٢) .

وجاء الشيخ أبو عاصم العبادي ، وهو من كبار فقهاء الشافعية ، وممن صنف في طبقات فقهاء الشافعية ، فذكر الطبري في فقهاء

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥ .

(٢) اختلاف الفقهاء ص ١٦ .

الشافعية ، وقال : « هو من أفراد علمائنا »^(١).

وهذا ما أكده ابن السبكي فقال : « فإن ابن جرير معدود من أصحابنا ، لا يمتري أحد بذلك »^(٢).

الطبري مجتهداً مطلقاً :

والواقع أن الإمام الطبري لم يتوقف في طلب العلم وتحصيله ، والتوسع فيه ، والتبحر في الفقه ، فارتقى في درجات الاجتهاد ، ووصل إلى الاجتهاد المطلق ، وهذا ما صرح به أبو محمد الفرغاني بقوله السابق : « فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبحثه إلى ما اختاره ».

وهذا ما فهمه أيضاً ابن السبكي من إشارة ابن الرفعة ، وتعليقه عليه ، فقال : « وإنما قصد ابن الرفعة بهذا الكلام الإشارة إلى أنه ، وإن كان مجتهداً مطلقاً ، معدود من أصحابنا ، فليلتحق قوله بهذا بالمذهب ، ويعدّ وجهاً فيه »^(٣).

وخلاصة القول - فيما أرى - أن الطبري وصل إلى درجة الاجتهاد ، وتوفرت فيه شروط الاجتهاد المطلق ، وأن هذا محل اتفاق العلماء ، ولذلك أجمعت كتب التراجم والطبقات على وصفه بالاجتهاد ، فقال الإمام الحافظ الذهبي عنه : « الإمام العلم ، المجتهد ، عالم العصر ، ابن جرير الطبري ، صاحب التصانيف البديعة » ثم قال : « وكان من كبار أئمة الاجتهاد »^(٤).

وهنا يرد السؤال المهم والدقيق ، وهو : هل بقي الطبري على المذهب الشافعي ، ويعتبر أحد أتباعه ، وصاحب رأي ووجه فيه ، بعد أن بلغ

(١) تهذيب الأسماء ١/ ٧٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ ، ٢٦٩.

درجة الاجتهاد المطلق؟ أم أصبح صاحب مذهب مستقل؟ هذا ما سنعرضه في الفصل القادم.

المذهب الجريري في الفقه:

اتجه كثير من علماء تاريخ التشريع الإسلامي ، والمؤرخين ، ومصنفي كتب التراجم إلى أن الإمام أبا جعفر الطبري بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق ، وأنه استقل عن المذهب الشافعي ، وأنه صار صاحب مذهب خاص ، يعرف باسم «المذهب الجريري في الفقه» .

يقول ابن خلكان: «وكان من الأئمة المجتهدين ، لم يقلد أحداً ، وكان أبو الفرج المعافى على مذهبه»^(١).

وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتابه «طبقات الفقهاء» ابن جريري الطبري في جملة المجتهدين المستقلين ، ولم يعده من طبقات أصحاب المذهب الشافعي^(٢).

وبيّن ذلك أحد أتباع الطبري ، وهو الفرغاني ، فقال: «ولما اتسع علمه أداه اجتهاده وبحته إلى ما اختاره في كل صنف من العلوم في كتبه ، إذ كان لم يسعه فيما بينه وبين الله جل وعز إلا الدينونة بما أداه إليه اجتهاده فيما لم ينص عليه من يجب التسليم لأمره ، فلم يأل نفسه والمسلمين نصحاً وبياناً فيما صنفه» .

ثم أكد الفرغاني ذلك فقال: «وتمّ أيضاً «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام» وهو مذهبه الذي اختاره وجوّده واحتج له»^(٣).

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٢ .

(٢) طبقات الفقهاء ص ٩٣ .

(٣) اختلاف الفقهاء ص ١٦ ، ١٧ .

وقال الحافظ الذهبي: «وتفرد بمسائل حفظت عنه»^(١).

وقال ابن النديم في «الفهرست»: «وله مذهب في الفقه ، اختاره لنفسه ، وله في ذلك عدة كتب»^(٢).

وقال القفطي عن الطبري: «وله مقالة في الفقه عملت بها العلماء»^(٣).

ويتبين من هذا أن الطبري ، رحمه الله ، صار صاحب مذهب مستقل ، وصار له أتباع على مذهبه ، وتلمذ عليه كثيرون ، وعملوا على نشره والعمل به ، إلى أن ضعف أتباعه وتلاميذه ، وانقرض مذهبه في القرن الخامس الهجري .

يقول ابن فرحون المالكي: «وأما أصحاب الطبري وأبي ثور فلم يكثرُوا ، ولا طالت مدتهم ، وانقطع أتباع أبي ثور بعد ثلاثمئة ، وأتباع الطبري بعد أربعمئة»^(٤).

وذهب فريق من العلماء إلى أن الطبري لم يستقل عن المذهب الشافعي ، ولم يؤسس مذهباً خاصاً ، مع الاعتراف له بالاجتهاد المطلق ، وأنه بقي من أصحاب الإمام الشافعي ، وأن أقواله وآراءه التي تتفق مع أصول المذهب وفروعه تعدُّ من المذهب الشافعي ، فإن خالفت أصول الإمام وفروعه اعتبرت خارجة عن المذهب ، ولا تعدُّ منه .

وهذا ما يؤكدُه ابن السبكي - رحمه الله تعالى - عندما قال: «لأن المحمدين الأربعة: ابن جرير ، وابن خُزيمة ، وابن نصر ، وابن المنذر ، وإن كانوا من أصحابنا ، فربما ذهبوا باجتهادهم المطلق ، إلى مذاهب

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٥ .

(٢) الفهرست ص ٣٢٧ .

(٣) إنباء الرواة ٣/ ٩٠ .

(٤) الديباج المذهب ص ١٣ ، وانظر: تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ٣/ ٣١٨ .

خارجة عن المذهب ، فلا تُعدّ تلك المذاهب من مذهبنا ، بل سبيلها سبيل من خالف إمامه في شيء من المتأخرين أو المتقدمين»^(١) ، وهو ما صرح به الإمام الرافعي أيضاً بقوله: «تفرد ابن جرير لا يعد وجهاً في مذهبنا ، وإن كان معدوداً من طبقات أصحاب الشافعي رضي الله عنهم أجمعين»^(٢).

وأرى - والله أعلم - أن الإمام الطبري كان من أصحاب المذهب الشافعي ، وتتفق أقواله - في معظمها - مع المذهب الشافعي ، وأنه سار على أصول المذهب الشافعي ، ولكن اجتهاده فاق درجة أصحاب المذهب ، فانفرد بآراء وأقوال تعتبر مذهباً خاصاً له ، واستطاع أن يجمعها في كتاب ، وأن يؤثر في أتباعه وتلاميذه للأخذ بها ، والعمل فيها ، قال ابن تغري بردي: «يحكم بقوله ، ويُرجع إلى رأيه»^(٣).

ومن الأدلة الواضحة التي تقع بين أيدينا وتدل على اجتهاد الإمام الطبري ، وأنه صاحب رأي خاص ومذهب مستقل ما جاء في كتابه العظيم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المعروف بتفسير الطبري (ثلاثين جزءاً) فعند تفسير آيات الأحكام كان يذكر أقوال الفقهاء ، وآراء الصحابة والتابعين ، واجتهاد أئمة المذاهب ، ثم يدلي بدلوه ، ويجتهد بنفسه ، ويخلص أحياناً إلى رأي مستقل فينفرد به ، ويخالف بقية الآراء ، أو يؤيد رأياً ويرجحه على غيره ، يقرن ذلك بالحجة والدليل والبرهان ، ويناقش بقية الآراء ، ويعرض أدلتها ، ويحقق في مناطها ، ويقف مع الدليل بدون تعصب أو تقليد.

ومن هنا كان التفسير العظيم صورة صادقة عن عقلية الطبري واجتهاده

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٧/٣ .

(٢) انظر: تهذيب الأسماء ٧٩/١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٠٥/٣ .

واستقلاله المذهبي في الفقه وغيره ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، وتغطي معظم آيات الأحكام التي استند إليها الفقهاء ، واستدل بها العلماء ، ويمكن أن تجمع هذه الآيات مع تفسيرها ، وما أورده الطبري فيها لتكون كتاباً في تفسير آيات الأحكام ، ويؤخذ منها مذهب الإمام الطبري في الفقه ، وآراؤه في الاجتهاد ، ومنهجه في الاستنباط .

وهذه النتيجة التي وصلنا إليها تستلزم البحث عن الأصول التي اعتمد عليها الطبري وبنى عليها مذهبه ، وذكر تلاميذه وأتباعه ، ثم عرض كتبه الفقهية ، وقد خصصنا الفصل التالي للكتب ، ونعرض هنا بإيجاز الأمرين الأول والثاني .

أصول المذهب الجريري :

عرّف القاضي البيضاوي علم الأصول بأنه : « معرفة دلائل الفقه إجمالاً ، وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد »^(١) ، أي : هو العلم الذي يكسب صاحبه معرفة بمصادر التشريع الإسلامي ، وكيفية الاستفادة منها في استخراج الأحكام الشرعية ، وقواعد الاستنباط ، وبيان الدليل الصحيح الراجح عند التعارض الظاهري ، ويرشد هذا العلم إلى شرائط الاجتهاد ، ليسعى الإنسان إلى تحصيلها ، وتمييز المجتهد من المقلد ، مع الاستعانة بطرق الاستدلال والاستئناس بها من القرآن الكريم والسنة الشريفة ومبادئ اللغة العربية .

ويشكل هذا العلم المنارة الوضاء بين العلوم الشرعية ، ويعتبر مفخرة الأمة الإسلامية في حضارتها ، وهو مما انفردت به عن بقية الأمم والشرائع ، لأنه يرسم الطريق القويم ، ويحدد القواعد والمبادئ التي

(١) منهاج الوصول إلى معرفة علم الأصول ص ٣ ، وانظر : أصول الفقه الإسلامي ، ص ١٢ .

يسير عليها المجتهد في استنباط الأحكام وبيانها للناس .

وإن المجتهد المطلق الذي يؤسس مذهباً ، وينفرد بالآراء ، لابد أن يعتمد على قواعد محددة للاستنباط ، ومنهج معين للاستدلال ، وهو ما يعرف بعلم أصول الفقه .

وقد ذكر كثير من علماء التراجم والتاريخ أن الإمام الطبري له كتاب «الموجز في الأصول» ، وقال الذهبي : «وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ، واختيار من أقاويل الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه»^(١) .

ولكن كتاب الطبري في أصول الفقه لم يصل إلينا ، ولم نضع أيدينا على أصول مذهبه ، ومنهجه في الاستنباط ، وقواعده في البيان والاستدلال .

ومن المستحيل أن يصل هذا الإمام الفقيه إلى درجة الاجتهاد ، وأن يؤسس مذهباً مستقلاً دون أن يكون له قواعد أصولية ، ومناهج اجتهادية ، وخاصة بعد ظهور هذا العلم وتدوينه وانتشاره على يد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ٢٠٤ هـ ، وقام أتباع كل مذهب بتحديد الأصول والقواعد والمنهج الذي التزموه في مذهبهم .

ونحن على أمل أن نعثر على كتاب «الموجز في الأصول» للطبري لمعرفة أصوله ومنهجه الاجتهادي ، وإن فقد الأمل في وجود هذا الكتاب فيمكن معرفة هذه الأصول والقواعد والمنهج من خلال آرائه وفقهه وكتبه ، وتعليقه للأحكام ، ومناقشاته لآراء غيره في كتابيه التفسير واختلاف الفقهاء وغيرهما ، وهو ما فعله علماء المذهب الحنفي باستقاء القواعد الأصولية والمناهج الاجتهادية للمذهب الحنفي من خلال أقوال

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٤ ، وانظر: البداية والنهاية ١١/١٤٥ ، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، إنباه الرواة ٩٠/٣ .

الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، واحتجاجاته ، ومنشور كلامه .

تلاميذ الطبري وأتباع مذهبه :

ذكرت لنا بعض كتب التراجم والتاريخ أسماء قلة من التلاميذ والأتباع الذين كانوا على مذهب ابن جرير الطبري ، منهم :

١ - القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني ، ويعرف بابن الطرار ٣٩٠ هـ كان على مذهب ابن جرير الطبري ، وكان أبو الفرج المعافى معاصراً لابن النديم ، وقد ذكره وذكر مصنفاته .

وكان أبو الفرج فقيهاً أديباً شاعراً جامعاً بين العلوم ، عالماً بكل فن ، وله شعر حسن ، ولي القضاء ، وروى عن الأئمة ، وروى عنه الأئمة وكان أبو محمد الباقي يقول : إذا حضر المعافى أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها ، ووصفه ابن النديم ، فقال : في نهاية الذكاء وحسن الحفظ وسرعة الخاطر في الجوابات .

وقال ابن خلكان : وكان ينسب بالجريري نسبة إلى الإمام محمد بن جرير الطبري ، لأنه كان على مذهبه ، مقلداً له ، لأنه كان مجتهداً ، صاحب مذهب مستقل ، وكان له أتباع ، وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم أبو الفرج المذكور^(١) .

ثم قال ابن النديم في «الفهرست» عن الطبري : «ومن أصحابه المتفقهين على مذهبه»^(٢) .

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣١٢/٤ ، ٣٣٢/٣ ، إنباه الرواة ٢٩٦/٣ والمراجع في الهامش ، الفهرست ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، طبقات الفقهاء ص ٩٣ ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ٣١٨/٣ ، مفتاح السعادة ٢٥٣/١ .

(٢) الفهرست ص ٣٢٧ ، وانظر ص ٤٨ .

٢ - علي بن عبد العزيز بن محمد الدولابي ، وله من الكتب (وعدد كتبه).

٣ - أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج الكاتب ، وله من الكتب . . .

٤ - أبو القاسم بن العراد ، وله من الكتب . . .

٥ - أبو الحسن أحمد بن يحيى بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم المتكلم ، وله من الكتب : المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه ، كتاب الإجماع في الفقه على مذهب أبي جعفر .

٦ - أبو الحسن الدقيقي الحلواني الطبري ، وله من الكتب : الرد على المخالفين .

٧ - أبو الحسين بن يونس ، وكان متكلماً ، وله في ذلك كتب ، وله في الفقه كتاب الإجماع في الفقه .

٨ - أبو بكر ابن كامل ، واسمه أحمد بن كامل بن خلف ، مولده بسر من رأى ، وهو أحد المشهورين في علوم القرآن ، وكان مفتياً في علوم كثيرة ، له كتب كثيرة منها المختصر في الفقه ، وله من الكتب على مذهب الطبري : كتاب جامع الفقه ، كتاب الحيض ، كتاب الشروط ، كتاب الوقف .

٩ - أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب السقطي الطبري ، من أهل البصرة ، وله تاريخ موصول بكتاب أبي جعفر ، وقد ضمنه من أخبار أبي جعفر وأصحابه شيئاً كثيراً ، وله من الكتب : كتاب الرسالة ، كتاب جامع الفقه .

١٠ - رجل يعرف بابن أذنوبي .

١١ - رجل يعرف بابن الحداد .

١٢ - أبو مسلم الكجي ، قال أبو الفرج المعافى : وكان أبو مسلم

الكجبي ينتمي إلى أبي جعفر الطبري في الفقه ، وكان في سن أبي جعفر .

١٣ - أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني ٣٦٢ هـ حدث بدمشق عن ابن جرير الطبري وصنف كتابه «الذيل على تاريخ الأمم للطبري»^(١).

أقوال الطبري في الفقه:

يظهر لنا مما سبق ، أن الإمام الطبري ، رحمه الله تعالى ، تفقه على عدد من العلماء ، ودرس فقه الحنفية والملكية والظاهرية والشافعية ، وتعمق في المذهب الشافعي ، وصار أحد أصحاب الوجوه فيه ، وأفتى به ، وحكم في كثير من المسائل على رأي الشافعي ، ثم ارتقى في العلم والاجتهاد حتى صار مجتهداً مستقلاً ، وصاحب رأي وله مذهب خاص ، فإن وافق قوله المذهب الشافعي فذاك ، وإلا كان مذهباً له ، وهو ما صرح به الرافعي ، رحمه الله تعالى ، فيما سبق ، وهو المنقح للمذهب الشافعي ، والمحقق لآرائه وأقواله .

وصنف الإمام الطبري كتبه التي جمع فيها أقواله وآراءه ، كما سنذكرها في الفصل التالي ، ولكن لم يصل إلينا منها إلا القليل ، ولم تنحصر آراؤه الاجتهادية في كتبه الفقهية فحسب ، بل كانت واضحة وصريحة في كتب علم الخلاف ، وفي كتاب التفسير الكبير «جامع البيان» وفي كتابه في السنة النبوية «تهذيب الآثار» وبين قوله بوضوح وصراحة ، ويسير على منهج واضح ، فمن ذلك قوله في كتابه «اختلاف الفقهاء»: «أجمعت الحجة التي لا يجوز خلافها. ثم اختلفوا في صفة القول. فقال مالك ، وقال الشافعي ، وقال أبو حنيفة وأصحابه وعلة من قال بقول

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧١/١٤ ، ١٣٢/١٦ .

مالك وعلة من قال بقول الشافعي» ، ثم يقول: «قال أبو جعفر: والحق في ذلك عندي وبالله التوفيق»^(١).

ونشير هنا إلى بعض أقواله التي انفرد بها:

١ - لا يجوز الفرض ولا النفل في الكعبة .

٢ - من توضأ ثم قطع بعض أعضائه من محل الفرض ، كما إذا قطعت يده أو كشطت جلدة من وجهه أو يده ، أنه يجب عليه طهارة ذلك العضو .

٣ - إذا ادعى المقضي عليه أن القاضي حكم عليه بشهادة فاسقين ، يجب على شاهد الفرع تسمية شهود الأصل عند الجمهور خلافاً لابن جرير الطبري .

٤ - من أحيل على مليء يجب عليه القبول لظاهر قوله ﷺ: «من أحيل على مليء فليتبّع»^(٢).

٥ - يجوز للمرأة أن تتولى القضاء في جميع الأحكام ، خلافاً للجمهور الذين منعوا المرأة من تولي القضاء ، وتوسط الإمام أبو حنيفة فقال: يجوز أن تتولى القضاء فيما تصح شهادتها (في الأموال والأبدان والأحوال الشخصية) ولا يجوز أن تقضي فيما لا تصح به شهادتها (الحدود والجنايات) .

٦ - نقل النووي في «شرح صحيح مسلم» في باب: الآداب عند الكلام في الحديث المشهور الصحيح: «تسمّوا باسمي ولا تكونوا بكنتي» أن

(١) اختلاف الفقهاء ص ٢٣ - ٢٦ .

(٢) رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة وابن عمر ، وأوله «مَطْلُ الغني ظلم» (انظر: نيل الأوطار ٥/٢٦٦ ، سبل السلام ٣/٦١) .

مذهب ابن جرير أن الحديث ليس بمنسوخ ، وإنما كان النهي للتنزيه والأدب ، لا للتحريم^(١) .

٧ - ونسب إلى الطبري أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء ، وأنه لا يوجب غسلهما ، وقد اشتهر عنه هذا .

ورد العلماء ذلك ، وأن من يزعم ذلك هو ابن جرير الطبري ، محمد ابن جرير بن رستم ، وهو شيعي رافضي ، وإليه ينسب هذا القول ، لأن الشيعة تقول بالمسح على القدمين في الوضوء لا بغسلهما ، وينزه العلماء الإمام الطبري عن هذا القول .

قال ابن كثير: «والذي عول عليه في «التفسير» أنه يوجب غسل القدمين ، ويوجب مع الغسل ذلكهما ، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح ، فهل يفهم كثير من الناس مراده ، ومن فهم مراده نقلوه عنه أنه يوجب الغسل ، والمسح هو ذلك»^(٢) .

كتب الطبري الفقهية:

صنف الإمام أبو جعفر الطبري كتباً كثيرة في فنون عديدة ، وكلها تدل على فضله ، وغزارة علمه ، ودقته ، كما سبق ، وكان يضرب به المثل في كثرة مصنّفاته وسعتها ، وأنه كان واسع البال ، طويل النفس ، سيال

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/١٥ ، وانظر: اختلاف الفقهاء ص ١٧ ، ١٨ ، أصول المحاكمات الشرعية ص ٥٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٢٩/٣ ، ١٢٠ ، تذكرة الحفاظ ٧١٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٨/١٤ ، الطبري ، الحوفي ص ٢٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ١٤٧/١١ ، وذكر الذهبي أن السليمانى اتهم الطبري بالرفض ، ورد عليه ، فقال: «فلعل السليمانى أراد الآتي محمد بن جرير بن رستم ، أبو جعفر الطبري ، رافضى له تواليف ، منها كتاب «الرواة عن أهل البيت» رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني» (ميزان الاعتدال ٤٩٩/٣) وانظر: سير أعلام النبلاء ٢٨٢/١٤ ، الطبري ، الحوفي ص ٢٥٢ .

القلم ، وكأنه يغرف من بحر ، وأوضح دليل على ذلك كتبه التي وصلت إلينا ، وخاصة «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» في ثلاثين جزءاً ، وكتاب «تاريخ الأمم والملوك» في عشرة أجزاء كبيرة .

وضاعت معظم كتب ابن جرير الطبري ، وفقدت مع ما قد فقد من تراث الإسلام الزاخر ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : انقراض أتباعه وتلامذته العاملين بمذهبه ، والمتفقهين عليه ، بعد سنة أربعمئة هجرية ، مع انتشار بقية المذاهب ، والعمل على خدمتها ورعايتها .

الثاني : أنه أصابها ما أصاب كثيراً من الحضارة الإسلامية ، والتراث العظيم ، من نكبات وتدمير وحرق وخراب وحروق وفتن ، ويأتي في قمتها سقوط بغداد بيد التتار المغول ، وحرق مكباتها ، وإلقائها في دجلة .

ولا نعرف من مذهب ابن جرير الطبري وأقواله وآرائه إلا ما ذكره نفسه في الجزء الباقي من كتابه «اختلاف الفقهاء» أو بيته في كتابه في تفسير القرآن ، أو حكاه عنه الفقهاء في الموسوعات الفقهية والفقهاء المقارن ، أو أثبت أصحاب التراجم وكتب التاريخ التي وصلت إلينا .

ومن حسن الحظ أن معظم المؤرخين وأصحاب التراجم ذكروا لنا مصنفات الإمام الطبري ، وتوسع بعضهم في وصفها وتحديد أبوابها وكتبها .

ونقتصر في هذا البحث على سرد كتب الطبري الفقهية ، وما تتضمنه من أبواب وموضوعات ، ويبقى لنا أمل وطيد ، وثقة طيبة أن نعثر على بعض كتبه في خزائن المكتبات ودور الكتب ، وغرف المخطوطات ، العامة والخاصة ، في البلاد العربية والإسلامية ، وفي مدن العلم أجمع :

١ - بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام ، وهو كتاب في تاريخ الفقه

الإسلامي وتطوره وتدرج مراحلہ ، مع ذكر بعض الأحكام والفروع والآداب الفقهية ، ولم يتمه وخرج منه كتاب الطهارة ، فجاء في نحو ألف وخمسمئة ورقة ، لأنه ذكر في كل باب منه أقوال الصحابة والتابعين ، واختلاف العلماء ، وحجة كل قول ، وخرج منه أيضاً أكثر كتاب الصلاة ، وكتاب الزكاة ، وآداب الحكام ، والمحاضر والسجلات^(١) .

٢ - آداب القضاة ، وهو كتاب في الفقه ، يتناول الأحكام الشرعية التي تتعلق بنظام القضاء في الفقه الإسلامي وتنظيمه وإدارته ، وبيان فضل القضاء ، وحقوق القضاة وواجباتهم ، وطريقة الفصل في الدعاوي والمنازعات ، وإصدار الأحكام القضائية وتنفيذها^(٢) .

٣ - لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام ، ألفه بعد كتابه «اختلاف الفقهاء» وفي هذا الكتاب ذكر المسائل التي تفرد بها الطبري ، وحفظت عنه ، وهو أهم كتبه الفقهية ، والمعمول عليه في المذهب الجريري^(٣) ، وهو من الكتب التي أتمها الطبري فيما أداه إليه اجتهاده ، وهو ثلاثة وثمانون كتاباً.

٤ - الخفيف في أحكام شرائع الإسلام ، وهو مختصر لكتابه «اللطيف» ألفه ليسهل تناوله لمن قصرت همته عن المطولات ، وهذه طريقة الفقهاء والعلماء بتصنيف كتب الفقه على عدة مستويات ، ليكون المختصر أسهل تناولاً ، ويتناسب مع الطلبة المبتدئين وغير المختصين ، ويكون المطول والمبسوط أكثر عمقاً ، وأوسع أدلة ومناقشة ، لينهل منه المتقدمون في العلم ، والمتخصصون في الفقه .

(١) الفهرست ص ٣٢٧ ، تذكرة الحفاظ ٧١٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٢٢/٣ .

(٢) الطبري ، المصلح ص ٣٩ .

(٣) الفهرست ص ٣٢٧ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٤ .

وسبب تأليفه أن الوزير في زمن الخليفة المكتفي التمس منه كتاباً في الفقه ، فعمل له كتاب الخفيف ، قال أبو محمد الفرغاني صاحب ابن جرير: أرسل العباس بن الحسن الوزير إلى ابن جرير قال: قد أحببت أن أنظر في الفقه ، وسأله أن يعمل له مختصراً ، فعمل له كتاب الخفيف ، وأنقذه ، فوجه إليه ألف دينار فلم يقبلها ، فقليل له: تصدق بها ، فلم يفعل^(١).

٥ - الرد على ذي الأسفار ، وهو كتاب في علم الخلاف للرد على داود بن علي الأصفهاني ، مؤسس المذهب الظاهري ، بعد أن دار نقاش وجدال ومناظرة بينه وبين الطبري ، وانتصر فيها الطبري في أقواله وأدلته^(٢).

٦ - اختلاف الفقهاء ، أو اختلاف علماء الأمصار ، وهو من الكتب النفيسة في علم الخلاف والفقه المقارن ، وأئمة الطبري ، ووصل إلينا جزء منه ، وطبع بالاسم الأول ، ثم صور عدة مرات.

وفي هذا الكتاب عرض الطبري أقوال الأئمة والفقهاء عرضاً رصيناً ، وبخاصة فقه مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وأما الإمام أحمد فلم يذكر مذهبه في هذا الكتاب ، ثم ذكره في غيره^(٣).

ويعتبر هذا الكتاب والكتاب الذي قبله من أهم كتب علم الخلاف ، ومن أوائل الكتب في هذا العلم ، وبما أن هذا الكتاب الأخير هو الوحيد

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢١ ، ١٢٤ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، الفهرست ص ٣٢٧ ، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١١.

(٢) الطبري ، المصلح ص ٣٩.

(٣) المراجع السابقة في الهامشين الأخيرين ، الأعلام ٦/ ١٨٤ ، اختلاف الفقهاء ص ٦ ، تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ٢١٩ - ٢٢٤ ، مفتاح السعادة ١/ ٣٠٦ ، كشف الظنون ١/ ٦٤ ، ٤٧٣.

الذي وصلنا جزء منه فيحسن أن نبين مكانته ، ونذكر بعلم الخلاف الذي احتل مكاناً سامياً في تاريخ الفكر الإسلامي عامة ، والفقه الإسلامي خاصة ، من القرن الثاني الهجري حتى القرن السابع ، ثم انقرض ، وظهر مثيله في العصر الحاضر باسم الفقه المقارن .

واهتم الفقهاء بعلم الخلاف ، وصنفوا فيه كتباً عديدة ، وجمعوا فيها أقوال الصحابة والتابعين والفقهاء والأئمة على اختلاف مذاهبهم في الفروع ، وحفظوا لنا أقوال أئمة المذاهب المنقرضة وغيرهم .

وظهر هذا العلم على يد الإمام الشافعي ٢٠٤هـ رحمه الله تعالى في كتبه التي صنفها ، وأملأها على تلامذته ، وجمعها البويطي والربيع المرادي ، وضمت إلى كتاب الشافعي نفسه «الأم» وهي «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى» و«اختلاف أبي حنيفة والأوزاعي» ويسمى بسير الأوزاعي ، و«اختلاف الشافعي مع محمد بن الحسن الشيباني» ويسمى كتاب الديات ، و«اختلاف الشافعي ومالك» .

ثم صنف الإمام الطبري كتابه «اختلاف الفقهاء» وهو من أول كتبه التي صنفها ، ثم صنف أبو جعفر الطحاوي الحنفي ٣٢١هـ كتابه «اختلاف الفقهاء» وجاء الفقيه الشافعي ، المجتهد الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن المنذر (٣١٠هـ أو ٣١٩هـ / ٩٣١م) وألف كتاباً في هذا الخصوص لم يصنف مثلها ، وهي «الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف» و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» و«اختلاف العلماء» ، وجاء القدوري الحنفي ٤٢٨هـ فصنف كتابه «التجريد» ، ثم تألق علم الخلاف ، ووقف على قدميه ، واستقل بذاته على يد الفقيه الدَّبُوسي الحنفي ٤٣٠هـ في كتابه «تأسيس النظر» فكان الدَّبُوسي أول من وضع علم الخلاف على أصوله وقواعده ، وأبرزه للوجود كعلم مستقل ، وكان الدَّبُوسي يضرب به المثل في النظر واستخراج المسائل والرأي والحجاج ، وصنف أيضاً

كتاب «التعليقة» في الخلاف ، ثم تتابع التصنيف في علم الخلاف حتى انقرض في القرن الثامن .

ويظهر لنا من عرض كتاب الطبري ، رحمه الله ، أنها تغطي جوانب الفقه المختلفة في تاريخ التشريع والفقه الإسلامي ، والفقه على المذهب الجريري ، والفقه المقارن وعلم الخلاف .

ويحسن التذكير أيضاً أن الثروة الفقهية للإمام الطبري ليست محصورة في هذه الكتب السابقة ، ويضاف إليها الأحكام الفقهية الكثيرة الماثلة في كتاب التفسير الكبير «جامع البيان» المطبوع ، وفي كتابه المهم «تهذيب الآثار» الذي سلفت الإشارة إليه .

وهذا يدل على مكانة الطبري الفقهية ، ودرجته في الاجتهاد ، وأنه كان صاحب رأي حر ، ومذهب مستقل ، وله أتباعه وتلاميذه الذين حملوا علمه وفقهه ، وعملوا به ، ونشروه ، ثم صنت كتب حوله .

وهذا ما قصده ابن دُرَيْد ، رحمه الله ، عند رثائه للطبري في مرثاة طويلة ، منها :

«إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَمْ تَتْلَفْ بِهِ رَجُلًا بَلْ أَتْلَفْتُ عِلْمًا لِلدِّينِ مَنْصُوبًا»
وقال ابن الأترابي أيضاً :

حَدَّثَ مَفْظَعٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ دَقَّ عَنْ مِثْلِهِ اصْطِبَارُ الصَّبُورِ
وكانت وفاة الطبري وقت المغرب ، عشية الأحد لبضعة أيام بقيت من شوال سنة ٣١٠ هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنوات^(١) .

رحم الله الإمام الطبري رحمة واسعة ، وأنزل عليه شآبيب رحمته ، وغفر الله له ، وجعل قبره روضة من رياض الجنة ، وجزاه الله عنا وعن

(١) البداية والنهاية ١٤٦/١١ وما بعدها ، طبقات الشافعية الكبرى ١٢٦/٣ ، تاريخ بغداد ١٦٦/٢ .

المسلمين خيراً ، ونفعنا الله بعلمه ، ووفقنا لنشره والعمل به .

الخاتمة :

خلاصة البحث ، وذلك بالنقاط التالية :

١ - الإمام الطبري موسوعة علمية واسعة ، ودائرة معارف متنوعة ، جمع علوماً مختلفة ، وصنف في فنون متعددة ، وترك تراثاً خالداً ، وعملاً متميزاً ، وتجديداً مباركاً .

٢ - الإمام الطبري عالم كبير في الشرع ، ومجتهد في الفقه ، وإمام في الفقه المقارن ، باتفاق العلماء والمؤرخين .

٣ - الطبري فقيه شافعي ، ويعتبر أحد الأصحاب في المذهب الشافعي .

٤ - الإمام الطبري صاحب مذهب فقهي مستقل ، يسمى المذهب الجريري ، وله أتباع وتلاميذ ، وآراء خاصة ، واجتهادات مستقلة ، وعاش مذهبه حتى نهاية القرن الرابع الهجري .

٥ - صنف الإمام الطبري كتباً متعددة في الفقه العام وتاريخ التشريع وأصول الفقه ، وفي المذهب الجريري ، وفي علم الخلاف والفقه المقارن .

الاقتراحات ، وهي :

١ - أن يجمع العلماء مذهب ابن جرير الطبري ، ويدونوا آراءه وفقهه من الكتب المذهبية وكتب الفقه المقارن والموسوعات الفقهية ، وذلك في رسالة للدكتوراه .

٢ - أن يجمع العلماء آراء الطبري الفقهية وترجيحاته من كتابه التفسير ، عند بيان رأيه في كثير من المسائل التي عرض فيها أقوال الأئمة والفقهاء ، ورجح بعضها ، واستقل برأي جديد أحياناً ، وتسمى

«أحكام القرآن» أو «تفسير آيات الأحكام» ، وذلك في رسالة للماجستير .

٣ - دراسة منهج الطبري في الاستنباط من الكتب السابقة والآراء الفقهية ، لمعرفة قواعده الخاصة في أصول الفقه والاجتهاد والاستدلال الذي بني عليها مذهبه ، وذلك في رسالة للماجستير .

٤ - السعي الحثيث للبحث عن كتبه الفقهية ، وآثاره المفقودة حتى الآن ، للعثور على مخطوطاتها ، والعمل على تحقيقها ونشرها .

٥ - إظهار قصب السبق للإمام الطبري في آرائه ، وإمكان الاعتماد عليها ، والرجوع إليها عند الحاجة والمصلحة وتطور الزمن واختلاف البيئات والبلاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



المصادر والمراجع

- ١ - اختلاف الفقهاء للإمام العلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) ، تصوير دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢ - أصول الفقه الإسلامي ، الدكتور محمد مصطفى الزحيلي - مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٣ - أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ، الدكتور محمد مصطفى الزحيلي ، مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٤ - الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م - بيروت .
- ٥ - إنباه الرواة على أنباء النحاة ، للوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي ٦٤٦هـ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ٦ - البداية والنهاية ، للحافظ أبي الفداء ابن كثير ١٨١٤هـ ، تصوير عن الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف - بيروت ، مكتبة النهضة بالرياض - ١٩٦٦م .
- ٧ - تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، الجزء الثالث - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢م .
- ٨ - تاريخ بغداد ، للحافظ أبي بكر أحمد علي الخطيب البغدادي ٤٦٣هـ ، طبعة الخانجي بالقاهرة - سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .
- ٩ - تاريخ التشريع الإسلامي ، للسبكي والسايس والبربري ، الطبعة الثانية ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م ، مطبعة الشرق الإسلامي - القاهرة .

- ١٠ - تاريخ التشريع الإسلامي ، للشيخ الدكتور إبراهيم دسوقي الشهاوي ، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م ، شركة الطباعة المتحدة بالقاهرة .
- ١١ - تذكرة الحفاظ ، للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي ٧٤٨هـ تصوير دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ١٢ - تعريف عام بالعلوم الشرعية ، الدكتور محمد الزحيلي ، طبع دار طلاس بدمشق - الطبعة الأولى ١٩٨٨م .
- ١٣ - تهذيب الأسماء واللغات ، محيي الدين بن شرف النووي ٦٧٦هـ تصوير دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٤ - الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، للقاضي برهان الدين إبراهيم بن علي ، المعروف بابن فرحون المالكي ٧٩٩هـ ، الطبعة الأولى بالفحامين بمصر سنة ١٣٥١هـ .
- ١٥ - الرسالة المستطرفة ، السيد الشريف محمد بن جعفر الكتاني (١٣٤٥هـ) طبع دار الفكر بدمشق ، الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- ١٦ - سبل السلام ، للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٨٢هـ ، طبع مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة - ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- ١٧ - سير أعلام النبلاء ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد الذهبي ٧٤٨هـ ، طبع مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٨ - صحيح مسلم بشرح النووي ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ٢٦١هـ ، المطبعة المصرية بالقاهرة - بدون تاريخ .
- ١٩ - الطبري ، للدكتور أحمد محمد الحوفي ، سلسلة أعلام العرب ، طبع وزارة الثقافة ، بمصر - ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
- ٢٠ - الطبري ، بحث في التفسير ، للأستاذ عبد الله بن عبد العزيز المصلح ، مطابع الرياض - نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

- ٢١ - طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ٧٧١هـ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة - ١٢٨٤هـ / ١٩٦٥م .
- ٢٢ - طبقات الفقهاء ، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الشافعي ٤٧٦هـ - نشر دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٧٠م .
- ٢٣ - طبقات القراء ، للإمام محمد بن محمد الجزري ٨٣٣هـ - نشر ج . برجستراسر ، تصوير دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٢٤ - الفهرست ، لابن النديم محمد بن إسحاق ٣٧٠هـ ، تصوير دار المعرفة - بيروت .
- ٢٥ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لمصطفى بن عبد الله ، الشهير بحاجي خليفة ، وكاتب جلبي - طبع إستانبول - سنة ١٣٥١هـ .
- ٢٦ - لب الأبواب في تحرير الأنساب ، للعلامة جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٩١١هـ ، تصوير مكتبة المثنى بغداد .
- ٢٧ - مجلة التراث العربي ، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - العدد ٢٣ - شعبان ١٤٠٦هـ / نيسان / إبريل ١٩٨٦م - السنة السادسة - بحث تكريم الأعلام ، للدكتور محمد الزحيلي .
- ٢٨ - مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ٧٣٩هـ - طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
- ٢٩ - معجم الأدباء ، لياقوت بن عبد الله الحموي ٦٢٦هـ ، مطبعة المأمون بالقاهرة ، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .
- ٣٠ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، لأحمد بن مصطفى ، الشهير بطاش كبرى زاده ٩٦٨هـ ، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة - سنة ١٩٦٨م .

٣١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي
ابن الجوزي ٥٩٧هـ ، الطبعة الأولى بحيدر آباد الدكن بالهند - سنة
١٣٥٩هـ.

٣٢- منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للقاضي عبد الله بن أحمد
البيضاوي ٦٨٥هـ ، طبع مصر - سنة ١٣٢٦هـ.

٣٣- ميزان الاعتدال ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٧٤٨هـ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الأولى سنة
١٣٨٦هـ/ ١٩٦٣م.

٣٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغري بردي
الأتابكي ٨٧٤هـ ، الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية بالقاهرة -
سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

٣٥- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للعلامة محمد بن علي الشوكاني
١٢٥٠هـ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة - سنة
١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٣٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس أحمد بن محمد ،
ابن خلكان ٦٨١هـ ، الطبعة الأولى - مطبعة السعادة بمصر - سنة
١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.



الطبري مفسراً

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور المسلمين ، ومنبع الحياة الروحية والأخلاقية والعقدية والاجتماعية والثقافية والحضارية في كل زمان ومكان .

وقد تكفل الله تعالى بحفظه نصاً وروحاً ، وعكف المسلمون عليه تلاوة وحفظاً ، ودراسة وتفسيراً ، وعلماً وعملاً ، وفهماً وتطبيقاً ، ولقي من الرعاية والعناية ما لم يتوافر لكتاب آخر في هذا الكون .

وقام على تفسير القرآن الكريم وتأويله ، وشرحه وبيانه ، ومعرفة حكمه وأسراره ، ومقاصده وأحكامه ما لا يحصى من العلماء في مختلف العصور ، ومن مختلف الأجناس والأقوام ، وسيبقى - إن شاء الله تعالى - يحتل سويداء القلب ، ويملأ العين ، ويهب الخير والهدى ، والرشاد والسعادة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن هؤلاء المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، الآملي البغدادي الذي وُلد بآمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، وطوف بالبلاد في طلب العلم ، ورحل إلى الآفاق لتحصيل المعرفة ، والتقى بعلماء الأمصار ، ثم وضع عصا الترحال ، واستقر في

بغداد ، وتفرغ للتدريس والتصنيف والإفتاء حتى وافته المنية سنة ٣١٠هـ عن عمر يناهز ستاً وثمانين سنة^(١).

وقد تبوأ الإمام الطبري القمة ، وبلغ الذروة في تفسير القرآن العظيم في كتابه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» حتى عرف قديماً وحديثاً بأنه «شيخ المفسرين» أو «إمام المفسرين» أو أنه «أبو التفسير» وأودع في كتابه ما حباه الله تعالى به من العلوم الشرعية المختلفة التي تتكون منها ثقافته الواسعة ، حتى أصبح تفسيره «عمدة المفسرين».

والتفسير أحد العلوم الشرعية الأساسية ، لأنه يبحث عن معاني كلام الله تعالى الذي أمر بتدبره ، وتفهم معانيه ، ومعرفة أحكامه ، ليدرك الناس عظمة الله تعالى ، وفضله عليهم ، وحقه عندهم ، فيقوموا بما أمرهم به ، ويجتنبوا ما نهاهم عنه ، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: ٢٩] ، لأن الله تعالى أنزله هداية للناس ، ورحمة لعباده ، ونوراً للبشرية.

وعرف الزركشي علم التفسير «بأنه علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»^(٢) ، وهذا التعريف شامل لمعظم علوم القرآن ، لكنه أهمها على الإطلاق نظرياً وعملياً وعلمياً ، ويدخل فيه علم القراءات ، وعلم الرسم القرآني وعلم أسباب النزول ، وتاريخ القرآن ، وجمعه وتدوينه ونسخه ، وإعراب

(١) انظر ترجمة الطبري في طبقات الشافعية الكبرى ١٢٠/٣ ، تهذيب الأسماء ٧٨/١ ، تذكرة الحفاظ ٧١٠/٢ ، ميزان الاعتدال ٤٩٨/٣ ، طبقات الفقهاء ص ٩٣ ، طبقات القراء ١٠٦/٢ ، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، معجم الأدباء ٤٠/١٨ ، وفيات الأعيان ٣٣٢/٣ ، إنباء الرواة ٨٩/٣ ، البداية والنهاية ١٤٥/١١ ، الفهرست ص ٣٢٦ ، سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ ، روضات الجنات ٢٩٢/٧ ، الأعلام ٢٩٤/٦ .

(٢) الإتيان للسيوطي ١٧٣/٢ ، البرهان للزركشي ١٤٧/٢ .

القرآن ، مكيه ومدنيه ، وبلاغته وبيانه ، وإعجازه وأحكامه ، وألفاظه وجمله ، وناسخه ومنسوخه ، وهذا ما يتناوله التفسير الموسع ، كما هو الحال في تفسير الطبري ، ونجد بعضه في التفاسير المتوسطة والوجيزة بحسب اهتمام المفسر ومنهجه وغايته^(١) .

وظهر التفسير حقيقة مع نزول القرآن الكريم ، بأن يبين القرآن معنى آية بآية أخرى ، أو يشرح لفظاً مجملاً بآخر مبين ، أو يحدد المراد من اصطلاح شرعي ، وهو أول أنواع التفسير ويعرف بتفسير القرآن بالقرآن ، ثم تجلى التفسير بشكل أوسع في بيان رسول الله ﷺ وتفسيره لآيات القرآن في الحديث الشريف قولاً وفعلًا وتقريراً ، وهو النوع الثاني من التفسير ، ويسمى تفسير القرآن بالسنة ، وهو أحد الوظائف النبوية والمهمات الدينية المكلف بها من الله تعالى ، بقوله عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، والقرآن الكريم نزل بلغة عربية على أمة عربية ، فأدرك الصحابة رضوان الله عليهم معانيه ، وفهموا ألفاظه ، وأحاطوا بمقاصده وتراكيبه ، ورأوا أسباب نزول الآيات ومناسباتها ، وإذا أشكل عليهم شيء فرعوا إلى رسول الله ﷺ يسألون عنه ، ويقفون على مراد الله ، وطبقوا القرآن عملياً في حياتهم ، وتصدى كبار الصحابة إلى بيان المعنى الصحيح والتفسير المقبول بما أخذوه عن رسول الله ﷺ واستناداً إلى اللغة العربية ، ومقاصد الشريعة وأسباب النزول وإعمال عقولهم واجتهادهم فظهر التفسير بالرأي وتبوأ عدد من الصحابة مركز الصدارة في تفسير القرآن الكريم ، وأبرزهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ، وأكثر من تصدى لذلك منهم الإمام عليّ كرم الله وجهه الذي كان يقول : «سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا

(١) عدد السيوطي العلوم التي تدخل في التفسير ، وأوصلها إلى خمسة وخمسين نوعاً (انظر : تمام الدراية ص ٢٦ ، النقاية ص ٢٦٢) .

أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل» وكان يقول : «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً سؤولاً». ومن الصحابة المفسرين عبد الله بن مسعود الذي كان يقول مثل ما قال علي رضي الله عنهما ، ومنهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، وترجمان القرآن ، وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم^(١).

ثم قام التابعون برواية التفسير عن الصحابة ، ثم أدوا وظيفتهم ، وأضافوا اجتهادهم ورأيهم ، ثم قام صغار التابعين ، وتابعو التابعين بتدوين الروايات المأثورة في التفسير ، إلى أن بدأ تدوين العلوم في منتصف القرن الثاني الهجري ، فصنفت كتب التفسير ، وفي القرن الثالث الهجري ظهر منهج النقد للروايات والنصوص المتعلقة بالتفسير ، وبيان أصول التفسير ، فجاء الإمام أبو جعفر الطبري يمثل ذروة ما وصل إليه التفسير في القرون الثلاثة الأولى ، وسجل جميع ذلك في كتابه التفسير ، وهنا نصل إلى صلب الموضوع.

لم يجزؤ الطبري رحمه الله تعالى على التعرض لتفسير القرآن الكريم إلا بعد أن حصل على المؤهلات العلمية الكافية لذلك ، وامتلك الوسائل الأساسية التي تؤهله لتفسير القرآن الكريم الذي حفظه عن ظهر قلب من الصغر ، وأخذ في جمع القراءات على أصحابها حتى أتقنها ، وصار إماماً في القراءات ، وصنف كتباً فيها ، وتمرس باللغة العربية ، وملك ناصية البيان والفصاحة واطلع على بيان القرآن الكريم في السنة ، وجمع أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم ، ودرس ما وصل إليه علم التفسير قبله ، وحاز ناصية العلوم التي تتعلق بالقرآن ، ثم استخار الله

(١) انظر: مفتاح السعادة ٢/٦٤ ، تفسير القرطبي ١/٣٥ ، الإنقان ٢/٢٣٩ ، تفسير الطبري ١/٣٦ ، التفسير والمفسرون ٣/٦٣.

تعالى في عمل كتاب التفسير ، وسأله العون على ما نواه ثلاث سنوات قبل البدء به ، ثم شرح الله صدره لذلك ، وأعانه على عمله وإتقانه وكماله ، مع ما وهبه الله تعالى من ذكاء خارق ، ونبوغ فكري ، وزهد في الدنيا ، وتقوى وورع^(١) ، وقيل إنه صنف التفسير سنة ٢٧٠هـ ، وقيل استمر في إملائه خلال ٢٨٠ - ٢٩٣هـ .

ويرى الإمام الطبري أن من أعظم منن الله تعالى على عباده تنزيل القرآن الكريم الذي هو دستور الحياة للمسلم ، وناموس الوجود للعاقل ، وفيه الهدى والخير والنور ، وأنه الفضيلة العظمى التي شرف الله بها أمة محمد ﷺ على سائر الأمم ، فيقول :

«فإن من عظيم ما خص الله به أمة محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وجباهم به من الكرامة السنية : حفظه ما حفظ - جل ذكره ، وتقدست أسماؤه - عليهم من وحيه ، وتنزيله ، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة ، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة ، وحجة بالغة . . . فجعله لهم في دجى الظلم نوراً ساطعاً ، وفي سدف الشبه شهاباً لامعاً ، وفي مضلة المسالك دليلاً هادياً ، وإلى سبيل النجاة والحق هادياً ، ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦]»^(٢).

وبما أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وأنه أنزل للتطبيق والعمل ، وأنه كتاب للتدبر والتفكر ، فإن الإنسان يحتاج إلى تفسيره ، وبيان ما يتضمنه من أساليب اللغة المختلفة ، والحقيقة والمجاز ،

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٦٢ ، وانظر المقومات التي يجب أن تتوافر في المفسر في (الإتقان ٢/ ١٨٥ ، البرهان ١/ ٣٤).

(٢) تفسير الطبري ٤/١ .

والصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، والقصص والأمثال ،
والأخبار والأحكام ، والعقيدة والشريعة ، والتربية والأخلاق ،
والمصطلحات الشرعية ، والاعتبارات العرفية ، فظهرت الحاجة إلى
التفسير منذ نزول الوحي ، فبين القرآن الكريم بعضه ببعض ، ونهض
رسول الله ﷺ بالبيان بذاته ، وهرع إليه الصحابة رضوان الله عليهم
للاستفسار عن مراد الله وغايته وهدفه ، ثم نهض كبار الصحابة وعلماء
الأمة بهذه المهمة المقدسة .

لذلك يرى الطبري رحمه الله تعالى وجوب تعلم التفسير ، واتجه
بنفسه إلى تعلمه ، وجاب البلاد في دراسته وأخذه من أفواه العلماء ،
وعكف على ما كتب من التفاسير قبله ، وجمع آلات المفسر ، ثم فكر
بتصنيف تفسير خاص ، أداءً للواجب ، وشعوراً بالمسؤولية ، ونشراً
للعلم ، وكان يقول : «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ، ولم يعلم تأويله ،
كيف يلتذ بقراءته»^(١) .

وعقد الطبري - رحمه الله تعالى - فصلاً في مقدمة تفسيره بعنوان «ذكر
بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن» وقال فيه :
«قد أمر الله عباده بتدبره وحثهم على الاعتبار بأمثاله»^(٢) ، ثم أفاض
الطبري - رحمه الله تعالى - بذكر فضل التفسير ، وأهميته ، وثواب
القائمين عليه وبيان نهجه ، وقدم كتابه العظيم «جامع البيان عن تأويل آي
القرآن» فجاء موسوعة علمية كبرى ، ودائرة معارف للعلوم المتنوعة ،
وبلغ ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير ، وتناول تفسير القرآن الكريم بحسب
ترتيبه المنزل ، سورة فسورة ، وآية فآية ، بعد أن قدم له بمقدمة نفيسة في
أصول التفسير .

(١) معجم الأدباء ٦٣/١٨ ، تفسير الطبري ٣/١ .

(٢) تفسير الطبري ٣٥/١ - ٣٧ .

ولخص العلامة ياقوت الحموي الوصف الجامع لمحتويات هذا التفسير ، فقال : «وكتاب التفسير كتاب ابتدأه بخطبة ، ورسالة التفسير ، تدل على ما خص الله به القرآن العزيز من البلاغة والإعجاز والفصاحة التي نافى بها سائر الكلام ، ثم ذكر من مقدمات الكلام والتفسير ، وفي وجوه تأويل القرآن ، وما يعلم تأويله ، وما ورد في جواز تفسيره ، وما حظر من ذلك ، والكلام في قول النبي ﷺ : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وبأي الألسنة نزل ، والرد على من قال : إن فيه أشياء من غير الكلام العربي ، وتفسير أسماء القرآن ، والسور ، وغير ذلك مما قدمه ، ثم تلا بتأويل القرآن حرفاً حرفاً ، فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين ، وكلام أهل الإعراب من الكوفيين والبصريين ، وجمالاً من القراءات ، واختلاف القراءة مما فيه من المصادر واللغات ، والجمع والتثنية ، والكلام في ناسخه ومنسوخه ، وأحكام القرآن ، والخلاف فيه ، والرد عليهم من كلام أهل النظر فيما تكلم فيه بعض أهل البدع والرد عليهم ، على مذاهب أهل الإثبات ، ومبتغى السنن إلى آخر الزمان»^(١).

وجاء اسم التفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ليكون دليلاً على المسمى ، ويكون مشيراً إلى المضمون ، وحقق الإمام الطبري ما قصده ، فصار تفسيره - بحق - يجمع وجوه البيان ، وأقوال العلماء ، وآراء المجتهدين ، واجتهاد الصحابة والتابعين في المأثور والمنقول ، والرأي والمعقول ، ووازن بين الآراء المختلفة ورجح ما وجده أقرب إلى الحق ، أو أقوى من اللغة وكلام العرب ، وبما هو ثابت في الشرع ، وأصح في العقل.

وقصد الطبري من كلمة التأويل معناها الاصطلاحي ، ليكون التأويل

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٣.

درجة بعد التفسير ، وللجمع بين الأمرين معاً ، فالأويل بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة ، أو أنه معرفة المعنى بالاجتهاد والاستنباط والرأي ، والاستدلال على ذلك ، بالأدلة المختلفة: العقلية والنقلية ، والتاريخية واللغوية ، مع استنباط الأحكام ، وتحديد العقيدة ، وبيان المراد من النص ، أما التفسير فهو معرفة المعنى بالنقل والرواية ، أو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة ، فالتفسير عند الطبري مقدمة للأويل ، وجاء تفسيره جامعاً بين التفسير والأويل ، والتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي^(١).

وكانت مصادر تفسير الطبري كثيرة من جهة ، ومتنوعة من جهة أخرى ، لأنه احتوى على العلوم الشرعية واللغوية والعقلية والتاريخية ، وأصبح من أكبر ذخائر الإسلام في عصره^(٢) ، فضم في جوانبه التفسير المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وما صح نقله عن التابعين الثقة ، كسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والحسن البصري ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن جريج ، ومقاتل بن حيان ، وتجنب النقل في «التفسير» عن محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان ، ومحمد بن عمر الواقدي ، لأنهم أظنوا في الحديث والتفسير ، ويستأنس برأيهم في التاريخ والسير وأخبار العرب ، كما اعتمد الطبري رحمه الله في تفسيره على كتب الحديث ، ومشهور كتب السنة في روايات التفسير ، واعتمد في اللغة والمعاني على كتب الكسائي والفراء والأخفش الأوسط

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٩١ ، التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين ص ٥١ ، التفسير والمفسرون ١/١٥١ ، البرهان ٢/١٤٦ ، الإنشاق ٢/١٤٢ ، ١٧٣ ، دراسات في الفكر المعاصر ١/٢٩٦ ، ٢٩٨ .

(٢) قال أبو محمد الفرغاني عن الطبري: «ثم من كتبه التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب ، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل» (سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٣).

وقطرب ، واستوعب الطبري جميع كتب تفسير التي صنفها قبله التابعون وتابعو التابعين ، ويضاف إلى ذلك كتب تفسير آيات الأحكام ، وعلم الجدل وأصول الدين ، فصاغها بأسلوبه البين ، وطريقته الحكيمة ، وعبارته الناصعة ، ومنهجه السديد ، لذلك قال السيوطي عنه : «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها»^(١).

واحتل تفسير الطبري - رحمه الله تعالى - مكان الصدارة عند العلماء ، وفي مجالس العلم ، وحظي بالثناء العاطر في مختلف العصور ، وانكب عليه الباحثون في الدراسة ، ينهلون من معينه ، ويرشفون من حوضه ، ويقتبسون من علومه ، فكان العمدة «عمدة المفسرين».

وانتشر تفسير الطبري في الآفاق ، وحاز شهرة عالمية ، وانكب الناس على نسخه وقراءته والاستفادة منه قديماً ، وحفظ الله هذا التفسير المبارك ، ونجا من الدمار والبلى ، والاندثار والحرق ، والإتلاف والعبث الذي أصاب كثيراً من التراث الإسلامي الزاخر ، خلال الفترات المظلمة ، والنكبات المدمرة ، والعدوان الأثيم على ديار المسلمين وحضارتهم ، وسارع المخلصون - في هذه الأمة - إلى خدمة هذا التفسير ، وإظهاره للنور ، ونشره في المكتبات والأسواق ، ووضعته تحت أيدي العلماء والباحثين وطلاب المعرفة ، وحاز آل الحلبي بالقاهرة قصب السبق إلى طباعته ونشره لأول مرة سنة ١٣٢١هـ بالمطبعة الميمنية ، فقالوا شرف الريادة في ذلك ، وكسبوا الأجر العظيم ، والثواب العميم عند الله تعالى ، ثم طبع للمرة الثانية في مطبعة بولاق الأميرية بمصر سنة ١٣٢٣هـ إلى سنة ١٣٣٠هـ ، وعلى هامشه تفسير

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٨٦/٢ ، ١٩٠ ، وقال السيوطي أيضاً : «أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله» وأرشد الناس إلى التعويل عليه . (المرجع السابق)

النيسابوري ، ثم أخرجه شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر في طبعة جديدة سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م ، وقام على تصحيح هذه الطبعة والعناية بها ، واستدراك الأخطاء والتحريف ، ومراجعة نسخ خطية - جديدة - هيئة من العلماء الأجلاء ، على رأسهم الأستاذ مصطفى السقا الذي كتب خاتمة للتفسير وتعريفاً به ، وبياناً لعمل اللجنة ، وأنهم عملوا في كل جزء ثلاثة فهارس للآيات المفسرة ، والموضوعات ، والقوافي ، وألحقوا بالجزء الثلاثين فهرسة جامعة للقوافي في جميع أجزاء الكتاب ، ثم قامت دار المعارف بمصر بأهم طبعات التفسير «تفسير الطبري» بتحقيق وضبط ، ومراجعة للنصوص والشواهد ، وتخريج للأحاديث والروايات والأخبار من الأديب المؤرخ العالم محمود شاكر ، والفقيه القاضي المحدث الشيخ أحمد شاكر ، وبدىء بهذه الطبعة سنة ١٣٧٤هـ ، وظهر منها حتى الآن ستة عشر جزءاً ، والجميع يسألون الله تعالى أن يُعين الأستاذ محمود شاكر بإتمامه وتحقيقه ، وأخيراً - وليس آخراً - فقد طبعت دار الفكر بلبنان تفسير الطبري ، تصويراً عن طبعة الحلبي الثانية ، مع حذف مقدمة الناشر ، واستبدالها بمقدمة للشيخ محيي الدين الميس مدير أزهر لبنان عن ترجمة الطبري ، ونبذة عن تفسيره في أربع صفحات ، وإضافة فهرس رابع للأحاديث النبوية في كل جزء ، وذلك سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ومن مظاهر أهمية «تفسير الطبري» والإقبال عليه ، قيام العلماء باختصاره وترجمته ، ليعم نفعه ، ويسهل تناوله ، فاختصره قديماً أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي (٤٨٤هـ) ، وطبعته دار الشروق على هامش المصحف عام ١٣٩٧هـ في ٧٢٤ صفحة من الحجم الكبير ، واختصره أيضاً أبو بكر أحمد بن علي بن بيغجور المعروف بابن الأخشيز من رؤساء المعتزلة وزهادهم ، ثم اختصره حديثاً الشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح أحمد رضا ، وطبعته دار القرآن الكريم في

بيروت عام ١٤٠٣هـ ، وترجم «تفسير الطبري» إلى اللغة الفارسية بأمر أبي صالح منصور بن نوح الساماني المتوفى سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م ، وترجم مختصراً آخر لشخص غير معروف إلى اللغة الفارسية ، كما ترجم إلى التركية ، وأخيراً قام الأستاذ فؤاد عبد الباقي بتصنيف «تخريج أحاديث وآيات وتعليق على تفسير الطبري» بالقاهرة سنة ١٩٥٨م^(١).

وإذا عدنا إلى تفسير الطبري وتحليل محتواه وجدنا أن الإمام الطبري رحمه الله تعالى لم يجرؤ على تفسير القرآن الكريم بمجرد الهوى والتشهي والرأي ، بل سار على منهج واضح ، وخطة حكيمة ، وقدم لكتابه بمقدمة عظيمة ومستفيضة بين فيها أصول علم التفسير ، ورسم قواعده وحدد شروطه ، وأقام السياج الأمين للحفاظ على مقاصد الشريعة ، فكان الطبري - بحق - مؤسس أصول التفسير ، وباني حدوده وقواعده ، مما يُوجب انفراده بكتاب مستقل ، لضمان الفهم السليم لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتحقيق الاستفادة الكاملة منه ، وجني الثمار من تدبره وفهمه وتفسيره وتأويله ، ولمنع الانحراف فيه قصداً أو بدون قصد ، واجتثاث العبث والتلاعب فيه ، ولم يضع الطبري هذه القواعد والأسس لتبقى نظرية وفلسفية ، بل قام بنفسه باتباعها ، والسير عليها ، والتزامها ، والاهتداء بنورها ، والاستفادة من شهادها.

قال الإمام الطبري: «ونحن في شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه ، منشئون - إن شاء الله ذلك - كتاباً ، مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً ، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً ،

(١) انظر تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٧ ، الفهرست ص ٣٢٧ ، تاريخ الأدب العربي ٢/٤٩ ، الأعلام ١/١٦٥ ، ويقوم الآن أحد طلابنا المتخرجين من كلية الشريعة بطبع مختصر الطبري لابن صمادح في بيروت.

ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا في اتفاق الحجة فيها اتفقت عليه الأمة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، موضحو الصحيح لدينا من ذكر ، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه ، والله نسأل عونه وتوفيقه ، لما يقرب من محابه ، ويبعد من مساخطه^(١) ثم شرع الطبري بتفصيل منهجه في أصول التفسير ، مع ذكر الأدلة الشرعية واللغوية ، وضرب الأمثلة العملية من القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام العرب واللغة والشعر .

ولخص لنا الأستاذ الفاضل محمد محمود الحلبي - في كلمة الناشر للطبعة الثالثة - منهج الطبري باختصار ، فقال :

«وهو تفسير ذو منهج خاص ، يذكر الآية أو الآيات من القرآن ، ثم يعقبها بذكر أشهر الأقوال التي أثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة في تفسيرها ، ثم يورد - بعد ذلك - روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلها ، أو في بعض أجزائها ، بناء على خلاف في القراءة ، أو اختلاف في التأويل ، ثم يعقب على كل ذلك بالترجيح بين الروايات ، واختيار أولها بالتقدمة ، وأحقها بالإيثار ، ثم ينتقل إلى آية أخرى ، فينهج نفس النهج : عارضاً ، ثم ناقداً ، ثم مرجحاً» .

«وهو إذ ينقد ، أو يرجح النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال السند في القوة والضعف ، أو إلى مقاييس علمية وفنية ، من الأحكام إلى اللغة التي نزل فيها الكتاب ، نصوصها وأقوال شعرائها ، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها ، ومن رجوع إلى ما تقرر بين العلماء من أصول العقائد ، أو أصول الأحكام أو غيرها من ضروب المعارف التي

(١) تفسير الطبري ٥/١ .

أحاط بها ابن جرير ، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره»^(١).

ونكتفي في هذا المجال بهذا القدر الموجز من منهج الطبري في التفسير ، لنترك تفصيله وبيانه إلى مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى .

وأخيراً نشير إلى أن تفسير الطبري لم يسلم من النقد ، وأورد العلماء عليه بعض المآخذ؛ منها أن الطبري رحمه الله تعالى لم يطبق منهجه النقدي الكامل للأسانيد على جميع ما جاء في تفسيره ، مع وجود بعض الروايات الضعيفة التي لم ينبه عليها ولم يكتشفها ، كما حشد في تفسيره مجموعة من الروايات الإسرائيلية والأساطير وقصص الوعظ الخيالية ، واكتفى بسردها وذكرها ، وسكت عنها ، فكانت سبباً للتسرب إلى كتب التفسير مع حذف أسانيدها ، وفند الأستاذ محمود شاكر هذه الشبهة ، وبين مقصد الطبري من ذكر ذلك ، مع تقييدها بالسند ، وأن الطبري لا يحمل جريرة المفسرين بعده الذين أفشوها مرسله في كتبهم ، كما أخذ الطبري أنه ذكر بعض الروايات المتناقضة عن ابن عباس رضي الله عنه ، ولم يرجح واحدة على أخرى ، وأنه انتقد بعض القراءات المتواترة ، وأبهم أسماء بعض علماء العربية الذين أخذ منهم .

والطبري ليس معصوماً ، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب النبوة والوحي ، كما قال الإمام مالك ، وكتاب الطبري يبلغ ستة آلاف صفحة ، فليس غريباً أن ترد عليه بعض المآخذ ، وتصدر منه بعض الأخطاء ، ولكنها أخطاء محدودة ، ومآخذ معدودة لا تتجاوز عدد الأصابع ، وينطبق عليه المثل العربي في قول الشاعر: «كفى بالمرء نبلاً أن تعد معاييه» وقد شهد إمام اللغة غلام ثعلب أنه قرأ جميع التفسير ولم يجد

(١) تفسير الطبري ، المقدمة ٤/١ .

فيه خطأ في اللغة والنحو ، وأخطاء الطبري - والحمد لله - ليست في العقيدة وأصول الدين ، ولا في أركان الإسلام ، وقواعد الشرع ، ولا في الأحكام القطعية ، ولا في النصوص الثابتة ، ولا في معاهد الإجماع ، ويمكن للطبري - رحمه الله - أو لغيره أن يعتذر عن هذه المثالب البسيطة ، أو يرد عليها ، ويناقش فيها ، وهي في مجملها لا تظهر للعيان ، ولا تقف أمام عمله الجبار ، وجهده المبارك ، وثوابه الكبير ، ومكانته المرموقة ، فالمجتهد إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر .

ولنا الأمل الوطيد أن تتضاعف الدراسات الإسلامية في تفسير الطبري ، لاستخراج فقهه وآرائه ومذهبه ، وجمع الشواهد الشعرية منه ، وإفراد آيات الأحكام في كتاب مستقل ، وتبذل الجهود الخيرة في طبعه ونشره ، ليعم نفعه ، ويستمر عطاؤه ، ولينتفع الناس به ، سائلين الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وجلاء أحزاننا ، وأن يرزقنا تلاوته والعمل به آناء الليل وأطراف النهار ، وأن يجعلنا ملتزمين أحكامه وتربيته ، ونوره وهده ، والحمد لله رب العالمين .



أهم مصادر البحث

- ١ - الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- ٢ - الأعلام ، خير الدين الزركلي - الطبعة الثالثة - بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- ٣ - إنباه الرواة على أنباء النحاة ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (٦٤٦هـ) مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- ٤ - البداية والنهاية ، للحافظ المؤرخ ابن كثير (٧٧٤هـ) تصوير عن الطبعة الأولى - ١٩٦٦م.
- ٥ - البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ) ، الطبعة الأولى/ القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.
- ٦ - تاريخ الأدب العربي ، كارول بروكلمان ، الجزء الثالث ، طبع دار المعارف بمصر سنة - ١٩٦٢م.
- ٧ - تاريخ بغداد ، للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) طبعة الخانجي بالقاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.
- ٨ - تاريخ التراث العربي ، الدكتور فؤاد سزكين ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ٩ - تذكرة الحفاظ ، للإمام شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) تصوير دار إحياء التراث العربي - بيروت ، بلا تاريخ.

- ١٠ - التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه ، الدكتور محمد أبو النور الحديدي ، نشر مكة المكرمة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١١ - تفسير الطبري - جامع البيان ، الإمام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
- ١٢ - تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) ط ٣ ، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ١٣ - التفسير والمفسرون ، للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي ، طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ١٤ - تمام الدراية - إتمام الدراية -، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) مطبوع على هامش مفتاح العلوم ، القاهرة - ١٣١٧هـ .
- ١٥ - تهذيب الأسماء واللغات ، محيي الدين بن شرف النووي (٦٧٦هـ) تصوير دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٦ - دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ، الدكتور فتحي الدريني ، طبع دار قتيبة بدمشق ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٧ - روضات الجنات ، الميرزا محمد باقر الخوانساري (١٣١٣هـ) طبع طهران سنة ١٣٩٢هـ .
- ١٨ - سير أعلام النبلاء ، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٩ - طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي (٧٧١هـ) عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .
- ٢٠ - طبقات الفقهاء ، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي (٤٧٦هـ) دار الرائد العربي - بيروت ١٩٧٠م .

- ٢١ - طبقات القراء ، للإمام محمد بن محمد الجزري (٨٣٣هـ) تصوير دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٢٢ - الفهرست ، محمد بن إسحاق ، ابن النديم (٤٣٨هـ) تصوير دار المعرفة ، بيروت ، بلا تاريخ .
- ٢٣ - معجم الأدباء ، ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ) مطبعة المأمون بالقاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .
- ٢٤ - مفتاح السعادة ، أحمد بن مصطفى ، طاش كبري زاده (٩٦٨هـ) مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٩٦٨م .
- ٢٥ - ميزان الاعتدال ، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
- ٢٦ - النقاية من إتمام الدراية ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) على هامش مفتاح العلوم ، القاهرة ١٣١٧هـ .
- ٢٧ - وفيات الأعيان ، أحمد بن محمد بن خلكان (٦٨١هـ) مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .



الغزالي الفقيه

وكتابه الوجيز

الغزالي أحد أعلام الإسلام ، وأبرز شخصيات التاريخ ، ومن النبلاء المعروفين ، ومن أشهر مشاهير العلماء ، ومن كبار الفقهاء ، وأحد رجال التاريخ ، تجاوزت علومه ومعارفه ومعالمه حدود العروبة والإسلام ، وأصبح شخصية عالمية مشهورة ، ومعروفاً في جميع الأوساط العلمية ، وكانت ثقافته وعطاءاته متنوعة في التصوف وأصول الدين ، وفي الفقه وأصول الفقه ، وفي الأخلاق والتربية ، وفي الوعظ والتدريس ، وترك في كل فن منها كتاباً فأكثراً .

والوجيز أحد كتب الغزالي الفقهية ، الذي تبوأ مكانة عالية في المكتبة الإسلامية ، وكان له أثر كبير بين الفقهاء ، ويمثل حلقة مهمة في كتب الفقه في المذهب الشافعي .

✽ مخطط البحث :

وسوف نخصص الكلام عن الغزالي الفقيه مع دراسة كتابه الوجيز ، وقد قسمنا الموضوع إلى قسمين وخاتمة ، وتحت كل قسم عدة فقرات ، كما يلي :

القسم الأول: الغزالي فقيهاً ، ونبين فيه سيرته في دراسة الفقه ،

وأشهر أساتذته وزملائه ، كتبه الفقهية ، تلاميذه في الفقه ، مكانته الفقهية ، وثناء العلماء على الغزالي فقيهاً.

القسم الثاني: التعريف بكتاب الوجيز:

ونبين فيه اسم الكتاب ، ونسبته إلى الغزالي ، طبعه ونشره ، منهج الكتاب وأسلوبه ، ترتيب الكتاب ، المصطلحات الفقهية فيه ، ألفاظ الترجيح ، مكانة الكتاب ، شروحه .

الخاتمة .

القسم الأول: الغزالي فقيهاً:

لقد تبوأ الغزالي الدرجات العليا في التفوق والشهرة في القديم والحديث ، ووصل إلى هذه المكانة من عدة جوانب ، وفاق أقرانه ، ومن سبقه ، ومن لحقه ، بعدة علوم ، فإذا ذكر علم أصول الدين والعقيدة والتوحيد فالغزالي في القمة ، وإذا بحثنا في التصوف والأخلاق فالغزالي في الذروة ، وإذا تناولنا الفقه فالغزالي فقيه معتمد ، وأصولي ثقة ، ورئيس في ذلك ، وإذا عرضنا الوعظ والتدريس والتربية فالغزالي قدوة ومعلم ومرب للنفوس والقلوب والعقول والجوارح ، وإذا عدنا إلى علم الجدل والمنطق والفلسفة فالغزالي أنظر أهل زمانه ، وهو فيلسوف الإسلام بلا منازع ، وقد أفحم فلاسفة اليونان والإغريق ، وكشف تهافتهم وتناقضهم ، ونقتصر في بحثنا على الجانب الفقهي عند الغزالي .

والفقه أحد العلوم الإسلامية المهمة ، الذي يبحث في معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، وهو من أجل العلوم قدراً ، وأرفعها شأنًا ، لأنه يوصل إلى معرفة أحكام الله تعالى في الحلال والحرام ، والجائز والممنوع ، ويرشد الإنسان إلى معرفة المنهج الإلهي في السلوك الفردي والاجتماعي ، ويعبد الطريق السوي لتنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقة الإنسان بربه في العبادات ، وعلاقة الإنسان بأخيه

الإنسان في المعاملات ، ويرسم الخط القويم لتحديد علاقة الأفراد مع بعضهم ، رؤساء ومرؤوسين ، كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء ، مسلمين وذميين ، حكاماً ومحكومين ، قضاة ومدعين ، علماء ومتعلمين ، عمالاً وأرباب عمل .

وكان الفقه في القرن الرابع والخامس الهجريين في مرحلة النضج والكمال ، وتوفر في هذين القرنين علماء كبار ، وفقهاء أجلاء ، قاموا على رعاية الفقه ، والعمل على التوسع به ، والاجتهاد فيه ، وتركوا مصنفات كثيرة ، ومجلدات عظيمة ، وموسوعات فقهية خالدة ، وجاء الغزالي فدخل في هذا الخضم ، وكان فيه فاعلاً ومؤثراً ، ومحرضاً وموجهاً ، وباحثاً ومؤلفاً .

سيرة الغزالي الفقهية:

اسمه محمد بن محمد بن أحمد ، الطوسي ، الإمام الجليل ، أبو حامد الغزالي ، المعروف بحجة الإسلام .

ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ ، وكان أبوه يتضرع إلى الله تعالى بالدعاء ، ويسأله أن يرزقه ابناً ، ويجعله فقيهاً ، فكان أبو حامد الغزالي فقيه عصره ، وإمام وقته .

قال ابن السبكي : «أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه ، وإمام أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، كلمته شهد بها الموافق والمخالف ، وأقر بحقيقتها المعادي والمخالف»^(١) .

بدأ أبو حامد الغزالي في طلب الفقه منذ نعومة أظفاره ، وقرأه في صباه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني^(٢) ، ثم سافر إلى جرجان فأخذ

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٩٤/٦ .

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٩١/٤ ، ١٩٥/٦ ، ٢٠٤ ، تبين كذب المفتري =

الفقه عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وعلق عنه «التعليقة» ، ثم رجع إلى طوس ، وفي الطريق هاجمه اللصوص ، وسلبوه كتبه وماله ، فتوسل إليهم برد التعليقة» قائلاً: «هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها» ، فأجابوا طلبه ، وردوها إليه ، فسعى إلى حفظها عن ظهر قلب حتى لا تضيع عليه مرة ثانية ، قائلاً: «فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال بها ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقت ، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي»^(١) ، وبقي مدة في طوس يتفقه ، ويطلب العلم ، ويبحث في أطرافه وجوانبه .

ولما بلغ الغزالي سن الشباب قدم نيسابور في طائفة من الشبان من طوس ، ولازم إمام الحرمين الجويني في الدروس والإفتاء ، وجدّ واجتهد في طلب الفقه حتى برع في معرفة الفقه على المذهب الشافعي ، ومعرفة الخلاف مع بقية الأئمة ، وفاق أقرانه في الفهم والحفظ والإلقاء والبيان وحل المعضلات حتى وصفه أستاذه الجويني فقال: «إنه بحر مغدق» لشدة ذكائه ، ودقة نظره ، وسلامة فطرته ، وفرط إدراكه ، وقوة حافظته ، وجراته في الغوص على المعاني الدقيقة ، ولما طالت مجالسة الغزالي لإمام الحرمين الجويني امتعض الأستاذ من تلميذه في الباطن ، لما رأى عليه من النجاسة ، وحسن المنطق ، وسرعة البديهة ، وقوة المناظرة ، وحسن البيان في الحديث والتأليف ، وجلب الأنظار إليه ، وإن كان الجويني يُظهر التبجح به في الظاهر^(٢) .

ولما مات إمام الحرمين الجويني سنة ٤٧٨ هـ خرج الغزالي إلى

= ص ٢٩١ .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٩٥/٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٣/٣٥٣ تبين كذب المفترى ص ٢٩٢ ، طبقات الشافعية الكبرى

١٩٦/٦ .

«المعسكر» الذي يقيم فيه نظام الملك ، ويجتمع عنده أهل العلم ، فناظر الغزالي أئمة العلماء في مجلس نظام الملك ، وظهر عليهم ، فاعترفوا بفضله ، وقربه نظام الملك ، وولاه التدريس في «المدرسة النظامية» ببغداد.

وقدم الغزالي ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وتولى تدريس الفقه بالنظامية ، ومارس الإفتاء والتصنيف حتى ذاع صيته ، وارتفع شأنه ، وعرفه الناس ، وأقبلوا على دروسه ، ورحل إليه الطلاب والعلماء ، وصار إمام العراق ، بعد أن كان إمام خراسان ، وبقي في بغداد أربع سنوات يفيد أهلها ، وينشر الفقه فيها.

ثم ذهب إلى أداء فريضة الحج ، وقدم الشام ، وأقام بدمشق ، ينهل الطلاب من معينه ، ويغترف العلماء من فضله ، ويجيب عن أسئلة المستفتين .

واستفاد الغزالي من تجواله وكثرة رحلاته في البلاد ، فجالس العلماء وناظرهم ، واستفاد منهم ، واطلع على نتائج غيره ، وعاد إلى خراسان ، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة ، ثم رجع إلى بلده في مدينة طوس ، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على العبادة ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، إلى أن انتقل إلى جوار ربه في جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ ، بعد أن كان إمام أئمة الدين ، وشيخ المذهب الشافعي في عصره ، وفيلسوف المسلمين في وقته ، وقد اشتهر اسمه ، وسارت الركبان بذكره ، ولهجت الألسنة بفضله ، وانتشرت كتبه في الأصقاع^(١).

(١) المراجع السابقة.

زملاء الغزالي:

وتتميّماً للفائدة نذكر أشهر زملاء الغزالي وقرناه لبيان مكانته ،
ومعرفة درجته منهم:

١ - إسماعيل بن عبد الملك بن علي ، أبو القاسم الحاكمي ، من أهل طوس ، ومن تلامذة إمام الحرمين الجويني ، برع في الفقه ، وسافر إلى العراق والشام مع الغزالي ، وكان شريكاً له في الدرس ، وكان أكبر سناً منه ، فكان الغزالي يكرمه ويقدمه على نفسه ، ويخدمه أحياناً ، ويظهر له الاحترام والتقدير لكبر سنه ، وتوفي سنة ٥٢٩ هـ ، ودفن إلى جانب الغزالي ، وكان الحاكمي إماماً ورعاً بارعاً ، حسن السيرة^(١).

٢ - علي بن محمد بن علي ، الإمام شمس الإسلام ، أبو الحسن ، المعروف بـ (إلكيا الهراسي) ، عماد الدين ، أحد فحول العلماء ، ورؤوس الأئمة فقهاء وأصولاً وجدلاً وحفظاً لمتون أحاديث الأحكام ، تفقه على إمام الحرمين الجويني ، وهو أجل تلامذته بعد الغزالي توفي سنة ٥٠٤ هـ ببغداد.

قال ابن عساكر عنه: «وكان حسن الوجه ، مطابق الصوت للنظر ، مليح الكلام ، فحصل طريقة إمام الحرمين ، وتخرج به فيها وصار من وجوه الأصحاب ، ورؤوس المعيدين في الدرس ، وكان ثاني الغزالي ، بل أملح وأطيب في النظر والصوت ، وأبين في العبارة والتقدير منه ، وإن كان الغزالي أحد وأصوب خاطراً ، وأسرع بياناً وعبارة منه»^(٢).

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٤٧/٧ ، البداية والنهاية ٢٠٩/١٢.

(٢) تبیین کذب المفتری ص ٢٨٨ وما بعدها ، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٣١/٧ ، وفيات الأعيان ٤٤٨/٢ ، البداية والنهاية ١٧٢/١٢.

٣ - أحمد بن محمد المظفر ، الإمام أبو المظفر الخوافي النيسابوري ، لازم إمام الحرمين ، وكان من عظماء أصحابه ، وأخصاء طلابه ، يذاكره ليله ونهاره ، ويسامره علانية ، إذا دجا الليل وماج في أسراره ، وكان الإمام يعجب بفصاحته ، ويشني على حسن مناظراته ، ويصفه بالفضل ، وكان في المناظرة أوحده زمانه ، وأنظر أهل عصره ، أسداً لا يصطلى له بنار ، توفي بطوس سنة ٥٠٠ هـ ، قال ابن عساكر : « كان حسن العقيدة ورع النفس ، ما عهدنا عليه هنات قط ^(١) » ، ولي القضاء بطوس ونواحيها .

هؤلاء أشهر زملاء الغزالي الذين تتلمذوا معه على إمام الحرمين الجويني الذي وصفهم بقوله : « الغزالي بحر مغدق ، وإلكيا أسد مُحرق ، والخوافي نار تحرق » ^(٢) .

كما كان إمام الحرمين ينادي الغزالي بقوله : « يا فقيه » ، ويقول الجويني أيضاً في تلامذته الثلاثة إذا ناظروا : « التحقيق للخوافي ، والحدسيات للغزالي ، والبيان لإلكيا الهراسي » ^(٣) .

آثار الغزالي الفقهية :

كان الغزالي من فقهاء الشافعية باتفاق العلماء ، وقد شارك في خدمة الفقه عامة ، والمذهب الشافعي خاصة في عدة مجالات ، حتى صار شيخ الشافعية في عصره ، وإمام المذهب في وقته ، وقطب الرحا لمدرسة الشافعية تدريساً وإفتاء وتصنيفاً ، حتى فتح الآذان إلى الفقه ، وبث الحياة والحركة في المذهب الشافعي ، فقد تولى تدريس الفقه الشافعي والإفتاء

(١) تبين كذب المفتري ص ٢٨٨ ، وانظر : طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٦٣ ، وفيات الأعيان ١/ ٨٠ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٦٨ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٩٦ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨٥ ، ٢٠٢ .

به في «نظامية بغداد» ثم «نظامية نيسابور» وفي مجالس التدريس في المساجد والبلاد التي رحل إليها ، كالزاوية الغربية في الجامع الأموي بدمشق ، وفي القدس ، ومكة وغيرها ، ولما استقر في بلده طوس أنشأ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وطلبة العلم . صرف نفسه إليها ، مع الاشتغال بالأحوال الأخرى ، وكان قد انقطع فترة للعبادة والزهد ، لكنه عاد إلى التدريس والوعظ والإفتاء ، وقال : «ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق علي أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه» قال عبد الغافر : «وكان صادقاً في ذلك»^(١) وسوف نذكر - فيما بعد - أهم تلاميذه في الفقه ، ونعرض فيما يلي لكتبه وفتاويه .

كتب الغزالي الفقهية :

لم يقتصر نشاط الغزالي في الفقه على التدريس ، بل اتجه إلى التأليف والتصنيف ، وشارك في الكتابة ، وكان الغزالي من أخص تلاميذ إمام الحرمين الجويني ، ومن أنجب طلابه ، فلازمه كثيراً ، وجلس بين يديه ، ثم أخذ عنه عدة علوم ، وبدأ بالفتوى والتدريس والتصنيف في حياة أستاذه الجويني ، فعكف على كتاب الجويني «نهاية المطلب في دراية المذهب» وهو أهم كتاب في الفقه الشافعي في ذلك الوقت ، فاختصره في كتابه «البيسط» الذي يقع في عدة مجلدات كبيرة^(٢) ولم يقف عند هذا الحد ، بل كان متجاوباً مع الواقع في حب الاختصار ، وفي مراعاة مستويات الطلاب ، وفي تقدير حاجة الباحثين والعلماء ،

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢١٠/٦ .

(٢) يوجد من كتاب «البيسط» نسخة مخطوطة ناقصة منه في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وتحوي الأجزاء الأول والرابع والخامس والسادس ، ولم يطبع «البيسط» حتى الآن ، انظر (فهرس مخطوطات الفقه الشافعي ص ٣٥ وما بعدها ، كشف الظنون ١/١٩٧) .

ومنسجماً مع الوقت بحسب الظروف واختلاف المناسبات ، فاختصر البسيط في كتابه «الوسيط» ويقول في مقدمة الوسيط^(١): «وكان تصنيفي البسيط في المذهب مستديعاً همة عالية... فصنفت هذا الكتاب ، وسميته الوسيط»^(٢) ويقع الوسيط في ستة مجلدات ، فاختصره الغزالي أيضاً في كتابه «الوجيز» في جزأين ، وسوف نفرده بالدراسة ، ثم اختصر الغزالي نفسه الوجيز في كتابه «الخلاصة».

وبذلك تكون كتب الغزالي في الفقه أربعة: وهي البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة ، وهي التي ذكرها شعراً أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسي ، مشيداً بفضلها ، ومنوهاً بمكانتها ، ومكانة الغزالي ، فقال:

شَيْدَ الْمَذْهَبِ حَبْرٌ أَحْسَنَ اللَّهُ خِلَاصَهُ
فِي بَسِيطٍ وَوَسِيطٍ وَوَجِيزٍ وَخِلَاصَهُ

ويضاف إلى كتب الغزالي الفقهية وآثاره في المذهب الشافعي أمران:

الأول: كتاب الفتاوى وهي أجوبة عما استفتاه به بعض الفقهاء ، وسماها ابن السبكي: «الفتاوى» المجموعة المشهورة ، ونقل طرفاً منها^(٣).

الثاني: إحياء علوم الدين الذي بحث فيه الغزالي كثيراً من أحكام الفقه ، بمنهج خاص ، وأسلوب مستقل ، وكان يهدف فيه إلى غير ما يهدف في

(١) يوجد من «الوسيط» نسخة مخطوطة ناقصة في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وتحوي نسختان منه على ثلاثة أجزاء ، والنسخة الثالثة على جزأين (انظر: فهرس مخطوطات الفقه الشافعي ص ٣٠٧ وما بعدها ، كشف الظنون ٢/٦٣٣).

(٢) انظر: الغاية القصوى في دراية الفتوى ، المقدمة ١/١٢٣.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦/٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ويوجد من هذه الفتاوى نسخة خطية كاملة ضمن مجموعة في دار الكتب الظاهرية بدمشق (انظر فهرس مخطوطات الفقه الشافعي ص ١٩٩).

غيره من كتب الفقه من بيان الحكم الشرعي مع دليله ، أما في «الإحياء» فيعرض إلى بيان فلسفة الأحكام الشرعية ، والأثر النفسي والروحي لها ، والترغيب بها ، والترهيب من تركها ، وبيان فضائلها المأثورة والمعقولة وأقوال الحكماء والصالحين فيها ، والحكم الشرعية من إيجادها والأحاديث والآيات التي تتعلق بها ، بحيث يثير في النفس العاطفة الجامحة إلى التسليم بها ، والالتزم بحدودها ، وعدم الخروج عنها .

أهمية كتب الغزالي الفقهية :

تتبع كتب الغزالي الفقهية مكانة رفيعة في المذهب الشافعي ، لأنها تمثل عدة حلقات من سلسلة كتب الفقه للمذهب الشافعي ، ابتداء من الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، وانتهاء بالكتب المعتمدة في فقه المذهب في عصرنا الحاضر التي يرجع إليها الفقهاء والمفتون والقضاة والعلماء والباحثون لمعرفة الحكم الشرعي في المذهب الشافعي .

وأول حلقات هذه السلسلة تبدأ من كتاب «الأم» للإمام الشافعي نفسه ، ثم جاء بعده المزملي فاخصر كتاب الأم في كتابه «مخصر المزملي» المطبوع على هامش الأم في الأجزاء الخمسة الأولى منها ، ثم جاء إمام الحرمين الجوملي ، وشرح «مخصر المزملي» في كتابه الكبير القيم «نهاية المطلب في دراية المذهب» .

ثم جاءت الحلقات التي صاغها حجة الإسلام الغزالي ، فاخصر «نهاية المطلب» في «البسيط» ثم اخصر البسيط في كتابه الوسيط ثم اخصر الوسيط في كتابه «الوجيز» ثم اخصره في كتابه «الخلاصة» ، فهذه أربع حلقات في سلسلة كتب الفقه للمذهب الشافعي .

وصارت كتب الغزالي الفقهية محط الأنظار ، انتشرت في حياته ، وتلقاها الطلاب والفقهاء والعلماء بالقبول ، وتداولوها بالتدريس ، وعكفوا عليها بالدراسة والتمحيص ، وتصنيف الشروح والحواشي ، أو

الاختصار والتعليقات ، وبينوا في مصنفات كثيرة لغاتها وأحكامها ، وما وقع فيها من خطأ لتنقيحها ، وما فيها من شائبة لتخليصها ، ولتنبيه الناس المقبلين عليها من المآخذ والهفوات فيها .

ولم تقف سلسلة الفقه الشافعي عند الغزالي وكتبه ، بل بقيت في حركة دائبة في الاتجاه الصحيح إلى الأمام ، واستمر العمل بها ، واتصلت حلقاتها ، ولكن الجديد في الأمر أنه ظهر إلى جانب السلسلة الأصلية حلقات فرعية مهمة وأساسية .

أما السلسلة الأصلية فتابعَت تطورها من «الخلاصة» للغزالي فجاء الإمام الرافعي ، وهو محقق المذهب وشيخه ، فاختصر «الخلاصة» في كتابه «المحرر» فاختار الأقوال الراجحة ، والآراء المعتمدة ، وصوّب الكثير من آراء الغزالي وترجيحاته ، ثم جاء الإمام النووي ، وهو المحقق الثاني للمذهب وشيخه ، فاختصر كتاب المحرر في كتابه «منهاج الطالبين» المعروف بالمنهاج ، فأكمل فيه النووي تدقيق المسائل ، وتنقيح المذهب ، وتحقيق الآراء ، وصار كتاب النووي رحمه الله «المنهاج» هو المعتمد عند الشافعية ، وأكب عليه الفقهاء منذ سبعة قرون ، وحتى الآن ، لبيان القول الراجح في المذهب ، وهو القول الذي يفتي به المفتون ، ويحكم به القضاة الشافعية ، وتناول العلماء والفقهاء هذا الكتاب «المنهاج» بالشروح والحواشي والتعليقات ، وهي معظم كتب الشافعية المتداولة في أيدي الناس اليوم ، وطبع كثير منها ، مثل «شرح جلال الدين المحلي» ٨٦٤ هـ وعليه «حاشيتا قليوبي وعميرة» و«مغني المحتاج» للخطيب الشربيني (٩٩٧ هـ) في أربعة أجزاء كبيرة ، و«تحفة المحتاج» لابن حجر الهيتمي (٩٧٢ هـ) في عشر مجلدات وعليه «حاشيتا الشرواني والعبادي» ، و«نهاية المحتاج» للشهاب الرملي المعروف بالشافعي الصغير (١٠٠٤ هـ) وعليه «حاشية الشبراملسي» (١٠٨٧ هـ) وحاشية المغربي (١٩٠٦ هـ) في ثمانية أجزاء كبيرة ، وهذه

هي سلسلة كتب الفقه على المذهب الشافعي ، ابتداء من الإمام الشافعي ، وحتى عصرنا الحاضر .

وظهر إلى جانب هذه السلسلة الأصلية حلقات فرعية ، تنطلق من كتب الغزالي الفقهية ، وهذا سبب اهتمامنا بها ، وتعرضنا لها .

فالوسيط للغزالي حاز قصب السبق في كتبه ، وانتشر بين أيدي الطلاب والعلماء ، واشتغل به الناس في الدراسة والتدريس ، يقول الإمام النووي رحمه الله عند عرضه لكتب المذهب الشافعي : « واشتهر منها لتدريس المدرسين ، وبحث المشتغلين » المذهب « للشيرازي ، و«الوسيط» للغزالي ، وقد وفر الله الكريم دواعي العلماء من أصحابنا رحمهم الله على الاشتغال بهذين الكتابين ، وما ذلك إلا لجلالتهما ، وعظم فائدتهما ، وحسن نية ذينك الإمامين ، وفي هذين الكتابين دروس المدرسين ، وبحث المحصلين المحققين ، وحفظ الطلاب المعتنين فيما مضى ، وفي هذه الأعصار ، وفي جميع النواحي والأمصار»^(١) .

وقال ملا كاتب جلبي عن «الوسيط في الفروع» ، «وهو ملخص من بسيطه ، مع زيادات ، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية ، التي يعول عليها ، كما ذكره النووي في تهذيبه»^(٢) ، ثم ذكر المؤلف أهم الشروح والمختصرات التي انطلقت من «الوسيط» وعدد منها سبعة عشر شرحاً ومختصراً^(٣) ، ويضاف إليها كتاب القاضي البيضاوي القيم المفيد «الغاية القصوى في دراية الفتوى» الذي اختصر فيه الوسيط بعبارة دقيقة وأسلوب محكم ، وجمل سليمة ، ولغة فصحي ، مع اختيار الأقوال

(١) المجموع للنووي ٦/١ .

(٢) كشف الظنون ٦٣٣/٢ ، وانظر : تهذيب الأسماء ٣/١ .

(٣) انظر : كشف الظنون ٦٣٣/٢ .

الراجعة ، والآراء المعتمدة في المذهب ، مقرونة بالأدلة والتعليل باختصار وتركيز .

فالوسيط وشروحه ومختصراته تمثل الحلقة الفرعية المستقلة لسلسلة كتب الفقه الشافعي ، وامتدت هذه الحلقة من الوسيط للغزالي .

كما ظهرت حلقة فرعية أخرى مستقلة تمتد من كتاب «الوجيز للغزالي» نكتفي هنا الإشارة إليها ، وسوف نذكرها تفصيلاً في القسم الثاني من البحث ، وهذه الحلقة الثانية أهم من الأولى ، لأنها انتهت إلى محققي المذهب ، وهما الرافعي والنووي ، وأصبح آخر حلقاتها كتاباً معتمداً ومتداولاً ومقبولاً في المذهب ، وتتلخص هذه الحلقة بأن الإمام الرافعي شرح «الوجيز» للغزالي في كتابه المشهور الكبير «فتح العزيز في شرح الوجيز» وجاء الإمام النووي رحمه الله باختصر كتاب «فتح العزيز» في كتاب «روضة الطالبين» الذي طبع كاملاً في دمشق ، في اثني عشر جزءاً ، وهو كتاب معتمد في المذهب ، وهو اختصار وترتيب وتنقيح لشرح الوجيز .

تلاميذ الغزالي في الفقه :

لم تقتصر شخصية الغزالي الفقهية على الإفتاء والتصنيف ، بل كانت قبل ذلك وبعده تتمثل في التدريس والمناظرات الشفهية والمجادلات الدائمة والفتاوى المستمرة في بيان الأحكام الشرعية على التلاميذ والطلاب الذي جلسوا بين يديه ، وتفقهوا عليه ، ونهلوا من معينه ، وانتسبوا إلى المدارس التي يؤمها أو يقوم عليها ، حتى صار طلابه فقهاء وأئمة في حياته ، وامتداداً له بعد وفاته ونكتفي هنا بذكر أشهر تلاميذه في الفقه ، لبيان الصورة الكاملة عن آثار الغزالي الفقهية ، ونقتبس ترجمة مختصرة لكل منها من «طبقات الشافعية الكبرى» .

١ - إبراهيم بن محمد بن نبهان بن مُحَرِّز ، أبو إسحاق الغنوي الرقي ،
الصوفي ، تفقه على حجة الإسلام الغزالي ، وكتب الكثير من
تصانيفه ، وتوفي سنة ٥٤٣ هـ .

٢ - الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين ، أبو عبد الله ، ابن خميس
الجهني الكعبي ، من أهل الموصل ، تفقه على الغزالي ، وتوفي سنة
٥٥٢ هـ .

٣ - خلف بن أحمد ، من أصحاب الغزالي ، وتوفي قبله ، وله «شرح
مشكل الوسيط» ، وله عنه «تعليقة» .

٤ - رستم بن سعد بن سُلمك الخواري ، أبو الوفا بن أبي هاشم ، قاضي
خوار الري ، ورد بغداد في أيام الغزالي ، وتفقه عليه ، ولد سنة
٤٦٤ هـ ، ولم يذكر ابن السبكي تاريخ وفاته .

٥ - سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد ، أبو الحسن الأنصاري
المغربي الأندلسي ، المحدث ، رحل إلى أن دخل الصين ، وسكن
بغداد ، وتفقه بها على الغزالي ، توفي سنة ٥٤١ هـ .

٦ - سعيد بن محمد بن عمر بن منصور ، الإمام أبو منصور ابن الزراز ،
من كبار أئمة بغداد فقهاً وأصولاً وخلفاً ، تفقه على الغزالي ، وتوفي
سنة ٥٣٩ هـ .

٧ - شافع بن عبد الرشيد بن القاسم ، أبو عبد الله الجيلي ، من أئمة
الفقهاء ، تفقه على إلكيا الهراسي وأبي حامد الغزالي ، وتوفي سنة
٥٤١ هـ .

٨ - عامر بن دُعَش بن حصن بن دُعَش ، أبو محمد الأنصاري ، من أهل
السويداء بالشام ، رحل إلى بغداد ، وتفقه على الغزالي ، توفي سنة
٥٣١ هـ .

٩ - عبد الرحمن بن علي بن أبي العباس النعيمي ، الموفقي ، المعروف بالبارباباذي ، كان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالمذهب ، مناظراً ورعاً ، يؤم الناس ويخطب بهم ، خرج إلى طوس ، وأقام عند أبي حامد الغزالي مدة ، توفي سنة ٥٤٢ هـ.

١٠ - عبد الكريم بن علي بن أبي طالب ، الأستاذ أبو طالب الرازي ، تلميذ الغزالي ، وتفقه في بغداد على الغزالي وإلكيا الهراسي ، وكان الرازي يحفظ كتاب «الإحياء» للغزالي ، وكان صالحاً ديناً ، توفي سنة ٥٢٢ هـ.

١١ - عبد الواحد بن الحسن بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مخلد ، أبو الفتح الباقرجي ، من أولاد المحدثين ، كان فقيهاً أديباً ، استلم تدريس النظامية ببغداد مدة ، تفقه على إلكيا الهراسي ببغداد ، وعلى أبي حامد الغزالي ، توفي سنة ٥٥٣ هـ.

١٢ - علي بن سعادة ، أبو الحسن الجهنّي الموصلي السراج ، أحد علماء الموصل ، كان إماماً ورعاً عاملاً بعلمه ، تفقه في الجزيرة ، وارتحل إلى بغداد ، وعلق «التعليقة» عن أبي حامد الغزالي ، توفي سنة ٥٢٩ هـ بالموصل.

١٣ - علي بن محمد بن حمّويه بن محمد بن حمّويه ، أبو الحسن بن أبي عبد الله الصوفي ، صاحب الإمام أبي حامد الغزالي بطوس ، وتفقه عليه ، توفي سنة ٥٩٣ هـ.

١٤ - علي بن المسلم بن محمد بن علي بن الفتح أبو الحسن السلمي ، الفقيه الفرضي جمال الإسلام أحد مشايخ الشام الأعلام ، تفقه على الغزالي ، ولازمه مدة مقامه بدمشق ، وهو الذي أمره بالتصدر للتدريس والإفتاء بعد موت أستاذه نصر المقدسي ، وكان الغزالي يثني على علمه وفهمه ، وحكي أن الغزالي قال بعد خروجه من

الشام: «خلفت بالشام شاباً ، إن عاش كان له شأن» ، يعني جمال الإسلام ، فكان كما تفرس فيه ، وكان جمال الإسلام مدرساً بالزاوية الغزالية^(١) بدمشق مدة ، وكان عالماً بالفقه والتفسير والأصول والتذكير والفرائض والحساب ، توفي سنة ٥٣٠ هـ.

١٥ - علي بن المطهر بن مكي بن مقلص ، أبو الحسن ، الدينوري ، كان من تلامذة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، وتفقه عليه ، توفي سنة ٥٣٣ هـ.

١٦ - عمر بن محمد بن عكرمة الجزري ، الشيخ أبو القاسم بن البزري ، إمام جزيرة ابن عمر ومفتيها ومدرسها ، تفقه على الغزالي وغيره ، وكان ينعت بزين الدين جمال الإسلام ، وكان من أعلام المذهب وحفاظه ، توفي سنة ٥٦٠ هـ.

١٧ - محمد بن يحيى بن منصور ، محيي الدين ، أبو سعيد النيسابوري ، الإمام المعظم الشهيد ، تلميذ الغزالي ، تفقه عليه ، وبه عرف ، وشرح كتاب أستاذه «الوسيط في الفروع» وسمي شرحه المحيط ، ويقع في ستة عشر مجلداً ، ويقول صاحب كشف الظنون: «وأوقفه في المدرسة الصلاحية في جوار الشافعية»^(٢).

١٨ - مروان بن علي بن سلامة بن مروان الطنزي (قرية من ديار بكر) ،

(١) الزاوية الغزالية هي الزاوية الغربية من جامع بني أمية الكبير بدمشق ، درس فيها الغزالي أثناء إقامته بدمشق فنسبت إليه ، ودرس فيها عدد كبير من فقهاء الشافعية منهم الشيخ المصيصي تلميذ الغزالي ، بعد وفاة الشيخ نصر المقدسي ومنهم جمال الإسلام السلمي ، ومنهم الشيخ الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (٥٧٨ هـ) وغيرهم ، (انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٦/٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٢١).

(٢) كشف الظنون ٦٣٣/٢ .

أبو عبد الله ، ورد بغداد وتفقه بها على الغزالي وغيره ، توفي سنة ٤٥٠ هـ.

١٩ - نصر الله بن محمد بن عبد القوي ، الشيخ أبو الفتح المصيصي ، ثم اللاذقي ، ثم الدمشقي ، الإمام في الفقه والأصول والكلام ، توفي سنة ٥٤٢ هـ ، قال ابن السبكي : « وقد وقفت له على مسائل سألها للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، الأسئلة من خط نصر الله ، والأجوبة من خط الغزالي ^(١) ».

٢٠ - نصر الله بن منصور بن سهل الجنزي ، أبو الفتح الدويني (بلدة من أذربيجان) ، كان فقيهاً صالحاً ، مستوراً ، تفقه ببغداد على أبي حامد الغزالي ، ومات سنة ٥٤٦ هـ ببلخ ^(٢).

هؤلاء أهم تلاميذ الإمام الغزالي في الفقه ، الذين تفقهوا به ، ونبغوا في حياته ، وبعد وفاته ، أما عدد تلاميذه الكامل الذين أخذوا عنه في طوس ونيسابور وبغداد والشام فيصلون إلى الآلاف ، كما أن تلاميذه الذين نهلوا من كتبه ، ورشفوا من علومه ، واستفادوا من مصنفاته ، وعكفوا على دراستها وشرحها واختصارها والتعليق عليها ، فإنهم يصلون إلى الملايين طوال القرون التسعة الماضية من وفاته حتى الآن ، وسيبقى الغزالي إلى المستقبل ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، أستاذاً للمسلمين ومعلماً لهم ، وفقيهاً علماً ، لا يستغني عن كتبه دارس أو فقيه أو باحث أو مجتهد .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣٢١/٧ .

(٢) انظر تراجم هؤلاء التلاميذ الأعلام في (طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٣٦ ، ٨١ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٧٩ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ،

٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٢) .

ثناء العلماء على الغزالي الفقيه :

كانت شخصية الغزالي الفقيه جذابة للناس ، وفذة بين العلماء ، ومؤثرة في نفوس الطلاب ، وظهرت آثار شخصيته في الإفتاء والتدريس والتصنيف ، ولذلك أثنى عليه العلماء ثناء عاطراً ، وبينوا فضله ، وأشادوا بجهوده ، وعكفوا على كتبه التي خلدت ذكره ، ونحن نقتبس طرفاً من أقوال العلماء فيه لتوضيح ذلك .

قال عنه تلميذه الإمام محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني .

وقال أسعد الميهني : لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ ، أو كاد يبلغ ، الكمال في عقله^(١) .

وعدد ابن السبكي كتبه وقال : «له في المذهب الوسيط والبسيط ، والوجيز والخلاصة»^(٢) .

وقال ابن عساكر : «كان إماماً في الفقه مذهباً وخلافاً»^(٣) ، وقال أيضاً : «وجدت المذهب في الفقه ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف فحرر فيه أيضاً تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في بغداد ، حتى كان تغلب حشمته الأكابر والأمرء ودار الخلافة» وقال أيضاً : «إنه لم يخلف مثله بعد»^(٤) .

وقال ابن النجار عنه : «إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورباني الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين وقته وأوانه ، ومن شاع ذكره في البلاد ، واشتهر فضله بين العباد ، واتفقت الطوائف على تبجيله

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢٠٢ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢٢٤ ، وانظر : مفتاح السعادة ٣١/ ٢ ، ٣٤٨ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢١٤ .

(٤) تبين كذب المفتري ص ٢٩٢ ، ٢٩٦ .

وتعظيمه ، وتوقيره وتكريمه ، وخالفه المخالفون . . ، وسارت مصنفاته في الدنيا مسير الشمس في البهجة والجمال ، وشهد له المخالف والموافق بالتقدم والكمال»^(١) ، حتى وصلت كتبه في حياته إلى المغرب ، وأمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين بحرقها لما فيها من فلسفة^(٢).

وذكر الإمام فخر الإسلام أبو بكر الشاشي «أن الغزالي لما ولي درس النظامية ببغداد اجتمع عليه الفقهاء»^(٣) ، وقال الإمام المازري المالكي : «هو أعرف بالفقه منه بأصوله»^(٤).

ولما مات الغزالي رثاه الأديب ، أبو المظفر محمد الأبيوردي الشاعر المشهور ، بقصيدة ، منها قوله :

مضى وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه
كما رثاه الإمام إسماعيل الحاكمي متمثلاً بقول أبي تمام من قصيدة مشهورة ، منها :

عجبت لصبري بعده وهو ميت وكنت امراً أبكي دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب^(٥)

القسم الثاني : التعريف بكتاب الوجيز :

يتبين مما سبق أن كتاب الوجيز يمثل حلقة من سلسلة كتب المذهب الشافعي ، وأن الغزالي نال شهرة واسعة بكتبه الفقهية ، وأن شخصية الغزالي المشهورة فتحت المجال أمام انتشار كتبه ، وأن كتبه تلقاها

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢١٦/٦ .

(٢) المرجع السابق ٢١٩/٦ .

(٣) المرجع السابق ٢١٨/٦ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٢٤١/٦ .

(٥) وفيات الأعيان ٣٥٥/٣ .

العلماء بالقبول ، وعكفوا عليها بالدراسة والتدريس .

ولعل أكثر كتب الغزالي الفقهية انتشاراً ومعرفة هو «الوجيز» لأنه حوى ما تضمنته الكتب الأخرى ، وجمع آراء الفقه الشافعي ، ولأنه مختصر من جهة ، ومتوسط الحجم من جهة ثانية ، كما سنرى في منهجه وخطته ، ويسهل حفظه ودراسته من جهة ثالثة .

اسم الكتاب ونسبته إلى الغزالي :

اشتهر اسم هذا الكتاب بالوجيز في كل مكان وزمان ، وذكره الغزالي بالنص في مقدمته ، فقال : «أما بعد : فإني متحفك أيها السائل المتلطف ، والحريص المتشوف بهذا «الوجيز» الذي اشتدت إليه ضرورتك وافتقارك ، وطال في نيله انتظارك» (٣/١) .

وأجمعت كتب المراجع والمصادر والتاريخ ، وكتب الفهارس والمؤلفين ، على نسبة هذا الكتاب للغزالي ، وأوضح دليل على ذلك أن تلاميذه تلقوه عنه ، وأن العلماء والفقهاء أخذوه عنه ، وشرعوا في شروحه ، والتعليق عليه ، مما لا يدع مجالاً للشك في صحة هذا الكتاب ، ونسبته إلى الإمام الغزالي .

نشر الكتاب وطبعه :

يعتبر هذا الكتاب من المطبوعات الأولى في العصر الحاضر ، فقد نشر منذ تسعين سنة تقريباً ، وطبع بعنوان «الوجيز في فقه الإمام الشافعي» بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ ، وجاء الكتاب في جزأين من الحجم الكبير ، ويقع الأول منهما في ٢٩٦ صفحة ، ويلحقها عشر صفحات للفهرس ، ويقع الجزء الثاني في ٢٩٥ صفحة ، ويتبعها تسع صفحات لفهرسه ، وشاعت هذه الطبعة بين الطلاب والعلماء وانتشرت في الأسواق ، حتى نفدت وأصبحت نادرة أو مفقودة .

ثم قامت دار المعرفة للطباعة والنشر ، ببيروت - لبنان ، بتصوير

الطبعة الأولى ، وتوفرها في الأسواق عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، فعادت الحياة إلى الكتاب من جديد .

منهج الغزالي في الوجيز :

الوجيز كتاب مختصر في فروع الفقه الشافعي ، وحدد الغزالي منهجه فيه ، فقال : «بعد أن مخضت لك فيه جملة الفقه ، فاستخرجت زبدته ، وتصفحت تفاصيل الشرع ، فانتقيت صفوته وعمدته ، وأوجزت لك المذهب البسيط الطويل ، وخففت عن حفظك ذلك العبء الثقيل ، وأدمجت جميع مسائله بأصولها وفروعها بألفاظ محررة لطيفة ، في أوراق معدودة خفيفة ، وعبيت فيها الفروع الشوارد ، تحت معاهد القواعد ، ونبهت فيها بالرموز على الكنوز ، واكتفيت عن نقل المذاهب والوجوه البعيدة بنقل الظاهر من مذهب الإمام الشافعي المطليبي رحمه الله ، ثم عرفتكم مذهب مالك وأبي حنيفة والمزني والوجوه البعيدة للأصحاب بالعلامات والرقوم المرسومة بالحمرة فوق الكلمات» (٣/١).

ويمكننا استخلاص منهج الغزالي في «الوجيز» بالأمور التالية :

١ - الوجيز مختصر من كتاب الغزالي «الوسيط» الذي اختصره أيضاً من «البسيط» وزاد عليهما فيه بعض الأمور ، ويقع الوجيز إلى سدس كتاب «الوسيط» ، ويذكر في «الوجيز» الأحكام الفقهية ، والفروع الجزئية في المذهب الشافعي ، مع الدليل والتعليل باختصار شديد ، مكتفياً - في الغالب - بنقل الظاهر من المذهب ، أي القول الراجح فيه .

٢ - لم يلتزم الغزالي بالمبدأ الأول السابق في كتابه ، بل ذكر الأقوال المتعددة لأصحاب الإمام الشافعي ، والوجوه البعيدة لعلماء المذهب ، ويظهر من مطالعة الكتاب أنه اقتصر على قولين فقط ، أو

وجهين ، ويندر - في بعض الأحيان - أن يذكر قولاً ثالثاً فأكثر ، أو
وجهاً ثالثاً فأكثر .

٣ - جمع الغزالي في «الوجيز» الفروع الفقهية - ما أمكن - في قواعد
كبرى ، وأدخل الفروع الجزئية ، والأحكام التفصيلية تحت قاعدة
كلية وضوابط عامة .

٤ - استعان الغزالي بالقواعد الفقهية المقررة في الاستدلال والتعليل ،
فمن ذلك القاعدة الفقهية : «اليقين لا يزول بالشك» التي علل بها
الوضوء (١/١٦) ، والقاعدة الفقهية الأصولية : «تجب الصلاة بأول
الوقت وجوباً موسعاً» (١/٣٣) .

٥ - تضمن الكتاب بيان مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة ، مع الاختصار
على بيان الموافقة والمخالفة بالمذهب الشافعي ، وبدون أدلة أو
مناقشة أو ترجيح ، واكتفى بوضع العلامات والرقوم المرسومة
بالحمرة فوق الكلمات ، وعند طباعة الكتاب استبدل الناشر هذه
العلامات الحمراء برسم الحروف بين قوسين بعد الكلمة ،
لا فوقها ، فالميم علامة لمالك ، والحاء علامة لأبي حنيفة ، والزاي
علامة للمزني . .» وهذا يدل على مخالفة هؤلاء أو أحدهم للقول
المذكور في المذهب ، معتمداً في ذلك على اختصاصه بعلم الخلاف
الذي يعرف في وقتنا الحاضر بالفقه المقارن ، فإن لم يضع الإشارة أو
العلامة ، فيكون الحكم الشرعي محل وفاق ، ولم يشر إلى مذهب
الإمام أحمد بن حنبل على عادة الفقهاء والعلماء في ذلك الزمن ، لأن
مذهب الإمام أحمد لم يتقرر ويتحرر ويتبلور حينئذ .

٦ - ذكر الغزالي آراء الأصحاب تارة بلفظ «وجه» وتارة يصرح باسم
صاحب الوجه كابن سريج والقفال والمزني .

٧ - يبدأ الغزالي الكتاب ، والباب ، والفصل ، أحياناً بالنصوص الواردة

في الموضوع من القرآن والسنة ، وقد يبدأ الكتاب أو الباب أو الفصل بالتقسيم والتفريع ، لتوضيح الخطة التي سيسير عليها (مثاله ١٥٩/١).

أسلوب الغزالي في الوجيز:

الغزالي ذو باع طويل في اللغة والمفردات والتراكيب ، وله أسلوب رفيع في التأليف والكتابة ، وصفه عبد الغافر فقال: «كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها»^(١) ، وكانت لغته العربية الفصحى في التدريس والخطابة والوعظ والتذكير والتصنيف ، فمارس الاشتغال بها في جميع المجالات ، وسما في استعمالها في كل مكان.

ويحدد الغزالي أسلوبه في «الوجيز» فيقول: «كل ذلك حذراً من الإطناب ، وتنحية للقشر عن اللباب ، فتحذر الكتاب مع صغر حجمه ، وجزالة نظمه ، وبديع ترتيبه ، وحسن ترصيعه وتهذيبه ، حاوياً لقواعد المذهب مع فروع غريبه» (٤ / ١) ، وهذا الأسلوب الأدبي لم يمنع الغزالي من الاحتفاظ بالمصطلحات الفقهية ، والتقييد بالمدلولات الشرعية ، فكان يستعملها ويشرح معناها ، ويبين المقصود منها ، ويحدد دلالتها ، وهذا أسلوب منطقي عقلي ، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره ، مثل لفظة الافتراش في الصلاة (٤٤/١) ولفظة التورك في الجلوس (٤٥/١) ، وتعريف التفليس (١٧٠/١) ، وتعريف المرضعة (١٠٥/٢) ، وتعريف المعسر والموسر (١١٠/٢) ، وتعريف الأدم (١١٠/٢).

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢١١/٦ .

ترتيب الوجيز:

يتضمن الوجيز جميع الأحكام الفقهية في الشريعة الإسلامية ، ورتب الغزالي هذه الأحكام ترتيباً فقهياً ، أي على أبواب الفقه ، وحسب العناوين الفقهية ، فبدأ بالطهارات ، وانتهى بكتاب العتق والتدبير والكتابة للعبيد عتق أمهات الأولاد .

وقسم الغزالي هذه الموضوعات تقسيماً واضحاً إلى أربع وسبعين كتاباً ، في الجزء الأول اثنان وأربعون كتاباً ، ثم جاءت الكتب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يشمل الكتب الصغيرة ، وهي التي ذكر فيها الأحكام الفقهية مباشرة بعد العنوان ، مثل كتاب صلاة الخوف وقت الحرب (٦٦/١) وكتاب صلاة العيدين (٦٩/١) وكتاب صلاة الخسوف (٧١/١) وكتاب صلاة الاستسقاء (٧٢/١) وكتاب الشركة (١٨٦/١) وكتاب العارية (١٠٣/١) وكتاب الجعالة (٢٤٠/١) وكتاب إحياء الموات (٢٤١/١) وكتاب الوديعة (٢٨٤/١) وكتاب الكفارات (٨١/٢) وكتاب الضحايا (٢١١/٢) وكتاب النذور (٢٣٢/٢) .

الصنف الثاني: ويشمل الكتب الوسطى ، وقد قسمها إلى فصول ، مثل كتاب صلاة الجماعة (٥٥/١) وكتاب الاعتكاف (١٠٥/١) وكتاب الهبة (٢٤٩/١) وكتاب الفرائض (٢٦٠/١) وكتاب القسم والنشوز (٣٦/٢) وكتاب الرجحة (٧٠/٢) وكتاب الصيد والذبائح (٢٠٥/٢) وكتاب الأطعمة (٢١٥/٢) .

الصنف الثالث: ويحوي الكتب المطولة ، وهي الغالبة ، وقد قسم الكتاب إلى أبواب مثل كتاب الضمان (١٨٢/١) وكتاب الوكالة (١٨٨/١) وكتاب الإقرار (١٩٤/١) وكتاب اللقطة (٢٥٠/١) وكتاب

الإيلاء (٧٢/٢) وكتاب الظهار (٧٨/٢) وكتاب السير (١١٦/٢) وكتاب الإيمان (٢٢٣/٢) ، وقد يقسم الأبواب الأكثر طولاً إلى فصول مثل كتاب الصلاة (٣٢/١) وكتاب الحج (١٠٨/١) وكتاب النكاح (٢/٢) وكتاب الطلاق (٥٠/٢) وكتاب أدب القضاء (٢٣٧/٢) .

فالكتاب الوجيز مقسم إلى كتب وأبواب وفصول ، وتحت كل فصل مسائل فقهية متنوعة ، فإن كانت المسألة تتفرع إلى عدة أمور وضع لها عنواناً «فروع» وإن كان الفرع مستقلاً عما قبله وضع له عنواناً منفرداً «فرع» (٢٤٦/٢) (٢٤٥/٢) (٥٣/١) .

وهذا هو التقسيم الرئيس لكتاب الوجيز ، ولكن الإمام الغزالي استعمل تقسيمات أخرى كثيرة في إطار التقسيم الأصلي السابق .

- منها تقسيم الأحكام الشرعية موضوعياً إلى المقدمات والمقاصد واللواحق ، ففي كتاب الطهارة قسمه إلى المقدمات (١/٤ - ١١) ويشمل المياه الطاهرة ، والمياه النجسة ، والأواني ، وإلى المقاصد (١١/٣١ - ١١/١) ويشمل صفة الوضوء والغسل والتيمم وغيرها ، وفي كتاب الحج قسمه إلى المقدمات (١/١٠٨) وبحث فيها الشرائط والمواقيت ، وإلى المقاصد (١/١١٤) وبحث فيها وجوه أداء النسكين وأعمال الحج ، وإلى اللواحق (١/١٣٠) وتضم موانع الحج ودماء الكفارة فيه .

- ومنها تقسيم الكتاب الواحد إلى أقسام بعنوان القسم الأول والقسم الثاني ، ففي كتاب النكاح خمسة أقسام ، القسم الأول في المقدمات (٢/٢) وعرض فيها خصائص رسول الله ﷺ وحكم النكاح التكليفي ، والنظر إلى المخطوبة وحكم الخطبة التكليفي ، والخطبة عند الخطبة ، والقسم الثاني في الأركان (٢/٣) والقسم الثالث في الموانع (٢/١٠) والقسم الرابع في موجبات الخيار في عقد النكاح (٢/١٨) والقسم الخامس في فصول متفرقة (٢/٢١) ويدخل فيها مايحل للزوج ، وإعفاف

الأب وغير ذلك ، وفي كتاب العدة قسمه إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول في عدة الحرائر والإماء (٩٣/٢) والقسم الثاني في عدة الوفاة والسكنى (٩٩/٢) والقسم الثالث في الاستبراء (١٠٢/٢) ، وفي كل قسم أبواب وفصول كما سبق ، وفي كتاب الديات قسمه إلى أربعة أقسام ، القسم الأول في الواجب (١٣٩/٢) وفيه بابان في النفس وفيما دون النفس ، والقسم الثاني في موجب الدية (١٤٨/٢) والقسم الثالث فيمن عليه الدية (١٥٣/٢) والقسم الرابع في غرة الجنين (١٥٦/٢) وألحق بهذه الأقسام باباً أخيراً بعنوان «باب كفارة القتل» (١٥٨/٢).

- ومنها أنه كان في بعض الأحيان يقسم الكتاب إلى شطور ، ففي كتاب الطلاق قسمه إلى شطرين ، الشطر الأول في عموم حكم الطلاق (٥٠/٢) والشطر الثاني في التعليقات (٦٤/٢) ، وفيه ستة فصول وقسم خاص للفروع (٦٨/٢).

- ومنها أن يقسم الكتاب إلى فنون ، ففي كتاب الجراح ، الفن الأول في الموضوعات العامة عن موجبات القصاص (١٢١/٢) والفن الثاني في حكم القصاص الواجب (١٤٣/٢).

ومنها تقسيم الكتاب الواحد إلى النظر في أمور ، ويعدد النظر الأول والثاني وهكذا ، ففي كتاب دعوى الدم قال : «والنظر فيه في ثلاثة أمور ، النظر الأول في الدعوى» (١٥٨/٢) ، النظر الثاني في القسامة (١٥٨/٢) النظر الثالث في إثبات الدم بالشهادة (١٦٢/٢).

وأخيراً كان يضع في آخر كل كتاب تقريباً فروعاً أو فرعاً أو خاتمة (٤/١) (٤٩/١) (١٠٥/٢) (١٠٨/٢).

والخلاصة أن كتاب الوجيز يمتاز بحسن الترتيب ودقة التنظيم ، وأن الغزالي كان في مطلع كل كتاب يرسم الخطة الواضحة التي سيسير عليها ، مثل قوله في أول كتاب الجراح : (القتل كبيرة ، يتعلق بها الكفارة أو

الدية ، والنظر في القصاص في النفس والطرف ، ومن النفس في الموجب والواجب ، والموجب للقصاص الثلاثة أركان» (١٢١/٢) ثم يبدأ بالشرح حسب هذه الخطة التي رسمها ، لكن الغزالي كان يلجأ إلى الاختصار ، فيغفل عند الترتيب والتقسيم عنوان «القسم الأول» أو «الفن الأول» ، ويذكره في «القسم الثاني» أو «الفن الثاني» مشيراً بذلك إلى الأول ، كما كان يحذف كلمة «الأول» اختصاراً ، ومكتفياً بالتقديم ، فيقول : والنظر في أمور ، الأول... ، ثم يقول: النظر الثاني ، وفي الكتاب الواحد أو الباب الواحد ، أو الفصل الواحد يلجأ الغزالي إلى التقسيم المتنوع السابق .

وهكذا يكثر الغزالي في الترتيب والتقسيم والتبويب ليرسم للقارىء صورة واضحة عن البحث ، وينير له الطريق ، ويوضح له الموضوع ، ويساعده على الربط والإحكام ، ويأخذ بلبابه إلى الفهم والحفظ والاستيعاب ، مما يوجب الوعي الكامل ، والانتباه الدائم في القراءة والمطالعة ، وإلا ضاع القارىء في هذه الطرق والدروب .

ألفاظ الترجيح :

رسم الغزالي منهجه في المقدمة بأنه سيكتفي في هذا الكتاب «الوجيز» بنقل الظاهر عن مذهب الإمام الشافعي» (٣/١) ، وهذا يعني أنه يختصر الأحكام الفقهية الواسعة ، وأنه سيقصر على القول الراجح في المذهب ، وقد استعمل الغزالي عدة ألفاظ شرعية ومصطلحات فقهية تحقق له هذا الهدف ، وتخدم القارىء لمعرفة الراجح مع الإشارة إلى أصله ومصدره ، وما يقابل ذلك من أقوال ووجوه وخلاف في المذهب ، مميّزاً في ذلك بين الأقوال والآراء التي قالها الإمام الشافعي ، وبين الاجتهادات التي وصل إليها أصحابه وأتباعه العلماء في المذهب .

ونريد أن ننبه سلفاً أن معظم هذه المصطلحات وألفاظ الترجيح كانت

مستعملة في كتب الفقه للمذهب الشافعي ، وكان لها مدلولات معينة ومحددة ، ولكنها لم تحظ بدرجة القبول الكامل ، والاستعمال الشائع عند جميع المصنفين والعلماء ، إلى أن جاء الإمام النووي رحمه الله تعالى فحصرها ، وحدد معانيها ، والتزم بها ، وسار عليها العلماء بعده في شرح كتبه ، وفي التصنيفات المستقلة ، وسوف نورد هذه الألفاظ والمصطلحات ونبين معناها المتفق عليه ، والمقرر كاملاً بعد الغزالي ، ثم نشير إلى عبارات الغزالي التي استخدم فيها هذه الألفاظ والمصطلحات ، مع أنه لم يحدد مقصوده منها ، ولم يحدد معناها في مقدمته ، لذلك نقلها حرفياً عن الإمام النووي ، ثم نفصل كل واحدة من كتاب الغزالي «الوجيز».

قال النووي في «الروضة»: «وحيث أقول: على الجديد ، فالقديم خلافه ، أو القديم ، فالجديد خلافه ، أو: على قول أو وجه فالصحيح خلافه ، وحيث أقول: على الصحيح أو الأصح فهو من الوجهين ، وحيث أقول: على الأظهر ، أو: المشهور ، فهو من القولين ، وحيث أقول: على المذهب فهو من الطريقتين أو الطرق ، وإذا ضعف الخلاف: قلت على الصحيح ، أو المشهور ، وإذا قوي ، قلت: على الأصح ، أو الأظهر»^(١).

ويقول النووي في «المجموع»: «فالأقوال للشافعي ، والأوجه لأصحابه المنتسبين إلى مذهبه يخرجونها على أصوله ، ويستنبطونها من قواعده ، ويجتهدون في بعضها وإن لم يأخذوه من أصله... ، ثم قد يكون القولان (للشافعي) قديمين ، وقد يكونان جديدين ، أو قديماً وجديداً ، وقد يقولهما في وقت ، وقد يقولهما في وقتين ، وقد يرجح أحدهما ، وقد لا يرجح ، وقد يكون الوجهان (للأصحاب) لشخصين ، ولشخص ، والذي لشخص ينقسم كاتقسام القولين».

(١) روضة الطالبين ٦/١.

ويقول أيضاً: «وأما الطرق فهي اختلاف الأصحاب في حكاية المذهب... وقد يستعملون الوجهين في موضع الطريقتين وعكسه... ، وإنما استعملوا هذا لأن الطرق والوجوه تشترك في كونها من كلام الأصحاب».

ويقول النووي أيضاً: «كل مسألة فيها قولان للشافعي رحمه الله قديم وجديد ، فالجديد هو الصحيح ، وعليه العمل ، لأن القديم مرجوع عنه ، واستثنى جماعة من أصحابنا نحو عشرين مسألة أو أكثر ، وقالوا يفتى فيها بالقديم»^(١).

ويحدد النووي هذه المصطلحات والألفاظ للترجيح بدقة متناهية ، وعبرة دقيقة ، فيقول:

«فحيث أقول: فمن القولين أو الأقوال (للسافعي) ، فإن قوي الخلاف قلت الأظهر ، وإلا فالمشهور ، وحيث أقول: الأصح أو الصحيح ، فمن الوجهين أو الأوجه (للأصحاب المنتسبين للشافعي) ، فإن قوي الخلاف قلت: الأصح ، وإلا فالصحيح ، وحيث أقول: المذهب فمن الطريقتين أو الطرق (من حكاية الأصحاب لآراء المذهب ، ويفيد ذلك أن المفتى به والراجح هو ما عبر عنه بالمذهب) ، وحيث أقول النص ، فهو نص الشافعي رحمه الله ، ويكون هناك وجه ضعيف أو قول مخرج ، وحيث أقول: الجديد فالقديم خلافه ، أو في قول قديم فالجديد خلافه ، وحيث أقول: وقيل كذا فهو وجه ضعيف ، والصحيح أو الأصح خلافه ، وحيث أقول: وفي قول كذا فالراجح خلافه»^(٢).

(١) المجموع شرح المذهب ١٠٧/١ ، ١٠٨ .

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ١٢/١ وما بعدها ، نهاية المحتاج ٤٨/١ وما بعدها ، شرح المحلي مع قليوبي وعميرة ١٣/١ وما بعدها .

وسوف نستخرج مصطلحات فقهاء الشافعية في الترجيح من هذه النصوص السابقة ، ونقارن بينها وبين الاستعمال المقصود للغزالي في «الوجيز» وغيره من كتبه الفقهية ، والشروح والمختصرات لها^(١).

١ - القديم: هو ما قاله الإمام الشافعي قبل انتقاله إلى مصر ، سواء قاله في العراق أم في الحجاز ، وسواء رجع عنه الشافعي أم لا ، وعند التعبير عن القول القديم فيدل على وجود قول آخر يقابله في الجديد ، والجديد هو الراجح إلا استثناء في بضع عشرة مسألة .

٢ - الجديد: هو القول الذي قاله الإمام الشافعي في مصر تصنيفاً أو إفتاء ، وعند التعبير بالجديد يفهم وجود قول قديم ، والجديد هو الصحيح الراجح ، وعليه العمل والفتوى ، وهذا الاستعمال متفق عليه في كتب الفقه الشافعي ، وعليه مشى الغزالي ، وهذه بعض الأمثلة من نصوص الغزالي في «الوجيز»: «ولا يملك العبد بتمليك السيد (خلفاً لمالك) على القول الجديد» (١/١٥٢) ، «فبيع الفضولي مال الغير لا يقف على إجازته على المذهب الجديد» (١/١٣٤) ، وإقرار البالغة مقبول في الجديد إن أضافت التزويج إلى الولي وصدقها» (٢/٥) ، «ولا يتقرر (المهر) بالخلوة على الجديد» (٢/٢٦).

٣ - القول: هو الرأي الاجتهادي للإمام الشافعي نفسه ، ويعبر عن رأيه بالقول ، تمييزاً عن «الوجه» للأصحاب ، وهذا اصطلاح متفق عليه في كتب الفقه الشافعي ، وسار عليه الغزالي أيضاً ، فقال: «والبداءة بتسليم الصداق على قول: وفي قول لا بداءة ، بل يجبران . . . ، وعلى قول ثالث لا يجبران ، بل يبدأ من أراد أخذ العوض» (٢/٢٦) ، ويقول

(١) انظر في بيان هذه المصطلحات وتحديد مدلولها في (المراجع السابقة ، الغاية القصوى ١١٢/١ وما بعدها المذهب عند الشافعية ، بحث للدكتور محمد إبراهيم علي ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، العدد الثاني ص ٢٥ وما بعدها).

الغزالي عند فساد تسمية المهر في عقد النكاح : «وذلك يوجب الرجوع إلى مهر المثل على قول: وإلى قيمة المذكور على قول» (٢٧/٢) ، وفي هذين المثالين ذكر القولين وأكثر ، ولم يرجح أحدها ، وقد يرجح أحد القولين ، فيقول «أظهر القولين» (١٣٣/١) ، أو «أسد القولين» (١٣٤/١) ، أو «أقوى القولين» (١٣٤/١) ، أو «أصح القولين» (١٣٥/١) ، أو «أقيس القولين» (١٥٩/١) ، وقد يذكر القول الضعيف المرجوح ، فيقول: «أضعف القولين» (٦/٢).

٤ - الوجه: هو الرأي الاجتهادي لأصحاب الإمام الشافعي ، وهم المنتسبون إليه في أصول المذهب عامة ، ويقومون بالاجتهاد أو تخريج الوجوه على القواعد الأصولية التي رسمها الإمام ، وقد استعمل الغزالي هذا الاصطلاح بهذا المعنى ، فقال: «في لبن البكر (في الإرضاع) وجه أنه لا يؤثر» (١٠٥/٢) ، وصرح الغزالي بذلك في مقدمته «وجه أو قول بعيد مخرج للأصحاب» (٤/١) ، وهذا يدل على وجود قول معتمد في المذهب يخالف الوجه ، وقد يذكر الغزالي الوجهين مع ترجيح أحدهما كقوله «أسد الوجهين» (١٣٣/١) ، وقوله «أقيس الوجهين» (١٣٣/١) ، و«أصح الوجهين» (١٠٦/٢) وقوله «أشبه الوجهين» (١٥٨/١) ، وقد يذكر الوجهين ولا يرجح أحدهما ، فيقول: «أحد الوجهين» (١٣٣/١) ، (١٣٤) ، (٧/٢) ، وقد يذكر ثلاثة وجوه دون ترجيح لأحدها (١٠٦/٢) ، (١٠٧) ، (٢٣٨/٢).

٥ - الطريق: وجمعه طرق ، وتعني اختلاف الأصحاب في حكاية الرأي الاجتهادي في المذهب ، وقد يستعمل بعض المؤلفين الوجوه مكان الطرق ، وبالعكس ، لكون الأمرين من كلام الأصحاب إما اجتهداً وتخريجاً ، وإما نقلاً وحكاية ، كما علله النووي سابقاً.

٦ - النص: وهو الرأي الذي ذكره الإمام الشافعي في أحد كتبه ،

ويقابله وجه ضعيف للأصحاب ، أو قول مخرج على قول الشافعي ،
وسمي كذلك لتنصيب الإمام عليه ، أو لأنه مرفوع إلى الإمام ، من
نصبت الحديث إذا رفعته .

واستعمل الغزالي في «الوجيز» هذا المعنى ، فقال : «ولو اشترى ثوباً
نصفه في صندوق فالنص أنه باطل» (١/١٣٥) ، وقال في بعض ما يجوز
اقتراضه : «فيه قولان منصوصان ، والقياس الجواز» (١/١٥٨) .

٧ - الأصح : هو القول الراجح في المذهب من قولي الإمام الشافعي
أو من أقواله ، ويقابله قول صحيح ، ولكن الأول أقوى منه ، وهذا عند
الجمهور والمتأخرين ، أما الغزالي فيستعمل هذا الاصطلاح لمجرد بيان
الراجح ، سواء كان من أقوال الشافعي أو من وجوه الأصحاب ، وقد
يستعمله مطلقاً ، وقد يضيفه إلى الأقوال أو الوجوه أو المذهب ، فيقول
عند الإطلاق : «ثم إن كان الخيار للبائع وحده فالمبيع باق على ملكه على
الأصح» (١/١٤١) ، «والأصح أن الفساد مقصور على الفساد»
(١/١٤٠) ، «والملك عند إيصال الهدية على الأصح» (١/١٣٣) ، «وبيع
بيت في دار دون حق الممر جائز على الأصح» (١/١٣٥) ، «والأصح أن
شرط نفي خيار المجلس والرواية فاسد» (١/١٣٩) ، وقد يستعمله
مضافاً ، فيقول : «أصح القولين» (١/١٥٤) (١/١٣٥) ، (٢/٢٥) ،
ويقول : «أصح الوجهين» (١/١٣٢ ، ١٣٣) ، ويقول : «أصح المذهبين»
(٢/١٠٥) .

٨ - الصحيح : هو القول الراجح في المذهب من قولي الشافعي أو
أقواله ، أو أقوال أصحابه ، ويكون مقابله قول ضعيف أو فاسد ، وهكذا
استعمله الغزالي ، فقال : «فإن الصحيح أن الصداق عوض» (٢/٢٥) ،
وقال عن الصداق : «لأن إخلاء النكاح عن المهر لا يفسده ، لأنه يثبت
شرعاً في المفوضة على الصحيح» (٢/٢٥) (٢/١٠٧) .

لكن الإمام النووي ، ومن سار على نهجه ، حصروا «الأصح ،
والصحيح» على الراجح من الوجهين أو الوجوه للأصحاب ، فإن كان
الخلاف قوياً عبروا عنه بالأصح ، وإلا قالوا: الصحيح .

٩ - الأظهر: هو الوجه الراجح الذي يزيد ظهوراً على الوجه الآخر أو
الوجوه الأخرى للأصحاب عند النووي وغيره ، ويقابل الأظهر عندهم
وجه ظاهر ، لكن الأظهر أشد منه ظهوراً ، واستعمل الغزالي هذا
الاصطلاح في الترجيح عامة ، سواء في ذلك الوجوه أم الأقوال ، أم
المذاهب ، فقال في الطهارة: «ويجوز استعمال الكل على الأظهر»
(٦/١) ، وقال في جهر الإمام بلفظ «آمين» في آخر الفاتحة: «وفي جهر
الإمام خلاف ، والأظهر الجهر» (٤٣/١) ، وقال عن استعمال الذهب
«والمضرب في محل يلتقى فم الشارب محظور على الأظهر» (١١/١)
وانظر (١٣٥/١ ، ١٣٨) ، وقد يستعمل الغزالي هذه الاصطلاح مضافاً ،
فيقول: «وأظهر القولين» (١٣٣/١) ، ويقول: «أظهر المذهبين»
(١١/١) (١٣٣/١) .

١٠ - الظاهر: وهو الوجه الظاهر في المذهب من الوجهين أو الوجوه
للأصحاب ، ويكون مقابله وجه غريب في المذهب ، وهذا عند النووي
وغيره .

أما الغزالي فاستعمل «الظاهر» لمجرد بيان القول الراجح في
المذهب ، سواء كان من أقوال الشافعي أم من وجوه الأصحاب ، وهو
ما قرره في مقدمته فقال: «واكتفيت عن نقل المذاهب والوجوه البعيدة
بنقل الظاهر عن مذهب الإمام الشافعي» (٣/١) ، وقد يستعمل هذا
الاصطلاح مطلقاً ومقيداً ، فيقول: «والعظم ينجس» (خلافاً لأبي حنيفة)
بالموت على ظاهر المذهب» (١١/١) ، ويقول «فالظاهر أنه لا يحرم»
(١٠٦/٢) .

١١- المذهب: وهو القول الراجح في حكاية المذهب عند تعدد الطرق من الأصحاب في نقل الحكم في المذهب الشافعي ، وهذا هو المراد عند النووي وغيره ، واستعمله الغزالي في النادر مطلقاً ومقيداً ، فقال: «فإن حُلب لبنها(المرضعة) فماتت ، فشرب الصبي بعد موتها حرم على أصح المذهبين» (١٠٥/٢) ، وقال: «والعظم ينجس بالموت على ظاهر المذهب» (١١/١).

١٢- الأشهر والمشهور: الأشهر هو القول الراجح الذي زادت شهرته على غيره ، لشهرة ناقله أو مكانته أو الاتفاق على نقله ، والمشهور هو القول الذي اشتهر في المذهب ويكون مقابله قولاً غريباً أو قولاً ضعيفاً ، ولم يستعمل الغزالي هذين الاصطلاحين لكن النووي استعمل المشهور من القولين أو الأقوال للشافعي عندما يكون الخلاف ضعيفاً.

١٣- الأقيس: وهو القول الذي يتضمن حكماً أقوى عند القياس ، واستخدم الغزالي هذا المعنى أحياناً بإطلاق ، فقال: «والأقيس منعه». (١٣٩/١) ، وقيده بالإضافة إلى غيره أحياناً أخرى ، فقال: «ويصح استنجاره وارتهانه للعبد المسلم على أقيس الوجهين» (١٣٣/١) (١٣٤/١). وقال «وأما حكمه(القرض) فهو التملك ، لكن بالقبض أو بالتصرف فيه ، قولان أقيسهما أنه بالقبض ، لأنه لا يتقاعد عن الهبة» وأكد الغزالي قصده من هذا الاصطلاح أنه للترجيح ، فقال بعد الجملة السابقة: «وعلى هذا الأصح أنه لو أراد الرجوع في عينه جاز» (١٥٩/١).

١٤- قيل: يستعمل هذا اللفظ للدلالة على تصنيف القول أو الوجه ، ويكون مقابله قولاً صحيحاً أو وجهاً صحيحاً ، وهو اصطلاح متفق عليه ، قال الغزالي عن المكيل والموزون في عصر دون آخر: «وقيل الكيل جائز ، لأنه أعم ، وقيل ينظر إلى عادة الوقت» (١٣٦/١) ، وقال: «وقيل تعدد المرضعة كتعدد الثدي» (١٠٦/٢ ، ١٠٧).

١٥ - في قول: يستعمل هذا اللفظ عندما يكون في المسألة قولان للإمام الشافعي ، ولكن أحدهما أرجح ، فيعبر عن المرجوح بلفظ «في قول» والراجح خلافه .

قال الغزالي: ووقت المغرب يدخل بغروب الشمس ، ويمتد إلى غروب الشفق في قوله ، وفي قول إذا مضى بعد الغروب وقت وضوء وأذان وإقامة وقدر خمس ركعات (خلفاً لوجه) فقد انقضى الوقت» (٣٢/١) ، وقال في عدة المرأة النفساء: «المبتدأة إذا استحيضت ترد إلى لحظة على قول ، وإلى أربعين على قول» (٣٢/١) ، وفي هذه الأمثلة لم يرجح الغزالي بين القولين ، ورجح في مكان آخره ، فقال: «المتحيرة إذا نسيت عاداتها في النفاس ففي قول ترد إلى الاحتياط ، وعلى قول إلى المبتدأة ، والرد هنا إلى المبتدأة أولى ، لأن أول وقتها معلوم بالولادة» (٣٢/١).

١٦ - في وجه: يستعمل هذا الاصطلاح كالسابق عندما يكون في المسألة وجهان ، لكنهما لأصحاب الإمام الشافعي ، وأحدهما أرجح ، فيعبر عن المرجوح بلفظ «في وجه» والراجح خلافه ، ومثاله من كتاب الغزالي قوله في صلاة النفل في الحضر والإقامة راكباً: «ولا يجوز في الحضر في قول أو وجه» (٣٧/١) ، وقد يصف الغزالي الوجه بالبعد ، كما جاء في مقدمته ، ومثاله قوله: «ويفسد (عقد النكاح) بكل ما يخل بمقصوده كشرط الطلاق وترك الوطء إلا على وجه بعيد» (٢٧/٢).

وهكذا نلاحظ أن الغزالي يستخدم بعض المصطلحات الخاصة للترجيح كالجديد والأظهر والظاهر والأقيس ، ويستخدم بعض العبارات الصريحة أحياناً مثل «الأسد» «الأقوى» «الأشبه» ، كما يصرح أحياناً بالتضعيف فيقول: «أضعف القولين» ، «أضعف الوجهين» كما سبق .

لكن أشد المأخذ على الكتاب أن الغزالي ذكر أحكاماً كثيرة ، وبين أن

فيها خلافاً ، أو أن فيها قولين ، أو ثلاثة أقوال ، أو ثلاثة أوجه ، ولم يرجح واحداً منها ، خلافاً لما صرح به في مقدمته ، وترك الأمر مبهماً ، مما دفع العلماء إلى بيانه ، وتوضيحه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر جانباً منها :

«وعلى هذا ، فلو شرع في الصلاة فمن آخر الصلاة إلى وقت غروب الشفق ، ففيه وجهان» (٣٢/١) .

«وأما النوافل فيجوز إقامتها في السفر الطويل راكباً وماشياً ، وفي السفر القصير قولان» (٣٧/١) .

وقد يذكر ثلاثة وجوه بدون ترجيح (١٠٦/٢ - ١٠٧) وقد يذكر أربعة أقوال وبدون ترجيح (١٠٧/٢) ، والأمثلة على ذلك كثيرة (٤٣/١) (٤٤/١) (٤٥/١) (٥٣/١) (٥٤/١) (٥٧/١) (١١١/١) (٢٣٧/٢) (٢٣٨/٢) (٢٣٩/٢) (٢٤٠/٢) .

كما يؤخذ على الغزالي رحمه الله تعالى أنه لم يحدد مدلول هذه المصطلحات الخاصة بالترجيح والتضعيف في مقدمة كتابه ، ولم تكن هذه الألفاظ محددة للدلالة ، أو متفقاً عليها قبل النووي ، كان من المفروض بيانها في منهج البحث .

وقد فصلنا القول بهذه المصطلحات في ألفاظ الترجيح لأنها تعتبر مفتاحاً ضرورياً لقراءة كتاب «الوجيز» خاصة ، وكتب الفقه في المذهب الشافعي عامة ، وإن قدرة الغزالي على استعمالها يدل على العمق في التأليف ، والدقة في التصنيف ، والاطلاع على تعدد الأقوال والآراء في المذهب ، ومعرفة الراجح والمعتمد .

مكانة الوجيز :

احتل «الوجيز» للغزالي مكانة عالية في تاريخ الفقه الإسلامي ، وذلك من عدة وجوه :

الأول: أن الوجيز اختصار من كتابي الغزالي «البيسط» و«الوسيط» مع التنقيح والتدقيق والزيادة ، قال في «كشف الظنون»: «أخذه من البسيط والوسيط له ، وزاد عليه أموراً ، وهو كتاب جليل ، عمدة في مذهب الشافعي»^(١).

الوجه الثاني: أن كتاب الوجيز يمثل حلقة مهمة في سلسلة كتب المذهب الشافعي ، كما سبق ، ابتداء من «الأم» للشافعي ، وحتى «المنهاج» و«الروضة» للنووي ، ثم الشروح والحواشي للمنهاج .

الوجه الثالث: لقد أضفت مكانة الغزالي العلمية ، وشخصيته الفذة ، انعكاساً مهماً على كتابه «الوجيز» ، واشتهر هذا الكتاب في الدراسة والتدريس كشهرة الغزالي نفسه ، وكان هذا الكتاب الفقهي أشهر كتبه في هذا المجال ، قال حاجي خليفة: «وقد قيل: لو كان الغزالي نبياً لكانت معجزته الوجيز»^(٢).

الوجه الرابع: اهتم العلماء بالوجيز اهتماماً زائداً فتناولوه بالشرح والتعليق ، والاختصار والنظم ، وما ورد في غريبه وأحاديثه ، قال السلفاني: «وقفت له على سبعين شرحاً»^(٣) ، وسوف نفرّد هذه الميزة بالتوسع .

ومع هذه المكانة العلمية والفقهية والتاريخية لكتاب «الوجيز» فلا بد لنا أن نقول كلمة مجملّة فيه ، وهو أنه كتاب غير معتمد في المذهب الشافعي ، لأن الآراء والأقوال فيه غير منقّحة بشكل كامل ، وغير محقّقة بصورة كافية ، وجاء في مرحلة سابقة كغيره من كتب المذهب ، إلى أن

(١) كشف الظنون ٢/٦٢٩ .

(٢) كشف الظنون ٢/٦٣٠ ، وانظر: تهذيب الأسماء ، للنووي ٣/١ .

(٣) كشف الظنون ٢/٦٣٠ .

جاء الإمامان الرافعي والنووي ، وهما محققا المذهب الشافعي ، فحررا الأقوال ، ونقحوا الآراء ، وحققا الراجح ، وبيننا للعلماء والفقهاء والقضاة والمفتين القول المعتمد في الفتوى والحكم ، وتبلورت هذه الأعمال في «كتاب المحرر» للرافعي ، ثم في كتاب «الروضة» للنووي ، وأخيراً في «المنهاج» للنووي الذي ألفه بعد «الروضة» ، وذكر فيه عمدة أقوال المذهب^(١).

ويشير النووي إلى ذلك فيقول : «وكانت مصنفات أصحابنا رحمهم الله في نهاية من الكثرة ، فصارت منتشرات ، مع ما هي عليه من الاختلاف في الاختيارات ، فصار لا يحقق المذهب من أجل ذلك إلا أفراد من الموفقين الغواصين المطلقين ، أصحاب الهمم العاليات ، وذكر منهم الرافعي».

وبين الرافعي رحمه الله مكانة «الوجيز» فيقول :

«وأقول : إن المبتدئين بتحصيل المذهب من أبناء الزمان قد تولعوا بكتاب «الوجيز» للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي قدس الله روحه ، وهو كتاب غزير الفوائد جم العوائد ، وله القدح المعلى ، والحظ الأوفى من استيفاء أقسام الحسن والكمال ، واستحقاق صرف الهمة إليه ، والاعتناء بالإكباب عليه ، والاقبال ، والاختصاص بصعوبة اللفظ ، ودقة المعنى» إلى أن يقول : «لما فيه من حسن النظم ، وصغر الحجم»^(٢).

شروح الوجيز :

اعتنى الأئمة والفقهاء بالوجيز ، فشرحوه بكتب كثيرة ذكرها حاجي خليفة^(٣) ، وهي :

(١) الروضة ٤/١ .

(٢) فتح العزيز ٧٣/١ وما بعدها .

(٣) كشف الظنون ٦٢٩/٢ وما بعدها ، طبقات الشافعية الكبرى ١٢٦/٨ ، ١٩٩ .

- ١ - شرح الإمام فخر الدين الرازي ٦٠٦ هـ.
- ٢ - شرح القاضي سراج الدين أبي بكر الأرموي ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ.
- ٣ - شرح عماد الدين أبي حامد ، محمد بن يونس الإربلي ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ.
- ٤ - مشكلات الوجيز ، لأبي الفتوح أسعد بن محمود العجلي ، المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، تكلم فيه على المواضع المشكلة فيه ، ونقل من الكتب المبسوطة في ذلك.
- ٥ - شرح الوجيز للإمام أبي حامد بن السهيلي الجاجرمي ، المتوفى سنة ٦١٠ هـ. والشرح في مجلدين ، وسماه «إيضاح الوجيز».
- ٦ - شرح تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن منعة الموصلبي ، المتوفى سنة ٦٧١ هـ.
- ٧ - مختصر الوجيز لتاج الدين الموصلبي السابق ، اختصر الوجيز ، وسماه «التعجيز في مختصر الوجيز» وهو كتاب اعتنى به جماعة من العلماء ، لأنه مختصر عجيب ، ومشهور بين الشافعية ، وقام عدد منهم بشرحه ، منهم المؤلف نفسه شرحه ولم يكمله ، وشروحه كثيرة^(١).
- منها شرح الإمام أبي بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز السنكلوتي ، ويقال الزنلكوتي ، وهو الأصح ، الشافعي ، المتوفى سنة ٧٤٠ هـ ، وسماه «الواضح الوجيز» في ثمانين مجلدات.
- ومنها شرح تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري

(١) كشف الظنون ٢٩١/١ وما بعدها ، طبقات الشافعية ١٩١/٨ ، ١٦٣ ، ٤١١/٩ ، ٣٩٩ ، ١٦٤ ، ٣٦٨/١٠ ، ٣٦٧ ، ٣٨٧ ، ١٢٦ ، قارن إيضاح المكنون ص ٢٩٥ فإنه سماه عبد الرحمن بن عمر ٦٩٩ هـ.

الشافعي ، المعروف بالفركاح ، المتوفى سنة ٦٩٠ هـ ، ولم يكمله ، وله على «الوجيز» مجلدات .

ومنها شرح نور الدين علي بن هبة الله الأسنادي الشافعي ، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ .

ومنها شرح الإمام تقي الدين علي بن محمد بن علي بن وهب ، المنفلوطي ، المعروف بابن دقيق العيد ، المتوفى سنة ٧٢٠ هـ .

ومنها شرح الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري المقري ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، قال الأسنوي : قرأ على المصنف ، وسمع عليه كتابه ، وصنف تكملة شرح المصنف ، فإنه وصل فيه إلى أثناء الجنايات ، ولم يكمله أيضاً .

ومنها شرح القاضي شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارزي الحموي ، المتوفى سنة ٧٣٨ هـ .

ومنها «تصحيح التعجيز» لقطب الدين محمد بن عبد الصمد السنباطي ، المتوفى سنة ٧٢٢ هـ ، وله عليه زوائد .

ومنها شرح محمد بن الحسن الأطروش ، المتوفى سنة ٧٨٤ هـ .

ومنها شرح فخر الدين عثمان بن خطيب جبرين على الشافعي الحلبي ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ .

٨ - ونظم «الوجيز» الشيخ الإمام عبد العزيز بن أحمد ، المعروف بسعد الدين بن علي ، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .

٩ - ونظمه أيضاً موسى بن علي الرازي ، المتوفى سنة ٧٢٠ هـ .

١٠ - واختصره الإمام سراج الدين عمر بن محمد الزبيدي وسماه «الإبريز في تصحيح الوجيز» ، وقال : «إنه لم يسبق إلى مثله» وتوفي الزبيدي سنة ٨٨٧ هـ .

١١ - الشرح الكبير للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني
الرافعي الشافعي ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ، وله شرح آخر أصغر منه
وأخصر .

هذه أهم شروح «الوجيز» ولا يصح أن نقف في أهمية الوجيز وشروحه
هنا ، لأن الصورة له غير كاملة ، وقد سبق القول أن «الوجيز» كان منطلقاً
لحلقة جديدة متفرعة في سلسلة كتب المذهب ، وتكميلاً للبحث ، ونظراً
لأهمية هذا الشرح الكبير للرافعي ، نعطي فكرة موجزة عنه ، وما لحقه
من حلقات ، في سلسلة كتب المذهب .

فتح العزيز في شرح الوجيز :

هذا الكتاب من خير ما ألف في فقه المذهب الشافعي لما حوى من
الأحكام الشرعية الكثيرة ، والأدلة الوفيرة ، والتحقيقات الواسعة
الدقيقة ، وهو كتاب واسع ، كبير الحجم .

يقول الرافعي في مقدمته ، بعد أن بين أهمية كتاب «الوجيز»
للغزالي^(١) : «فدعاني ذلك إلى عمل شرح يوضح فقه مسائله فيوجهها ،
ويكشف عما انغلق من الألفاظ ، ودق من المعاني ، ليغتنمه الشارعون
في ذلك الكتاب ، المخصصون بالطبع السليم ، ويعينهم على بغيتهم ،
ويتنبه الذين غيرهم أولى بهم ، لما ذهب عليهم من فقه الكتاب ودقائقه ،
واستصعابه عليهم فينكشف لهم أنهم حرموا شيئاً كثيراً ولقبت به «العزيز في
شرح الوجيز»^(٢) .

(١) فتح العزيز ٧٥/١ .

(٢) قال ابن السبكي : «وقد تورع بعضهم عن إطلاق لفظ : «العزيز» مجرداً ، على غير
كتاب الله ، فقال «الفتح العزيز في شرح الوجيز» (طبقات الشافعية الكبرى
٢٨١/٨) وذكر ذلك حاجي خليفة في (كشف الظنون ٦٢٩/٢) كما ذكره الناشر
في هامش الكتاب (٧٥/١) وقال : ولذلك جرينا في الطبع على هذا ، ووسمناه =

وهذا الكتاب أهم شروح «الوجيز» ووصل إلينا كاملاً ، وطبع أكثره على هامش «المجموع للنووي» في المطبعة المنيرية ، لصاحبها محمد منير الدمشقي بالقاهرة .

وهذا الشرح من أهم كتب المذهب ، ولم يصنف مثله ، فصار محط الأنظار ، ومهوى الأفتدة ، وتلقاه العلماء بالاختصار والتعليق^(١) وعرف باسم «الشرح الكبير» ، فمن الكتب عليه :

١ - مختصر الشيخ الإمام إبراهيم بن عبد الوهاب الزنجاني ، وسماه «نقاوة فتح العزيز» ، فرغ من تأليفه في شعبان سنة ٦٢٥ هـ ، وقال فيه بعد مدح الرافعي وشرحه : «لكنه قد بسط فيه الكلام ، وكان يفضي بالناظر إلى الملل ، فأردت اختصاره مع جواب ما أورده من السؤالات والإشارات إلى حل إشكاله» وكان بدأ في تصنيفه في حياة الرافعي .

٢ - مختصر ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن المصري العقيلي ، المتوفى سنة ٧٦٩ هـ .

٣ - حاشية على «فتح العزيز» بعنوان «الدر النظيم المنير في شرح الكمال الكبير» لمحمد بن أحمد ، المعروف بابن الربوة الحنفي ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وذكر الزركلي الكتاب بعنوان : «الدر المنير في حل إشكال الكبير» .

= بفتح العزيز» ، واشتهر الكتاب بين العلماء والمصنفات بفتح العزيز .
(١) كشف الظنون ٦٢٩/٢ ، ٤٥٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٩/٨ ، الأعلام للزركلي ٢٢٤/٦ ، الدرر الكامنة ٤١٦/٣ ، مفتاح السعادة ٣٥٤/٢ ، ويقول طاش كبري زاده عن الرافعي : «وأما الفقه فهو فيه عمدة المحققين ، وأستاذ المصنفين ، كأنما الفقه كان ميتاً فأحياه وأنشده ، وأقام عماده بعدها أماته الجهل فأقبره» .

٤ - نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ، لجلال الدين السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ .

٥ - تعليقة شمس الدين محمد بن محمد الأسدي ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، وسماها «الظهير في فقه الشرح الكبير» .

٦ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للشيخ الإمام أحمد بن علي الفيومي ، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ ، جمع فيه غريب شرح الوجيز للرافعي ، وأضاف إليه زيادات من لغة غيره ، ومن الألفاظ المشتبهات ، وقسم كل حرف منه باعتبار اللفظ إلى مكسور الأول ومضمومه ومفتوحه ، وإلى أفعال بحسب أوزانها ، ثم اختصره ورتبه على النهج المعروف بحروف المعجم ، ليسهل تناوله ، ولم يلتزم ذكر ما وقع في الشرح : بل جمع له من نحو سبعين مصنفاً ما بين مطول ومختصر ، وفرغ من تأليفه في شعبان سنة ٧٣٤ هـ ، وصار ترتيبه كترتيب المغرب للحنفية ، وطبع عدة طبعات ، وتداوله الناس على أنه معجم لغوي .

٧ - البدر المنير لعمر بن علي ، المعروف بابن الملقن ، المتوفى سنة ٨٠٤ هـ ، خرج فيه أحاديث الشرح الكبير ، وجاء في سبع مجلدات ، ثم لخصه في أربع مجلدات ، وسماه «الخلاصة» ثم انتقاه في جزء ، وسماه «المنتقى» .

٨ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، لشيخ الإسلام الإمام الحافظ أحمد بن علي ، المعروف بابن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وهو تلخيص وسط لكتاب «البدر المنير» كما ذكره ابن حجر في مقدمته ، وذكر أيضاً أن جماعة من المتأخرين قاموا بتخريج أحاديث شرح الوجيز ، منهم القاضي عز الدين بن جماعة ، والإمام أبو أمانة بن النقاش ، والعلامة سراج الدين عمر بن علي الأنصاري

(المعروف بابن الملقن) ، والمفتي بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي^(١).

٩ - تخريج أحاديث الوجيز لبدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٧ هـ ، وبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، وشهاب الدين أحمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٨١٥ هـ ، وخرجه أيضاً الإمام أبو حامد محمد بن إبراهيم السهيلي الجاجرمي ، المتوفى سنة ٦١٠ هـ.

١٠ - وأخيراً فإن أهم كتاب يتعلق بالوجيز وفتح العزيز هو كتاب «الروضة» للإمام الشيخ محيي الدين يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وهو اختصار للشرح الكبير للرافعي ، وقد عرفنا سابقاً أن الرافعي والنووي هما محققا المذهب الشافعي ، ومحرراً أقواله المعتمدة والراجعة ، فتلاقت جهودهما هنا في «فتح العزيز» وفي «الروضة» وكانت الروضة ذاتها اختصاراً وترتيباً وتنقيحاً لفتح العزيز ، وتعتبر «الروضة» من الكتب المعتمدة في المذهب.

يقول النووي عن الرافعي وشرحه : «فأتى في كتابه «شرح الوجيز» بما لا مزيد عليه من الاستيعاب ، مع الإيجاز والإتقان ، وإيضاح العبارات» ويقول : «ونقح المذهب أحسن تنقيح ، وجمع منتشره بعبارات وجيزات ، وحوى جميع ما وقع له من الكتب المشهورات» ، ثم يقول النووي : «فألهمني الله أن أختصره في قليل من المجلدات . . . ، أسلك فيه - إن شاء الله - طريقة متوسطة بين المبالغة في الاختصار والإيضاح . . . ، وأحذف الأدلة في معظمه . . . ، واستوعب جميع فقه الكتاب . . . ، وأضم إليه في أكثر المواطن تفريعات ومتممات ، وأذكر

(١) التلخيص الحبير ٩/١ .

مواضع يسيرة على الإمام الرافعي فيها استدراكات . . . ، وأرجو إن تم هذا الكتاب - أن من حصله أحاط بالمذهب ، وحصل له أكمل الوثوق به»^(١).

وقد تم الكتاب والحمد لله ، ووصل إلينا كاملاً ، وطبع في دمشق بالمكتب الإسلامي في اثني عشر جزءاً ، وهو في متناول الطلاب والباحثين والفقهاء والعلماء .

الخاتمة:

ويظهر من العرض السابق في هذا البحث عن «الغزالي الفقيه» ، وكتابه الوجيز» ما يلي:

أولاً: أن الغزالي من كبار الأعلام الفقهاء ، ومن مرتبة الأصحاب في المذهب الشافعي ، وأحد البناة في الفقه ، وأنه فقيه من الطراز الأول ، عاش مع الفقه منذ نعومة أظفاره تعلماً ودراسة ، وفي شبابه وكهولته تدريساً وإفتاء وتصنيفاً ، ومناظرة ، وأنه مجتهد في المذهب ، وصاحب وجه فيه ، وهو إمام الفقهاء ، وعلامة العصر ، وضيء الأمة في أحكام الدين ، ولا غرو أن يلقبه الناس في عصره ، وعلى مدى تسعة قرون بأنه «حجة الإسلام» ، وسبق الغزالي علماً بارزاً ، وضيء مشعاً ، وأثراً خالداً في وجدان الأمة وضميرها إلى المستقبل ، وهو الجبل الأشم الذي لا تطاوله الهامات ، ما دام الناس ينهلون من علمه ، ويعتمدون على كتبه وآثاره ، ويبجلون مكانته في القلوب والعقول والألسنة.

ثانياً: إن كتاب الوجيز من أهم كتب الفقه في المذهب الشافعي ، ويمتاز بالأسلوب الناصع ، والترتيب الدقيق ، والمنهج الواضح ،

(١) روضة الطالبين ٤/١ وما بعدها ، وانظر: مفتاح السعادة ٦١/٢ ، ١٤٦ ، تهذيب الأسماء ٣/١.

والصيانة المنطقية ، والعبارة المشرقة ، وأنه يمثل حلقة مهمة من سلسلة كتب الفقه الأساسية للمذهب الشافعي ، كما يمثل المنطلق الأول لحلقات فرعية جديدة وجليلة في خدمة المذهب ، وكان هذا الكتاب مقصد الطلاب والعلماء على مدى العصور السابقة ، وقد لقي العناية الكبيرة من كبار الفقهاء والأئمة والمحدثين ، ويمثل معلماً بارزاً في تاريخ التشريع الإسلامي ، وسيظل «الوجيز» واسطة العقد في كتب الفقه عامة ، والمذهب الشافعي خاصة ، بالرجوع إليه أولاً ، والاعتماد على شروحه ومختصراته والكتب المبنية عليه ، وهو الأهم ، ثانياً.

ولذلك نهيب بالعلماء والمسؤولين والمؤسسات ودور النشر أن تعمل جادة لنشر هذا الكتاب محققاً ، ونشر شروحه ومختصراته وكتب التخريج واللغة المتفرعة منه ، ليعم النفع ، وتتم الاستفادة ، ونخرج جانباً من التراث القيم إلى النور والحياة ، ونزيل عنه ركام الإهمال والنسيان ، وننقذ بعض ثروتنا العلمية من خطر الدمار والتلف .

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا ، وأن يأخذ بيدنا إلى سبل الخير والرشاد ، والحمد لله رب العالمين .



المصادر والمراجع

- ١ - الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، بيروت .
- ٢ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، إسماعيل باشا البغدادي ، الطبعة الثالثة ، طهران ١٣٧٨ هـ - ١٩٤٧ م .
- ٣ - البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير الدمشقي ، تصوير الطبعة الأولى ، بيروت والرياض ١٩٦٦ م .
- ٤ - تبين كذب المفترى ، ابن عساكر الدمشقي ، تصوير دار الكتاب العربي عن طبعة القدسي ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ٥ - التلخيص الحبير ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة .
- ٦ - تهذيب الأسماء ، للإمام محيي الدين بن شرف النووي ، تصوير الطبعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٧ - حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح المحلى على منهاج الطالبين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
- ٨ - الدرر الكامنة ، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ، دار الكتب الحديثة ، مطبعة المدني ، القاهرة .
- ٩ - روضة الطالبين للإمام يحيى بن شرف النووي ، المكتب الإسلامي للطباعة ، دمشق . -
- ١٠ - طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي ،

- تحقيق الحلو والطناحي ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م.
- ١١ - الغاية القصوى في دراية الفتوى ، للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي ، دار النصر للطباعة الإسلامية ، مصر .
- ١٢ - فتح العزيز في شرح الوجيز ، للإمام أبي القاسم الرافعي ، على هامش المجموع ، طبعة منير الدمشقي ، القاهرة .
- ١٣ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - الفقه الشافعي ، عبد الغني الدقر ، دمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ .
- ١٤ - كشف الظنون ، ملا كاتب الجلي ، حاج خليفة ، الطبعة الأولى ، در سعادت .
- ١٥ - مجلة جامعة الملك عبد العزيز جدة ، العدد الثاني ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ١٦ - المجموع شرح المذهب للعلامة يحيى بن شرف النووي ، نشر زكريا يوسف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة .
- ١٧ - مغني المحتاج ، الشيخ محمد الشريني الخطيب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
- ١٨ - مفتاح السعادة ، أحمد بن مصطفى ، الشهير بطاش كبري زاده - دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- ١٩ - نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، للرملي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٢٠ - الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي ، أبو حامد الغزالي ، تصوير دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ٢١ - وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

ابن كثير مفسراً

يزخر تاريخنا الإسلامي بالعلماء الأعلام الذين كانوا كواكب في الحياة، ومشاعل مضيئة للناس، وأناروا مصابيح النور لمختلف الأجيال، لينهلوا من علومهم، ويتغذوا من مواعدهم، ويعكفوا على كتبهم، ويستضيئوا بآرائهم، ويفخروا بمواقفهم.

فمن هؤلاء العلماء الحافظ، المفسر، المؤرخ، الفقيه ابن كثير الدمشقي الذي تلقى نظرة سريعة على حياته وسيرته الشخصية، ثم نقف وقفة علمية مع كتابه القيم «تفسير القرآن العظيم» المعروف بتفسير ابن كثير. اسمه ونسبه:

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضَوْء بن كثير بن زَرْع القَيْسي، القرشي، البَصْرِي، الدمشقي، عماد الدين، أبو الفداء.

واتفق المؤرخون على اسمه واسم أبيه وجده الأول، وحصل اختلاف في الجد الأعلى وما يليه، والقَيْسي نسبة إلى قيس بن عَيْلان بن مُضَر، من العرب، ومنهم خلق كثير من الصحابة فمن بعدهم، والقرشي نسبة إلى قريش من ولد النضر، فينتهي إلى مضر، فابن كثير عربي أصيل، فهو من بني حَصْلة الذين ينتسبون إلى قريش، وإن كان النسب وجده لا يكفي، وإنما العبرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

والبَصْرِي نسبة إلى بَصْرَى الشام المشهورة عند العرب، وهي من

أعمال حوران ، وتقع في الجنوب الشرقي من سورية الآن ، ونسبته إليها ، لأنه ولد في قرية كانت تابعة لها ، وكان والده قد نشأ في بصرى ، وتعلم بها ، ودرس فترة ، ثم انتقل عنها^(١).

والدمشقي نسبة إلى مدينة دمشق التي نشأ فيها ابن كثير ، وتعلم بها ، وعاش معظم حياته بها ، ثم مات ودفن فيها.

ولادته ونشأته :

ولد ابن كثير على الراجح سنة ٧٠١ هـ في مَجْدَل الْقَرْيَةِ أو مجدل القرية من أعمال بصرى ، وكان والده خطيباً في هذه القرية ، وتزوج منها زوجته الثانية التي أنجبت عدة أولاد ، آخرهم إسماعيل .

ونشأ ابن كثير في أسرة علمية متدينة ، فكان أبوه فقيهاً أديباً شاعراً ، و كان خطيباً ، وكان الوالد حريصاً على تربية أولاده تربية دينية صحيحة ، ومات الوالد بعد ولادة ابن كثير بثلاث سنوات ، فرعاه أخوه الفقيه العالم عبد الوهاب ، ورحل به سنة ٧٠٧ هـ إلى دمشق لطلب العلم والتفرغ له ، ووصف ابن كثير أخاه بقوله : «كان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوفاً»^(٢).

وانصرف ابن كثير بدمشق إلى طلب العلم ، وتحصيل المعارف ، والتقى علماءها ومشايخها ، وصحب محدث الشام في عصره أبا الحجاج ، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن ، المشهور بالمِزِّي ، (٧٤٢ هـ) وكان إمام الحفاظ ، فلازمه ، وأخذ عنه العلم الكثير ، ثم

(١) البدر الطالع ١٥٣/١ ، الدرر الكامنة ٣٩٩/١ ، شذرات الذهب ٢٣١/٦ ، المنهل الصافي ٤١٤/٢ ، طبقات المفسرين ١١٠/١ ، إنباه الغمر ٣٩/١ ، تذكرة الحفاظ ١٥٠٨/٤ ، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧ ، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١ ، الرد الوافر ص ٩٢ ، الأعلام : ٣١٨/١ .

(٢) البداية والنهاية ٣٢/١٤ .

صاهره وتزوج ابنته ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، ورزق من هذه الزوجة عدة أولاد ، صاروا علماء فيما بعد .

وحفظ ابن كثير القرآن الكريم ، وعمره إحدى عشرة سنة ، وقرأه بالقراءات حتى عدّه الداودي من القراء ، ثم حفظ كتاب «التنبيه» وهو أهم مختصر - في ذلك الوقت - في الفقه الشافعي ، وكان يعرضه حفظاً وسنه ثمانى عشرة سنة ، وأخذ الفقه على الشيخ برهان الدين الفزاري (٧٢٩ هـ) ، وكمال الدين بن قاضي شعبة (٧٢٦ هـ) وشيخ الشافعية بالشام ابن الزملكاني (٧٢٧ هـ) ، كما درس علوم الحديث على حفاظ الشام ، وسمع منهم الصحاح والمسانيد ، ولازم الحافظ المزي (٧٤٢ هـ) ، وأجازه وتخرج به ، كما صحب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٧٢٨ هـ) وأحبه ، وتفقه به ، وأخذ عنه ، وكانت له خصوصية بابن تيمية ، ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتنحه بسبب ذلك ، وأوذي^(١) ، وقال ابن حجر عن ابن كثير : «وأخذ عن ابن تيمية ، ففتن بحبه ، وامتنح بسببه»^(٢) .

كما قرأ ابن كثير علم أصول الفقه على الأصبهاني (٧٤٩ هـ) ودرس علوم العربية والنحو ، قال ابن تغري بردي : «وبرع في الفقه والتفسير والحديث»^(٣) ، وقال أيضاً : «وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك»^(٤) ، وقال شيخه الذهبي عنه «وتفهم العربية والأصول»^(٥) .

(١) شذرات الذهب ٦/٢٣١ .

(٢) الدرر الكامنة ١/٤٠٠ .

(٣) المنهل الصافي ٢/٤١٥ .

(٤) المرجع السابق ٢/٤١٦ .

(٥) معجم محدثي الذهبي = المعجم المختص ص ٥٦ .

شيوخ ابن كثير:

واشتهر من مشايخ ابن كثير عدد من العلماء والفقهاء والمحدثين والمؤرخين ، منهم القاسم بن عساكر مسند الشام ، (٧٢٣ هـ) ومحمد الشيرازي ، مسند الوقت (٧٢٣ هـ) وإسحاق الأمدي (٧٢٥ هـ) والمحدث محمد الزرّاد (٧٢٦ هـ) والفقيه الشيخ ابن قاضي شهبة (٧٢٦ هـ) والفقيه الأصولي ابن الزملكاني (٧٢٧ هـ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ) والفقيه الأصولي برهان الدين الفزاري المعروف بابن الفزّكاح (٧٢٩ هـ) ومحمد البعلبكي الحنبلي (٧٣٠ هـ) والحافظ المحدث الحجار بن الشُّحنة (٧٣٠ هـ) والعالم العابد عبد الله المقدسي الحنبلي (٧٣٧ هـ) ومؤرخ الشام الحافظ الكبير الإزّزالي (٧٣٩ هـ) ومؤرخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) بالإضافة إلى الحافظ المزّي (٧٤٢ هـ) الذي تخرج به ابن كثير وصحبه طويلاً ، وصاهره ، وأخيراً شمس الدين الأصبهاني (٧٤٩ هـ) ، وحصل ابن كثير على رواية الحديث من علماء مصر كأبي الفتح الدبوسي ، وعلي الوائي ، ويوسف الخثني ، وأبي موسى القرافي والحسيني .

نشاطه العلمي:

وبعد أن حصل التكوين العلمي ، وصار يشار إليه بالبنان ، بدأ في العطاء والإفادة في مختلف العلوم ، فاشتغل بالإقراء للقرآن الكريم ، كما كان محدثاً فبدأ بالتحديث والإجازة في الرواية ، وعمل بالتدريس في الجامع الأموي الكبير ، وكان يشهد دروسه العلماء وطلاب العلم والقضاة والأعيان^(١) ، وتولى مشيخة مدرسة أم الصالح بدمشق ، ومشيخة دار الحديث لمدة يسيرة ، ومشيخة المدرسة التنكزية ، ثم مارس الفتوى ،

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ .

وكانت ترد إليه الفتاوى من الأمراء والحكام وعامة الشعب ، حتى قال عنه ابن حبيب «وأطرب الأسماع بالفتوى ، وشتف . . . وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد»^(١) ، وكانت له مواقف مشهودة في الفتوى بالحق والعدل ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان يأذن لطلابه بالفتوى ، ونظم ابن كثير بعض الشعر ، وتفرغ معظم وقته للتصنيف والكتب التي انتفع الناس بها ، ولا يزالون ، قال ابن حجر : «وسارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته»^(٢) ، كما شارك في امتحان الطلبة والعلماء والمشاورة للقضاة .

كتبه ومصنفاته :

صنف ابن كثير رحمه الله تعالى عدداً من الكتب النافعة المهمة المفيدة التي عكف الناس عليها طوال سبعة قرون ، ثم انتشرت اليوم في عصر المطابع ، وامتألت المكتبات العامة والخاصة بهذه الكتب القيمة ، قال الشوكاني : «وقد انتفع الناس بمصنفاته ، ولا سيما التفسير»^(٣) ، وقال الزركلي : «تناقل الناس تصانيفه في حياته»^(٤) . وقال الأستاذ محمود رزق سليم : «وقد اشتغل بالتصنيف في التاريخ والتفسير والحديث والأحكام ، وذاعت مؤلفاته في حياته ، وانتفع بها الناس»^(٥) .

وتتوزع مصنفات ابن كثير على أربعة علوم ، وهي التفسير ، والحديث ، والتاريخ ، ومعها السيرة والتراجم ، والفقه .

وطبع له منذ خمسين عاماً وأكثر ثلاثة كتب وهي الأكثر شيوعاً وانتشاراً

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ ، إنباه الغمر ١/ ٣٩ .

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠ ، وانظر : ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٣) البدر الطالع ١/ ١٥٣ .

(٤) الأعلام ١/ ٣١٨ .

(٥) عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤ .

مع إقبال الناس عليها ، وهي «البداية والنهاية» في التاريخ ، والتفسير ، واختصار علوم الحديث ، ثم ظهرت له أخيراً كتب عديدة ، بعضها من تأليفه ، وبعضها مستل من كتابيه التاريخ والتفسير .

ونقتصر على سرد أهم المؤلفات ، مع الإشارة إلى طبعها أو تحقيقها .

١ - الاجتهاد في طلب الجهاد ، طبع عدة مرات .

٢ - الأحكام الصغرى في الحديث .

٣ - الأحكام الكبير في الحديث أيضاً ، وهو كتاب كبير لم يكمله ، وصل فيه إلى باب الحج .

٤ - أحكام التنبيه في الفقه .

٥ - اختصار علوم الحديث ، وطبع مع شرحه «الباعث الحثيث» مراراً .

٦ - اختصار «المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي» .

٧ - البداية والنهاية ، طبع مرات كثيرة .

٨ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه ، حققه محمد إبراهيم السامرائي حديثاً .

٩ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ، حققه الأستاذ عبد الغني الكبيسي .

١٠ - تفسير القرآن العظيم ، المعروف بتفسير ابن كثير .

١١ - التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .

١٢ - جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم السنن ، حققه حديثاً الشيخ عبد الملك بن دُهَيْش .

١٣ - السيرة النبوية (المطولة) ، طبعت مراراً .

١٤ - شرح صحيح البخاري ، لم يكمله .

١٥ - طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعي ، طبع حديثاً .

- ١٦ - الفصول في سيرة الرسول (السيرة المصغرة) طبعت مراراً.
- ١٧ - فضائل القرآن ، طبعت مع تفسير القرآن العظيم ، وطبعت مستقلة.
- ١٨ - قصص الأنبياء ، مأخوذة من البداية والنهاية ، وطبعت مراراً.
- ١٩ - مسند أبي بكر رضي الله عنه ، وسيرته في مجلد.
- ٢٠ - مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، طبع حديثاً ، وسيرة عمر بن الخطاب في مجلد آخر.
- ٢١ - المقدمات ، في مصطلح الحديث.
- ٢٢ - النهاية في الفتن والملاحم ، طبعت مراراً.
- ٢٣ - مولد رسول الله ﷺ ، من الأحاديث والأخبار الصحيحة ، رسالة صغيرة ، طبعت مراراً.

صفاته:

اتصف ابن كثير رحمه الله تعالى بكمال الصفات الخلقية والخلقية ، وكان جيد الحفظ ، كثير الاستحضار ، قليل النسيان ، صحيح الفهم ، خفيف الروح ، حسن المفاكهة ، ملتزماً بالسنة والحديث النبوي ، متحلياً بالقيم العالية ، والفضائل النفيسة .

وكانت له مواقف تتسم بالحياد والموضوعية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنكار البدع ، والدعوة إلى الإصلاح ، وإنصاف الخصم ، والبعد عن الضغائن والأحقاد ، وقافاً على الحق في المنازعات والخصومات والفتن والخلافات التي كانت تعرض عليه .

قال ابن العماد الحنبلي: «كان كثير الاستحضار ، قليل النسيان»^(١) ،

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ .

وقال ابن حجر: «كان جيد الفهم ، حسن المفاكهة»^(١) ، ولما خرب الفرنج الإسكندرية صدر المرسوم من الديار المصرية إلى نائب السلطنة (بدمشق) لمسك النصارى وجمع الأموال منهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، قال ابن كثير لنائب السلطنة: «ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعاً»^(٢) فأخذ برأيه .

وفاته :

واظب ابن كثير رحمه الله تعالى على الاشتغال بالعلم ، واستمر مكباً على التأليف والتصنيف في الليل والنهار ، وكان متفرغاً في آخر حياته لكتابة وتأليف «جامع المسانيد» وقطع فيه شوطاً كبيراً ، وقبل نهايته فقد بصره ، وتوقف عمله ، وهذا ما صرح به ابن الجزري - أحد تلاميذ ابن كثير - عنه قائلاً: «لا زلت أكتب فيه «جامع المسانيد» في الليل والسراج يُنَوِّنُص ، حتى ذهب بصري معه»^(٣) ، قال الحافظ ابن حجر عنه: «وكان قد أضر في أواخر عمره»^(٤) ، ويغلب الظن أن ذلك كان سنة ٧٦٧ هـ ، لأنه انقطع عند هذه السنة عن متابعة الأحداث في تدوين كتابه القيم «البداية والنهاية» في التاريخ .

واتفق المؤرخون على أن ابن كثير رحمه الله تعالى توفي بدمشق في يوم الخميس الخامس والعشرين أو السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٧٤ هـ الموافق ١٣٧٣ م عن أربع وسبعين سنة ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وهذه المقبرة اندرست ولم

(١) إنباه الغمر ١/٣٩ ، الدرر الكامنة ١/٤٠٠ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) ابن كثير ، حياته ص ١٨ ، عن المصعد الأحمد في ختم مسند أحمد في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق محمد أحمد شاكر .

(٤) الدرر الكامنة ١/٤٠٠ .

يبقى منها إلا ثلاثة قبور ، أحدهم قبر شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتقع خلف دار التوليد الجديدة في حديقة المستشفى الوطني عند رئاسة جامعة دمشق .

قال ابن ناصر عن ابن كثير : «وتوفي سنة ٧٧٤ هـ ، وكانت جنازته حافلة ، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب الصغير من دمشق»^(١) .

ورثاه أحد طلابه ، فقال :

لفقدك طلابُ العلوم تأسَّفُوا وجادُوا بدمع لا يبيدُ كثير
ولو مَرَجُوا ماءَ المدامع بالدمَا لكانَ قليلاً فيكَ يابن كثير
ولقي ابن كثير الثناء العاطر من شيوخه ومعاصره وتلاميذه والمترجمين له ، نقتطف بعضاً منها :

فقال شيخه مؤرخ الإسلام الذهبي : «وسمعت مع الفقيه المحدث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي الشافعي»^(٢) ، وقال أيضاً : «فقيه متقن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة»^(٣) .

وقال تلميذه الحافظ المؤرخ أحمد بن حنبل : «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئاً من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقيهاً جيد الفهم ، صحيح الذهن ، يحفظ «التنبيه» ، إلى آخر عمره ، ويشارك في العربية مشاركة جيدة ،

(١) الرد الوافر ص ٩٢ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١٥٠٨/٤ .

(٣) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦ .

وينظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة ترددي إليه - إلا واستفدت منه ، وقد لازمته ست سنين»^(١).

وقال الحافظ ابن ناصر الدمشقي: «الإمام العلامة الحافظ عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين ، أبو الفداء...»^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته»^(٣).

وقال المؤرخ أبو طاهر ابن حبيب الحلبي: «إمام ذوي التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع ، وصنف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشئف ، وحدّث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»^(٤) ، إلى غير ذلك من المديح الجميل الذي يستحقه ابن كثير رحمه الله تعالى .

إسهامه في التفسير:

إن علم التفسير أحد علوم القرآن الكريم ، وأهم العلوم الشرعية ، لأن القرآن الكريم هو الدعامة الأولى للعقيدة الإسلامية ، والركيزة المتينة لبناء الإسلام ، والمنبع الصافي للأخلاق الفاضلة ، والمصدر الرئيس للعبادات وسائر الأحكام والتشريع ، وهو الباعث والمحرك لكل تقدم أو

(١) طبقات المفسرين ١/ ١١١ ، إنباه الغمر ١/ ٣٩ ، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٣٢ .

(٢) الرد الوافر ص ٩٢ .

(٣) الدر الكامنة ١/ ٤٠٠ ، وانظر: إنباه الغمر لابن حجر ١/ ٣٩ وما بعدها .

(٤) إنباه الغمر ١/ ٣٩ - ٤٠ ، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ .

حضارة أو مدنية أو رقي للمسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل ،
وهو دستور الله الخالد في الأرض .

ويأتي التفسير وسيلة حتمية لتدبر القرآن وفهمه ، واستنباط الأحكام
منه ، والعمل بما فيه ، لذلك عكف العلماء على تفسير القرآن العظيم ،
وظهرت مئات التفاسير ، وآلاف الكتب حول القرآن .

وبدأ ابن كثير رحمه الله تعالى اهتمامه بالقرآن الكريم من الصغر ،
فحفظه ، وختمه ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، ثم حصل العلوم
الأساسية المساعدة للتفسير ، وتوفرت فيه شروط المفسر ، كما بينها
الأئمة والعلماء ، وخاصة ابن جرير الطبري ، وشيخ الإسلام ابن
تيمية^(١) ، ودَّرَسَ ابن كثير التفسير في الجامع الأموي ، وصنف كتابه القيم
«تفسير القرآن العظيم» المشهور بتفسير ابن كثير ، وصرح ابن كثير على
الباعث لذلك ، فقال : «فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله
تعالى ، وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتعلم ذلك وتعليمه»^(٢) .

أهمية تفسير ابن كثير :

يعتبر تفسير ابن كثير من خير كتب التفسير ، ولذلك احتل مكانة
مرموقة في المكتبة الإسلامية ، وذاع صيته ، وتداولته الأيدي قديماً
وحديثاً على مختلف المستويات ، وشهد له العلماء بذلك ، وطبع
الكتاب مرات كثيرة ، أحياناً مع غيره ، كطبعته مع تفسير البغوي مرة ،
ومع تفسير البيان في مقاصد القرآن لحسن صديق خان القنوجي البخاري
مرة أخرى ، وطبع مستقلاً في أربع مجلدات كبيرة عدة مرات ، وطبع في
سبع مجلدات كبيرة من القطع الكبير ، وفي معظم الأحيان يطبع في آخره

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/١ ، ٣٢ ، مقدمة في أصول التفسير ، لابن تيمية ص ٣٨
وما بعدها .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/١ .

«كتاب فضائل القرآن لابن كثير» نفسه .

يقول الإمام السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله»^(١) ، ويقول الشوكاني: «وله تصانيف مفيدة ، منها التفسير المشهور ، وهو في مجلدات ، وقد جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير»^(٢) .

ويقول الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر: «إن تفسير ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا ، وأجودها ، وأدقها ، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري»^(٣) .

ويقول الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي: «كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم ، وقد شهد له العلماء بسعة علمه ، وغزارة مادته ، خصوصاً في التفسير والحديث والتاريخ . . . وعلى الجملة فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه ، وهما من خير ما ألف ، وأجود ما أخرج للناس»^(٤) .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد كريم راجح: «وكنت أرى أن تفسير القرآن الكريم للإمام الجليل ، الحافظ عماد الدين . . . ، كتاب جمع فأوعى ، ففيه الدراية والرواية ، وكان مما منَّ الله به أن جعل هذا التفسير فتحاً ، فكان محبباً إلى القلوب ، قريباً من الأفكار ، عبارته سهلة ، وغرضه ظاهر ، وأهدافه واضحة»^(٥) .

(١) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١ .

(٢) البدر الطالع ١/١٥٣ .

(٣) عمدة التفسير ١/٥ .

(٤) التفسير والمفسرون ١/٢٤٣ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، للشيخ محمد كريم راجح ، المقدمة ١/٥ .

ويقول الشيخ محمد نسيب الرفاعي: «وتفسير ابن كثير هذا غني عن التعريف ، إذ يكاد أن يكون التفسير الوحيد الذي حرص صاحبه رحمه الله على أن يكون تفسيراً غير مختلط بأي علم آخر... ، فهو تفسير للتفسير فقط... ، ويرجو بذلك أن يصل إلى غاية سامية جليلة ، هي تبين مراد الله تعالى من كلامه العظيم ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً»^(١).

ويقول الدكتور الشيخ محمد لطفي الصباغ: «وتفسير ابن كثير تفسير جيد ، انتفع الناس به قديماً وحديثاً ، وذلك عائد إلى سلامة منهجه ، وإخلاص مؤلفه ، وسهولة المراجعة فيه... ، إنه من أشهر كتب التفسير بالمأثور ، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً بين الناس ، وزادت المطابع - في عصرنا - من شهرته ، فطبع أكثر من مرة ، وفي أكثر من بلد ، مستقلاً حيناً ، ومع تفسير آخر حيناً آخر»^(٢).

منهج ابن كثير في تفسيره:

عرض ابن كثير منهجه في التفسير في مقدمة كتابه ، بعد أن طرح السؤال التالي: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟» فقال:

«فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه بُسط في موضع آخر».

«فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنة ، فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له ، بل لقد قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن».

«والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده ، فمن السُّنة ، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «فيمَ تحكم؟ قال:

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، المقدمة ٦/١ - ٧.

(٢) بحوث في أصول التفسير ص ٦٣ ، ٦٤.

بكتاب الله ، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ، فضرب رسول رسول الله ﷺ على صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ ، لما يرضي رسول الله» وهذا الحديث في المسند ، والسنن بإسناد جيد...»^(١).

وتابع ابن كثير منهجه فقال: «وحيث إذا لم نجد التفسير في القرآن ، ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدركوا ذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لاسيما علماؤهم وكبرائهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم...»^(٢).

ثم قال ابن كثير: «فصل: إذا لم تجد التفسير في القرآن ، ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية في التفسير... ، وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب...»^(٣).

ثم قال ابن كثير: «وأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام...»^(٤).

ونلاحظ من منهج ابن كثير رحمه الله تعالى أنه يحدد طريقة التفسير

(١) هذا الحديث رواه أحمد (٢٤٢/٥) وأبو داود (٢٧٢/٢) والترمذي (٥٥٦/٤) والدارمي (٦٥/١).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/١ مع الاختصار ، والنص منقول حرفياً عن ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣ وما بعدها.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/١ ، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٢ وما بعدها.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/١ ، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥ وما بعدها.

بالمأثور ، ويلتزم بها ، ولذلك عرف هذا التفسير بأنه أهم كتب التفسير بالمأثور .

ونستطيع أن نستخلص منهج ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره بالنقاط التالية :

١ - تفسير الآية بعبارة سهلة ، وبأسلوب مختصر ، يوضح المعنى العام للآية .

٢ - تفسير الآية بآية أخرى إن وجدت ، حتى يتبين المعنى ، ويظهر المراد ، وقد يذكر ابن كثير عدة آيات في تفسير الآية الأولى ، وكأنه يجمع بين الآيات المتماثلة والمتشابهة في المعنى ، والمتحدة في الموضوع ، فتأتي الآيات متناسبة في مكان واحد مما يشكل البذرة - لما يعرف اليوم - بالتفسير الموضوعي .

ويعتني ابن كثير بشدة بهذا النوع من التفسير ، المعروف بتفسير القرآن بالقرآن ، وهو أول الأسس في التفسير بالمأثور^(١) .

٣ - رواية الأحاديث بأسانيدھا غالباً ، وبغير إسناد أحياناً ، لإلقاء الضوء النبوي على معنى الآية ، لأن من وظيفة الرسول ﷺ التبليغ والبيان ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ ، ومثله معه»^(٢) ، يعني السنة ، والسنة - في أصلها - وهي من عند الله تعالى بالمعنى ، وينزل بها

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٤ ، التفسير بالمأثور ص ٩٩ .

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود (٥٠٥/٢) وأحمد (١٢٩/٢) ، ١٣١/٤ وابن ماجه (٦/١) .

الوحي كما ينزل بالقرآن ، إلا أنها من كلام النبي ﷺ ، ولا تتلى كالقرآن ، ولذلك يعتبر رسول الله ﷺ أول مفسر للقرآن^(١) .

٤ - تفسير القرآن بأقوال الصحابة ، بأن يردف المفسر ابن كثير ما وصله من أقوال الصحابة في تفسير الآية ، حسب المؤهلات التي يتمتعون بها ، والتي ذكرها ابن كثير ، وفي ضوء الأحداث التي تستدعي بيان القرآن الكريم للتطبيق في الحياة العملية ، وفي مجالس العلم والتدريس التي توليها كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم أقرب الناس لنزول الوحي ، وتخرجوا من مدرسة النبوة ، وملكوا ناصية البيان واللغة العربية سليقة وفهماً واستعمالاً وقرباً من منابعها ، لذلك أصبحت أقوال الصحابة محل الاحترام والقبول من جميع المسلمين ، مع تعدد أقوالهم أحياناً في معنى الآية الواحدة .

٥ - الاستئناس بأقوال التابعين ومن بعدهم من علماء السلف ، وخاصة أهل القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية ، وحملوا الدعوة والإسلام قولاً وعملاً ، وعملوا على نشرها وتعليمها للشعوب الإسلامية قاطبة ، ولذلك يعتبر كثير من العلماء أن أقوال التابعين والسلف الصالح من فقرات التفسير بالمأثور ، والتزمه عملياً ابن كثير رحمه الله تعالى .

٦ - التحذير من الإسرائيلية التي نتجت عن رواية بعض الصحابة وبعض التابعين عن مصادر أهل الكتاب ، ومعظمها غير صحيح

(١) يحتوي تفسير ابن كثير على حشد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة ، لذلك قام ثلاثة من الأساتذة الأفاضل المعاصرين باستخراج هذه الأحاديث ، وجمعها ، وفهرستها أبجدياً ، وترتيبها ، والإحالة إلى مكان وجودها ، وطبع هذا الكتاب بعنوان «فهرس أحاديث تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ، وجاء في ٣٣٤ صفحة من القطع الكبير ، ونشرته دار المعرفة - بيروت - سنة ١٩٨٦م .

ولا معقول ، وأكثرها غرائب وطرائف ، وكان ابن كثير محدثاً وحافظاً وهو أدرى الناس بمعرفة الأحاديث ، ومدى الاعتماد على الأحاديث الإسرائيلية ، لذلك نص عليها في مقدمة تفسيره ، وأنها «تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد»^(١) ، وصنفها ثلاثة أقسام ، وأدرك ابن كثير أن هذه الروايات للاستثناس لا للاعتقاد ، ولا للبيان والقبول ، ولكن تسربت هذه الإسرائيلية إلى كتب التفسير وغيرها ، ولذلك كان ابن كثير رحمه الله تعالى لا ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيلية ، ويحذر منها على وجه الإجمال تارة ، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض المنكرات تارة أخرى»^(٢).

فمثلاً يذكر ابن كثير قصة طويلة وغريبة عن البقرة المذكورة في الآية ٦٧ من سورة البقرة ، ثم يقول : «وهذه السياقات عن عبادة ، وأبي العالية ، والسدي وغيرهم ، فيها اختلاف ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا تُصدّق ولا تُكذب ، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم»^(٣).

ويصرح بخطر الإسرائيلية بشكل بارز في أمكنة متعددة ، ويحذر منها ، ويكشف أسبابها ، فمن ذلك ما يذكره عند تفسيره لأول سورة ق ، وأنها من الأحرف التي ابتدأت بها بعض سور القرآن ، بين رأيه فيها في أول سورة البقرة ، ثم قال : «وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق : جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأوا من

(١) تفسير ابن كثير ٤/١ ، وانظر : مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٠ .

(٢) التفسير والمفسرون ١/٢٤٥ ، وانظر : التفسير بالمأثور ص ١٠٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/١١٠ .

جواز الرواية عنهم مما لا يُصدق ، ولا يكذب ، وعندني : أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة ، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ، أحاديث عن النبي ﷺ ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن موضعه ، وتبديل كتب الله وآياته؟؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(١) فيما يجوز العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل ، والله أعلم ، وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد والمنة»^(٢).

وهنا تجب الإشارة إلى أن ابن كثير تعرض لهذا الموضوع في مقدمة تاريخه «البداية والنهاية» وحدد المنهج والقاعدة لقبول رواية الإسرائيليات وردّها ، وكنا نأمل أن يضعها هنا في كتابه التفسير ، ويلتزم بها ، فقال : «ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلي به ، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه ، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ ، ما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نبينه»^(٣).

٧ - الأحكام الفقهية : يتعرض ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير آيات

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري (٣/ ١٢٧٥ رقم ٣٢٧٥) والترمذي (٧/ ٤٣١).

(٢) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤.

(٣) البداية والنهاية ٦/١.

الأحكام إلى بيان الأحكام الشرعية ، ويستطرد في ذكر أقوال العلماء وأدلتهم ، ويدخل في المناقشات الفقهية ، واختلاف الفقهاء ، ويخوض في المذاهب ، ويعرض أدلتها ، لكنه لا يتوسع كثيراً مثل تفاسير «أحكام القرآن» للجصاص وابن العربي والقرطبي ، يقول الدكتور الذهبي : «ولكن مع هذا مقتصد مقل ، لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين»^(١).

ولا غرابة في ذلك فابن كثير رحمه الله تعالى فقيه شافعي ، وله باع طويل في الفقه ، وكان يدرس الفقه ، ويمارس الفتوى ، ويُسْتَفْتَى في المعضلات ، ويأذن لطلابه بالفتوى.

٨ - الشواهد اللغوية والشعرية : اعتمد ابن كثير رحمه الله تعالى على اللغة العربية في فهم كلام الله تعالى الذي نزل باللغة العربية ، ويجب أن يفسر حسب مقتضى المعاني العربية ، وأساليب اللغة ، ودلالات الألفاظ ، وشواهد الشعر الذي هو ديوان العرب ، بما يوضح المراد ، ويؤيد التفسير.

٩ - الأعلام والرجال : حافظ ابن كثير في معظم الأحيان على ذكر الأسانيد ، ونسبة الأقوال إلى أصحابها ، وإيراد أسماء العلماء الأعلام من الصحابة والمفسرين الذين نقلت عنهم الآراء ، ليكون دقيقاً في نقله ، مع المحافظة على الأمانة العلمية ، فجاء تفسير ابن كثير زائراً بأسماء العلماء ، وأعلام الرجال.

١٠ - قوة الشخصية : عرض ابن كثير لأحاديث متعددة ، وروايات كثيرة ، وأقوال مختلفة ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل كانت شخصيته العلمية بارزة ، وواضحة ، وظاهرة ، فكان يبين درجة الأحاديث ، ويثبت صحة أكثرها ، ويضعف بعض الروايات ، ويعدل

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٦.

بعض الرواة ، يجرح بعضاً آخر ، وكل ذلك بسبب صنعته العلمية الحديثية بأنه حافظ ومحدث ، وله المعرفة الواسعة ، والباع الطويل في فنون الحديث ، وأحوال الرجال ، والتصنيف فيها^(١) .

وسار على هذا المنهج في إيراد الأحكام الفقهية وآراء المذاهب ، فيعمد إلى بيان الراجح منها ، والموافق لدلالة الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة .

١١ - الاقتباس : كان ابن كثير رحمه الله تعالى يعتمد على من سبقه من المفسرين ، وينقل عنهم ، ويصرح بذلك ، ومنهم إمام المفسرين ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم ، وتفسير ابن عطية ، وأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية ، حتى اقتبس معظم المقدمة من كتاب ابن تيمية «مقدمة في أصول التفسير» مع التصرف القليل^(٢) .

تقويم تفسير ابن كثير :

جاء تفسير ابن كثير ذخيرة علمية ، وعرضنا أهمية وأقوال العلماء فيه ، وذكرنا منهجه وأهم ميزاته وحسناته وخصائصه ، ولكنه لم يخل من بعض المآخذ التي لاحظها العلماء عليه ، وأهمها :

١ - الإطالة : وذلك بذكر الأسانيد كاملة ، وإيراد الروايات المتكررة في الموضوع الواحد ، والاستعانة بالشواهد اللغوية ، مما يؤدي إلى الملل والتعب والسآمة من هذه التفصيلات التي لا يستفيد منها إلا فئة متخصصة من العلماء والباحثين .

٢ - الإسرائيليات : التي ذكرها ابن كثير «للاستشهاد ، لا للاعتقاد» ، فيذكر الرواية كاملة ، ثم يصرح بأنها إسرائيلية ، وقد يبين بطلانها

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٤ ، التفسير بالمأثور ص ٩٩ .

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٥ ، تفسير ابن كثير ٣/ ١ ، مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣ وما بعدها .

وفسادها ، وهذا أمر مشكور ، ولكنه يؤدي إلى نتائج سيئة ، لأن القارىء العادي سيقروها ، وقد لا ينتبه إلى معنى كونها إسرائيلية ، أو ينسى ذلك وقد تعلق بذهنه ، ولو صرح المؤلف ببطالانها ، فكان حذفها أولى وأفضل ، وإن الخطر والضرر في إثباتها واضح ، ولذلك تتردد على السنة العوام ، وأنصاف المتعلمين ، ويقولون : إنها وردت في تفسير ابن كثير ، ويغفلون أو ينسون أو يتجاهلون تعليق ابن كثير عليها وحكمه فيها .

ومع كل ذلك فإن ابن كثير لم يكن مبدعاً في تفسيره ، ولم يأت بمنهج جديد ، أو إبداعات خاصة ، ولكن كان ناجحاً ناجحاً متفوقاً في اختيار المنهج الذي سار عليه ، والطريقة التي سلكها والاختيارات التي انتقاها ، أو وصل إليها ، والنقول التي جمعها ، والأسلوب الذي اتبعه وعرض به . وكان ابن كثير متميزاً في هذه المجالات ، ولذلك انتشر تفسيره ، وشاع في الأقطار ، وتقبله الناس والعلماء .

ولذلك أرى أن أصح وصف له هو ما وصفه به شيخه الحافظ الذهبي بأنه «مُفسِّرٌ نَقَّالٌ» ولكن أحسن النقل ، وتوفيق في الاختيار ، ونجح في العرض والأسلوب ، ولعل السر الأعظم في هذا النجاح والتوفيق والقبول أنه أخلص النية والقصد لله تعالى ، فكتب الله لعمله القبول والبقاء والانتشار ، والأجر الدائم ، فما كان لله فهو الباقي الخالد .

ونختم هذه الفقرة بكلمة الدكتور الشيخ الذهبي ، قال : «وبالجملة ، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور ، وقد شهد له بعض العلماء»^(١) .

مختصرات تفسير ابن كثير :

ونظراً لأهمية هذا الكتاب العظيم ، ومكانته في النفوس ، وما ورد فيه

(١) التفسير والمفسرون ١/٢٤٧ .

من ميزات وخصائص ، وما ورد عليه من مأخذ لاستدراكها ، فقد عكف عليه العلماء قديماً وحديثاً لاختصاره ، وتقريبه للناس ، لتعم به الفائدة ، وإتماماً للنفع نسرد هذه المختصرات بإيجاز .

١ - لخصه في نصف حجم الأصل شمس الدين محمد بن علي البعلي ، المعروف بابن اليونانية (٧٠٧ هـ - ٧٩٣ هـ) وهو كما نلاحظ من معاصري ابن كثير في القرن الثامن الهجري .

٢ - اختصره عفيف الدين بن سعد الدين بن مسعود الكازروني في كتابه «البدر المنير» وطبع هذا المختصر مع أصله سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م^(١) .

٣ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، وهو اختصار وتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر الذي عرض فيه مقدمة قيمة عن ابن كثير وتفسيره ، ثم بيّن منهجه في الاختصار في عشر فقرات ، وجاء في خمسة أجزاء متوسطة الحجم ، ومن القطع العادي في (١٤٤٢ صفحة)^(٢) .

٤ - مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار الأستاذ الشيخ محمد كريم راجح ، شيخ القراء بدمشق ، بيّن في مقدمته أهمية تفسير ابن كثير وميزاته ، وعرض منهجه في الاختصار ، وجاء هذا المختصر في مجلدين كبيرين وبلغ (١٥٢٤) صفحة ولقي إقبالاً كبيراً ، وطبع عدة مرات بدمشق وبيروت^(٣) .

٥ - مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني الذي بين أهمية هذا التفسير ، وأنه من خير التفاسير بالمأثور وأوثقها ، ويجمع بين الرواية والدراية ، مع الحاجة إلى اختصاره لتجنب التظويل والتفصيل والأسانيد والخلافات الفقهية ليعم به النفع ،

(١) ابن كثير ، حياته ص ٩٢ .

(٢) طبع دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٥٩ م .

(٣) الطبعة الرابعة - دار المعرفة - بيروت سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

وتتحقق منه الفائدة المرجوة ، ثم بين الشيخ الصابوني منهجه في الاختصار ، وطبع طباعة أنيقة في ثلاث مجلدات كبيرة ، مع الإخراج الفني المتميز ، فلقي رواجاً كبيراً ، وانتشاراً واسعاً ، وتكررت طباعته عدة مرات^(١).

٦ - تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، اختصره وعلق عليه ، واختار أصح رواياته الشيخ محمد نسيب الرفاعي بعد جهد خمس سنوات فيه ، وبين مكانة هذا التفسير ، وحاجته للاختصار ، ومنهجه في ذلك ، ثم التعليق أحياناً ، وجاء في أربع مجلدات ، بلغت (٢٢٦٥) صفحة ، وآخره فهرس آيات ، وأحاديث ، وطبع مرتين^(٢).

٧ - تفسير آية الكرسي: تحقيق محمود شلبي الذي اختار أعظم آيات القرآن الكريم ، وجمع تفسيرها من تفسير الفخر الرازي ، وابن كثير ، والألوسي ، ونقل ما قالوه حرفياً^(٣).

٨ - كيف تكون مؤمناً؟ من تفسير الحافظ ابن كثير ، إعداد وتعليق نشأت المصري ، وذلك في ثلاثة أبواب ، واقتبس المادة العلمية لهذه الموضوعات من تفسير ابن كثير الغني القيم عند تفسير الآيات المتعلقة بالإيمان ، وختم الكتاب بكشاف الآيات والأحاديث والأعلام^(٤).

وهذا يدل على أهمية تفسير ابن كثير ، والاقبال عليه ، وسعة انتشاره ، وانتفاع الناس به ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأناله الثواب العظيم ، ونفعنا الله بكتابه وبتفسيره ، والحمد لله رب العالمين.



(١) دار القرآن - الكويت - الطبعة السابعة - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

(٢) مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الثانية - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.

(٣) دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ.

(٤) دار المختار الإسلامي - القاهرة - ١٩٧٧ م.

الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
العز بن عبد السلام	٩
اسم العز ولقبه	١٠
كنية العز ولقبه	١٠
ولادة العز	١١
نشأة العز وتعلمه	١١
شيوخ العز ومعاصروه	١٤
تلاميذ العز وكتبه	١٧
مناصب العز وأعماله	٢٠
صفات العز	٢١
وفاة العز	٢٢
الباجوري شيخ جامع الأزهر	٢٣
الأوزاعي	٣٠
اسم الأوزاعي ونسبه	٣١
ولادته ونشأته	٣٣

٣٥	مكائنه العلميه
٣٦	مذهب الأوزاعي
٣٨	سيرته ومناقبه
٣٩	البهوتي شيخ الحنابلة بمصر
٣٩	اسمه ونسبه
٣٩	ولادته ونشأته
٣٩	علمه
٤٠	عمله وصفاته
٤٠	مؤلفاته
٤٢	وفاته
٤٣	السراج البلقيني
٤٣	اسمه ونسبه
٤٣	ولادته ونشأته
٤٤	علومه
٤٥	عمله في الفتيا والتدريس
٤٦	مؤلفاته
٤٦	وفاته
٤٨	إمام الحرمين الجويني
٤٨	حياة إمام الحرمين
٤٩	تعريف علم أصول الدين
٥١	المبحث الأول: في تحصيل إمام الحرمين لعلم أصول الدين

الموضوع	الصفحة
كتب إمام الحرمين في أصول الدين	٥٦
تقديم آراء إمام الحرمين في أصول الدين	٦٧
أبو عبيد القاسم بن سلام	٧٥
اسمه ونسبه	٧٥
ولادته وتعلمه	٧٦
التأديب والتعليم	٧٦
ولايته للقضاء	٧٧
رحلاته	٧٧
شيوخه وعلومه	٧٨
أخلاقه وشمائله	٧٩
ثناء العلماء عليه	٨٠
كتب أبي عبيد	٨١
وفاته	٨٢
أبو إدريس الخولاني	٨٣
اسمه ونسبه	٨٤
أساتذته وشيوخه	٨٥
تلامذته	٨٦
عبادته وسيرته	٨٧
توليه القضاء	٨٧
قيامه بالوعظ	٨٩
مكحول الشامي	٩٢
اسمه ونسبه	٩٣

الموضوع	الصفحة
رحلته في طلب العلم	٩٤
مكانته العلمية	٩٦
عبادته وزهده	٩٨
شمائله ومواعظه	٩٩
خديجة بنت خويلد	١٠١
تمهيد عن مكانة المرأة المسلمة	١٠١
سيدة الإسلام الأولى	١٠٢
الزوجة المثالية	١٠٣
خديجة أول الناس إسلاماً	١٠٥
فضائل خديجة ومناقبها	١٠٦
إبراهيم الحربي	١١٠
اسمه ونسبه	١١٠
ولادته ووفاته	١١٢
نشأته وتعلمه	١١٢
تلاميذ الحربي	١١٤
كتبه ومصنفاته	١١٥
مكانته العلمية	١١٦
١ - الحربي لغوياً وأديباً	١١٦
٢ - الحربي فقيهاً	١١٨
٣ - الحربي حافظاً ومحدثاً	١٢٠
ثناء العلماء على الحربي	١٢٣
الحربي زاهداً	١٢٥

أقوال الحربي المأثورة	١٢٩
وصف الحربي في الكتب	١٣١
الخاتمة	١٣٢
مساهمة السيوطي بالإفتاء	١٣٦
مقدمة	١٣٦
المبحث الأول: لمحة موجزة عن الفتوى والإفتاء	١٣٧
تعريف الفتوى والإفتاء والمفتي	١٣٧
أهمية الفتوى	١٣٨
حكم الفتوى	١٤٠
شروط المفتي	١٤٢
آداب الفتوى	١٤٤
المبحث الثاني: أهلية السيوطي للفتوى	١٤٧
السيوطي يدرس الفقه	١٤٧
السيوطي يصنف في الفقه	١٤٩
السيوطي يبلغ درجة الاجتهاد	١٥١
توفر شروط الفتوى عند السيوطي	١٥٣
المبحث الثالث: في فتاوى السيوطي	١٥٥
ممارسة السيوطي للفتوى	١٥٥
أهمية كتب الفتاوى	١٥٧
الفتاوى الفقهية للسيوطي	١٥٧
منهج السيوطي في الفتاوى الفقهية	١٥٨
الخاتمة	١٧١

السيوطي والقواعد الفقهية	١٧٥
تمهيد عن حياة السيوطي ومكانته الفقهية	١٧٦
نبذة مختصرة للتعريف بالسيوطي	١٧٦
مكانة السيوطي الفقهية	١٧٨
مصنفات السيوطي في الفقه	١٧٩
السيوطي مجتهداً	١٨١
القسم الأول: دراسة تاريخية وموضوعية للقواعد الفقهية	١٨٣
تعريف الفقه وأهميته	١٨٤
نظرة في تاريخ الفقه	١٨٥
تعريف القواعد الفقهية	١٨٩
الفرق بين القاعدة والضابط	١٩٠
الفرق بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية	١٩٢
القواعد الفقهية والنظريات الفقهية	١٩٧
القواعد الفقهية والفروق الفقهية	١٩٩
القواعد الفقهية والأشباه والنظائر	٢٠٢
أهمية القواعد الفقهية وفوائدها	٢٠٤
حجية القواعد الفقهية	٢٠٧
كتب القواعد الفقهية عند الشافعية	٢٠٨
القسم الثاني: دراسة تحليلية لكتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي ..	٢١٤
الفقه المذهبي	٢١٦
أهمية فن الأشباه والنظائر	٢١٨
الباعث على تصنيف «الأشباه والنظائر»	٢٢٠

مضمون «الأشباه والنظائر» وخطته	٢٢١
منهج السيوطي في «الأشباه والنظائر»	٢٣٧
المآخذ على «الأشباه والنظائر»	٢٤٠
أهمية كتاب «الأشباه والنظائر»	٢٤٣
خاتمة	٢٤٥
البيضاوي فقيهاً وأصولياً	٢٥٢
البيضاوي المشهور المغمور	٢٥٢
القسم الأول: حياة البيضاوي الشخصية	٢٥٧
اسمه ونسبه	٢٥٧
كنيته ولقبه	٢٥٨
ولادته ونشأته	٢٥٩
مكانة البيضاوي	٢٥٩
توليه القضاء	٢٦١
عزل البيضاوي عن القضاء	٢٦٤
شيوخ البيضاوي وتلامذته	٢٦٦
وفاة البيضاوي	٢٦٨
القسم الثاني: حياة البيضاوي العلمية	٢٧٠
تصانيف البيضاوي	٢٧٣
أولاً: البيضاوي فقيهاً	٢٧٥
كتب البيضاوي الفقهية	٢٧٦
ثانياً: البيضاوي أصولياً	٢٨٠
كتب البيضاوي الأصولية	٢٨١

٢٨٩	البيضاوي وبقية العلوم
٢٩٠	خاتمة
٢٩٤	الأشعري والأشعرية
٢٩٤	مقدمة
٢٩٥	أولاً: نشأة الأشعرية
٢٩٩	ثانياً: مبادئ الأشعرية
٣٠٦	ثالثاً: طرق البحث عند الأشعرية
٣٠٩	رابعاً: الخلاف بين الأشعرية والماتريدية
٣١٠	خامساً: أهم مسائل الخلاف
٣١٦	سادساً: مكانة الأشعرية في المجتمع
٣١٨	سابعاً: أبرز رجال الأشعرية
٣٢٢	الخاتمة
٣٢٥	العروبة عند إقبال فكرياً وعقيدة
٣٢٦	تعريف العروبة
٣٢٦	القسم الأول: اللسان العربي عند إقبال
٣٣١	إقبال والعربية
٣٣٣	القسم الثاني: العرق العربي أو الجنس العربي عند إقبال
٣٤٦	القسم الثالث: إقبال والأمة العربية
٣٤٧	العرب قبل الإسلام
٣٤٨	العرب بعد الإسلام
٣٤٨	الدولة العربية الإسلامية
٣٥٠	العرب قدوة الأمم

النكبات التاريخية للعرب	٣٥٢
الإمام الشافعي أديباً وشاعراً وإماماً في اللغة	٣٥٣
اسمه ونسبه	٣٥٣
ولادته ونشأته	٣٥٣
صفاته وكتبه	٣٥٥
تعلم الأدب واللغة	٣٥٦
الشافعي أستاذ في الأدب	٣٥٧
الشافعي إمام في اللغة	٣٥٩
من أقوال الشافعي المأثورة	٣٦٢
الشافعي الشاعر	٣٦٥
مقتطفات من شعر الشافعي	٣٦٨
الطبري فقيهاً ومجتهداً وإماماً	٣٧٦
في مقومات التفكير عند الطبري	٣٧٦
الطبري موسوعة علمية	٣٧٦
الطبري دائرة معارف	٣٧٧
صفات الطبري وشماله	٣٧٩
الطبري يطلب الفقه	٣٨٠
تعريف الفقه وأهميته	٣٨٠
الرحلة في طلب العلم والفقه	٣٨٢
شيوخ الطبري في الفقه	٣٨٤
الطبري إمام في الفقه المقارن	٣٨٥
الطبري فقيهاً شافعيًا	٣٨٦

الموضوع	الصفحة
الطبري مجتهداً مطلقاً	٣٨٩
المذهب الجريفي في الفقه	٣٩٠
أصول المذهب الجريفي	٣٩٣
تلاميذ الطبري وأتباع مذهبه	٣٩٥
أقوال الطبري في الفقه	٣٩٧
كتب الطبري الفقهية	٣٩٩
الإقتراحات	٤٠٥
الطبري مفسراً	٤١١
الغزالي الفقيه	٤٢٨
القسم الأول: الغزالي فقيهاً	٤٢٩
سيرة الغزالي الفقهية	٤٣٠
زملاء الغزالي	٤٣٣
آثار الغزالي الفقهية	٤٣٤
كتب الغزالي الفقهية	٤٣٥
أهمية كتب الغزالي الفقهية	٤٣٧
تلاميذ الغزالي في الفقه	٤٤٠
ثناء العلماء على الغزالي الفقيه	٤٤٥
القسم الثاني: التعريف بكتاب الوجيز	٤٤٦
اسم الكتاب ونسبته إلى الغزالي	٤٤٧
نشر الكتاب وطبعه	٤٤٧
منهج الغزالي في الوجيز	٤٤٨
أسلوب الغزالي في الوجيز	٤٥٠

الموضوع	الصفحة
ترتيب الوجيز	٤٥١
ألفاظ الترجيح	٤٥٤
مكانة الوجيز	٤٦٣
شرح الوجيز	٤٦٥
فتح العزيز في شرح الوجيز	٤٦٨
الخاتمة	٤٧٢
ابن كثير مفسراً	٤٧٦
اسمه ونسبه	٤٧٦
ولادته ونشأته	٤٧٧
شيوخ ابن كثير	٤٧٩
نشاطه العلمي	٤٧٩
كتبه ومصنفاته	٤٨٠
صفاته	٤٨٢
وفاته	٤٨٣
إسهامه في التفسير	٤٨٥
أهمية تفسير ابن كثير	٤٨٦
منهج ابن كثير في تفسيره	٤٨٨
تقويم تفسير ابن كثير	٤٩٥
مختصرات تفسير ابن كثير	٤٩٧
فهرس الموضوعات	٥٠١



